منهج المسعودي في كتابة التاريخ

تأليف

الدكتور سليمان بن عبد الله المديد السويكت
أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي
كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

هذا الكتاب في الأصل أطروحة مقدمة إلى كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي.

وقد تمت مناقشتها مساء السبت ١٤٠٥/٢/١٧هـ الموافق ١٩٨٤/١١/١٠م، وحصل صاحبها على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى.

منهج المسعودي
في
كتابة التاريخ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

المقدمة:

أولاً ـ أهمية الموضوع ٧
ثانياً ـ خطة البحث ١١
ثالثاً ـ دراسة المصادر ١٧

الفصل الأول ـ (المسعودي):
أولاً: عصر المسعودي: ٢٧
(أ) الحياة السياسية ٢٧
(ب) الحياة الثقافية ٣١
ثانياً: حياة المسعودي ٤١
ثالثاً: شيوخ المسعودي في حياته المبكرة ٤٦
رابعاً: رحلات المسعودي: ٥٣
(أ) رحلات المسعودي الأولى ٥٦
(ب) رحلات المسعودي الثانية ٦٣
(ج) بين الشام ومصر ٦٦
خامساً: مذهب المسعودي ٧١

الفصل الثاني ـ (مصنفات المسعودي): ٨١
أولاً: المطبوع ٨٦

ثانياً: المخطوط ١١٠
ثالثاً: المفقود ١٢١
رابعاً: نظرة تقويمية لمؤلفات المسعودي ١٤٩

الفصل الثالث ــ (مصادر المسعودي): ١٥٣
أولاً: الرحلات ١٥٦
ثانياً: العلماء وأهل الخبرة والاختصاص: ١٦٤
(أ) الشيوخ ١٦٤
(ب) العلماء: ١٦٧
ــ علماء مسلمون ١٦٧
ــ علماء غير مسلمين ١٧٠
(ج) أهل الخبرة والاختصاص ١٧٥
ثالثاً: الكتب: ١٨٢
(أ) الكتب المقدسة: ١٨٤
ــ القرآن الكريم ١٨٤
ــ التوراة ١٨٦
ــ الانجيل ١٨٧
(ب) كتب الفلاسفة اليونانيين ١٨٨
(ج) كتب الهيئة (الفلك) والجغرافيا العربية ١٩٤
(د) كتب الاخباريين والمؤرخين ٢٠٤

الفصل الرابع ــ (خصائص كتابة المسعودي التاريخية): ٢٢٩
أولاً: تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين حتى عصر المسعودي ٢٣١
ثانياً: خصائص كتابة المسعودي التاريخية ٢٤٤
(أ) ضوابط صحة المادة العلمية لدى المسعودي ٢٤٤
(ب) طريقة المسعودي في تدوين مادته العلمية ٢٥٠
(ج) التاريخ العالمي عند المسعودي ٢٥٦
(د) مزج المعلومات التاريخية بالجغرافيا ٢٦٢
(هـ) تأثير البيئة والفلك على الانسان وغيره ٢٧١

الموضوع	الصفحة

(و) الجوانب الحضارية في تاريخ المسعودي ٢٧٩
(ز) التمهيد لبعض العلوم الاجتماعية ٢٨٨
ثالثاً: المسعودي والشعر ٢٩٥
رابعاً: أسلوب المسعودي ٣٠١

الفصل الخامس ــ (المسعودي مؤرخاً): ٣٠٥
أولاً: المسعودي وتاريخ ما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة: ٣٠٩
(أ) تاريخ الخليقة والأنبياء ٣١٠
(ب) تاريخ الهند ٣١٣
(ج) تاريخ الصين ٣١٦
(د) الكلدانيون ٣١٩
(هـ) الفرس ٣٢٠
(و) اليونانيون والبيزنطيون والأمم الأوروبية الأخرى ٣٢٦
(ز) شعوب جبل القبخ (القوقاز) والأمم المجاورة ٣٣٣
(ح) مصر والشعوب الأفريقية ٣٣٨
(ط) العرب قبل الإسلام ٣٤٤
ثانياً: التاريخ الإسلامي لدى المسعودي: ٣٥٢
(أ) السيرة النبوية ٣٥٢
(ب) عصر الراشدين ٣٥٥
(ج) العصر الأموي ٣٦٢
(د) العصر العباسي ٣٦٩
(هـ) تاريخ الأندلس ٣٧٩
ثالثاً: الأقليات في تاريخ المسعودي: ٣٨١
(أ) الأقليات المسلمة خارج العالم الإسلامي ٣٨١
(ب) الأقليات غير المسلمة في الوطن الإسلامي ٣٨٨

الفصل السادس ــ (المسعودي في الميزان): ٣٩٥
أولاً: تأثير النزعة المذهبية على كتابات المسعودي ٣٩٧
ثانياً: حياد المسعودي وموضوعيته ٤٠١

الموضوع	الصفحة
ثالثاً: المنهج التحليلي وروح النقد	٤٠٦
رابعاً: الحاسة التاريخية وربط الأحداث	٤١٢
خامساً: التشعب والاستطراد	٤١٧
سادساً: الخرافات والأساطير وموقف المسعودي منها	٤٢١
سابعاً: صفات المؤرخ في المسعودي	٤٣٠
ثامناً: المسعودي في نظر بعض العلماء المسلمين	٤٣٩
تاسعاً: أقوال بعض المستشرقين والكتاب الغربيين في المسعودي	٤٤٥
الخاتمة	٤٥١
المصادر والمراجع:	٤٦٣
أولاً: المصادر القديمة:	٤٦٥
(أ) مصادر عربية مخطوطة	٤٦٥
(ب) مصادر عربية مطبوعة	٤٦٥
ثانياً: المراجع الحديثة:	٤٧٣
(أ) مراجع عربية	٤٧٣
(ب) مراجع أجنبية مترجمة إلى العربية	٤٧٦
(ج) أبحاث ودراسات بالعربية أو مترجمة إليها	٤٧٧
(د) أبحاث ودراسات بالانجليزية	٤٧٩
فهرس الموضوعات	٤٨١



□ □ □

المقَـدمة

أولاً ــ أهمية الموضوع.

ثانياً ــ خطة البحث.

ثالثاً ــ دراسة المصادر.

أولاً:
أهمية الموضوع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن من الأمور الواضحة التي يلحظها الدارس أو المتتبع لمسيرة البحث التاريخي في هذا العصر، أن دراسة الموضوعات العامة والخاصة في التاريخ تحظى بإقبال كبير من قبل الباحثين والدارسين، وذلك لوفرة مصادرها ــ في غالب الأحيان ــ من جانب، ولسهولة البحث فيها وتيسره من جانب آخر. وأما دراسة المناهج التي تقوم على الاستقراء والتحليل والاستنتاج فهي لا تحظى بمثل ذلك القبول ولا بالعدد الكافي من الباحثين، ومن هنا فإن الدراسات في هذا المجال لا زالت قاصرة ومحدودة، وتحتاج إلى مزيد من التشجيع والعناية، لأنه في الحقيقة إذا ما توفر هذا النوع من الدراسات فستتكشف للباحثين كثير من الحقائق والأحداث التاريخية على حقيقتها أو على وجوهها الصحيحة، وعندئذ سيتمكن الباحث المسلم خاصة من الرؤية الواضحة التي تعينه على التقويم والنقد والتقدير الصحيح للأمور ووضع الأشياء في مواضعها، ثم إن النتيجة الأخيرة من ذلك أنه ستتاح إعادة كتابة التاريخ الإسلامي على نهج واضح وسليم، ويومئذ ستتغير كثير من المفاهيم السائدة والمسجلة في بعض كتب التاريخ، ولذلك فإن دراسة مناهج المؤرخين المسلمين ومعرفة خلفيات كتاباتهم تكتسب قدراً كبيراً من الأهمية.

ويعتبر أبو الحسن المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ أحد المؤرخين المسلمين

البارزين، وكان صاحب رحلات وجولات في أقاليم الشرق والغرب والعالم المعروف في عصره، وكان خلال ذلك يستقصي ويدوِّن ما يعرض له وما يشدّ انتباهه وما يلاحظه من عادات وتقاليد ونظم وحضارات الأمم وأحوال الشعوب المختلفة، من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وغيرها، كما انعكس أثر تلك الرحلات على تفكير المسعودي فأصبح واسع الأفق رحب الصدر واضح الرؤية مما أدى به إلى أن ينظر إلى التاريخ نظرة عالمية؛ فيعالج تاريخ الأمم والعالم المعروف في عصره غير مقتصر على كتابة التاريخ الإسلامي فحسب، وإلى جانب ذلك أصبح لديه رصيد وافر من المعرفة الجغرافية والنظريات الجديدة التي بثها في ثنايا كتبه التاريخية، أو التي صحح بها بعض المفاهيم الجغرافية الخاطئة التي كانت سائدة لدى بعض السابقين عليه.

وإضافة إلى ذلك أبدى تصوره الواضح لما تحدثه البيئة والعوامل الطبيعية المختلفة من أثر في حياة الانسان وسلوكه وفكره، وما تحدثه من تأثير مماثل في غير الإنسان أيضاً من حيوان ونبات وجماد.

كما أنه أسهم في دراساته في طرح عدد من الآراء والنظريات الاجتماعية والنفسية التي أصبحت فيما بعد نبراساً استضاء به بعض المفكرين المسلمين الذين ساهموا في تطوير هذه العلوم وإخراجها إلى حيز الوجود.

ومن هنا فإن دراسة منهج المسعودي التاريخي الذي كانت له تلك الميزات تبدو على درجة عالية من الأهمية، لما ستكشفه من خصائص ذلك المنهج، ولما ستوضحه من جوانب مهمة تتعلق بطبيعة كتاباته التاريخية، ومنها على سبيل المثال طبيعة معالجته للتاريخ الإسلامي ومدى حياديته في بحثه وواقعيته في تتبع أحداثه والحكم على رجاله، وذلك للشكوك الكثيرة التي أثيرت حول كتابته عن هذا التاريخ، بحكم ما اشتهر به عند الناس من ميول شيعية وتعاطفات علوية.

وقد خلف المسعودي تراثاً تاريخياً ضخماً أودعه في عدد من المؤلفات التاريخية، ولكنه كان في طريقته وأسلوبه المميز الذي اعتمد فيه على الاحالة والربط بين تلك المؤلفات جعلها تبدو كعمل واحد متكامل، ولكن مع الأسف

الشديد كان مصير كثير من تلك المؤلفات الضياع أو الفقدان، مما جعل القارىء لأي من كتب المسعودي الموجودة الآن يلمس من نفسه رغبة شديدة وملحة في البحث عن تلك المؤلّفات المفقودة، من أجل اكتمال ذلك البناء التاريخي الفذ، وكان هذا أيضاً من الدوافع التي شجعت على دراسة هذا الموضوع من أجل التعرف على ملامح وخصائص منهج المسعودي التاريخي، ومن ثم دراسة ما ينسب إلى هذا الرجل من مصنفات والمقارنة بينها وبين مصنفاته الحقيقية التي لا يوجد منها الآن سوى كتابي مروج الذهب والتنبيه، والأشراف، ولكن الأمل ما زال قائماً في العثور على شيء من مؤلفاته المفقودة، إن شاء الله تعالى.

والواقع أنه كان لذلك الترابط الوثيق بين مصنفات المسعودي أثر كبير عليَّ، إذ وجدتني مدفوعاً إلى السفر إلى بعض البلاد العربية والأجنبية التي توقعت أن أعثر فيها على شيء من تلك المصنفات، فسافرت إلى مصر وبحثت في مكتباتها وقلبت فهارس مخطوطاتها، ثم سافرت إلى فرنسا والنمسا، حيث كنت أجد إشارات من قبل بعض الباحثين بوجود مخطوطات في مكتبات تلك البلدان تنسب إلى المسعودي، فاطلعت هنالك على كل ما استطعت الوصول إليه، ونقبت ودققت في فهارس المخطوطات والمطبوعات، وقد اجتمع لدي عدد لا بأس به من المخطوطات، وتمكنت من الاطلاع على محتويات نسخة خطية لكتاب ينسب إلى المسعودي في مكتبة برلين، وقد درست وقارنت بين جميع المخطوطات التي حصلت عليها في تلك الرحلات وبيّنت مدى صحة نسبتها إلى المسعودي في الفصل المخصص لبحث مصنفاته.

وقد صادفتني أثناء بحث هذا الموضوع بعض الصعوبات والمعوقات، ولكن بفضل الله تعالى تمكنت من اجتيازها والمضي قُدماً في مواصلة البحث؛ ومن تلك الصعوبات الشح في المصادر، إذ لم يصبح أمامي من المصادر الحقيقية التي يمكن الاعتماد عليها سوى كتابي المروج والتنبيه، فعكفت على دراستهما والتدقيق فيهما واستخراج مادة البحث منهما، فتوفر لدي بحمد الله تعالى مادة دسمة مكّنتني من كتابة هذا البحث.

ومن الصعوبات التي واجهتني أيضاً قلة بضاعتي من اللغات الأجنبية التي أستطيع من خلالها الكشف عن ما كتب حول المسعودي في الدوريات والكتب الأجنبية، مما اضطرني للاستعانة بمن يعرف تلك اللغات في القراءة والترجمة لما أحتاجه منها.

وعلى أي حال فقد بذلت في دراسة هذا الموضوع ما استطعت من جهد وأمضيت فيه وقتاً كبيراً، فإن كان فيه شيء من التوفيق لبلوغ القصد فمن الله سبحانه وتعالى، وإن قصر عن ذلك فهي طبيعة الجهد البشري وخاصة لانسان مثلي في بداية خطواته نحو الطريق العلمي.

هذا ولا أخفي أنني وبعد أن قطعت مراحل في دراسة هذا الموضوع وكنت أظن أنني الوحيد في الميدان تبينت أن المسعودي قد حظي بدراسات مستفيضة من قبل بعض الباحثين المحدثين، ولكنها كانت تتناول جوانب مختلفة من فكره وتراثه، ولم يكن بينها دراسة مخصصة لفحص منهجه التاريخي، وهذه الدراسات هي:

- منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، بقلم حسين هادي حمود.

— Al-Masudi and his world, by Ahmad M. H. Shboul.
— Islamic Historiogrpahy, by Tarif Khalidi.

وقد استفدت من هذه الدراسات وأنارت لي بعض الجوانب في حياة المسعودي وفي منهجه، وأحلت إليها في مواضع مختلفة يلحظها الدارس في هذا البحث.

* * *

ثانياً:

خطـــة البحث

هذا وقد قسمت البحث إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة، وكان لا بد لي في الفصل الأول من إلقاء أضواء كافية على شخصية المسعودي والعصر الذي عاش فيه، وما اتسم به ذلك العصر من صراع بين القوى السياسية التي حاولت أن تستبد بالسلطة ويكون لها النفوذ في الخلافة العباسية، فكان ظهور العنصر التركي أولاً ثم ظهور البويهيين.

وقد أصيب العالم الإسلامي في ذلك الوقت بشرخ كبير في جسمه، ووهت قوته وانفرط عقد وحدته، فظهرت دويلات مستقلة منفصلة عن حاضرة الدولة الإسلامية الكبرى، وبرز الطامعون في الزعامة والامارة، وتطلع الأعداء واشرأبّوا للانقضاض على ما جاورهم. وتحدثت عن الحياة الثقافية في ذلك العصر فأوضحت أن ذلك التفكك السياسي الذي أصاب الدولة لم يؤثر على سير الحركة الثقافية والفكرية، بل على العكس كان من الدوافع المشجعة على رقيها وتقدمها، حيث أصبحت هناك مدارس متنافسة في مراكز متعددة، واستعرضت أشهر العلماء الذين ظهروا في تلك الفترة، ثم ترجمت لحياة المسعودي، وتمكنت من خلال مؤلفاته من استخلاص أسماء أشهر الشيوخ الذين تتلمذ عليهم في حياته المبكرة في كل من بغداد والبصرة، ثم تحدثت عن الانقلاب الهام الذي حدث في حياة المسعودي والذي كانت له آثاره القوية بعيدة المدى في حياته وفي سائر أعماله ومؤلفاته، وهو قيامه بالرحلات الواسعة إلى بلاد كثيرة نائية، فتحدثت عن رحلاته الأولى التي قام بها إلى بعض البلاد الفارسية وإلى الهند

وما جاورها وإلى جزيرة زنجبار، ثم تحدثت عن رحلاته الثانية التي جاب بها بقية البلاد الفارسية التي لم يتمكن من زيارتها في المرة الأولى، وأخيراً تحدثت عن زياراته المتكررة لبلاد الشام،واستقراره بمصر في المرحلة الأخيرة من حياته، وفي ختام هذا الفصل استعرضت الآراء التي قيلت حول الانتماء المذهبي للمسعودي وما قيل عن تشيعه واعتزاله، وبينت الرأي الذي أميل إليه مدعماً بالأدلة والشواهد من أقواله.

وخصصت الفصل الثاني لدراسة مصنفات المسعودي، وهو أمر ضروري جداً لحصر تراث المسعودي الفكري ومعرفة الروابط الأساسية بين مؤلفاته، وقد تبين لي أنه ألف كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة، منها ما هو عن المذاهب والملل، ومنها ما هو في الإمامة، ومنها ما يتحدث عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها ما يتحدث عن تجاربه الشخصية، ويأتي في مقدمة كتبه مصنفاته التاريخية.

وقد بحثت هذا الفصل في ثلاث فقرات: الأولى، عن تراثه المطبوع، ودرست فيه كل ما يتعلق بكتابيه المطبوعين المروج والتنبيه، إضافة إلى الكتابين الآخرين المطبوعين والمنسوبين إلى المسعودي وهما أخبار الزمان،وإثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب. وفي الفقرة الثانية كان الحديث عن المخطوطات التي عثرت عليها منسوبة إلى المسعودي. أما الفقرة الثالثة فتناولت فيها الحديث عن كتبه المفقودة فوصفتها وأشرت إلى محتويات كل منها من خلال ما ذكره عنها في كتبه الموجودة الآن، وركزت بصفة خاصة على الكتب ذات الصبغة التاريخية ولا سيما الكتب المشهورة التي أفاض في الحديث عنها، مثل كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة، والكتاب الأوسط، وكتاب فنون المعارف، وكتاب الاستذكار، وفي نهاية الفصل أبديت نظرة تقويمية لمؤلفات المسعودي، وناقشت مسألة تكراره التأليف في موضوع واحد.

وبعد أن تعرفت على مصنفات المسعودي كان لا بد في الفصل الثالث من التعرف على مصادره وموارده التي استقى منها معلوماته، وقد وجدت أنه تحصل

عليها من ثلاثة موارد أساسية، أولها الرحلات، وقد شكلت الرحلات رافداً مهماً من روافد المسعودي وأَضْفَتْ على كتاباته وأحكامه النقدية أصالة وحيوية، واستفاد منها في منهجه التاريخي حيث اكتسب دقة الملاحظة، وكان ينطلق في كثير من أحكامه وملاحظاته من مبدأ المشاهدة والمعاينة المباشرة.

والمورد الثاني من موارد المسعودي هو ما تحصل عليه عن طريق لقائه بالعلماء، وكان قد التقى بعدد من العلماء والمشايخ في شبابه حينما كان مقيماً بالعراق، ثم كان لقاؤه وأحاديثه واستفساراته ومناظراته مع العلماء الذين قابلهم في أثناء رحلاته وتنقلاته بين المدن والأمصار المتعددة، وكان هدفه الحصول على معلومات صحيحة بغض النظر عن مصدرها، حيث كان يتمثل دوماً بالقول المشهور «الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك»[1]، ومن هنا فلم يتردد أن يأخذ من العلماء أيّاً كانت ملتهم، مسلمين أم غير مسلمين، وكان المسعودي إضافة إلى ذلك يثق بأقوال وأخبار أهل الخبرة والاختصاص فلذلك كان ينقل عنهم بعض المعلومات.

أما المورد الثالث الذي استفاد منه المسعودي فهو الكتب، وقد تحدثت بالتفصيل عن الكتب التي رجع إليها المسعودي وأشار إليها في أي من كتابيه الباقيين، وصنفتها حسب موضوعاتها، فذكرت أنه قد رجع إلى الكتب المقدسة وفي مقدمتها القرآن الكريم، ثم التوراة ثم الإنجيل، ثم أشرت إلى تأثره الواضح بالفلسفة ونقله عن مصنفات الفلاسفة اليونانيين وترديده لما قالوه في كتبهم، ثم بعد ذلك أوضحت أنه قد استفاد من المصنفات العربية التي ألفت في علوم الهيئة والفلك والجغرافيا، أما استفادته الكبرى فكانت من الكتب التي صنّفها الاخباريون والمؤرخون، وقد تتبعت جميع إشاراته إلى هؤلاء وبينت الموضوعات التي استفادها منهم أو نقلها عنهم، وسرت في كل ذلك حسب الترتيب الزمني والتاريخي لوفيات أولئك المؤرخين، وكتبت تراجم موجزة لكل منهم.

---

(١) المروج ٤/٣٧٣.

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن الخصائص والميزات التي تميز بها منهج المسعودي التاريخي، وقد احتوى على عدد من الموضوعات، وقبل البدء في بيان مزايا منهج المسعودي رأيت من الضرورة الإلمام بالطرق المتبعة لدى أشهر المؤرخين المسلمين الذين سبقوا المسعودي في كتابة التاريخ، فلذلك عرضت بإيجاز لتطور الكتابة التاريخية عند المسلمين حتى عصر المسعودي، ثم بعد ذلك بدأت في بحث الضوابط العلمية التي اتخذها المسعودي لتحقيق صحة المادة العلمية التي حصل عليها، وأشرت إلى عدد من الضوابط التي استخدمها في هذا المجال، ثم بحثت في الطرق التي سار عليها المسعودي في تدوين معلوماته، وبينت متى كان يستخدم هذا الطريق أو ذاك، ومدى أسبقيته أو أولويته في ذلك، وأشرت إلى منهج خاص انفرد به عن بقية المؤرخين وهو عمل المستخلصات أو جوامع التواريخ ــ كما كان يسميها ــ.

وكان من الخصائص المميزة لكتابة المسعودي التاريخية كتابته في التاريخ العالمي، فلذلك تتبعت ما دوّنه في هذا الصدد، ولاحظت أنه بكتابته لسلسلتين من الكتب التاريخية تناول فيهما التاريخ العالمي قد أوفى على من سبقه من المؤرخين في هذا المجال، وعبّر عن إدراكه الواضح للروح العالمية في التاريخ الإنساني وترابطه الوثيق وتأثير بعضه في بعض.

ثم ناقشت خاصية أخرى من خصائص منهج المسعودي التاريخي وهي مزجه بين المعلومات التاريخية والجغرافية في مصنف واحد، وأردفت ذلك بالحديث عن إدراك المسعودي للعلاقة بين البيئة الطبيعية والفلك وبين الإنسان وغيره من الحيوان والنبات والجماد، وأوردت عدداً من الأمثلة التي تبين مدى صدقه وواقعيته في إدراك تأثر الإنسان وغيره بما حوله، وأوضحت أن بحث هذه القضايا من قبل المسعودي يشكل نوعاً من التجديد في المنهج التاريخي الذي كان يعتمد بصورة أساسية لدى غيره من المؤرخين على سرد الأحداث السياسية بطرق جافة مملة.

ثم تحدثت عن الجوانب الحضارية في تاريخ المسعودي، وهي خاصية مميزة وواضحة في منهج المسعودي التاريخي يلحظها الدارس باستمرار، فيجد إشارات

عن القيم الدينية والمبادىء العقائدية، كما يجد لمحات عن النواحي الاجتماعية، ويجد اهتماماً ملحوظاً بكل أمر غريب من العادات والتقاليد والطبائع والشيم والأخلاق، ويجد أخباراً تتعلق بالشؤون الثقافية والاقتصادية لكل أمة من الأمم عالج المسعودي تاريخها، وقد أوضحنا كل ذلك بالأمثلة الحية من كتبه الموجودة. وكان من الخصائص البارزة في منهج المسعودي التاريخي اهتمامه بالدراسات المتصلة ببعض العلوم الاجتماعية، وربطه بصورة مجملة بينها وبين علم التاريخ.

ثم تحدثت عن استخدام المسعودي للشعر واستعانته به في تدعيم مصادره وإيضاح بعض الحقائق التاريخية، وفي دعم وإثبات الآراء التي كان يميل إليها أو آرائه الخاصة واستشهاده به في إيضاح بعض المعتقدات الخرافية أو تفنيدها، وأدرجت الأمثلة على ذلك كله، وفي ختام هذا الفصل ألقيت بعض الأضواء على أسلوب المسعودي وطريقته الكتابية، وبينت أي الأساليب كان أقرب إلى نفسه، وأهم الصفات التي كانت تميز أسلوبه، واتضح من خلال دراسة هذا الفصل أن المسعودي كان ذا منهج متميز لم يعتمد فيه على سرد الأحداث وروايتها بالطريقة التقليدية، بل حاول أن يدخل عناصر جديدة في منهجه جعلته يتسم بالحيوية والشمول والتعبير الصادق في مجال البحث التاريخي.

ومن أجل أن أقف على الخصائص المميزة في كتابة المسعودي التاريخية التي ركزنا عليها في الفصل الرابع رأيت أن أجعل الحديث في الفصل الذي يليه استعراضاً عاماً لتاريخ المسعودي للأمم القديمة والمعاصرة وللتاريخ الإسلامي، وهدفت من ذلك إلى الكشف عن مدى وجود تلك الخصائص في منهجه التاريخي لمختلف الأمم سواء أكانت إسلامية أم غير إسلامية، ولمختلف الطوائف والأقليات سواء أكانت مسلمة تعيش بين الكفار أم كانت غير مسلمة تعيش بين ظهراني المسلمين، وقد تتبعت في مجال تاريخه لما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة أحاديثه عن المبدأ والخليقة والأنبياء، ثم تاريخه للهند والصين ثم الكلدانيين فالفرس ثم اليونانيين والبيزنطيين ومن جاورهم من الأمم الأوروبية. ثم تاريخه للشعوب التي تقطن في نطاق جبال القوقاز، وحديثه عن مصر والشعوب

الأفريقية، ثم تاريخه عن العرب قبل ظهور الإسلام، وفي مجال كتابته عن التاريخ الإسلامي سقنا تاريخه للسيرة النبوية ثم لعصر الراشدين والأمويين ثم العباسيين، وقد أوردنا نماذج من اهتماماته بالتاريخ الإسلامي في الأندلس. وركزنا بصورة واضحة على كتابة المسعودي عن الأقليات واهتمامه بتدوين أخبارها وتتبع نشاطها وتحركاتها.

وفي كل ما تقدم كانت الإشارات والملاحظات على كتابات المسعودي التاريخية والتنبيه على وجود الخصائص التي سبق الحديث عنها يتوالى باستمرار.

وكان الفصل السادس والأخير وهو المسعودي في الميزان مخصصاً للحكم عليه، فتناولت فيه مدى تأثير نزعة المسعودي المذهبية على كتاباته في التاريخ الإسلامي، ومدى حياده وموضوعيته في بحث تاريخ غير المسلمين، ثم درست منهجه في التحليل والنقد، ومدى صدق حاسته التاريخية ومقدرته على الربط بين الأحداث، وناقشت مسألة التشعب والاستطراد في مؤلفات المسعودي، ثم اتبعت ذلك بإيضاح موقف المسعودي من الخرافات والأساطير التي دونها في كتبه وهل كان مؤيداً لها ومقتنعاً بها؟ أم كان هدفه الرد عليها وبيان زيفها وبطلانها؟.

ثم تحدثت في هذا الفصل أيضاً عن بعض الصفات الأساسية الهامة للمؤرخ، وعن مدى توفرها في المسعودي، ورأيت من خلال المناقشة والاستعراض أنه كان يتمثل فيه أكثرها وأنه كان يفتقر إلى بعضها.

وأدركت أخيراً أنه لا بد من النظر إلى المسعودي من خلال ما كتبه عنه العلماء المسلمون، وما كتبه عنه المستشرقون والكتّاب الغربيون، وبذلك ختمت هذا الفصل.

وفي خاتمة البحث كان استعراض أهم النتائج التي توصلت إليها من دراسة هذا الموضوع.

* * *

ثالثـاً:

دراسة المصادر

من الأمور البدهية لمن يقوم بدراسة موضوع كموضوع هذه الرسالة أن لا يتوقع انتشار مادته العلمية في نطاق واسع من المصادر الأولية، وذلك لأن هذه الدراسات لم تظهر إلا في عصور متأخرة، ومن هنا فإن المصادر المعتبرة التي قامت عليها دراسة هذا الموضوع هي كتب المسعودي نفسه، ويُعدُّ كتابا مروج الذهب والتنبيه ــ وهما الكتابان الوحيدان الموجودان اللذان صحت نسبتهما للمسعودي ــ المصدرَ الحقيقي والأساس القوي الذي بنيت عليه هذه الدراسة، فمنهما كان استخراج المعلومات، واستخلاص النتائج، واستنباط الأفكار، وبناء الأحكام والملاحظات، ولذلك سيُلاحظ تردد اسميهما خلال فصول الرسالة بصفة مستمرة.

ومن حسن الحظ أن المسعودي كان قد أولى هذين الكتابين عناية خاصة واهتم بهما اهتماماً كبيراً من بين كتبه التاريخية التي ألفها، وذلك بقيامه بتنقيحهما ومراجعتهما والزيادة فيهما بعد تأليفهما، ومن أجل هذا فإنهما يعبران أصدق تعبير عن فكره، ويعتبران نموذجاً حياً صادقاً يوضح اهتماماته العلمية واتجاهات تفكيره ومنهجه. وقد كتبتُ دراسة موسعة عن كل من هذين الكتابين حين دراسة مصنفات المسعودي المطبوعة فيمكن الرجوع إليهما لمعرفة كل ما يتعلق بهما من تفصيلات.

أما المصادر الأخرى غير المسعودية فقد راجعت عدداً وافراً منها، وسأكتفي بالإشارة إلى أهمها:

فمنها المؤلفات التاريخية لعدد من المؤرخين الكبار كخليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ) في كتابيه الطبقات وتاريخ خليفة، وابن قتيبة (ت ٢٧٠هـ)، وكتابه المعارف، والبلاذري (ت ٢٧٩هـ)، في كتابيه فتوح البلدان وأنساب الأشراف، وأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) صاحب الأخبار الطوال، واليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) وكتابه المعروف بتاريخ اليعقوبي، وأبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) وكتابه تاريخ الرسل والملوك ـ وكانت تلك المؤلفات[1] المصادر الأولى التي رجعت إليها حين استعراض الخصائص المميزة لمناهج مؤلفيها، ومعرفة نقاط الاختلاف والاتفاق بينهم وبين المسعودي في مجال الكتابة التاريخية.

أما مؤلفات عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وأهمها كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، وهذان الكتابان من أهم كتب الجاحظ التي رجع إليها المسعودي واستفاد بها ونقل منها فقرات كاملة في كتبه، فقد رجعت إليها عند مطابقة تلك النقول، ومحاولة التعرف على أسلوب الجاحظ وطريقته في كتاباته حيث كان المسعودي يبدو واضح التأثر به كثير الإشادة بتصنيفاته.

ويحتل كتاب الفهرست لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم (ت ٤٣٨هـ) مكانة بارزة بين المصنفات التي رجعت إليها، فقد كان خير معين ـ بعد الله ـ في الكشف عن تراجم أعداد كبيرة من العلماء والمؤلفين، وتعتبر الترجمة التي كتبها ابن النديم عن المسعودي ـ على قصرها ـ من أقدم التراجم التي دونت عنه، وإن كانت لا تحتوي على معلومات جديدة تضفي أضواء كافية على حياة مؤرخنا، إلا أنها قد أثارت عدداً من التساؤلات عن موطنه وبلده وأصل نشأته.

وعلى الرغم من أن الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) صاحب كتاب تاريخ بغداد لم يورد في كتابه هذا ترجمة للمسعودي مع أنه كان قد ولد بها، وأمضى فيها شطراً من عمره، وزارها بعد أن رحل عنها عدة مرات، وكان قريب العهد

---

(١) يجد القارىء لهذا البحث دراسة لتلك المصادر ومناهج مؤلفيها في الفصل الرابع، ص ٢٣٢ وما بعدها.

من عصر المؤلف[1]. أقول على الرغم من ذلك فقد رجعت إلى كتاب تاريخ بغداد وهو كتاب ضخم يشتمل على تراجم العلماء والوجهاء من أهل بغداد أو ممن ارتادها، وذلك للوقوف على تراجم عدد من العلماء الذين ذكرهم المسعودي سواء أكانوا من شيوخه ومن أخذ عنهم العلم أم كانوا غير ذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة لرجوعي إلى كتاب طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى (ت ٥٢٦هـ)، فقد استفدت منه في مجال تراجم العلماء والتعريف بهم.

أما القاضي أبو بكر بن العربي (المتوفى ٥٤٣هـ) فقد رجعت إلى الجزء الخاص من كتابه العواصم من القواصم الذي يتعلق بتحقيق مواقف الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستفدت منه ومن التعليقات المضافة إليه عند معارضة أحكام المسعودي على بعض الصحابة الكرام، وعلى طائفة من رجال الحكم الأموي والعباسي.

وقد أفادتني مؤلفات أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ)، وخاصة كتابه المترجم بـ«إرشاد الأريب في معرفة الأديب» أو كما يسمى اختصاراً بـ معجم الأدباء، وكان رجوعي إليه مستمراً للكشف عن تراجم العلماء الذين ورد ذكرهم لدى المسعودي، كما أنه كان يحتوي على ترجمة للمسعودي تعتبر من أوفى ما كتب عنه، وكانت آراء المؤلف الخاصة التي سجلها في هذه الترجمة تدل على سعة تفكيره ودقة ملاحظته.

وقد سلك أبو العباس أحمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ) مسلك الخطيب البغدادي في عدم الترجمة للمسعودي مع أنه كان أحد المصادر المعتمدة لدى ابن خلكان في كتابه المعروف وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ونقل عنه مرات عديدة، وقد أفاد هذا الكتاب في الترجمة لعدد من الأعيان والعلماء الذين تحدث عنهم المسعودي.

---

(١) كان شرط المؤلف لمن أراد ذكر ترجمته: أن يكون من أهلها أو ممن ورد إليها من غيرهم.

وكانت مصنفات الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) من الكتب المهمة التي رجعت إليها واستفدت منها، ولا سيما كتابه سير أعلام النبلاء الذي احتوى على ترجمة مفيدة للمسعودي، وساعد كثيراً في تحقيق شخصيات الأعلام والمؤلفين الذين استقى منهم المسعودي مادته العلمية.

وقد استدرك محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) على ابن خلكان فترجم في كتابه فوات الوفيات للمسعودي، ومع أنه نقل عن الذهبي أكثر المعلومات المتصلة بشخصيته إلا أنه ذكر مجملاً لمصنفاته أفاد في التعرف عليها.

ومن المصادر المهمة التي أفادتني كثيراً كتاب طبقات الشافعية الكبرى لمؤلفه الإمام تاج الدين عبدالوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ) وهو سفر نافع احتوى على تراجم قيمة لأعداد كبيرة من العلماء، وكانت ترجمة المسعودي المدونة في هذا الكتاب من أهم التراجم التي كتبت عنه، فقد كشف المؤلف عن عدد من شيوخ المسعودي الذين تلقى على أيديهم في صباه حينما كان في بغداد ثم البصرة، كما كشف عن إحدى الرسائل الخاصة التي علقها المسعودي عن شيخه أبي العباس ابن سريج في مرضه الذي مات فيه وهي رسالة البيان عن أصول الأحكام، ويعتبر السبكي المؤلف الوحيد الذي أشار إلى هذه الرسالة من مصنفات المسعودي.

ويعتبر كتاب البداية والنهاية للحافظ عمادالدين إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) من الكتب التاريخية المهمة التي يرجع إليها في تحقيق كثير من أحداث التاريخ الإسلامي والحكم على رجاله، وقد استفدت منه عند مقارنة ما كتبه المسعودي عن بعض الصحابة الكرام وما كتبه عن بعض الخلفاء الأمويين، واطلعت من خلاله على دلائل تثبت خلاف ما ذكره المسعودي عنهم.

ومن المؤرخين العظام الذين استفدت من كتاباتهم عن المسعودي المؤرخ المعروف عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) وخاصة ما كتبه في مقدمته، حيث أنه كشف فيها عن منزلة المسعودي ومكانته بين المؤرخين، وتعقب كثيراً من الخرافات التي ذكرها المسعودي في كتبه ــ تعقبها بالدراسة

والتحليل والإيضاح عن جوانب الخلل والانحراف عن جادة الصواب والبعد عن الواقع، وتبين لنا من خلال ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن المسعودي أنه كان يحتل مكانة مرموقة، وأنه كان ذا عقلية مستوعبة جبارة، استقطبت اهتمام هذا العالم الجليل.

أما كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والمعروف بـ الخطط المقريزية، لمؤلفه تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ) فقد كان من أهم المصادر التي رجعت إليها واستفدت منها في تحقيق الكثير من القضايا والمعلومات، وعرفت من خلاله أن بعض مصنفات المسعودي المفقودة الآن كانت موجودة في القرن- التاسع الهجري أي في عصر المقريزي، وأنها لم تكن مفقودة في عصر مبكر كما يظن بعض الباحثين، ومن أهمها بالطبع كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة، فقد كان معروفاً للمقريزي ونقل عنه مباشرة العديد من الصفحات، وكذلك كتاب مروج الذهب النسخة المعدلة والمؤلفة سنة ٣٤٥هـ. ونتيجةً لذلك فإن الأمل يتضاعف لدينا أكثر من ذي قبل في العثور على أحد تلك المصنفات المطمورة في بعض زوايا الجهل أو الإهمال.

ولا يمكن تجاهل الفائدة التي حصلت عليها من كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) وذلك في مجال الترجمة لعدد وافر من المؤرخين والأعلام.

ولا يفوتني الإشارة إلى مصنفات كل من العالم مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) ومصنفه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، والعالم إسماعيل باشا بن محمد بن مير سليم المشهور بالبغدادي (المتوفى سنة ١٣٣٩هـ) ومصنفيه المشهورين إيضاح المكنون في الذيل عن كشف الظنون، وهدية العارفين. وقد استفدت من تلك الكتب جميعها في مراجعة أسماء بعض مصنفات المسعودي، وفي الترجمة له.

كما لا تفوت الإشارة أيضاً إلى بعض مصنفات المؤلفين الشيعة القدماء

والمحدثين منهم، ومنها كتاب الرجال لأحمد بن علي النجاشي، وكتاب منتهى المقال لأبي علي المازندراني، وتنقيح المقال للمامقاني، وروضات الجنات للخوانساري، وأعيان الشيعة للعاملي. فقد استفدت منها في معرفة آراء الشيعة التي تتعلق بالمسعودي وانتمائه المذهبي.

هذا ولا يمكن إخفاء الفائدة التي تحصلت عليها من بعض الدراسات الحديثة التي كتبت عن المسعودي سواء أكانت مخصصة له أو كان يذكر فيها إلى جانب غيره من المؤرخين، فقد استفدت منها، وأوضحت لي بعض الجوانب من فكره ومنهجه. وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أهم تلك الدراسات وهي:

- البحوث المقدمة عن المسعودي بمناسبة الاحتفال بعيده الألفي إلى المؤتمر المعقود بهذه المناسبة في جامعة عليكره بالهند، والتي قام بطبعها والعناية بها مقبول أحمد، وهي بعنوان:

Al-Masudi Millenary Commemoration Volume.

- أحمد شبول وبحثه .... Al-Masudi and his World,
- طريف الخالدي وبحثه .... Islamic Historiography,
- هادي حسين حمود وبحثه، منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية.
- الدكتور علي حسني الخربوطلي، في كتابه المسعودي، وبحثه عن الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي.
- الدكتور جواد علي، موارد تاريخ المسعودي.
- د. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون.
- د. سيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب.
- روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين.
- أما كتاب المسعودي مؤرخاً، للأستاذ عبدالرحمن حسين العزاوي، فهو وإن كان ذا صلة قريبة بالموضوع إلا أنني لم أطلع عليه إلا بعد أن أكملت كتابة هذا البحث، ومع ذلك فلم أجد فيه أشياء جديدة تختلف كثيراً عما توصلت إليه في هذا البحث من نتائج.

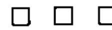
* * *

وفي نهاية التقديم لهـذا البحث لا يفوتني أن أزجي خـالص شكري وتقديري لأستاذي الكبير الدكتور حامد غنيم أبو سعيد الذي تفضل بالإشراف على هذه الرسالة وكان إلى جانبـي خلال مراحل إعدادها، فكان نعم الموجه والمرشد، وقد استفدت من ملاحظاته وتوجيهاته القيمة التي كان يبديها لي، فجزاه الله تعالى خير الجزاء ووفقه إلى ما يحبه ويرضاه.

كما أحب أن أقدم خالص التقدير والامتنان لأساتذتي أعضاء قسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية، وأخص بالذكر منهم الدكتور مصطفى مسعد الذي أفادني بتوجيهاته اللطيفة وأمدني ببعض المراجع، والدكتور علي الخربوطلي الذي لم يبخل علي بالإفادة والمشورة، والدكتور علي الغمراوي الذي أمضى معي بعض الليالي ساهراً في تحقيق بعض الأسماء الإغريقية القديمة، كـما أشكر صديقي الأستاذ محمد بن صالح الفالح الذي ساعدني في ترجمة بعض المراجع الأجنبية.

وأخيراً أشكر الأساتذة الكرام الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة وتقويمها.

وأسأل الله تعالى أن يوفق الجميع لطاعته ومرضاته، إنه نعم المولى ونعم النصير.



الفصل الأول

المَسْعُودي

أولاً : عصر المسعودي .

ثانياً : حياة المسعودي .

ثالثاً : شيوخ المسعودي .

رابعاً : رحلات المسعودي .

خامساً: مذهب المسعودي .

أولاً :

عصـــر المسعودي

(أ) الحياة السياسية :

ولد أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ثم توفي في الفسطاط سنة ٣٤٦هـ.

وقد تميز العصر الذي عاش فيه المسعودي وهو العصر العباسي الثاني بظهور عناصر غير عربية تعاظم نفوذها واستبدت بالسلطة دون الخلفاء العباسيين؛ فظهر أولاً العنصر التركي، وكان الخليفة المأمون هو أول خليفة عباسي استخدمهم، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم، واستعان بهم في الشؤون السياسية والحربية، فأغدق عليهم الأموال وألبسهم الملابس الفاخرة من الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة، وميزهم عن سائر جنوده[1]، حتى أنهم بلغوا في عهده بضعة عشر ألفاً[2]، واضطر بسبب كثرتهم وإيذائهم لعامة الناس ببغداد أن يتركها ويبني مدينة جديدة ليتخذها سكناً له مع هؤلاء الأجناد وهي مدينة سامراء[3].

---

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب، طبعة بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي، عني بتحقيقها شارل بلا، (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦ ـ ١٩٧٩م)، ج ٤ ص ٣٥٠، وسنشير إلى هذا الكتاب فيما بعد بـ : المروج.

(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، الطبعة الرابعة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م)، ص ٣٣٥.

(٣) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، انظر: المروج ٣٥١/٤.

واستمر نفوذ الأتراك في ازدياد وقوة حتى هيمنوا على الخلفاء العباسيين آخر الأمر وصارت السلطة الحقيقية في أيديهم لا سيما بعد قتلهم للخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ، ولم يصبح للخلفاء العباسيين بعد هذا سوى سلطة اسمية ضعيفة تتمثل في ضرب السكة بأسمائهم والدعاء لهم في الخطب[١]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم صاروا مصدر قلق واضطراب في الدولة الإسلامية، فكانوا يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس، وتعصب كل فريق منهم لقائد معين، وهم كثيرو الطمع في الأموال فلا يشبعون[٢]. وامتد شرهم إلى الخلفاء فصاروا يولون من يأنسون فيه الضعف والانصياع لمشيئتهم ويعزلون من يلمسون منه القدرة على مباشرة الأمر بنفسه، أو يدبرون مؤامرة لاغتياله، فأصاب الخلافة والناس منهم شر كثير.

وهكذا ولد المسعودي ونشأ في هذه الأجواء المشحونة بالتنافر والاختلاف.

ولم يكن قدوم بني بويه إلى بغداد في سنة ٣٣٤هـ واستيلاؤهم على زمام السلطة فيها بدلاً من الأتراك ليغير من ذلك الواقع المؤلم شيئاً، بل إن الأمر ازداد سوءاً بسبب تشيع هؤلاء القوم وحقدهم على الخلفاء العباسيين السنيين، حتى أن المؤرخ ابن الأثير حينما وصف حال الخلافة العباسية في ذلك الوقت قال: «وازداد أمر الخلافة إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يراجعون ويأخذون أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة[٣] زال ذلك جميعه، بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير، إنما كان له

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، طبعة ليدن (تصوير مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥م، ص ٤٠٠، وسنشير إليه فيما بعد بـ: التنبيه.

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م)، ج ١ ص ١٠.

(٣) هو أحمد بن بويه من الديلم، كان هو وإخوته جنوداً مغامرين من أصل فارسي، استطاعوا أن يحكموا بلاد فارس والري وهمذان وأصبهان وبلاد الجبل، وقد استدعي أحمد إلى بغداد حين ساءت الحال في عهد الخليفة المستكفي، فوصلها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤، حيث قابله الخليفة =

كاتب يدير إقطاعاته وإخراجاته لا غير، وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة»[١].

وقد فكر معز الدولة في نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين، ولكنه عدل عن هذه الفكرة حين قيل له: «ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»[٢].

ويتضح لنا من هذا النص أن البويهيين كان هدفهم سياسياً في المرتبة الأولى، ولهذا فإنهم بمجرد أن وصلوا إلى بغداد ومكنوا لأنفسهم تنكروا للخلفاء العباسيين وعاملوهم معاملة سيئة واعتدوا على أملاكهم وضيقوا عليهم، حتى أنهم صاروا يزاحمونهم في المظاهر والألقاب والخطبة وأصبحت أسماؤهم تنقش على الدراهم والدنانير[٣].

ومنذ أن بدأ الأتراك يستأثرون بالسلطة في العراق دون الخلفاء العباسيين

= واحتفى به وخلع عليه ومنحه إمرة الأمراء ولقبه بمعز الدولة، وبهذا دخلت العراق تحت حكم البويهيين.

انظر: شمس الدين أحمد بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بتحقيق د. إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، بدون تاريخ)، ج ١ ص ١٧٤. وسنشير إلى هذا الكتاب فيما بعد بـ: وفيات الأعيان.

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير: الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م)، ج ٦ ص ٣١٥، وسنشير إلى هذا الكتاب فيما بعد بـ: الكامل.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٣١٥/٦.

(٣) المصدر السابق ١٦/٨، وانظر: أبا العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (القاهرة: طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بدون تاريخ)، ج ٤ ص ٢٦٨؛ والسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٠٦ ــ ٤٠٧.

ويسلبونهم كثيراً من الخصائص التي كانت لهم أخذت هيبة السلطان تضعف في النفوس، وتطلع الأمراء والقواد إلى الاستقلال بولاياتهم والانفراد بحكمهم، وقد تحقق لهم ذلك، فأصيب العالم الإسلامي بانقسام كبير حتى كأنه عقد انفرط أو صخرة تفتتت[1].

وقد لاحظ المسعودي ذلك الانقسام وحز في نفسه وآلمه فشبه حال المسلمين في ذلك الوقت بحال ملوك الطوائف بعد قتل الاسكندر المقدوني ملك بابل، قال: «ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطيع ومذاهبهم إذ كانوا كالمولى عليهم، لا أمر ينفذ لهم، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلبون، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم، وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة، وما أشبه أمور الناس في الوقت إلا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الاسكندر بن فيلبس الملك داريوش وهو دارا بن دارا ملك بابل، إلى ظهور أردشير بن بابك الملك، كل قد غلب على صقعه يحامي عنه ويطلب الازدياد إليه، مع قلة العمارة وانقطاع السبل وخراب كثير من البلاد وذهاب الأطراف وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه»[2].

ولو دققنا النظر في حال أقاليم العالم الإسلامي في تلك الفترة لوجدناها فعلاً قد تغلب عليها أمراؤها وولاتها ووهىٰ رباطها بحاضرة الخلافة بغداد؛ فعلى سبيل المثال نجد البصرة قد تغلب عليها ابن رائق، وفارس استولى عليها علي بن بويه الديلمي، وأخوه الحسن بن بويه استولى على أصبهان والجبل والري، وكانت كرمان في يد محمد بن إلياس، أما الحمدانيون فقد بسطوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وربيعة وديار مضر، وانفرد الأخشيديون بحكم بلاد مصر والشام، وكانت المغرب وافريقية في يد الفاطميين، والبحرين واليمامة

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/٢.

(٢) التنبيه، ص ٤٠٠.

وهجر في يد القرامطة، أما خراسان وما وراء النهر فتغلب عليها السامانيون، وطبرستان وجرجان تغلب عليها الديلم، وخوزستان أصبحت بيد البريدي، ولم يبق للخلافة العباسية سوى بغداد وما حولها، وحتى هذه كانت تحكم اسمياً فحسب، وليس هناك سيطرة فعلية عليها[1].

كان ذلك وصفاً مجملاً للحياة السياسية في عصر المسعودي، ومن خلاله يمكن أن نفهم حكم المسعودي على تلك الأوضاع التي عايشها، وعلى الخلفاء الذين عاصرهم ومن ثم نتلمس في هذه الأجواء سبباً لرحلته المبكرة وهو في ريعان شبابه عن بغداد حاضرة الخلافة الإسلامية.

(ب) الحياة الثقافية:

أما الناحية الثقافية في ذلك العصر وهو النصف الأخير من القرن الثالث والقرن الرابع الهجري، حيث عاش المسعودي، فقد بلغت أوج مجدها وعزها وتميزت بميزات ومظاهر كان لها دور كبير في دفع الحركة الفكرية إلى الأمام وطبع العلماء بطابعها، ومن أبرز تلك المظاهر اتساع نظرة الناس وتشبعهم بروح الأمة الإسلامية، وتخفف العلماء خاصة من أنانية التعصب للعرق والأصل والعشيرة، وأصبح هناك دار إسلام ودار حرب، وصار أكثر العلماء ينتمون إلى بلادهم أو مدنهم التي ظهروا فيها، وقد أدى هذا الأمر إلى سفر العلماء من قطر إلى آخر يشجعهم على ذلك ما يجدونه من تسهيلات وخدمات[2].

وهناك ميزة أخرى برزت في ذلك العصر، وهي تلك الموسوعية التي اتصف بها العلماء وعدم قصر اهتمامهم على علم دون آخر، فتجد شخصاً عالماً بالتفسير والفقه والحديث واللغة إلى جانب بروزه في التاريخ والجغرافيا وعلوم

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢٥٤/٦ ــ ٢٥٥؛ وانظر: عمادالدين إسماعيل أبا الفداء: المختصر في أخبار البشر، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون تاريخ)، ج ١ ص ٨٤.

(٢) راجع د. علي الخربوطلي: المسعودي (سلسلة توابغ الفكر العربي)، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف)، ص ١٧ وما بعدها.

الفلك وغير ذلك، وقد أدى هذا الأمر إلى اتساع أفق العلماء ونظرتهم الشاملة للأشياء وتحسسهم للروابط الدقيقة التي تجمع بين العلوم.

هذا إضافة إلى أنه قد تم أيضاً ذلك التلاقح والامتزاج الثقافي بين حضارة الإسلام وعلومه وبين حضارة وعلوم الأمم الأخرى القديمة، وذلك بعد نشاط حركة الترجمة ـ في العصر الذي قبله ـ من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية لمختلف العلوم خاصة في مجالات الطب والفلك وعلوم الطبيعة والرياضيات وسائر أبواب الفلسفة، وقد عكف العلماء المسلمون على دراسة العلوم المترجمة والنظر فيها حتى تم لهم إدراكها وهضمها جيداً، ومن ثم قاموا بشرحها وتحليلها، ثم الرد والزيادة عليها، «وقد لاقت تلك الزيادات التي أصبحت من صلب المادة ترحيباً عظيماً»(١).

كما صهرت الفتوحات الإسلامية ولأول مرة حضارات البحر المتوسط وإيران وآسيا الوسطى في مجتمع واحد، وتقدم العرب نحو الهند والصين، حيث فتح الطريق لتأثيرات جديدة مثمرة من حضارات الشرق الأقصى، فمن الهند جاء علم الرياضيات، ومن الصين جاء الورق، ولا يمكن أن ينكر ما لهذه الأشياء من أهمية في التحضير للنهضة الإسلامية(٢).

ومن أشهر الفلاسفة اليونانيين الذين تم نقل مؤلفاتهم أو بعضها إلى اللغة العربية وحظيت باهتمام كبير من جانب العلماء والفلاسفة المسلمين، وكان لها صداها في كتب المسعودي مؤلفات أفلاطون (Plato) ومنها كتابه السياسة المدنية(٣)، وأرسطاطاليس (Aristotle) صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة(٤)،

---

(١) دي لاس أوليري: الفكر العربي ومركزه في التاريخ، نقله إلى العربية إسماعيل البيطار، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب اللبناني الجديد، ١٩٧٢م)، ص ٩٦.

(٢) Bernard Lewis: «Masudi the muslim renaissance», Al-Masudi Millenary Commemoration Volume, first Published, (Aligarh Muslim University 1960), p. 135.

وسنرمز إلى هذا الكتاب فيما بعد بـ: (MMCV).

(٣) المسعودي: المروج ٢/٣١٧؛ والتنبيه، ص ١١٨.

(٤) المروج ٢/٩؛ والتنبيه، ص ٨.

وبطليموس (Ptolemaeus) صاحب كتاب المجسطي (Megiste) والزيج[1]، وجالينوس (Galen) تاج الأطباء وإمامهم في عصره، والمفسر لكتب أبقراط (Hippocrates) في الطب[2]، وسقراط (Socrates) تلميذ آرسيلاوس (Archilaus)[3]، وأنبدقليس (Empedocles) صاحب الكتاب الكبير[4]، وفرفوريوس (Porphyry)[5]، وثامسطيوس (Themistius)[6]، ومارينوس (Marinus) صاحب كتاب جغرافيا[7] وغيرهم.

ومن الطريف في الأمر أن ذلك التفكك السياسي الذي منيت به الدولة العباسية في عصر نفوذ الأتراك وبني بويه، وما نتج عن ذلك من سلب الخلفاء العباسيين الكثير من سلطاتهم والاستهانة بهم، ثم تحلل أجزاء الخلافة الإسلامية حين طمع الولاة والأمراء بما تحت أيديهم من أعمال فأسسوا لهم امارات مستقلة لا تخضع لبغداد إلا اسماً، أقول: إن ذلك التفكك وإن أضعف جانب الأمة الإسلامية وحفز همم الأمم الحاقدة عليها والمتربصة بها للانقضاض عليها وتقليم أطرافها، إلا أنه مع ذلك لم ينجر تأثيره على الحياة الثقافية في ذلك العصر، بل على العكس أصبح حافزاً للعلماء والأدباء على الإنتاج والابتكار حين انتشرت وكثرت مراكز العلم والحضارة، وحينما كانت بغداد في ظل الخلافة القوية الموحدة هي المركز العلمي الوحيد الذي من خلاله يستطيع العالم أن ينفذ إلى أبواب الشهرة والمجد أصبحت عواصم الأقطار والأقاليم المستقلة تتبارى في تكريم العلماء واحتضانهم، وأخذ كل أمير يحاول بشتى الوسائل اجتذاب العلماء وإجزال العطايا لهم حتى أن ذلك أصبح مصدر فخر واعتزاز لهم مع الأقطار الأخرى المجاورة، وصاروا يتفاخرون بذلك ويتباهون به «كما يتفاخرون بعظمة

(١) المروج ٢/٣٣٦، ٣٥٩.
(٢) التنبيه، ص ١٣١.
(٣) المصدر السابق، ص ١٢١؛ والمروج ٢/٩.
(٤) المروج ٢/٣٥٥.
(٥) المصدر السابق ٢/٣٦٣.
(٦) التنبيه، ص ٨.
(٧) المصدر السابق، ص ٣٣.

الجند وعظمة المباني، فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لها مراكز هامة متعددة، وأصبح علماء مصر ــ مثلاً ــ يساجلون علماء بغداد، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق، وهذا من غير شك يشجع الحركة العلمية ويقويها ويرقيها»[1].

وقد برزت في ذلك العصر نهضة علمية مباركة ونشاط ثقافي ضخم، وذلك مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية ووفرة خيراتها ورواج تجارتها وإقبال الناس على طلب العلم، ففي العراق كانت البصرة والكوفة وبغداد من أهم المراكز الحضارية والثقافية ونبغ فيها أعداد كبيرة من فطاحل علماء اللغة والنحو والصرف، وقد احتفظت البصرة بمكانتها العلمية حتى القرن الرابع الهجري، فكثرت بمساجدها حلقات العلماء والأدباء كما نشطت بها دراسة الفلسفة فظهر بها إخوان الصفا[2] واتخذوها مركزاً لنشاطهم العلمي[3].

ونشطت الحركة العلمية في بغداد نشاطاً ملموساً وظهر بها علماء أكفاء أثروا الفكر الإسلامي بمصنفاتهم القيمة، وكان من أبرز العلماء الذين ظهروا في بغداد أبو جعفر الطبري[4] المفسر والفقيه والمقرىء والمؤرخ المشهور، ومن أشهر

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ٤/ ٩٥.

(٢) إخوان الصفا جماعة سرية ذات ميول شيعية متطرفة تتألف من طبقات متفاوتة، ولهم فروع في كثير من البلاد، يقول أبو حيان التوحيدي عنهم: «وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال». الامتاع والمؤانسة: صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ)، ج ٢ ص ٥.

(٣) د. محمد جمال‌الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الطبعة الرابعة، (القاهرة: دار الفكر العربي ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م)، ص ٢٠٩.

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في آمل ــ إحدى قرى طبرستان ــ في حدود سنة ٢٢٥هـ، وتوفي في بغداد سنة ٣١٠هـ، رحل في طلب العلم إلى عدد من البلاد الإسلامية =

مصنفاته، كتابه في التفسير المسمى «جامع البيان في تفسير القرآن» وكتابه في التاريخ الموسوم بـ «تاريخ الأمم والملوك»، وهذه الكتب غاية في ميادينها.

وقد عاصر المسعودي الطبري وأخذ عنه العلم، واطلع على مؤلفاته وأثنى عليها[1].

ومن علماء المذاهب المختلفة الذين ظهروا بالعراق في ذلك العصر إسماعيل بن إسحاق بن حماد[2]، وعبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل[3]، وأبو الحسن عبيدالله الكرخي[4]، وأبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي[5]،

= كالشام ومصر، وبعد فترة جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، انظر ترجمته بتوسع لدى: شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي: معجم الأدباء، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ)، ج ١٨ من ص ٤٠ ــ ٩٤؛ ولدى ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٩١/٤.

(١) المروج ١٥/١.

(٢) إسماعيل بن إسحاق بن حماد، أبو إسحاق، أحد فقهاء المالكية المشهورين، له مؤلفات في الفقه وعلوم القرآن، تولى القضاء في بغداد مدة طويلة، وإلى جانب ذلك كان مبرزاً في النحو، توفي سنة ٢٨٢هـ. انظر عنه: الحافظ أبا بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ)، ج ٦ ص ٢٨٤.

(٣) عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبدالرحمن، ورث عن أبيه العلم فصار حافظاً للحديث، له: كتاب الزوائد على كتاب الزهد، لأبيه؛ وزوائد المسند، زاد به على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث، توفي سنة ٢٩٠هـ، انظر عنه: القاضي محمد بن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون تاريخ)، ج ١ ص ١٨٠.

(٤) عبيدالله بن الحسين الكرخي، أبو الحسن، كان مولده بالكرخ سنة ٢٦٠هـ، وتوفي سنة ٣٤٠هـ، انتهت إليه رياسة الحنفية بالعراق في عصره، من مؤلفاته: رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية، وشرح الجامع الصغير، وشرح الجامع الكبير، انظر عنه: مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بيروت: منشورات مكتبة المثنى، بدون تاريخ)، ج ١ ص ٥٦٣؛ وإسماعيل باشا البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، (بغداد وبيروت: منشورات مكتبة المثنى، بدون تاريخ)، ج ١ ص ٣٥٤؛ والبغدادي أيضاً: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (بغداد وبيروت: منشورات مكتبة المثنى، بدون تاريخ)، ج ١ ص ٦٤٦.

(٥) الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد، من أوسع علماء بغداد ثقافة في علوم القرآن والفقه والنحو واللغة والشعر والعروض، كان لا يأكل إلا من كسب يده، ينسخ الكتب بالأجرة =

وأبو الحسن الماوردي[1]، وغير هؤلاء كثير[2].

أما اللغة والأدب فكان من أبرز العلماء الذين نبغوا فيهما أبو بكر محمد بن دريد الأزدي[3]، والقاضي التنوخي[4]، وكان من كبار رجال الأدب، ونبغ من أسرته عدد من العلماء والأدباء، وأبو الفرج الأصبهاني[5]، وأبو حيان التوحيدي[6].

= ويعيش منها، توفي سنة ٣٦٨هـ، من كتبه: الإقناع في النحو، صنعة الشعر، البلاغة. انظر عنه: وفيات الأعيان ٢/ ٧٨.

(١) علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، أبو الحسن، من أكبر فقهاء الشافعية، ومن القضاة المشهورين في عصره، توفي سنة ٤٥٠هـ، من مؤلفاته: الحاوي في الفقه، والأحكام السلطانية. انظر عنه: تاج الدين تقي الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الثانية، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ)، ج ٣ ص ٣٠٣، وسنشير إليه بـ: طبقات الشافعية.

(٢) للتوسع في هذا الموضوع، انظر: أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ٢٢٣ وما بعدها.

(٣) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أبو بكر، أحد أئمة اللغة والأدب، ولد بالبصرة ثم انتقل إلى عمان فأقام بها اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة ورحل إلى فارس فقلده ابنا ميكال وكانا واليين عليها ديوان فارس، ثم رجع إلى بغداد، وكان المسعودي أحد تلاميذه، توفي سنة ٣٢١هـ، من أشهر كتبه: الجمهرة في اللغة، والاشتقاق، وقصيدته المقصورة.
انظر عنه: معجم الأدباء ١٨/ ١٢٧؛ وطبقات الشافعية ٢/ ١٤٥.

(٤) علي بن محمد التنوخي، أبو القاسم، فقيه وأديب وشاعر ظريف، تولى قضاء البصرة والأهواز وغيرهما، وأقام زمناً ببغداد، وكان من جلساء الوزير المهلبي، وزار سيف الدولة الحمداني ومدحه، توفي سنة ٣٤٢هـ، له ديوان شعر ومنه مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد.
انظر عنه: تاريخ بغداد ١٢/ ٧٧.

(٥) علي بن الحسين الأموي الأصبهاني، أبو الفرج، ولد بأصبهان سنة ٢٨٤هـ ونشأ ببغداد، أخذ العلم عن ابن جرير الطبري وابن دريد وغيرهما، اتصل بالوزير المهلبي ـ أحد عشاق الأدب ومحبي أهله ـ وحظي عنده، توفي سنة ٣٥٦هـ، من مؤلفاته: الأغاني، مقاتل الطالبيين.
انظر عنه: تاريخ بغداد ١١/ ٣٩٨.

(٦) علي بن محمد بن العباس التوحيدي، أبو حيان، أحد الفلاسفة والأدباء المرموقين، ولد بشيراز وأقام ببغداد مدة، ثم انتقل إلى الري فصاحب ابن العميد والصاحب بن عباد مدة، وكانت وفاته سنة ٤٠٢هـ، من أبرز كتبه الباقية: المقابسات، الامتاع والمؤانسة، الصداقة والصديق.
انظر عنه: طبقات الشافعية ٤/ ٢؛ ومقدمتي كتابيه الامتاع والمؤانسة، ١/ ج، والمقابسات، ص ٨ ـ ٢٣.

وكما أسلفنا بأن العراق لم يصبح وحده موطن العلم والعلماء فقد نافسه مراكز أخرى للثقافة في الدول المستقلة في العالم الإسلامي، مثل بخارى وسمرقند والري وأصبهان وغيرها، وأخرجت هذه البلاد من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة ما لا يحصى كثرة[1].

وفي مصر والشام ازدهر الاشتغال بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات وكذا الاهتمام بالتاريخ والجغرافيا، وكانت تلك العلوم تولد في نفوس أصحابها والمشتغلين بها ميلاً إلى الرحلة في سبيل العلم من أجل الإفادة والاستفادة. نظراً للوازع الديني الذي كان يسيطر على مشاعرهم، ومن هنا كنا نلحظ دائماً عالماً يحل هنا وعالماً يرحل إلى هناك، وقد قوى هذا الدافع وضع المملكة الإسلامية في ذلك الوقت، حيث كان المسلم يستطيع أن يرحل داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته. وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلون كما يصلي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفاً واحداً وعادات واحدة، وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطنة بحيث يكون آمناً على نفسه وماله وأهله[2].

ولذا فقد رأينا المسعودي وغيره من العلماء يفدون إلى مصر والشام لطلب العلم ونشره، كما أن علماء هذين المصرين رحلوا إلى أقطار أخرى للغاية نفسها.

وقد كان من أشهر المحدثين والفقهاء الذين ظهروا في مصر آنذاك الربيع ابن سليمان المرادي[3]، . . . .

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/٢٤٥.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الرابعة، (بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ج ١ ص ٢٢.

(٣) الربيع بن سليمان بن عبدالجبار بن كامل المرادي بالولاء، أبو محمد: صاحب الإمام الشافعي وراوي كتبه، امتاز بقوة الحفظ وقلة الذكاء، أول من أملى الحديث بجامع ابن طولون، توفي سنة ٢٧٠هـ.

انظر عنه: المروج ٥/١١٩؛ وفيات الأعيان ٢/٢٩١.

وأبو جعفر الطحاوي[1]، وأبو بكر بن الحداد[2].

واشتهر في التاريخ بمصر بعد ابن عبدالحكم[3] ثلاثة مؤرخين هم: ابن يونس[4]، والكندي[5]، وابن زولاق[6]، وظهر في الشام أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي[7].

---

(١) أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، وكان قد تفقه على خاله المزني صاحب الشافعي ثم تحول إلى مذهب أبي حنيفة، وكان مجتهداً وناقداً للحديث، توفي سنة ٣٢١هـ، له من المؤلفات: شرح معاني الآثار، وبيان السنّة.
انظر عنه: الحافظ ابن كثير الدمشقي؛ البداية والنهاية، الطبعة الثانية، (بيروت: مكتبة دار المعارف ١٩٧٤م)، ج ١١ ص ١٧٤.

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر الكناني: المعروف بابن الحداد، أحد فقهاء الشافعية، كان عالماً بالقرآن والحديث والأسماء والكنى والنحو واللغة وسير الجاهلية والشعر واختلاف الفقهاء، تولى القضاء، للأخشيد، وكان فصيحاً متعبداً، توفي سنة ٣٤٤هـ، له كتابي الفروع والباهر؛ انظر عنه: وفيات الأعيان.

(٣) عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم بن أعين بن ليث المصري: كان من أهل الحديث والرواية، ثم انصرف إلى الاهتمام بالتاريخ والقصص والأخبار، ويعتبر أول مؤرخ لخطط مصر، توفي سنة ٢٥٧هـ، له كتاب فتوح مصر وأخبارها، انظر عنه: وفيات الأعيان ٣/٣٥؛ وكشف الظنون ١٢٤٠/٢؛ وهدية العارفين ٥١٢/١.

(٤) عبدالرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي: اهتم بالتاريخ بعد أن تثقف بالفقه والحديث على سيرة آبائه وأجداده، وألف كتابين في تاريخ مصر، أحدهما: أخبار مصر ورجالها، والثاني: ذكر الغرباء الواردين على مصر، توفي سنة ٣٤٧هـ. انظر عنه: محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة ١٩٧٣م)، ج ٢ ص ٢٦٧.

(٥) محمد بن يوسف بن يعقوب من بني كندة: مؤرخ من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها، توفي سنة ٣٥٨هـ، له كتاب الولاة والقضاة وكتاب الموالي، انظر عنه: هدية العارفين ٤٦/٢.

(٦) الحسن بن إبراهيم بن الحسين: من ولد سليمان بن زولاق بالولاء، توفي سنة ٣٨٧هـ، كان مهتماً بالتاريخ المصري فكتب ذيلاً لكتاب الكندي قضاة مصر سماه أخبار قضاة مصر، وله مختصر تاريخ مصر، انظر عنه: البداية والنهاية ٣٢١/١١.

(٧) محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء: أبو عبدالله المقدسي، رحالة جغرافي من مواليد القدس، طاف كثيراً من أنحاء العالم الإسلامي ومر بتجارب عديدة في رحلاته أودعها كتابه الجغرافي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، توفي سنة ٣٨٠هـ.
انظر عنه: د. صلاح الدين المنجد: أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب، (بيروت: دار الكتاب الجديد ١٩٧٨م)، ج ٢ ص ٩ وما بعدها.

أما النهضة الأدبية واللغوية التي ازدهرت في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب فلا يتسع المقام هنا لتعداد العلماء والأدباء والشعراء الذين شاركوا فيها، ولا الآثار التي تمخضت عنها، ويكفي أن نشير إلى أنه وجد في ذلك البلاط مجموعة من أشهر الأدباء اللغويين والنحويين، على رأسهم ابن خالويه[1] وأبو علي الفارسي[2]. وابن جني[3]، إضافة إلى الفيلسوف الكبير الفارابي[4] والشاعر، العربي العملاق أبو الطيب المتنبي[5].

وهكذا نرى أن هذا العصر وهو يضم أواخر القرن الثالث مع القرن

---

(1) الحسين بن أحمد بن خالويه: أبو عبدالله، لغوي من كبار النحاة، استوطن حلب فعهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده، وكانت له هناك مجالس ومناظرات، توفي سنة ٣٧٠هـ، له من المؤلفات: الاشتقاق، ليس في كلام العرب، وغيرها.
انظر عنه: وفيات الأعيان ١٧٨/٢؛ وأبا الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ)، ج ٣ ص ٧١.

(2) الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي الأصل: أبو علي، أحد أئمة العربية، عاش في حلب مدة وفي العراق مدة، وصحب عضد الدولة، توفي سنة ٣٧٧هـ، من مؤلفاته: الإيضاح، والتذكرة وغيرهما.
انظر عنه: تاريخ بغداد ٢٧٥/٧؛ ووفيات الأعيان ٢/٨٠.

(3) عثمان بن جني الموصلي: أبو الفتح، أحد أئمة الأدب والنحو، له فيه آراء وابتكارات، توفي سنة ٣٩٢هـ، من مؤلفاته: الخصائص في النحو، سر الصناعة في اللغة وغير ذلك كثير.
انظر عنه: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، (القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٦٨م)، ج ١ ص ١٣٤.

(4) محمد بن محمد بن طرخان الفارابي: أبو النصر، من أكبر فلاسفة المسلمين، عرف بالمعلم الثاني لشرحه لمؤلفات أرسطو في المنطق ــ المعلم الأول ــ كان زاهداً مشتغلاً بالعلم والتأليف. توفي في دمشق سنة ٢٣٩هـ، من مؤلفاته: إحصاء العلوم، والسياسة المدنية وغيرهما كثير.
انظر عنه: وفيات الأعيان ١٥٣/٥.

(5) أحمد بن الحسين بن الحسن الكندي: أبو الطيب، أحد مفاخر الأدب العربي، صاحب الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة، كانت له حظوة عند سيف الدولة الحمداني بما قال فيه من مدائح وأشعار، وزار مصر فمدح كافور الإخشيدي ثم هجاه، قتل سنة ٣٥٤هـ.
انظر عنه: تاريخ بغداد ١٠٢/٤.

الرابع الهجري يعتبر عصر النهضة في الإسلام[1]، حيث بلغت فيه أكثر العلوم شأواً بعيداً، وازدهرت وتطورت وأينعت ثمارها، وساعد على قوة حركتها ما كان يحدث بين بعض الفرق من نزاع وتخاصم في مسائل علمية عن طريق المناظرات والمجالس التي كانت تعقد لهذا الغرض بين أهل السنّة والمعتزلة والشيعة، وقد خلف المعتزلة[2] تراثاً فكرياً واسعاً من «تفاسير للقرآن وتحاليل للأحاديث التاريخية، وملء الهواء بالمناظرات التي لا حد لها، كالمناظرات في خلق القرآن، إلى دراسات للحيوان لدلالته على قدرة الله، إلى شعر ومراسلات، إلى إثارات للعقول»[3].

وقد ولد المسعودي ونشأ في تلك البيئة العلمية «في فترة من أكثر فترات النهضة حيوية وتحفزاً»[4] واستطاع أن ينهل من معين العلوم في ذلك العصر، ثم ركب الأخطار والأهوال ولجج البحار لكي يطلع عن كثب على أحوال الأمم والشعوب والأقطار، وتمكن أن يصوغ لنا جميع ما وعاه من علوم وما اكتسبه من تجارب ومشاهدات أثناء رحلاته في كتبه ومؤلفاته القيمة التي يمكن أن نعتبره من خلالها ـــ وبحق ـــ أنه «ابن زمانه أي ابن زمان النهضة»[5].

* * *

(١) أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م)، ج ١ ص ١٧٧.

(٢) المعتزلة فرقة كلامية إسلامية، بلغت شأوها في العصر العباسي الأول، امتازت بحرية الفكر والاعتداد بالعقل وقوة الحجة، كان لهم مدرستان رئيستان إحداهما بالبصرة، ومن أشهر رجالها واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبو الهذيل، وإبراهيم النظام، والجاحظ، والأخرى ببغداد، ومن أشهر رجالها بشر بن المعتمر، وأبو موسى المردار، وثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي دؤاد، ولهم أصول خمسة يدور عليها مذهبهم، وهي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
انظر عنهم: المسعودي: المروج ٥٨/٤، والموسوعة العربية الميسرة، تأليف لجنة من العلماء والباحثين بإشراف الأستاذ محمد شفيق غربال، الطبعة الثانية (القاهرة: دار الشعب ١٩٦٥م)، ص ١٧١٨.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام ٥٩/٤.

(٤) B. Lewis: op.cit., p. 135.

(٥) Ibid: p. 135

ثانيـــاً:

حيـــاة المسعودي

هو علي بن الحسين بن علي بن عبدالله المسعودي[1] الهذلي، أبو الحسن. وقد حمل لقب المسعودي والهذلي بسبب انتمائه إلى جده الأعلى عبدالله بن مسعود الهذلي[2] الصحابي الجليل، وفي رواية مرجوحة لا سند لها ذكرت في أحد المصادر الشيعية أنه نسبة إلى مسعودة، محلة ببغداد من وراء المأمونية، أو في موضع آخر في عقار المدرسة النظامية[3]، ولكن النسبة الأولى أقوى وأرجح

---

(١) هكذا ذكر المسعودي اسمه ونسبه في كتابيه المروج ١/٢٥٤، ٣/٣٣؛ والتنبيه، ص ١، ١٣٦، ١٩٨، ٢٢٧، ٣٢٨، ٤٠٠ ــ ٤٠١.

(٢) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي: أبو عبدالرحمن، أحد كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخدم الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تولى قضاء الكوفة وبيت مالها لعمر بن الخطاب وصدراً من خلافة عثمان بن عفان، واستقر في العراق وصارت له مكانة كبرى هناك، حيث اجتمع الناس حوله يقرئهم القرآن ويعلمهم الحديث، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي بها سنة ٣٢هـ. انظر عنه: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، بدون تاريخ)، ج ٣ ص ١٥٠؛ والحافظ أبا نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ج ١ ص ١٢٤؛ وأبا الفرج ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري وتخريج محمد رواس قلعه‌جي، الطبعة الأولى، (حلب: الناشر دار الوعي ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ج ١ ص ٣٩٥؛ والحافظ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، تصويراً عن الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ)، ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) عبدالله المامقاني: تنقيح المقال في أحوال الرجال، (النجف: المطبعة المرتضوية ١٣٤٩هـ/١٩٥٢م)، ص ٢٨٢.

حيث تدعمها جميع المصادر التي ترجمت لحياة المسعودي.

أما ولادته فكانت في بغداد حسب ما ذكر كراتشكوفسكي[1] وخوادبخش[2] في بداية القرن العاشر الميلادي، أي في حدود سنة ٩٠٠م، وتقابل سنة ٢٨٧هـ، وهي السنة التي اختارها الدكتور علي الخربوطلي في تحديده لسنة ميلاد المسعودي[3]، ولكن يظهر على ما يبدو أن ولادته كانت قبل هذا التاريخ، بدليل أنه بدأ رحلته الأولى خارج العراق في حدود سنة ٣٠٣هـ، ومن غير المعقول أن يجنح إلى الرحلة والسفر لطلب العلم والاطلاع على أحوال الأمم والشعوب في البلدان النائية ويركب الأخطار والأهوال في البحار وهو لم يتجاوز بعد السادسة عشرة من عمره.

وقد أثارت عبارة لابن النديم[4] ذكر فيها أن المسعودي «من أهل المغرب»[5] مشكلة لدى أكثر من ترجم للمسعودي ممن جاء بعد ابن النديم، لأنه من المعروف أن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وهو الجد الذي ينتهي إليه نسب المسعودي ــ كما أسلفنا ــ قد استوطن العراق منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى عنه ــ واستقر بها[6]. ثم ارتبطت أسرته منذ ذلك الحين ببلاد العراق، وانصرفت إلى ميادين العلم والأدب، ولم تشترك في الصراع السياسي الذي شهدته بلاد العراق في العصرين الأموي

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٧٧.

(٢) صلاح الدين خودابخش: حضارة الإسلام، ترجمة وتعليق د. علي حسني الخربوطلي، (بيروت: دار الثقافة ١٩٧١م)، ص ١٤٤.

(٣) د. علي الخربوطلي: المسعودي، ص ٢٢.

(٤) هو محمد بن إسحاق: أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم، صاحب كتاب الفهرست، كان معتزلياً متشيعاً من أهل بغداد، توفي سنة ٤٣٨هـ، انظر عنه: معجم الأدباء ١٨/١٧؛ وابن حجر: لسان الميزان، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الأعلمي للمطبوعات ١٣٩٠هـ/١٩٧١م)، ج ٥ ص ٧٢.

(٥) الفهرست، ص ٢١٩.

(٦) صفة الصفوة ١/٣٩٥.

والعباسي، وحينما قامت بغداد في عهد أبي جعفر المنصور توطنتها هذه الأسرة[1].

ولما جاء ياقوت الحموي[2] وترجم للمسعودي[3] ذهب إلى تخطئة ابن النديم، وكان مستنده الأول في ذلك ما ذكره المسعودي نفسه في كتابه المروج، حين عدد فضائل الأقاليم ووصف هواءها واعتدالها، ثم قال: «وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به، وإن كانت الأيام أبانت بيننا وبينه وساحقت مسافتنا عنه، وولدت في قلوبنا الحنين إليه، إذ كان وطننا ومسقطنا، وهو إقليم بابل. . .»[4] وخلص ياقوت من ذلك إلى أن الرجل بغدادي الأصل[5].

وجاء ابن شاكر الكتبي[6] فذكر أن عداد المسعودي في البغداديين[7].

ثم جاء السبكي[8] فأكد هذا الأمر في طبقاته[9].

---

(١) الخربوطلي: المسعودي، ص ٢٢.

(٢) هو ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي: أبو عبدالله، شهاب الدين، مؤرخ وجغرافي ثقة، توفي سنة ٦٢٦هـ، من أشهر مصنفاته، معجم الأدباء ويعرف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ومعجم البلدان، انظر عنه: وفيات الأعيان ٦/١٢٧ ـ ١٣٩، وشذرات الذهب ٥/١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) معجم الأدباء ١٣/٩١.

(٤) انظر المروج ٢/١٨٤.

(٥) معجم الأدباء ١٣/٩٣.

(٦) هو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن بن شاكر الكتبي الدمشقي: صلاح الدين، مؤرخ باحث، توفي سنة ٧٦٤هـ، له من المؤلفات، فوات الوفيات، عيون التواريخ، انظر عنه: البداية والنهاية ١٤/٣٠٢ ـ ٣٠٣؛ وابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، الطبعة الثانية (القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٣٨٥هـ /١٩٦٦م)، ج ٤ ص ٧١ ـ ٧٢.

(٧) فوات الوفيات ٣/١٣.

(٨) هو عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي: قاضي القضاة، توفي سنة ٧٧١هـ، من مصنفاته، طبقات الشافعية الكبرى، معيد النعم ومبيد النقم، الأشباه والنظائر، انظر عنه: الدرر الكامنة ٣/٣٩ ـ ٤١، ومعيد النعم ومبيد النقم، حققه وضبطه وعلق عليه محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، الطبعة الأولى، (مصر: مكتبة الخانجي، بغداد: مكتبة المثنى ١٣٦٧هـ /١٩٤٨م) مقدمة المحققين هـ ـ ن.

(٩) طبقات الشافعية ٢/٣٠٧.

ثم ذهب إلى ذلك أيضاً ابن تغري بردي[1] في كتابه النجوم الزاهرة عند ترجمة المسعودي[2].

وفي العصر الحاضر ذهب بعض المؤرخين ممن ترجم للمسعودي[3] ليوفقوا بين رأي ابن النديم ومن جاء بعده من المؤرخين، فقالوا: إن أسرة المسعودي جاءت من المغرب واستقرت في بغداد حيث ولد ونشأ المسعودي.

ولم أجد فيما قرأت حول هذا الموضوع سنداً أو دليلاً يعضد هذا الرأي، والذي أراه وأرجحه في هذا الشأن هو أن المسعودي عراقي الأصل والمولد والمنشأ منذ أن استقر جده الأعلى عبدالله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ في العراق، بدليل ما ورد في ثنايا كتبه من إشارات إلى ذلك[4]، وبدليل حنينه الدائم، وتتبعه الدقيق لمختلف الأحداث والأمور التي لها صلة بالعراق وإثباتها في ثنايا الأخبار التي يسوقها عن الأمم الأخرى، وعن الخلافة الإسلامية[5].

أما قول ابن النديم: أنه من أهل المغرب، فالراجح أنه يريد بذلك مصر، لأن المسعودي كما هو معلوم قد عاش في مصر مدة من الزمن في أخريات حياته وتوفي فيها، والمعروف أن مصر وما وراءها من جهة الغرب من البلاد الإسلامية كانت تسمى من قبل المشارقة بلاد المغرب.

---

(١) هو يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الحنفي الأتابكي: أبو المحاسن، جمال الدين، مؤرخ بحاثة، توفي سنة ٨٧٤هـ من أشهر مصنفاته، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، انظر عنه: محمد ابن عبدالرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ)، ج ١٠ ص ٣٠٥؛ وشذرات الذهب ٣١٧/٧ ـ ٣١٨.

(٢) ج ٣ ص ٣١٥.

(٣) انظر: د. نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، (بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٦٢م)، ص ١٥١؛ ود. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، الطبعة الأولى، (بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٩م)، ج ٢ ص ٤٥، وسنشير إلى هذا الكتاب الأخير بـ التاريخ العربي).

(٤) المروج ١٨٤/٢؛ والتنبيه، ص ١٩، ٣٤، ٤٢.

(٥) انظر: على سبيل المثال التنبيه، ص ١٧٦ حول تسمية الروم والفرس لبلاد الشام والعراق.

وأما ما ذكره الأستاذ عبدالرحمن العزاوي ـ في كتابه الذي أخرجه حديثاً عن المسعودي[1] ـ مِنْ أنَّه ولدَ في إقليم بابل ببلاد العـراق. . وليس في بغداد[2]، فهو كلامٌ يحتاجُ إلى تفصيل، أما قوله: ولد في إقليم بابل، فهو كلام عام ولم يخصص مدينة بعينها من مدن هذا الإقليم، وأما نفيه أن يكون ولد في بغداد فلم يقم على ذلك دليل ثابت، بل إن نصوص المسعودي تؤكد وتخصص أنه ينتمي إلى مدينة السلام، أشرف مدن إقليم بابل «وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام، ويعز عليّ ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذي عن بقعته فصلنا وفي قاعه نجمنا»[3].

ومهما يكن من أمر فإنه يبدو لي أن المسعودي قد ولد ونشأ في بغداد، وتلقى تعليمه الأول فيها، وكانت يومئذ مركزاً من مراكز العلم والحضارة الكبرى في العالم، حيث اشتهرت بمكتباتها وكثرة الوراقين بها والفقهاء والقراء والأدباء والأئمة[4]، ويضيف المقـدسي، أن لأهلها الخصـائص والظرافـة، والقرائح واللطافة، هواء رقيق وعلم دقيق، كل جيد بها، وكل حسن فيها، وكل حاذق منها، وكل قلب إليها، وكل حرب عليها، وهي أشهر من أن توصف، وأحسن من أن تنعت، وأعلى من أن تمدح»[5].

* * *

---

(١) بعنوان المسعودي مؤرخاً، من منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م.

(٢) المسعودي مؤرخاً، ص ١١.

(٣) المروج ٢/١٨٥.

(٤) أبو عبدالله المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء دي غويه، (ليدن: مطبعة بريل ١٩٠٦م)، ص ١١٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٨.

ثالثاً:
شيوخ المسعودي في حياته المبكرة

تلقى المسعودي وهو في صباه وريعان شبابه ألواناً من العلوم والمعارف الدينية والأدبية واللغوية على أيدي جماعة من العلماء المعروفين في بغداد والبصرة على وجه الخصوص، ثم أنه حين قام برحلاته خارج العراق التي طاف بها بلداناً عديدة التقى بعدد كبير من العلماء أخذ عنهم العلم وحاورهم، ثم روى عنهم في كتبه.

وسنقصر حديثنا هنا على الشيوخ الذين التقى بهم المسعودي في مطلع حياته العلمية، مؤجلين الحديث عن بقية العلماء الذين استفاد منهم بوجه عام، خاصة بعد أن تقدمت به السن ورسخت قدمه في العلم إلى مكان لاحق من الرسالة إن شاء الله تعالى.

فمن أبرز العلماء الذين تتلمذ المسعودي على أيديهم في بغداد أبو العباس أحمد بن سريج (المتوفى سنة ٣٠٦هـ)(١)، وقد حضر المسعودي دروسه في الفقه، وكان أبو العباس رائداً من رواد المذهب الشافعي وعلماً من أعلامه البارزين في بغداد، وكان المسعودي حريصاً على حضور مجالسه وحلقاته التي كان يعقدها

---

(١) أحمد بن عمر بن سريج القاضي، أبو العباس، يقال له: (الباز الأشهب)، نشر المذهب الشافعي في أكثر الآفاق، وكان عالماً جدلياً، حاضر الجواب، له مناظرات كثيرة ومساجلات، توفي ببغداد سنة ٣٠٦هـ، له نحو ٤٠٠ مصنف. انظر عنه: المروج ٥/٢٠٧؛ ووفيات الأعيان ١/٦٦؛ وطبقات الشافعية ٢/٨٧ وما بعدها؛ والبداية والنهاية ١١/١٢٩.

للعلم والمناظرة، وقد علق عنه «رسالة البيان عن أصول الأحكام»[1].

ومن ضمن العلماء الذين قابلهم المسعودي في سن مبكرة[2] محمد بن خلف بن حيان الملقب بـ وكيع (ت سنة ٣٠٦هـ)[3]، وكان إلى جانب اهتمامه بالحديث والفقه شغوفاً بالأخبار والتاريخ[4].

ويأتي أبو الحسن أحمد بن سعيد الدمشقي الأموي (ت سنة ٣٠٧هـ تقريباً)[5] في جملة العلماء الذين أخذ عنهم المسعودي في مدينة بغداد، وكان راوياً للحديث، وحملت عنه موفقيات الزبير بن بكار[6].

ومن المحتمل جداً أن يكون المسعودي قد سمع عن أبي جعفر محمد بن

---

(١) يقول السبكي ما نصه: «هذه الرسالة عندي نحو خمس عشرة ورقة، ذكر المسعودي في أولها أنه حضر مجلس أبي العباس في بغداد في علته التي مات بها سنة ٣٠٦هـ، وقد حضر المجلس لعيادة أبي العباس جماعة من حذاق الشافعيين والمالكيين والكوفيين والداوديين وغيرهم من أصناف المخالفين، فبينما أبو العباس يكلم رجلاً من المالكيين إذ دخل عليه رجل معه كتاب مختوم، فدفعه إلى القاضي أبي العباس فقرأه على الجماعة فإذا هو من جماعة الفقهاء المقيمين ببلاد الشاش، يعلمونه أن الناس في ناحيتهم أرض شاش وفرغانه مختلفون في أصول الفقهاء الأمصار وممن لهم الكتب المصنفة والفتيا، ويسألونه رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه وداود بن علي الأصفهاني، وأن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي، فكتب القاضي هذه الرسالة، ثم أملى فيها ذكر المسعودي عليهم بعضها وعجز لضعفه عن إملاء الباقي فقرىء عليه والمسعودي يسمع». اهـ. طبقات الشافعية ٣٠٧/٢.

(٢) Ahmad Shboul: Al-Masudi and his world, London Ithaca Press, 1979, p. 32.

(٣) محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي، أبو بكر، يلقب بـ وكيع، قاض باحث عالم بالتاريخ والبلدان، توفي ببغداد سنة ٣٠٦هـ، له مصنفات منها: أخبار القضاة وتواريخهم، الشريف، النواحي.. انظر عنه: البداية والنهاية ١٣٠/١١؛ وكتاب أخبار القضاة، المقدمة صفحة (ي) وما بعدها.

(٤) المروج ١٥/١؛ والتنبيه، ص ٢٩٣.

(٥) أحمد بن سعيد بن عبدالله الدمشقي الأموي، أبو الحسن، محدث دمشقي الأصل، سكن بغداد، وروى الحديث، وروى عنه الكثير من الأخبار، وهو مؤدب ولد المعتز، توفي سنة ٣٠٧هـ.

انظر عنه: معجم الأدباء ٤٦/٣ ـ ٤٩.

(٦) المروج ٣٢٤/٣، ٣٨٠؛ والتنبيه، ص ٣٠٠.

جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) رغم أن المسعودي لم ينقل عنه إلا مرة واحدة بصيغة «حدثنا أبو جعفر...»[1]، وكان مقدراً لمنزلته العلمية ومكانته المرموقة بين العلماء، فأثنى عليه في المقدمة، وبين منزلة مصنفه التاريخي بين المصنفات[2].

وقد ظهر على الساحة في بغداد وقت حداثة المسعودي جماعة من العلماء الرواد الذين استوعبوا كثيراً من العلوم والمعارف الموجودة في عصرهم، كالحديث والفقه والأخبار والأدب، ولكن اهتمامهم كان منصباً على دراسة فقه اللغة نحوها وصرفها، وكانت دروسهم تلقى في هذه الموضوعات، ومن أشهر أولئك العلماء الذين كان المسعودي يتنقل بين حلقاتهم الزجاج (ت سنة ٣١١هـ)[3]، وابن دريد (ت سنة ٣٢١)[4]، ونفطويه (ت سنة ٣٢٣هـ)[5] ولا شك أن المسعودي كان سعيداً بتلقيه عن هؤلاء العلماء، نلمح ذلك من خلال أطرائه لهم وإعجابه بمصنفاتهم وروايته عنهم[6].

ونجد كذلك من العلماء الأفذاذ في ذلك العصر فقيهاً معروفاً وناقداً أديباً مشهوراً هو أبو القاسم جعفر بن حمدان الموصلي (ت سنة ٣٢٣هـ)[7]، الذي

---

(١) التنبيه، ص ٢٦٧. وانظر: المروج ٣/١٨٤، ٢٠٢.

(٢) المروج ١/١٥.

(٣) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ببغداد وتوفي بها، كان مؤدباً للقاسم بن عبيدالله بن سليمان وزير المعتضد، وكانت له مناقشات ومجالسات مع ثعلب وغيره من العلماء، من كتبه: معاني القرآن، الأمالي، الاشتقاق وغيرها.
انظر عنه: تاريخ بغداد ٦/٨٩ ـ ٩٣؛ ومعجم الأدباء ١/١٣٠ ـ ١٥١.

(٤) سبقت ترجمته، انظر: ص ١٠، وكان المسعودي يقول عنه: «إنه ممن برع في زماننا هذا في الشعر، وانتهى في اللغة.. وأورد فيها أشياء لم ترد في كتب المتقدمين»، المروج ٥/٢١٥.

(٥) إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي الواسطي النحوي أبو عبدالله نفطويه، سكن بغداد، وأخذ عن ثعلب والمبرد، توفي سنة ٣٢٣هـ، له مصنفات عديدة ذكرها ابن النديم في الفهرست، ص ١٢١؛ وياقوت في معجم الأدباء ١/٢٥٤ ـ ٢٧٢.

(٦) انظر: المروج ٥/٢٨، ١٩٨ عن الزجاج، و٢/٥٨، ٢٩٩، عن ابن دريد، و١/١٥، ٥/١٩١ عن نفطويه، و٣/٣٨ عنهم جميعاً.

(٧) جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، الشافعي، أبو القاسم، أديب وشاعر وفقيه له عدة مصنفات في الفقه، كان من أهل الموصل فانتقل إلى بغداد واتصل بعدد من العلماء والوزراء، من=

التقى به المسعودي وروى عنه[1]، وكان معجباً به لإلمامه بعلوم كثيرة، حيث كان إلى جانب حفظه لكتب اللغة وروايته للأخبار «بصيراً بالنجوم عالماً مطلعاً على علوم الأوائل عالي الطبقة فيها»[2].

وكان ابن الأنباري (متوفى سنة ٣٢٨هـ)[3] من طبقة علماء النحو واللغة الذين ظهروا في بغداد، وكانت لهم حلقات تدريس فيها، وكان المسعودي من روادها والمهتمين بالتردد عليها[4].

ويؤكد لنا تاج الدين السبكي صدق الرواية التي نجدها لدى المسعودي والتي توحي بسماعه من القاضي عبدالله بن زبر الدمشقي (المتوفى سنة ٣٢٩هـ)[5]، وهو سماع مباشر دون واسطة[6]. يقول السبكي: إنه ـ أي المسعودي ـ «سمع من نفطويه وابن زبر القاضي وغيرهما»[7]، لكن ذلك قد يكون متأخراً إلى حد ما بسبب أن رواية المسعودي تدل على أن لقاءه به كان في دمشق[8].

= مصنفاته: الباهر في أشعار المحدثين، الشعر والشعراء وغيرهما.
انظر عنه: الفهرست، ص ٢١٣؛ ومعجم الأدباء ٧/١٩٠ ـ ٢٠٥.

(١) المروج ٣/٣٨، ٥/١٧، ١٨٦.

(٢) معجم الأدباء ٧/١٩٢.

(٣) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب، وحفظ الأشعار والأخبار، كان مؤدباً لأولاد الخليفة الراضي، من كتبه: الزاهر، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، عجائب علوم القرآن..
انظر عنه: تاريخ بغداد ٣/١٨١ ـ ١٨٦؛ طبقات الحنابلة ٢/٦٩ ـ ٧٢.

(٤) المروج ٥/١٨٦.

(٥) عبدالله بن أحمد بن ربيعة بن زبر الدمشقي، أبو محمد، قدم بغداد وحدث بها، ثم شخص إلى مصر فمات بها على القضاء، غير ثقة عند أهل الحديث. انظر عنه: تاريخ بغداد ٩/٣٨٧، شذرات الذهب ٢/٣٢٣.

(٦) المروج ٤/٣٤٠.

(٧) طبقات الشافعية ٢/٣٠٧.

(٨) المروج ٤/٣٤٠.

ويعتبر الصولي (المتوفى نحو سنة ٣٣٥هـ)[1]، أحد أساتذة المسعودي الأجلاء الذين تلقى عنهم واستفاد من خبراتهم العلمية واتصالاتهم الشخصية بأبناء الخلفاء والأشراف، حيث استطاع المسعودي أن يحصل عن طريق أستاذه هذا على صورة واضحة عن بعض ما كان يدور في مجالس الخلفاء وفي قصر الخلافة في بغداد[2].

ويتضح لنا مدى تقدير المسعودي لشيوخه وأساتذته أنه لم يذكر في كتبه شيئاً يمس الصولي من قريب أو بعيد، وذلك بروايته خبراً في حق الإمام علي بن أبي طالب ــ رضي الله تعالى عنه ــ حتى أنه خرج من بغداد بسبب مضايقة الخاصة والعامة له ومحاولتهم قتله[3].

ومع ذلك لم يشر المسعودي إلى شيء مما حدث مع أنه كان سيفاً مصلتاً في وجه كل من تطاول على أهل البيت بذكرهم بشيء يسيء إليهم، وهذا يدلنا على وفاء المسعودي وتقديره لشيوخه.

وقد أخذ المسعودي عن علماء آخرين في بغداد كطاهر بن يحيى بن حسن بن جعفر بن عبدالله بن الحسين بن علي بن أبي طالب[4]، وأبي الحسين

---

(١) محمد بن يحيى بن عبدالله، أبو بكر الصولي، من أكابر علماء الأدب والتاريخ، نادم عدة من خلفاء بني العباس، وصنف أخبارهم وسيرهم وجمع أشعارهم، كما دوّن أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتاب في عصره، كانت وفاته سنة ٣٣٥هـ أو ٣٣٦هـ بالبصرة، من مصنفاته: كتاب الأوراق، وقد أثنى عليه المسعودي في المروج ١٥/١، وأدب الكتاب وغيرها.
انظر عنه: تاريخ بغداد ٤٢٧/٣ ــ ٤٣٢؛ ووفيات الأعيان ٣٥٦/٤ ــ ٣٦٠.

(٢) المروج ١٨٨/٥ ــ ١٩٠، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٨.

(٣) وفيات الأعيان ٣٦٠/٤.

(٤) سيد فاضل روى عن أبيه وغيره، قال صاحب مقاتل الطالبيين: «إن صاحب الصلاة بالمدينة أيام المقتدر دس إليه سماً فقتله»، له مصنف عن أنساب آل أبي طالب.
انظر عنه: الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون تاريخ)، ص ٧٠٤. وانظر المروج ٢٦١/٣؛ والتنبيه، ص ٣٠٠.

الطوسي[1] وحرمي[2] وغيرهم.

ولما نهل المسعودي من معين العلم في مدينة بغداد وتحصل على قسط وافر من الثقافة فيها تاقت نفسه إلى لقاء العلماء خارجها، فانتقل إلى البصرة[3]، وكانت يومئذ زاهرة بالعلماء وكثرة الصالحين بها[4].

ومن علمائها الأفاضل التقى المسعودي بأبـي مسلم إبراهيم بـن عبدالله الكشي أو الكجي (المتوفىٰ سنة ٢٩٢هـ)[5]، وكان محدثاً مشهوراً فأخذ عنه[6].

ومن علماء البصرة آنذاك يموت بن المزرع (متوفى سنة ٣٠٤هـ)[7] وهو ابن أخت الجاحظ، ومنه اكتسب الأدب والظرافة، ولا بد أن يكون المسعودي قد التقى به وتعلم على يديه شيئاً من فنون الأدب والشعر[8].

أما أعظم شيوخ المسعودي في البصرة وأجلهم فهو أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحي (المتوفى سنة ٣٠٥هـ)[9]، وكان يلقي دروسه في مسجد

---

(١) من المحتمل أن يكون أبا الحسين علي بن عبدالله بن سنان التيمي: راوية الأخبار والأشعار. انظر عنه: ابن النديم: الفهرست، ص ١٠٦.

(٢) لم أعثر له على ترجمة. انظر: التنبيه، ص ٣٠٠.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية ٢/٣٠٧.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١١٨.

(٥) إبراهيم بن عبدالله بن مسلم الكشي أو الكجي، أبو مسلم، من حفاظ الحديث، كان سرياً نبيلاً، مات ببغداد وحمل إلى البصرة سنة ٢٩٢هـ، له من التصانيف: السنن.
انظر عنه: تاريخ بغداد ٦/١٢٠، والمروج ٥/١٨٧.

(٦) التنبيه، ص ٢٥٤.

(٧) يموت بن المزرع، أبو بكر، ابن أخت الجاحظ، كان إخبارياً أديباً ظريفاً، صاحب ملح ونوادر، أخذ عنه المازني والسجستاني وغيرهما توفي سنة ٣٠٤هـ.
انظر عنه: معجم الأدباء ٢٠/٥٧؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، (القاهرة: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون تاريخ)، ج ٣ ص ١٩١؛ وشذرات الذهب ٢/٢٤٣.

(٨) المروج ٤/٢٠٣، ٢١٦، ٥/١٠٥.

(٩) الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب بن صخر الجمحي، أبو خليفة، عالم بصري أعمى، روى الأشعار والأخبار والأنساب، وهو ابن أخت محمد بـن سلام الجمحي، وقد روى عنه مؤلفاته، لـه من المؤلفات: طبقات شعراء الجاهليين، وكتاب الفرسان، وكانت وفاته=

البصرة، ويأتي إليه الطلاب من كل مكان، وقد التقى به المسعودي وأخذ عنه، وأعجب بفصاحته وقوة علمه وحجته وإحاطته بعلم الأخبار والأنساب[1].

ومن علماء البصرة أيضاً أبو إسحاق الجوهري[2]، التقى به المسعودي وأخذ عنه[3]، وكذلك الكلابي[4] حيث يذكر المسعودي أنه كان من ضمن الأساتذة الذين حدثوه وهو بالبصرة[5].

وهكذا عاد المسعودي بعد هذه الرحلة العلمية إلى بغداد، وأقام بها وقتاً قصيراً، ثم انطلق بعد ذلك في رحلاته المتتابعة المشهورة إلى أرجاء العالم الإسلامي، حيث التقى خلال تلك الرحلات بأعداد كبيرة من العلماء البارزين في الأمصار من ذوي التخصصات والاهتمامات المتنوعة في ميادين العلوم.

ومع ذلك فقد ترك علماء العراق، والذين درس المسعودي على أيديهم في بداية حياته العلمية خاصة أثراً عميقاً في نفسه جعله دائم الحنين والشوق والتذكر لهذا الوطن العزيز الذي بين أحضانه درج، وفي ظلاله تفيأ، وبسبب علمائه تأصل في نفسه حب العلم، وبهذا يمكن أن يرتفع ويزول استغراب من يقرأ كتب المسعودي، ويرى من خلالها مبلغ ما كان يكنه من شوق وحب لموطنه الأول في كل مناسبة، وما يضفي عليه وعلى ساكنيه من صفات الكمال والثناء.

* * *

= سنة ٣٠٥هـ. انظر عنه: أبا إسحاق إبراهيم القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الثانية (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ج ٢ ص ٨٢٥؛ ومعجم الأدباء ٢٠٤/١٦ ــ ٢١٤.

(١) انظر: المروج ١٠٤/٣، ٥٢/٤، ٢٣١، ٢٧/٥، ٧١، ١٤٣ ــ ١٤٥؛ والتنبيه، ص ٢٥٤. وانظر: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج ١٥ ص ٣٦٩.

(٢) لم أعثر له على ترجمة له مع أن المسعودي قد أشار إليه كثيراً، ولكنه لم يذكر اسمه كاملاً. انظر: المروج ٢٩٨/٢، ٣٥٠/٣، ٣١٠/٤.

(٣) المروج ٢٧٦/٣.

(٤) لم أهتد إلى تحقيق اسمه.

(٥) المروج ٢٧٩/٣.

رابعـــاً:
رحــلات المسعودي

كانت الرحلة لطلب العلم في العصر الذي عاش فيه المسعودي من المكونات الحقيقية لطالب العلم، إذ لا يستطيع أن يلم بمختلف الفنون والثقافات وهو ثاوٍ في قطر من الأقطار، فلا بد له أن يشد الرحال ليتصل بالعلماء كي يستفيد من علمهم ويدرس على أيديهم ويسمع منهم، وقد كان للوضع الذي امتازت به دولة الإسلام في ذلك الوقت دور كبير في تشجيع هذه الرحلات وتنميتها، حيث لم تكن هناك حدود سياسية فاصلة بين الأقطار الإسلامية لتقف حاجزاً في وجوه العلماء أو المسافرين أو التجار فتمنع الانتقال من بلد إلى آخر، وإنما كان هناك أربطة ساعد وجودها على تسهيل الرحلة. إذ هيأت للمسافرين ــ ولا سيما العلماء ــ أماكن الإقامة المجانية والمثابة للقاء العلماء. هذا إضافة إلى الوضع الاقتصادي القوي الذي كانت تتمتع به معظم بلاد الإسلام في ذلك الوقت، ومن شأن الأمم القوية التي يزيد فيها أمر المعاش عن حاجة السكان أن تتطلع دائماً إلى ما وراء حدودها، وتتولد لدى أبنائها الرغبة في السفر لمعرفة ما لدى الأمم الأخرى، والإنسان الذي يتشوف بفطرته إلى العلم لا بد له من الرحلة في طلبه[1].

وكانت العادات والتقاليد السائدة آنذاك تشجع الناس والعلماء منهم بوجه

---

(١) عبدالرحمن بن خلدون: المقدمة، (القاهرة: طبعة المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ)، ص ٤٣٤.

خاص على القيام بمثل هذه الرحلات، إذ لم يكن هناك مانع من أن يتخذ المسافر أو الرجل الغريب في بلد ما المسجد مأوى له يرتاح إليه ويجد فيه من يشاطره همومه وأحزانه، ويجد فيه العالم طلبته الرئيسة وهي العلم والعلماء وحلق الذكر، وكانت الأوقاف التي تحبس على المساجد وطلبة العلم تكفي كثيرين من هؤلاء مؤونة البحث عن المعاش، هذا مع زهدهم عن زخارف الحياة الدنيا الفانية، واكتفائهم بالقليل منها.

وقد كان أسلوب الثقافة الذي درج عليه علماء الحديث في زمان المسعودي يتطلب منهم الرحلة إلى أهم حواضر الإسلام طلباً للحديث والعلم، لكن المسعودي لم يقتنع باقتفاء أثرهم، بل دفعه تطلعه العلمي إلى تجاوز البلدان الإسلامية، والتجوال فيها وراءها بحثاً عن أخبارها وجمعاً لمعارفها[1].

هذا وإن من أهم دوافع رحلة المسعودي ــ في نظري ــ ما تولد في نفسه من حب للاستطلاع، والوقوف على أحوال الأمم والشعوب نتيجة مطالعاته لكتب التاريخ والأخبار، إضافة إلى ما كان يسمعه من التجار والبحارة الذين كانوا يجوبون بحر العرب والمحيط الهندي، وما يذكرونه من عجائب الهند وجزر البحار، هذا مع ما كان يعتمل في نفسه من حب للوقوف على الحقائق بنفسه من غير واسطة.

ولهذا فإنه من شدة نهمه للعلم وحبه للمعرفة لم يكتف بالاطلاع الواسع على ما كتب وألف، ولكنه أراد أن يقرن ذلك بالمعاينة المباشرة والمشاهدة فساق قدمه في كل أفق[2]، فكان كما يقول: «تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة»[3].

ولا يستوي في نظر المسعودي من اقتصر على ما في بلده من العلوم

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبدالحليم النجار، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ج ٣ ص ٥٦.

(٢) د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ١/٤٠٤ ــ ٤٠٥.

(٣) المروج ١/١٠.

والمعارف ومن جاب الأقطار وضرب في الآفاق لهذه الغاية، حيث يقول: «وليس من لزم جمرات وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه وأثار كل نفيس من مكمنه»(١).

ولهذا فإنه عاب على الجاحظ أنه «لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرّىٰ الممالك والأمصار»(٢)، واقتصر على ما في كتب الوراقين، أما هو فكان يعتمل في كيانه قوة دافعة للاستقراء والاستكشاف دفعته إلى الرحلة والسفر خارج وطنه إلى بلدان نائية بعيدة، ولم يكن المسعودي تاجراً ولا بحاراً، إنما كان عالماً هدفه الرئيس هو جمع المعلومات والأخبار عن البلاد التي يزورها من مصادرها الأصلية(٣)، وبينما كان بعض العلماء الجغرافيين ينقبون في بطون الكتب لجمع مواد كتبهم، كان المسعودي يجوب أقطار العالم الإسلامي في كل اتجاه بحثاً عن مصادر أصيلة لمعلوماته التاريخية والجغرافية(٤). كذلك لم تكن أسفار المسعودي الواسعة للنزهة أو للمجازفة والمغامرة، بل كانت للبحث والتعلم ومشاهدة أقطار العالم مشاهدة عيان(٥)، ولم يتوقف المسعودي في أثناء سفره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف موضوعاتها، فجمع من الحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد(٦).

ومع أن وسائل السَّفَر والارتحال في عصر المسعودي كانت بدائية وشاقة، وكان يكتنف السَّفْرَ كثيرٌ من الأهوال والأخطار الجسيمة، وخاصة إذا كان السَّفَرُ عن طريق البحر، وكانت الغاية بعيدة، إلا أن المسعودي استسهل الصعاب من

---

(١) المصدر السابق ١/١٢.

(٢) المصدر السابق ١/١١٣.

(٣) S. Maqbul Ahmad: Al-Masudi on the King of India (MMCV), p. 97.

(٤) أبو الحسن علي بن موسى المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي، الطبعة الأولى (بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠م)، ص ٣٦.

(٥) The Encyclopaedia of Islam, Leiden and London, 1936, Vol. 3, p. 403.

(٦) د. عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، (بيروت: دار العودة، بدون تاريخ)، ص ٢٨١.

أجل تحقيق أهدافه فقضى أكثر من خمس وعشرين سنة من سني عمره طاف خلالها أجزاء كثيرة من العالم المعروف في عصره، واستطاع أن يضع بين أيدينا وصفاً دقيقاً لأحوال الأمم ونحلهم وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما أعطانا صوراً عديدة ناطقة للبحار والجبال والأنهار والممالك والدول[1].

هذا وسأتحدث عن رحلات المسعودي من خلال حديثه وإشاراته هو عنها في كتابيه المطبوعين وهما: المروج، والتنبيه، مستنبطاً ذلك من قراءات متعددة واجتهادات حاولت فيها أن أتوصل إلى الحقيقة أو قريباً منها، على الرغم من أن المسعودي لم يزودنا بمعلومات كافية وواضحة عن رحلاته، حيث كان يتحدث عنها عرضاً في مناسبات متباينة، مقتضباً أحياناً، وبعبارة يشوبها الغموض أحياناً أخرى، ومع ذلك فقد توصلت إلى رسم خط لسير رحلاته أرجو أن أوفق في إجلائه وتوضيحه، ومما ظهر لي أن المسعودي قد سافر من العراق أكثر من مرة ثم عاد إليها ليبدأ رحلة جديدة، وهكذا. . .

(أ) رحلات المسعودي الأولى :

من الطبيعي أن يكون المسعودي قد بدأ رحلاته بمنطقة خوزستان المجاورة لبلاد العراق فتجول فيها، واطلع على بعض العجائب[2]، وأخذ عن بعض علمائها[3].

ثم انتقل إلى منطقة فارس فوصلها أوائل سنة ٣٠٣هـ، وأخبرنا أنه كان في هذه الفترة بمدينة اصطخر، ورأى عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم[4]، ورأى في هذه المدينة أيضاً أحد بيوت النار الفارسية القديمة،

---

(١) د. علي حسني الخربوطلي: الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي، بحث في مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد السابع، سنة ١٤٠٣هـ، ص ٢٣، وسنشير إلى هذا المرجع بـ: الاتجاهات العالمية.

(٢) المروج ٢/٢٨.

(٣) التنبيه، ص ١١٠.

(٤) التنبيه، ص ١٠٦.

فدخله، وقدم عنه وصفاً متكاملاً[1]. ثم يحدثنا المسعودي أنه كان قد رأى في مدينة جور من أرض فارس بيتاً آخر من بيوت النار[2].

ومن المحتمل جداً أنه قد زار قصبة إقليم فارس وهي مدينة شيراز لحديثه عنها وعن مدينة كوار حديث مطلع خبير[3]. وزار مدينة سيراف، وهي بين جبل وبحر[4].

ثم انتقل إلى منطقة كرمان، فتحقق من بعض المسائل الجغرافية التي تهمه[5] واطلع على بعض الكتب التاريخية فيها[6].

ومن كرمان تحول إلى منطقة سجستان المجاورة، فتجول فيها، وأخذ عن بعض علمائها[7].

والظاهر أنه لم يلبث هناك طويلاً، فسافر إلى بلاد السند، ثم الهند قاصداً الاطلاع على بيت الذهب[8] في المولتان (Multan) وهو معبد مشهور يقصده أهل السند والهند من أقصى بلادهم بالنذور من الأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب، ويحج إليه الألوف من الناس[9]. وكان ملك المولتان وقت دخول المسعودي إياها أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي السامي[10].

ومن المولتان تحول المسعودي جنوباً إلى مدينة المنصورة، في عهد مليكها أبي المنذر عمر بن عبدالله القرشي، ورأى فيها وزيره رباحاً، وابنيه محمداً

---

(١) المروج ٢/٣٩٩.
(٢) المصدر السابق ٢/٤٠٠.
(٣) المصدر السابق ٢/٤٠٠.
(٤) التنبيه، ص ٤٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٦٦.
(٦) المروج ١/٢٨٢.
(٧) التنبيه، ص ١١٠.
(٨) انظر عنه: ابن النديم: الفهرست، ص ٤٨٥.
(٩) المروج ١/١٩٩.
(١٠) المصدر السابق ١/١٩٩.

وعلياً، وبعض العرب القاطنين فيها[1]. ويقدر المسعودي المسافة بين المولتان والمنصورة بدقة بالغة، مما يؤكد لنا قطعه إياها[2]، ثم يقدم لنا وصفاً ممتعاً لمدينة المنصورة، ضياعها وزروعها وسكانها، وما يستخدمه ملوكها من أنواع الفيلة الحربية والعمالة[3].

وفي أواخر سنة ٣٠٣هـ كان المسعودي بالهند يحدثنا عن مشاهداته ومرئياته في مدينة كنباية (Cambay) الواقعة على الساحل الغربـي للهند، واهتمام ملكها البرهمي بمناظرة من يرد إلى بلاده من المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل، ثم عرض لنا وصفاً جغرافياً للمدينة[4].

ومن المدن الهندية التي زارها وهو في طريقه إلى مدينة صيمور (Chaul) مدن سندان (Sandijan) وسوباره (Sopara) وتانه (Thana)[5].

وفي أوائل سنة ٣٠٤هـ زار المسعودي مدينة صيمور (Chaul) الهندية على الشريط الساحلي أيضاً، ورأى هناك بعض عوائد الهند التي اشتهروا بها، كتعذيبهم لأنفسهم بالنار[6]، وسجل بعض المظاهر الجغرافية والمناخية التي تمتاز بها هذه المنطقة[7]، كما لاحظ نوعية وأجناس السكان القاطنين في المدينة وتركيبهم الاجتماعي، وذكر أن بهذه المدينة حوالي عشرة آلاف مسلم بياسرة[8]، وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم، وذكر «أن الملك يملك على المسلمين رجلاً من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه»[9].

---

(١) المروج ١/٢٠٠.
(٢) المروج ١/٢٠٠.
(٣) المصدر السابق ١/٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٤) المصدر السابق ١/١٣٥ ـ ١٣٦.
(٥) المروج ١/١٣٥، ١٧٦.
(٦) المصدر السابق ١/٢٤٨.
(٧) التنبيه، ص ٢٢٤.
(٨) البياسرة جمع بيسر، وهم الذين ولدوا من المسلمين بأرض الهند، المروج ١/٢٤٨.
(٩) المروج ١/٢٤٨.

والواقع أن المسعودي حينما زار الهند كانت العلاقات التجارية بين المسلمين والهنود مزدهرة، وكان للمسلمين نقاط ارتكاز على الساحلين الغربي والشرقي لشبه الجزيرة الهندية[١].

وليس هناك دليل قاطع على أن المسعودي زار منطقة المانكير (Malkhed) الهندية، ولكنه جمع عنها معلومات على جانب كبير من الدقة والصحة[٢].

لكن من الثابت أنه ترحّل كثيراً في إقليم كونكان (Konkan) التابع إلى مهراشترا (Maharashtra) وكجرات (Gujarat) والسند (Sind)[٣].

وتابع المسعودي رحلته من الهند إلى جزيرة سرنديب (سيلان) فشاهد هناك مراسم دفن الملوك، وعادات أهل تلك الجزيرة، ولم يعد هناك مجال للتشكيك في صحة زيارته لها بعد قوله: «ورأيت في بلاد سرنديب»[٤].

وفي اعتقادي أنه واصل رحلته من هناك إلى مملكة الزابج[٥]، وهي مملكة المهراج، كانت تشمل جزيرتي سومطرة وجاوة[٦]، ويبدو أنه لم يمكث طويلاً، بل مر مروراً سريعاً عبر بحر الصنف الذي أثبت وصفاً مجملاً له في كتاب المروج[٧].

ويخامرني الشك في زيارة المسعودي لبلاد الصين، فلو أنه زارها لأثبت لنا معلومات موثقة كعادته في البلاد التي يزورها، ويقرن كثيراً من المعلومات التي يوردها عنها بقوله: «شاهدت» أو «رأيت»، هذا إضافة إلى أنه ذكر أنه ركب البحر في سنة ٣٠٤هـ إلى عمان[٨] ولو كان سافر إلى الصين لما أمكنه أن يصلها،

(١) S. M. Ahmad: op.cit., p. 97.

(٢) Ibid, p. 97.

(٣) Ibid, p. 97.

(٤) المروج ١/٩٣.

(٥) المصدر السابق ١/١٠.

(٦) محمد كرد علي: كنوز الأجداد، مقال في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الثاني والعشرين، الجزء التاسع والعاشر، دمشق ١٣٦٦هـ، ص ٣٩١.

(٧) المروج ١/١٨٢.

(٨) المصدر السابق ١/١٢٥.

ثم يعود في السنة نفسها، ولهذا فالراجح أنه ركب البحر بعد هذه الجولات وعاد متوجهاً إلى عمان، ولم يوضح المسعودي بعد ذلك هل عاد إلى العراق، أم واصل رحلته من صحار قصبة بلاد عمان متوجهاً إلى جزيرة قنبلو التي يغلب على الظن أنها جزيرة زنجبار[1]، حيث يصفها المسعودي، ويذكر أن فيها قوماً من المسلمين لغتهم زنجية، تغلبوا على هذه الجزيرة، وسبوا من كان فيها من الزنج[2].

وفي طريق العودة صحب في رحلته من جزيرة قنبلو إلى عمان أحمد وعبدالصمد أخوي عبدالرحيم بن جعفر السيرافي، عن طريق بحر الزنج، وهال المسعودي ما رأى في هذا البحر من العجائب والأخطار التي تحيق براكبيه فذكر أنه لم يمر عليه أهول منه على الرغم من كثرة البحار التي اجتازها[3]، وأشار إلى بعض النواخذة[4] الذين غرقوا فيه بمراكبهم[5]، ووصف السمك المعروف بالأوال[6]

(١) يذكر الدكتور جواد علي في بحثه «موارد المسعودي» في مجلة سومر، العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، بغداد سنة ١٩٦٤م، ص ٤، أن جزيرة قنبلو هي مدغشقر، ولكن يبدو أن المقصود بها جزيرة زنجبار وليس مدغشقر وذلك لعدة أسباب منها: أن الصلات التجارية التي كانت قائمة بين عمان وجنوب الجزيرة العربية بصفة عامة وبين جزيرة زنجبار كانت أقوى وأوثق من غيرها، وأن وصف المسعودي للجزيرة وسكانها ومن بها من المسلمين ينطبق على زنجبار، ولقربها من ساحل الزنج ومساكنهم. المروج ١/١٢٥ ــ ١٢٦؛ والتنبيه، ص ٥٨. وقد وجدت في خريطة أحمد بن ماجد لبحر الهند أن هذا الاسم (قنبلو) يطلق على جزيرة صغيرة تقع بالقرب من زنجبار. انظر: (أطلس خرائط إسلامية): من إعداد قسم الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض، ص ١١٥.

(٢) المروج ١/١١٢.

(٣) المصدر السابق ١/١٢٦.

(٤) النواخذة جمع نوخذة (ناخداه)، وهي كلمة فارسية (ناو) سفينة (خداه) رب، وتعني ربان السفينة أو المركب، أي قائدها. انظر: حسين فوزي، حديث السندباد القديم، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٧م)، ص ٤٣؛ والدكتورة سميحة القليوبي: موجز القانون البحري، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٩م)، ص ٢٢١.

(٥) المروج ١/١٢٥.

(٦) سمك الأوال، عرف هذا السمك عند العرب القدماء بالأسماء الآتية: البال، البلينة، الأبليتة، الوال، الفال، الأوال، وهو اسم لنوع من الحيتان البحرية الكبيرة التي تصاد فينتفع بشحمها =

وفزع المراكب منه في الليل والنهار، وكيفية تخلصها منه[1].

ولم يشر المسعودي إلى الوقت الذي زار فيه جنوب الجزيرة العربية، إلا أنه قد يكون في هذه الأثناء، حيث صرح أنه كان موجوداً في بلاد الشحر من حضرموت يلتمس بعض الأخبار التي تتعلق بالنسناس[2].

ومن المؤكد أنه زار اليمن، فرأى في بلاد مأرب بعض القبائل العربية التي اتحدت كلمتها وهم من ولد نزار بن معد بن عدنان مع بعض القبائل من مذحج[3].

ثم وقف على أنقاض بيت غمدان[4] بمدينة صنعاء، ورآه ردماً وتلاً عظيماً قد ارتدم بنيانه، وصار جبل تراب كأنه لم يزل[5].

وبعد هذا لا نجد أي إشارة توحي لنا متى غادر المسعودي اليمن أو إلى أين اتجه، ولكن الظاهر أنه اتجه إلى الحجاز لقربها من المنطقة، وأدى مناسك الحج، وسمع في مكة من بعض علمائها كأبي بكر عبدالله بن محمد المعري[6]، ثم اتجه إلى المدينة وزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبر ابنته فاطمة، حيث سجل المسعودي نقشاً مكتوباً على رخامة عند قبرها وقبور بعض أحفادها[7].

ولا بد أن المسعودي قد عاد إلى العراق بعد هذه الفترة الطويلة من

= ولحمها، وما قد يكون في جوفها من العنبر. انظر: حسين فوزي: حديث السندباد القديم، ص ١٥٧ وما بعدها.

(١) المروج ١/١٢٦.

(٢) المصدر السابق ١/٣٦٧.

(٣) المصدر السابق ١/٢٣٩.

(٤) قصر مشهور بصنعاء سكنته ملوك اليمن، يقول المسعودي: إن الذين بناه هو الضحاك (؟) على اسم الزهرة، وخربه عثمان بن عفان. انظر: المروج ١/٢٠٨، ٣٨٢.

(٥) المروج ١/٢٨٣.

(٦) انظر: التنبيه، ص ٣٠٠.

(٧) التنبيه، ص ٣٠١.

التجوال والترحال فاستقر بها، وفي سنة ٣٠٩هـ نلقاه بحلب يحاور فيها إبراهيم بن جابر القاضي[١]، حول مسائل تتعلق بالفقر والغنى وأيهما أفضل، وكان المسعودي يعرفه يوم أن كان في بغدداد يعالج الفقر قبل ولايته للقضاء[٢].

ولا ندري هل استمر المسعودي في الشام طويلاً أم عاد إلى العراق في حينه، لكن المؤكد أنه كان في العراق في سنة ٣١٣هـ وفي مدينة تكريت بالذات، حيث ذكر أنه جرت بينه وبين أبي زكريا دنخا النصراني[٣] مناظرات كثيرة في الكنيسة المعروفة بالخضراء في الثالوث وغيره[٤].

وقد عرف المسعودي نينوى وشخصها، ولعله زارها وشاهد خرائبها أثناء زيارته للموصل التي التقى فيها ببعض العلماء[٥].

ثم رجع المسعودي إلى الشام مرة أخرى وتجول في بعض مدنها، ثم انحدر منها عن طريق نهر الفرات يريد مدينة السلام وذلك سنة ٣١٥هـ، ولكن حروب القرامطة في العراق حالت دون وصوله إليه فتوقف في مدينة هيت، ووصلت قوات القرامطة إلى هذه المدينة أيضاً فحاصرتها وهو مقيم بها[٦]، ويبدو أنه في هذه الفترة قد التقى ببعض قادة القرامطة ودعاتهم[٧].

---

(١) إبراهيم بن جابر القاضي الفقيه، أبو إسحاق، كان ثقة إماماً، توفي سنة ٣١٠هـ، له كتاب مصنف في اختلاف الفقهاء كثير الفوائد.
انظر عنه: تاريخ بغداد ٦/٥٣ ــ ٥٤.

(٢) المروج ١/١٦٤.

(٣) أبو زكرياء دنخا النصراني: أحد علماء النصارى اليعاقبة، كان متفلسفاً جدلاً نظاراً، له كتاب عن تاريخ ملوك الروم واليونانيين وفلاسفتهم وسيرهم.

(٤) التنبيه، ص ١٥٥.

(٥) المروج ٥/١٧، ١٨٦. وانظر: جواد علي: موارد المسعودي، ص ٣٦.

(٦) التنبيه، ص ٣٨٣.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(ب) رحلات المسعودي الثانية :

الواقع ان اضطراب الأحوال السياسية في العراق في هذه الفترة، بسبب استيلاء العناصر التركية على مقاليد السلطة في بغداد، وشيوع الفوضى والاضطراب فيها، ثم ظهور حركة القرامطة، وإشعالهم الفتن والثورات، ونشاط حركات السلب والنهب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق الذين يستفيدون من اضطراب حبل الأمن في المنطقة بشكل عام، كان كل ذلك من العوامل التي لا تشجع على السكنى في العراق في هذه الفترة ولا سيما أن المسعودي لم يشبع نهمه العلمي بعد، لذا نراه في رحلة ثانية إلى البلدان الواقعة في الجناح الشرقي الشمالي من المملكة الإسلامية، فيحدثنا أنه كان بناحية الأهواز في حدود سنة **٣١٥هـ** حيث كان يتابع هناك أنباء حركة أسفار بن شيرويه[١] عن طريق التجار، ومن يفد إلى الأهواز من الغرباء من المناطق التي امتدت إليها تلك الحركة[٢].

ثم اتجه المسعودي شمالاً صوب بلاد الجبال فزار مدينة الري[٣]، وهي قصبة البلاد، ورأى فيها أنواعاً من الأبقار تستخدم في حمل الأثقال وغيرها، وشاهد هذه الأنواع نفسها في سائر مدن إقليم الجبال مثل مدينة قم[٤]، وبلاد أصبهان، وشاهد في أصبهان أيضاً نهرها الذي يغور في رمل ثم يظهر بكرمان، ويصب في البحر الحبشي[٥].

واتجه المسعودي بعد ذلك نحو بلاد الصيمرة[٦]، وكانت قصبة طسوج

---

(١) أسفار بن شيرويه أحد قواد الديلم المغامرين، وحينما ظهر في أول مرة كان قائداً صغيراً غير محمود السيرة، ثم امتد نفوذه واستولى على طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم وهمدان والكرج، وكثرت جيوشه فتكبر وطغى، وكان لا يدين بملة الإسلام.
انظر عنه: المروج ٥/٢٦١؛ وابن الأثير: الكامل ٦/١٨٩.

(٢) المروج ٥/٢٦٤.

(٣) المروج ٢/١٢٣.

(٤) المصدر السابق ٢/١٢٤.

(٥) التنبيه، ص ٧٤.

(٦) المصدر السابق، ص ٤٩.

مهرجان قذق، ومنها إلى ماسبذان[1] من أرض الجبال، ثم اتجه شرقاً نحو بلاد قومس، ووصفها بكثرة الزلازل، وأن فيها أعيناً تفور وأخرى تغور، فالبلد شديد الاختلال[2]، وعدد بعض مدنها التي يظهر أنه زارها.

ثم استمر في مسيره شرقاً حتى وصل إلى خراسان، حيث قدم لنا وصفاً دقيقاً للمناطق التي مر عليها في طريقه، والمدن التي زارها[3]، وأول بلد حل فيه من خراسان هو مدينة نيسابور، وتجول في بعض قراها وأصقاعها، فزار قرية زنج[4]، ثم زار قرية أخرى من أعمال نيسابور تسمى هفدرة[5]. ومن مدن خراسان التي مر عليها مدينة بلخ حيث ثبت أنه التقى هناك بشيخ جميل ذي رأي وفهم، وأخبره أنه دخل الصين مراراً عبر الطريق البري المؤدي إليها، وأنه لم يركب البحر[6].

ثم تنقطع إشارات المسعودي الصريحة فلا نشعر به إلا وهو في البلاد المطلة على بحر الخزر (قزوين)، ولم أعثر فيما قرأت من كتبه على أي إشارة توحي بوصوله إلى بلاد الروس أو البلغر[7] على الرغم من تعرضه للحديث عنهم بالتفصيل[8]، لكن الثابت أنه جال في مناطق جرجان، والتقى هناك ببعض العلماء الذين روى عنهم شيئاً من الآثار[9].

ثم ركب المسعودي بحر الخزر من آبسكون ــ وهو ساحل جرجان ــ إلى

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٤) انظر المروج ١/١٠؛ وياقوت الرومي الحموي: معجم البلدان، (بيروت: دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بدون تاريخ) ٣/١٥٣.

(٥) التنبيه، ص ٤٩، ومعنى هفدرة ــ حسب قول المسعودي ــ سبعة أبواب.

(٦) المروج ١/١٨٦.

(٧) انظر كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ١/١٧٧.

(٨) المروج ١/٢١٧ وما يليها.

(٩) المصدر السابق ٥/٨٢.

بلاد طبرستان[١]، فزار عدداً من مدنها[٢].

ثم انتقل إلى المناطق الواقعة غرب بحر الخزر، وهي مناطق أرمينية وأذربيجان، حيث يذكر أنه ركب هناك بحيرة كبوذان (أورميا)، بين مدينة أرمية والمراغة، وعلى حد قول المسعودي فإنه لا يعيش في هذه البحيرة أي كائن حي[٣].

وتنقل المسعودي في وسائط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان[٤] ولا شك أنه في تجواله ورحلاته في هذه المناطق قد جمع معلومات كثيرة عنها وعن الأمم التي تعيش فيها أو قريباً منها، ويلاحظ ذلك من خلال ما كتبه عن أمم جبال القبخ (القوقاز).

ومن المحتمل جداً أن المسعودي بعد ذلك توجه صوب بلاد الجزيرة، حيث أخبرنا أنه كان هناك يبحث عن الآثار وبعض الخطوط القديمة في مدينة حران[٥].

وبعد هذه الجولات الواسعة لا ندري إلى أين ارتحل ولا أين حل، وذلك حتى سنة ٣٢٤هـ حينما نلتقي به في مدينة طبرية في فلسطين يراجع كتاباً عن الأمويين وفضائلهم عند بعض مواليهم[٦]، ثم في قرية ناصرة بفلسطين أيضاً، يشاهد بعض الكنائس المعظمة عند النصارى، ويحادث علماءها[٧]. وقد يكون تنقل في عدد من المدن والقرى في فلسطين، وشاهد البحر الميت (البحيرة المنتنة) فتحدث عنه ووصف خصائصه وميزاته[٨].

---

(١) المصدر السابق ١/١٤٧.
(٢) التنبيه، ص ٤٩.
(٣) المروج ١/٥٦.
(٤) المصدر السابق ١/١٠.
(٥) المروج ٢/٣٩٣.
(٦) التنبيه، ص ٣٣٦.
(٧) المروج ١/٧١.
(٨) التنبيه، ص ٧٤.

(ج) بين الشام ومصر:

وتنقطع عنا أخبار المسعودي فلا ندري عنه شيئاً حتى سنة ٣٣٠هـ، لنجده في مصر يتحدث عن ليلة الغطاس، وما يظهره المصريون مسلمون ونصارى في هذه الليلة من الفرح والمآكل والمشارب وآلات اللهو والطرب[١].

والواقع أن المسعودي بعد هذا التاريخ وهو سنة ٣٣٠هـ أصبح يتردد بين الشام ومصر وانقطع عن العراق[٢]، فهو في أنطاكية سنة ٣٣٢هـ[٣]، ومن المحتمل زيارته لبعض الثغور القريبة منها، وفي السنة نفسها عاد إلى الفسطاط ليشرع في تأليف كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر[٤]، ثم في سنة ٣٣٤هـ ذهب إلى دمشق[٥]، وعاد إلى مصر مرة أخرى حيث نجده في سنة ٣٣٦هـ في مدينة الفسطاط ينقح كتاب المروج ويهذبه ويزيد فيه[٦]. والظاهر أنه استقر في مصر في السنوات الأخيرة. حيث نلاحظ من إشاراته أنه كان في الفسطاط سنة ٣٤٤هـ يصف الزلزال الذي أطاح بأعالي منارة الاسكندرية[٧]، وحيث كان يؤلف النسخة الأولى من كتاب التنبيه والإشراف، وفي سنة ٣٤٥هـ حيث أتم تصنيف ذلك الكتاب، وانتهى من تنقيحه والزيادة فيه[٨].

ومن الثابت أنه كان للمسعودي جولات في أنحاء مصر وفي الصعيد بالذات[٩]، فقد زار عدداً من القرى والتقى في أثناء ذلك ببعض العلماء[١٠].

---

(١) المروج ٢/٧٠.
(٢) المصدر السابق ٥/٢٥٨.
(٣) المصدر السابق ١/١١٤، ٢/٢٦، ٣٤.
(٤) المصدر السابق ٢/١٢٦.
(٥) التنبيه، ص ١٩٤.
(٦) المروج ٥/٢٧٣، و ٢/١٤٧.
(٧) التنبيه، ص ٤٨.
(٨) التنبيه، ص ٤٠١.
(٩) المروج ٢/١٣٥.
(١٠) المصدر السابق ٤/٣٢٠.

أما زيارته لممالك النوبة والبجة فهي محل نظر، ومع أنه قد دوّن عن هاتين المملكتين معلومات جديدة وعلى جانب كبير من الأهمية، حيث ينفرد بذكر بعض التفصيلات، ويعتبر من المصادر الهامة عنهما[1]، إلا أننا لا نجد إشارات صريحة تؤكد زيارته لهما، ولهذا فقد يكون أخذ معلوماته عنهما من مصادر قريبة موثوقة.

وهناك أمر جدير بالتساؤل وهو سبب اختيار المسعودي مصر موطناً له في نهاية مطاف رحلاته وفي العقد الأخير من حياته، وهجره لموطنه الأول وهو بلاد العراق!! ويرى الدكتور الخربوطلي أن ذلك يعود إلى عاملين: أولهما، اضطراب الأحوال السياسية في بغداد، نتيجة تنازع وتصارع كثير من القوى غير العربية حول السلطة والنفوذ مثل الأتراك والبويهيين. وثانيهما، ما اشتهرت به مصر من هدوء واستقرار ونهضة علمية وثقافية، وكان الأخشيديون يحكمون مصر حينئذ، وقد حققوا لها نوعاً من الشخصية المستقلة[2].

هذا وقد لاقى المسعودي ربه وهو في مدينة الفسطاط، ودفن في المقبرة الكبرى[3]، أو في مقبرة العظماء[4]، في جمادى الآخرة سنة ٣٤٥هـ[5] أو في سنة ٣٤٦هـ[6].

وهكذا بعد استقرائنا لما مر نلاحظ أن المسعودي قد قضى زهرة شبابه وجل عمره في الترحال والانتقال من بلد إلى بلد، وقد مكنته تلك الرحلات

---

(١) المصدر السابق ٢/١٢٦ وما يليها.

(٢) الخربوطلي: المسعودي، ص ٢٧.

(٣) حسن الصدر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، بغداد ١٣٧٠هـ، ص ٢٥٤.

(٤) A.A. Fyzee: (MMCV) p. 131.

(٥) الذهبي: دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م)، ج ١ ص ٢١٣؛ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٣١٥؛ وابن العماد: شذرات الذهب ٢/٣٧١.

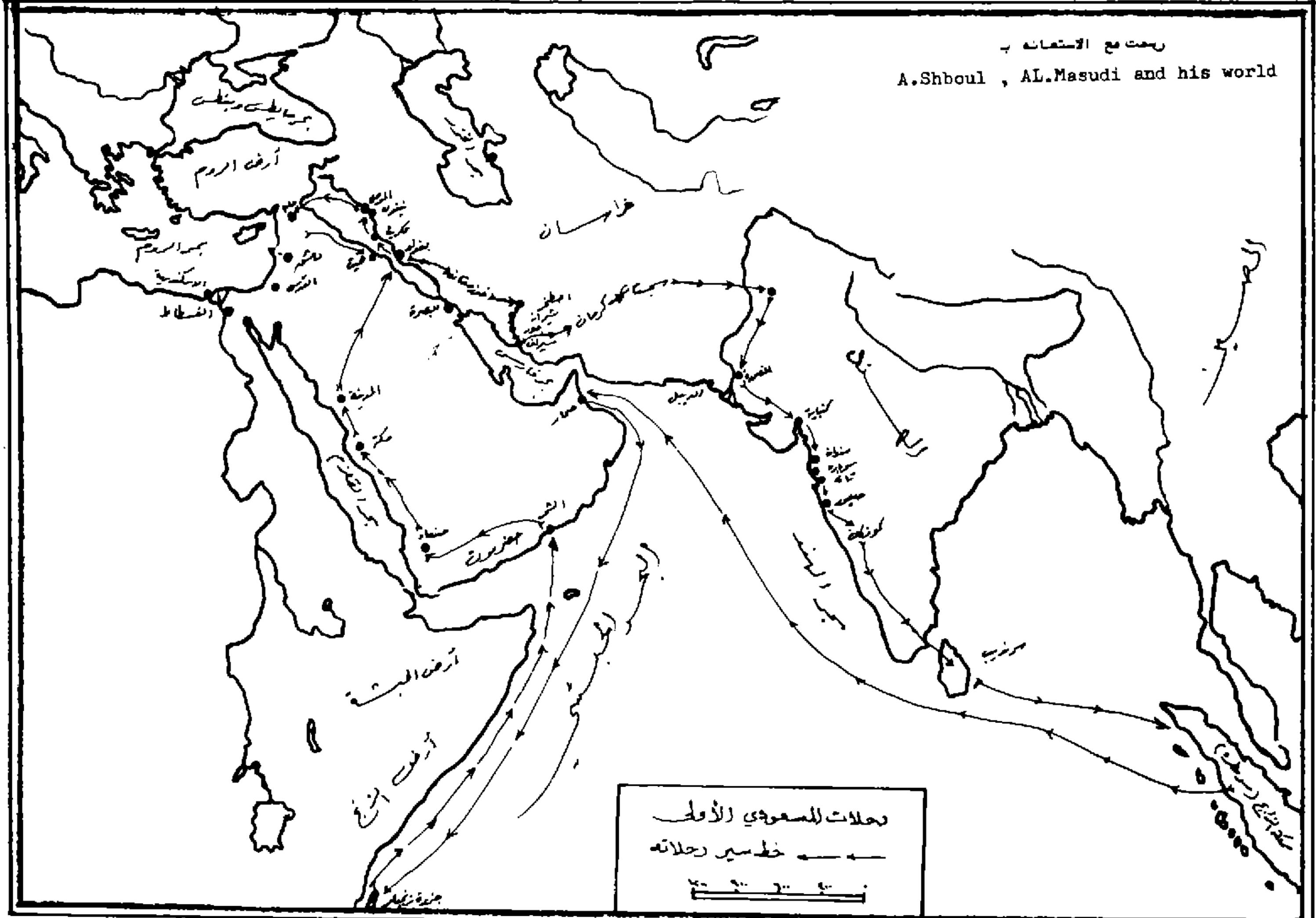
(٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٣/٩١؛ والسبكي: طبقات الشافعية ٢/٢٠٧؛ والكتبي: فوات الوفيات ٣/١٣؛ والبغدادي: هدية العارفين ١/٦٧٩.

البعيدة والأسفار المتتابعة من إجادة البحث والاستقصاء، وجمع المعلومات التاريخية من مظانها، والحقائق الجغرافية من مصادرها الأصلية[1]، والاتصال مباشرة بممثلي مختلف الطبقات الاجتماعية[2]، ولاحظنا أنه في كل إقليم يزوره كان يحرص على الاطلاع على الكتب الموجودة فيه، ويتصل بالأشخاص من ذوي العلم والدراية بأمور ذلك الإقليم، ولهذا فقد تحصل على مادة غزيرة موثقة واعتبرت كتبه مصدراً مهماً من مصادر المعرفة التاريخية والجغرافية والدينية والسياسية والاجتماعية[3].

وعلى الرغم من ذلك فقد كان المسعودي يظن أن تلك الأسفار قد أعاقته عن الانقطاع التام للتحصيل، وإجادة التأليف، فقدم العذر في ذلك قائلاً: «على أنا نعتذر من تقصير إن كان أو نتنصل من إغفال أن عرض، لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار»[4] ثم يكرر هذا الاعتذار في كتاب التنبيه، فيقول: «على أنا نعتذر عن سهو إن عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية وسهوة البشرية، ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأسفار طوراً مشرقين وطوراً مغربين»[5]، ونحن نعذر المسعودي ونشهد أنه قدم مادة تاريخية عظيمة الفائدة فاق فيها كثيراً من المؤرخين الذين سبقوه أو جاءوا بعده، ممن لم تدفع بهم هممهم إلى مفارقة أمصارهم والبعد عن ديارهم، وخلدوا إلى الراحة وجمع المعلومات من بطون الكتب، وبهذا فإنه فاقهم في نواحي متعددة سواء من حيث الجدة أو من حيث طريقة معالجة المعلومات.

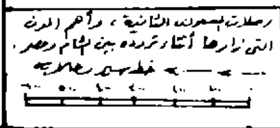
---

(١) علي أدهم: بعض مؤرخي الإسلام، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ)، ص ٥٥.
(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ١٧٨/١.
(٣) التنبيه، ص ٣٣٦.
(٤) المروج ١٠/١.
(٥) التنبيه، ص ٧.


رسمت مع الاستعانة ب
A.Shboul , AL.Masudi and his world
رحلات المسعودي الأولى
خط سير رحلاته
أرض الروم
خراسان
أرض الحبشة
أرض الزنج
بغداد
البصرة
المدينة
مكة
الفسطاط

رسمت مع الاستعانة بـ: ها زارد، اطلس التاريخ الاسلامي

ترجمة: ابراهيم خورشيد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤م، ص ١١



خامساً:

مذهب المسعودي

يحوط مذهب المسعودي الذي ينتمي إليه شيء من الغموض بادىء ذي بدء، فقد اختلفت حوله الآراء منذ القدم، فذكره السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى ضمن الطبقات الثالثة من العلماء التي تنتسب إلى هذا المذهب[1].

أما ابن حجر العسقلاني[2] فقد أنكر على ابن دحية في كتاب صفين قوله: «إنه مجهول لا يعرف ونكرة لا يتعرف»، وقال إنه لم يصب، وأورد رأيه فيه فقال: «إن كتبه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً، حتى قال في حق ابن عمر أنه امتنع عن بيعة علي بن أبي طالب، ثم بايع بعد ذلك يزيد بن معاوية والحجاج لعبدالملك بن مروان، وله من ذلك أشياء كثيرة»[3].

وأورد ابن تغري بردي رأي الذهبي[4] فيه، حيث قال: «إنه كان

---

(١) طبقات الشافعية ٢/٣٠٧.

(٢) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين بن حجر، من أئمة العلم والتاريخ، توفي سنة ٨٥٢هـ، ومن أشهر مصنفاته: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ولسان الميزان، وتهذيب التهذيب، والإصابة في تمييز أسماء الصحابة، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، ورفع الأصر عن قضاة مصر، وإنباء الغمر بأبناء العمر.
انظر عنه: الضوء اللامع ٢/٣٦؛ ولسان الميزان، ج ٧ خاتمة بترجمة المؤلف لمصحح الطبعة.

(٣) لسان الميزان ٤/٢٢٥.

(٤) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، أبو عبدالله، شمس الدين، حافظ مؤرخ محقق، كان مولده في دمشق، وتوفي فيها أيضاً سنة ٧٤٨هـ، له مصنفات كثيرة منها: دول الإسلام، وتاريخ =

معتزلياً، فإنه ذكر غير واحد من المعتزلة»، ثم قال: «وكان من أهل العدل»[1].

أما الشيعة فكانت لهم أيضاً فيه آراء، ولكنهم يكادون يتفقون على أنه شيعي المذهب[2] على الرغم من أن عدداً يسيراً منهم قد شكك في تشيعه استناداً إلى ما رآوه في كتابه المروج: «من ذكره أيام خلافة الأول والثاني والثالث ثم خلافة علي عليه السلام، ثم خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس، وذكر سيرهم وآثارهم وقصصهم وأخبارهم على طريق العامة[3]، ونحو تواريخهم من دون تعرض لذكر مساويهم وقبايحهم من غصبهم للخلافة وظلمهم أهل البيت وغير ذلك»[4].

أما المثبتون لحقيقة تشيعه وهم في الواقع الغالبية العظمى من علمائهم فيستندون على عدد من الشواهد والأدلة، منها: تأليفه الكتب الخاصة التي تتحدث عن العلويين ومن أهمها ـ في نظرهم ـ كتاب إثبات الوصية لعلي بن أبـي طالب، وهو مطبوع[5]. وتصريحه في مروج الذهب بما هو نص في كونه إمامياً اثني عشرياً، حيث قال: «نعت الإمام أن يكون معصوماً من الذنوب، لأنه إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما دخل فيه غيره من الذنوب، فيحتاج أن يقام عليه الحد، كما يقيمه على غيره، فيحتاج الإمام إلى إمام إلى غير نهاية، وأن يكون أعلم الخليفة، لأنه إن لم يكن عالماً لم يؤمن عليه أن يقلب

= الإسلام الكبير، وسير أعلام النبلاء، وتذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، وتجريد أسماء الصحابة.

انظر عنه: فوات الوفيات ٣/٣١٥ ـ ٣١٧؛ وطبقات الشافعية ٥/٢١٦ ـ ٢٢٦.

(١) النجوم الزاهرة ٣/٣١٦؛ وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٥٦٩.

(٢) انظر: الخوانساري: روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تصحيح محمد علي الأصبهاني، الطبعة الثانية (طهران: ١٢٦٧هـ، طبع حجر)، ص ٣٧٢؛ ومحسن الأمين العاملي: أعيان الشيعة، (بيروت: مطبعة الانصاف)، ج ٤١ ص ١٩٩ وما بعدها، حيث استعرض أقوال علماء الشيعة فيه.

(٣) يعني أهل السنة.

(٤) محمد بن إسماعيل (أبو علي): منتهى المقال في أحوال الرجال، (طهران: طبع حجر، سنة ١٣٠٠هـ)، ص ٢١٣.

(٥) هذا الكتاب لم تثبت نسبته إلى المسعودي، وسأتحدث عنه في الفصل الخاص بمؤلفات المسعودي.

شرائع الله تعالى وأحكامه فيقطع من يجب عليه الحد ويحد من يجب عليه القطع ويضع الأحكام في غير المواضع التي وضعها الله تعالى، وأن يكون أشجع الخلق لأنهم يرجعون إليه في الحروب فإن جبن وهرب يكون قد باء بالغضب من الله، وأن يكون أسخى الخلق لأنه خازن المسلمين وأمينهم، وإن لم يكن سخياً تاقت نفسه إلى أموالهم وشرهت إلى ما في أيديهم، وفي ذلك الوعيد بالنار» اهـ.[1].

والحقيقة أن المسعودي ــ في النص المتقدم ذكره ــ كان يحكي وجهة النظر الشيعية، ولم يورد ما ذكره على أنه رأيه الحقيقي، بل قال قبل ذلك: «ووصف هؤلاء [يعني الشيعة] الإمام فقالوا: نعت الإمام...»[2]، ثم قال في نهاية النص: «وذكروا خصالاً كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد»[3]، وإذن فهذا النص مبتسر وليس صريحاً في أنه كان شيعياً، لأنه لا يمثل رأيه الحقيقي.

ولأحد علماء الشيعة وهو السيد الصدر رأي خاص فيه، إذ يقول: إنه شيعي المذهب، وكان يتستر بالشافعية مدة إقامته بمصر والشام[4].

وقد خلص المامقاني منهم إلى أنه إمامي لا شك في ذلك، ولكن الاختلاف واقع فيه من حيث العدالة أو عدمها، فذكر آراءهم فيه على النحو التالي:

١ ــ أنه إمامي ثقة، وقال: إن هذا هو الحق الحقيق بالاتباع[5]، ثم عدد العلماء الذين يميلون إلى هذا الرأي، وهم غالبية علمائهم.

٢ ــ أنه إمامي ممدوح، وهو رأي لبعض علمائهم[6].

٣ ــ أنه ضعيف، وذهب إلى ذلك أحد علمائهم[7].

---

(١) أبو علي: منتهى المقال، ص ٢١٣.

(٢) المروج ٤/٦١.

(٣) المصدر السابق ٤/٦٢.

(٤) السيد الصدر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، ص ٢٥٤.

(٥) المامقاني: تنقيح المقال، ص ٢٨٢.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٧) المرجع السابق، ص ٢٨٣.

ويعتقد أندريه ميكال (A. Miquel) أن المسعودي كان إسماعيلياً وأنه كان يقوم في أثناء أسفاره بدور المحرض والداعي السياسي[1]، ولكن انتماء المسعودي إلى الإسماعيلية أمر غير ثابت، ولا يقوم عليه أي دليل.

وبعد هذا العرض الموجز لوجهات النظر المختلفة حول مذهب المسعودي، وبعد القراءة المتأنية لكتب المسعودي وتدبر كل الجوانب التي تدور حول هذا الموضوع، أرى أنه ذو ميول شيعية قوية، وأن حبه لآل أبي طالب لا يكاد ينتهي عند حد، فقد بالغ في الإشادة بهم وتقريظهم، والرفع من شأنهم، وتقصي أخبارهم ووفياتهم، في كلا كتابيه المطبوعين: المروج، والتنبيه، على الرغم من أنه سبق وأن فصل القول عنهم قبل ذلك في كتابه المفقود أخبار الزمان[2] وفي الكتب والرسائل المخصصة لهذا الغرض نفسه، مثل كتاب حدائق الأذهان[3]، والاستبصار[4]، والزاهي[5]، والصفوة[6]، ومزاهر الأخبار وطرائف الآثار[7]، ورسالة البيان في أسماء الأئمة القطعية من الشيعة[8].

وعلى أي حال فإن ما يؤكد هذا الأمر النقاط التالية:

* حديث المسعودي عن فكرة الوصية عند الشيعة، وهي المرتكز الأساسي لعقيدتهم، حديثاً مفصلاً منذ بدايتها في زمن آدم عليه السلام وابنه شيت،

---

(١) Tarif Khalidi: Islamic Historiograghy, Newyork 1975, p. 137.

(٢) تحدث في هذا الكتاب عن أنساب آل أبي طالب ومن أعقب منهم، ومصارعهم، وغير ذلك من أخبارهم. انظر: المروج ٣/٢٦٠، كما تحدث فيه أيضاً عن مقاتل الطالبيين ومصارعهم على الشرح والإيضاح، المروج ٤/١٥٢، وعن سائر أخبار من ظهر من آل أبي طالب، ومن مات منهم في الحبس أو بالسم وغير ذلك من أنواع القتل، المروج ٥/٩١.

(٣) المروج ٢/٢٠٢، ٣/١٧٩، ٤/٢٠٢، ٥/٦٢.

(٤) المصدر السابق ٢/٢٥٩، ٣/١٦، ٢٨٠.

(٥) المصدر السابق ٣/١٦.

(٦) المصدر السابق ٣/٢٨٠.

(٧) المصدر السابق ٣/١٢٩، ٥/٦٥.

(٨) المصدر السابق ٤/٢١٦، ٣٤٩.

إلى أن قال: «فكانت الوصية جارية تنتقل من قرن إلى قرن إلى أن أدى الله النور إلى عبدالمطلب وولده عبدالله أبـي رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

* إيراد الحديث الذي تعتمد عليه الشيعة الاثنا عشرية «أن النبـي صلى الله عليه وسلم قال لأمير المؤمنين علي بن أبـي طالب: أنت واثنا عشر من ولدك أئمة الحق»[2].

* ثم إيراده لنظريتهم الأخرى القائلة: «بأن الله عز وجل لا يخلي كل عصر من إمام قائم لله بحق ظاهر أم باطن»[3].

* أما علي بن أبـي طالب ــ رضي الله عنه ــ فقد حظي عنده باهتمام بالغ، وخصه بجزء كبير من كتاباته في كل مناسبة يتعرض فيها للحديث عنه، فقد تحدث عن إسلامه وأسبقيته، وأورد «تنازع الناس في ذلك من الشيعة والاباضية وغيرهم ممن توسط القول في ذلك من أهل السنة»[4]، وتحدث عن فضائله، ومناقبه، ومقاماته، وأمور غيبية كثيرة يخبر عنها مستقبلاً[5]. وفي كتاب التنبيه وأثناء عرضه لأحداث السيرة النبوية تطرق لكيفية إسلام علي، وحديث الوصية الذي تتناقله الشيعة الاثنا عشرية بالتفصيل[6]، على الرغم من اشتراطه على نفسه الإيجاز والاختصار في هذا الكتاب، وذكر أن حديث «من كنت مولاه فعلي مولاه» قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبـي طالب في غدير خم ــ بقرب الماء المعروف بالخرار بناحية الجحفة ــ في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وولد علي وشيعته يعظمون هذا اليوم ــ كما يقول المسعودي[7].

---

(١) المصدر السابق ٤١/١.

(٢) التنبيه، ص ٢٣١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٤) المروج ١٦/٣.

(٥) المصدر السابق ١٥٦/٣، ١٦٦، ١٧١، ١٧٩.

(٦) التنبيه، ص ٢٣١.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦.

* مدح الطالبيين الثائرين على بني أمية، ويعتبر ظهورهم من أجل المطالبة بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

* نقض المسعودي لبعض كتب الجاحظ التي ألفها انتصاراً للأمويين من علي بن أبـي طالب وشيعته، مثل كتاب العثمانية[2].

* مدح الخليفة المنتصر بالله العباسي بسبب بره بآل أبـي طالب، والإحسان إليهم، ورفعه الأذى عنهم، وأمره بترك البحث عن أخبارهم وتحركاتهم[3].

* اشتراط المسعودي على نفسه في صدر كتاب مروج الذهب أن يذكر مقاتل الطالبيين، ومن ظهر منهم في أيام بني أمية وبني العباس وما كان من أمرهم من قتل أوحبس أو هرب، وذكر ما تأتىٰ له من أخبارهم منذ مقتل أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب ــ رضي الله تعالى عنه ــ حتى وقت تأليفه للكتاب[4]، وهدفه من ذلك ــ مع أنه كان قد تحدث عنهم في كتبه السابقة حديثاً وافياً ــ هو تحلية هذا الكتاب بذكر اللمع من أخبارهم لئلا يخلو من ذكرهم[5].

* وكان حريصاً حين عرضه لآراء الفرق المختلفة حول مسألة من المسائل أن يقدم رأي الشيعة ويبدأ به مع الشرح والإيضاح، ثم يعرض آراء الفرق الأخرى[6]، وإن كان في هذه الناحية يختلف عن اليعقوبـي اختلافاً كبيراً، ففي الوقت الذي يبرز فيه اليعقوبـي آراء الشيعة وأخبارهم إبرازاً تاماً نرى

---

(١) المروج ٧٤/٤.
(٢) المصدر السابق ٧٧/٤.
(٣) المصدر السابق ٥٠/٥ ــ ٥١.
(٤) المصدر السابق ٢٥٩/٥ ــ ٢٦٠؛ وانظر: ٢٤٨/٣، ٢٦١، و١٣٢/٤، ٢١٦، ٣٢٢ ــ ٣٢٣، ٦١/٥ ــ ٦٨.
(٥) المصدر السابق ٦٧/٥.
(٦) انظر على سبيل المثال: المروج ٤١/١.

من خلاله تشيعه الواضح، لا تبدو هذه الظاهرة بذلك الوضوح عند المسعودي[1].

* وفي أثناء عرضنا لما كتبه المسعودي عن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين سنلقي المزيد من الضوء على هذا الموضوع.

وهكذا ظهر لنا جلياً مدى ما كان يكنه المسعودي لآل أبي طالب من حب وتقدير، فهو يبدو متعاطفاً معهم في كل الميادين التي ظهروا بها، مما يؤكد قوة ميوله الشيعية.

* * *

أما من حيث اعتزال المسعودي فقد لاحظنا إشارات ابن حجر والذهبي السابقة إلى ذلك، ومن المحدثين يرى فيليب حتي أن المسعودي كان في شبابه ينتمي إلى مدرسة المعتزلة، أنصار العقل[2].

والمتتبع لما كتبه المسعودي عن هذه الفرقة لا يلحظ منه أي ميل أو تعاطف ظاهر نحوهم، مثل ما كان يبديه نحو الشيعة، فمثلاً يزيد الناقص الخليفة الأموي (ت ١٢٦هـ) كان يذهب إلى قول المعتزلة، ومع ذلك لم يوله المسعودي اهتماماً كبيراً[3].

ولكن حين ننظر من زاوية أخرى وبصورة أعم إلى القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه المسعودي نجد أن هناك تقارباً في بعض مناحي التفكير لدى كل من الشيعة والمعتزلة، وتوافقاً في الأصول أيضاً[4].

ويرى بعض الباحثين أن الشيعة هم ورثة المعتزلة من حيث العقيدة،

---

(١) هادي حسين حمود: «منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية»، (رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة بغداد، ١٩٧٥م)، ص ٢٤٠.

(٢) فيليب خوري حتي: تاريخ العرب، نقله إلى العربية محمد مبروك نافع، الطبعة الثالثة، (القاهرة: مطبعة دار العالم العربي، ١٩٥٢م)، ج ٣ ص ٤٩٧.

(٣) المروج ٤/٥٨ وما بعدها.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام ٤/١١٨.

ولا بد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة، ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم، ونجد مثلاً أن عضد الدولة، وهو من الأمراء، المتشيعين يعمل على حسب مذهب المعتزلة[1].

ومما يدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الخليفة القادر بالله العباسي (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ) جمع بينهما، حينما نهى عن الكلام والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام[2]، وتظهر لنا الرابطة بينهما بصورة أوضح إذا ما عرفنا تأثر عقيدة الشيعة الرئيسة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم» أن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد»[3].

وإذن فهناك نوع من الصلة والقربى بين هذين المذهبين، حيث اقترب الفكر الشيعي في ذلك القرن من حركة الاعتزال، مع استقلال في شخصيته[4]. ومن هنا فمن غير المستبعد أن يكون المسعودي متأثراً في بعض اتجاهاته أو طريقته في التفكير بمذهب المعتزلة[5].

والله تعالى أعلم...



(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/١٢٤.
(٢) المرجع السابق ١/١٢٤.
(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة السابعة، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥م)، ج ١ ص ٦.
(٤) T. Khalidi: op.cit., p. 141.
(٥) انظر: المروج ٢/٤١٣ ـ ٤١٤.

الفصل الثاني

مُصَنَّفات المَسْعُودي

أولاً: المطبوع.

ثانياً: المخطوط.

ثالثاً: المفقود.

مصنفـــات المســـعودي

إن الحديث عن مصنفات المسعودي حديث ذو أهمية كبيرة لا يدركها إلا من قدر له أن يغوص في أعماق مؤلفَيه المطبوعين وهما كتاب مروج الذهب وكتاب التنبيه والإشراف، ويقف عن كثب على ما يحويانه من معارف وعلوم، وما يتجلى فيهما من مظاهر القوة والعظمة التي وصل إليها مستوى الفكر في عصر المسعودي، ويتألم الباحث عندما يلتفت يمنة ويسرة بحثاً عن مؤلفات المسعودي الأخرى فلا يوفق في العثور على شيء منها، وعندما يرى ذلك الارتباط الوثيق بين تلك المؤلفات، وتفتنه تلك الإحالات الكثيرة العجيبة في الكتابين سالفي الذكر إلى تلك المؤلفات التي لفتها يد الضياع وذهبت في عالم الفقدان.

والواقع أن المسعودي بما حباه الله تعالى به من عقلية فذة جبارة مستوعبة، ثم ما هذب به تلك العقلية وصقلها به من خلال رحلاته في الأقطار، وقطعه المفاوز والقفار، وركوبه الأمواج والأخطار، وضربه في الآفاق تارة في الشرق وأخرى في الغرب، وما حنكته به التجارب، وما عركته به الأيام، إضافة إلى استيعابه ما كان مدوناً في بطون الكتب، فكل هذا جعل عقلية المسعودي مستودعاً للعلم يفيض ويتدفق، فأفرغ ذلك في كتبه التي أخرجها للناس في زمانه، وطرق فيها موضوعات كثيرة ومختلفة، فتجد من بينهـا الكتب التي تتحدث عن المذاهب والملل والآراء والنحل، والتي تتحدث عن موضوع الإمامة وما يتعلق بها، والتي تبحث في علوم الفلسفة والنفس والأخلاق، وأسـرار الطبيعة، والتي تتناول القضايا والتجارب التي مر بها، ومنها ما هو مخصص

للحديث عن آل النبي صلى الله عليه وسلم وآل أبي طالب، وبعضها في الفقه، إلى غير ذلك.

وهذا كله إلى جانب العلم الأول الذي شغف به وملك عليه لبه وهو التاريخ الذي ألف فيه سلسلة من الكتب يتلو بعضها بعضاً، وجعل كل واحد منها مكملاً للآخر[1]، وقد بلغ مجموعها سبعة كتب، وهي مرتبة حسب تأليفها التاريخي على النحو الآتي[2]:

١ ــ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة.
٢ ــ الكتاب الأوسط.
٣ ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر.
٤ ــ فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف.
٥ ــ ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور.
٦ ــ كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار.
٧ ــ التنبيه والإشراف.

وكان تصنيف المسعودي لهذه الكتب في الحقبة المتأخرة من حياته، إذ أنه لم ير «الاشتغال بهذا الضرب من العلوم والتفرغ بهذا الفن من الآداب»[3] حتى صنف كتبه في «ضروب المقالات وأنواع الديانات» وكتبه «في الإمامة» وأقاويل الناس فيها، وسائر كتبه «من ضروب علم الظواهر والبواطن والجلي والخفي والداثر والوافق»[4]، وكذا سائر كتبه «في السياسة»[5] وغيرها.

(١) المروج ٥/٥٨.
(٢) التنبيه، ص ٢.
(٣) المروج ١/١١.
(٤) المصدر السابق ١/١١، وفق يفق وفقا، كان صواباً موافقاً للمراد. انظر: المعجم الوسيط، من إعداد مجمع اللغة العربية بمصر، الطبعة الثانية (القاهرة: مطابع دار المعارف ١٣٩٢هـ /١٩٧٢م)، ج ٢ ص ١٠٤٦. وانظر نحو هذا المعنى في القاموس المحيط للفيروزأبادي (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ)، ج ٣ ص ٢٩٠.
(٥) المروج ١/١٢.

ومن أجل هذا جاءت كتبه التاريخية خلاصة لعلومه ومعارفه وما مرَّ به من تجارب، ويقول المسعودي في سبب إقباله على التأليف في هذا الفن (التاريخ) «وكان مما دعانا إلى تأليف كتبنا هذه في التاريخ وأخبار العالم وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء، وأن نبقى للعالم ذكراً محموداً وعلماً منظوماً عتيداً، فإنا وجدنا مصنفي الكتب في ذلك مجيداً ومقصراً، ومسهباً ومختصراً، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام حادثة مع حدوث الأزمان، وربما غاب البارع منها عن الفطن الذكي، ولكل واحدة قسط يخصه بمقدار عنايته، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله، وليس من لزم جمرات وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمية كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه، وأثار كل نفيس من مكمنه»[1].

ومن هنا نرى المسعودي يوضح لنا بكل دقة الأسباب الحقيقية التي دفعته لدخول ميدان الكتابة التاريخية، وإن كان يشعر في قرارة نفسه أنه لم يبلغ بعد مرحلة يستطيع معها أن يلم بشتات العلوم، ولهذا يقول[2]: «ولو كان لا يؤلف كتاباً إلا من حوى جميع العلوم إذا ما ألف أحد كتاباً ولا تأتي له تصنيف، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾»[3].

ومن هذا المنطلق راح المسعودي يؤلف الكتب في الموضوعات التي أحسَّ في نفسه القوة والمقدرة على الخوض فيها، فظهرت لنا مجموعة من المؤلفات اتسم بعضها بالعمق والأصالة في مادته، وعلى الرغم من أنها لم تصلنا كلها، أو لم نوفق بالعثور عليها إلا أنها تكشف لنا بوضوح عن ما وصل إليه الفكر الإسلامي من نضج في ذلك الزمان من خلال الإشارات والتعليقات الموجزة التي نعثر عليها

(١) المصدر السابق ١/ ١٢.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٢.

(٣) سورة يوسف: آية رقم ٧٦.

بين الفينة والأخرى في ثنايا كتابيه الباقيين، وهما: مروج الذهب، والتنبيه والإشراف.

هذا ويعود الفضل بعد الله سبحانه وتعالى إلى المسعودي نفسه في وقوفنا على أسماء جل مصنفاته، إذ أن كل من كتب عنه سواء في القديم أو في الحديث، وسواء المختصون منهم في ذكر المؤلفات والكتب كابن النديم وحاجي خليفة والبغدادي وغيرهم، أو غير المختصين، فكل هؤلاء لم يزوّدونا بأسماء مؤلفات المسعودي كاملة، بل كان هو الوحيد الذي عن طريقه تعرفنا على أسماء غالبية مصنفاته، ومن غير تحريف أيضاً، وذلك في كتابيه المطبوعين، وقد بلغ عدد كتبه المذكورة فيهما سبعة وثلاثين كتاباً، منها عشرة في التنبيه، والباقي في المروج، والظاهر أن الكتب التي لم يرد لها ذكر إلا في التنبيه قد ألفها المسعودي بعد أن فرغ من كتاب المروج، أما تلك التي تحدث عنها في المروج أيضاً فقد تمَّ تأليفها بداهة قبله، وفي رأيي أن هذا العدد المذكور هو أقرب ما يكون إلى الصحة، وليس من المحتمل وجود كتب له غير مذكورة في هذين الكتابين، وذلك لأنه صرح مرات كثيرة أنه يعتبرها بمثابة الكشاف لكتبه السالفة[1]، ولأنه ألفهما في عهد متأخر من حياته ولا سيما كتاب التنبيه، ولما كان يوليه إياهما من العناية والاهتمام حيث كان يتوقع لهما الذيوع والانتشار، ولهذا فقد أودعهما جميع الضُوى التي تشير إليه وإلى أعماله السابقة، وإن كنا نجد عند بعض من كتبوا عنه أسماء مؤلفات لم يشر إليها في كتابيه، إلا أننا لا نجزم بصحة نسبتها إليه، لأننا نفتقد في قوائم الكتب التي أوردوها له عدداً من أسماء مؤلفاته الثابتة والتي ذكرها هو، بينما نجد أسماء بعضها محرفة عندهم، وعلى الرغم من ذلك فسأعرض في نهاية هذا الفصل وصفاً مجملاً لتلك المصنفات.

هذا وسأتبع في دراستي لمصنفات المسعودي التقسيم الآتي:

---

(١) إشارات المسعودي إلى هذا المعنى كثيرة جداً. انظر على سبيل المثال المروج ١/١٨، ٢/٢٨٣؛ والتنبيه، ص ٦، ٨٣، ١٤٥، ١٨٤.

أولاً ــ المطبوع:

وأعني بذلك كتب المسعودي التي عثر عليها وتمت طباعتها، ولا يوجد منها سوى كتابا مروج الذهب والتنبيه والإشراف، فحسب، وهذان الكتابان هما الأساس الحقيقي الذي قامت عليه هذه الدراسة، ومن خلال المعلومات الواردة فيهما سأبني أحكامي وأستنبط ملاحظاتي واستنتاجاتي حول كل ما يتعلق بهذا الموضوع. ثم سألحق ذلك بدراسة للكتابين المطبوعين والمنسوبين للمسعودي، وهما كتابا «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران» و«إثبات الوصية للإمام علي بن أبـي طالب»، رضي الله عنه.

ثانياً ــ المخطوط:

سأتناول في هذه الفقرة دراسة المخطوطات التي عثرت عليها وتحمل اسم المسعودي، أو يزعم أنها له، وأبين مدى صحة نسبتها إليها من عدمه.

ثالثاً ــ المفقود:

وفي هذه الفقرة سأعرض سائر مؤلفات المسعودي المفقودة حتى الآن، وسأحاول التعرف على محتويات كل كتاب ومباحثه، وذلك عن طريق ما ورد في الكتابين المطبوعين من إشارات إلى ذلك.

وأخيراً سأحاول أن أضع في نهاية الفصل تقويماً عاماً لمصنفات المسعودي، والله تعالى خير معين.

* * *

أولاً :

المطبوع

(أ) كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر :

يعتبر هذا الكتاب أحد الكتب التاريخية المهمة التي حظيت باهتمام وقبول في مختلف الأوساط، واحتل مكاناً مرموقاً ومحلاً بارزاً بين إنجازات العرب العلمية وانتشر بين الناس على نطاق واسع، وتلقفته الأيدي منذ ظهوره، وتبادله النساخ فيما بينهم[1]، حتى أن المسعودي نفسه حينما رأى ذلك الانتشار السريع والقبول الحسن أخذ يزيد في الكتاب ويتعاهده بالرعاية والتنقيح حتى قبيل وفاته[2].

ويذكر لنا المسعودي وجهة نظره حول تسمية الكتاب فيقول: «وقد وسمت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه من طوالع بوارع ما ضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه»[3] فهو سفر أودعه المسعودي معارف ومعلومات على درجة كبيرة من الأهمية من خير ما دونه في كتبه السالفة، وهو إذاً بمثابة المنجم الذي تستخرج منه المعادن النفيسة الثمينة.

أما عن سبب تأليف الكتاب فيخبرنا المسعودي أنه بعد أن ألف كتابه الأعظم وهو أخبار الزمان في التاريخ، ثم تلاه بالكتاب الأوسط في معناه، رأى

(١) التنبيه، ص ٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٣) المروج ١/١٨.

إجمال ما بسطه واختصار ما وسطه في كتاب لطيف يودعه لمع ما في ذينك الكتابين مما ضمنه إياهما»، وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والأعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما»[1].

وكأن المسعودي أدرك أنه ليس في مقدور كل إنسان أن يطلع على كتبه المطولة المستفيضة بالأخبار المفصلة، لصعوبة اقتناء تلك الكتب واستنساخها أو كأنه أوجس أن يد الضياع ستمتد إليها كما امتدت إلى غيرها، فأراد أن يضع في هذا الكتاب بعض الدلائل والعلامات التي تذكر بتلك السالفة، وشيئاً من الأخبار المقتضبة لبعض الموضوعات التي كان قد فصل الحديث عنها من قبل، فيجد القارىء بين يديه معلومات مركزة تغنيه ــ إن لم يكن نهماً ــ عن الرجوع إلى المطولات، وليعرف أيضاً أن المسعودي لم يكن غافلاً عن تلك الأخبار والمعلومات حينما أوردها موجزة في كتاب المروج.

ثم يوضح المسعودي الأهداف التي رمى إليها وقصدها من تأليفه فيقول: «وجعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات، لما قد ضمنته من جمل ما تدفع الحاجة إليه وتنازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف وغبر من الزمان، وجعلته منبهاً على أغراض ما سلف من كتبنا، ومشتملاً على جوامع يحسن بالأديب العاقل معرفتها ولا يعذر في التغافل عنها»[2].

والواقع أنه لا يكاد يخلو موضوع من الموضوعات التي طرقها المسعودي في هذا الكتاب من التنبيه على هذا الغرض، وهو التذكير بكتبه السابقة المطولة ذات الصبغة الموسوعية، وغيرها من كتبه الأخرى، والتأكيد على أن هذا الكتاب ليس إلا جوامعُ منبهة[3] ولمع موجزة مما لم يذكره فيما سلف[4] باعثة على درس ما تقدم[5].

---

(١) المصدر السابق ١/١٠.

(٢) المصدر السابق ١/١٨.

(٣) المصدر السابق ١/٢٧٤، ٣٢٦.

(٤) المصدر السابق ١/٩٤، ٣٢٦، ٢/١٦٤، ٥/١٧٤.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٨٣، ٤/٣٦٣.

ولعل المسعودي كان مدركاً أن من قرأ كتابه هذا ستتولد لديه رغبة قوية في الاطلاع على مؤلفاته السابقة بسبب تلك الإحالات المتكررة إليها، ومن جراء ذلك الأسلوب القوي الجذاب الذي استخدمه في طريقة إيراده للمعلومات النادرة المشوقة، ولذلك حرص على عرض محتوياتها والتنبيه عليها.

واشترط المسعودي على نفسه في هذا الكتاب أن يسلك طريق الاختصار والإيجاز[1]، وأن يدل بالقليل على الكثير وبالخبر اليسير على الجليل الخطير»[2] وذهب إلى تعليل ذلك بقوله: «إذ كان في الإكثار من الأخبار ثقل على القلوب وملل للسامع، وقليل الأخبار يغني عن كثير الاقتدار»[3].

وإذا ما نظرنا إلى خطة المسعودي في هذا الكتاب التي لخصها بقوله: «الإخبار عن جمل الأشياء وجوامعها لا عن تفصيلها وبسطها»[4] نجد أنه قد التزم بها إلى حد كبير، ولم يخرج عنها إلا قليلاً في بعض الحالات التي يستطرد فيها حينما يتشعب الكلام إليها ويتغلغل الوصف نحوها[5]، ولهذا نلحظ دائماً تركيزه على إيضاح أن كتابه «هذا كتاب خبر ليس كتاب آراء ونحل»[6]، وأنه «كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر»[7]، واستعماله البغية فيه[8]، وهي الاقتصار على ما يحتاج إليه، على الرغم من أنه كانت لديه مادة كثيرة عن أخبار المتقدمين وسير الملوك الغابرين، ولكنه لا يريد أن يبسط القول في ذلك بسبب ميل النفوس إلى قصار الأحاديث وشغفها بالطرائف والنوادر، هذا من ناحية، ومن

---

(١) المصدر السابق ١/١٤٨، ٣٠٤، ٣٢٧، ٢/٢٢، ٤٧، ٦٢، ١٤١، ١٥٤، ٢٣٥، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣٥٩، ٣٧٢، ٤١٧، ٣/٢٤، ٤٤، ٤/١٩٠، ٥/٢٤٣.

(٢) المصدر السابق ٥/٢٧٣، وانظر ٢/٢٣.

(٣) المصدر والسابق ٥/٢٣٠.

(٤) المصدر السابق ٢/٩١؛ وانظر: ١/١٥٣.

(٥) المصدر السابق ١/١١٠. وانظر ٢/٣١٦، ٤/٦٢.

(٦) المصدر السابق ١/٦٧.

(٧) المصدر السابق ١/٨٥، ٢/٣١٦.

(٨) المصدر السابق ١/١١٥.

ناحية أخرى لأنه كان قد ألف كتبه السابقة على سبيل الشرح والإيضاح[1].

وذكر المسعودي أنه أودع كتابه هذا أجزل الفوائد، وأن جميع ما أورده فيه «لا يسع ذا الدراية جهله ولا يعذر في تركه والتغافل عنه»[2]، لأنه جمع ما فيه من معلومات «في عدة من السنين باجتهاد وتعب عظيم، وجولان في الأسفار، وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير مملكة الإسلام»[3]، ولأنه لم يترك ـ كما يقول ـ «نوعاً من العلوم ولا فناً من الأخبار ولا طريقة من الآثار إلا وقد أوردناه في هذا الكتاب مفصلاً أو ذكرناه مجملاً أو أشرنا إليه بضروب من الإشارات أو لوحنا إليه بفحوى من العبارات»[4].

وكان تنويع المسعودي لمادة الكتاب مراعاة لأذواق الناس ومطالبهم المختلفة، ولإشباع ميول القراء مختلفي الطبائع ومتبايني الأمزجة، ولهذا أورد فيه أنواع العلوم وفنون الأخبار، وجمع فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة إلى علمه خوفاً من أن «يلحق الإنسان الملل بقراءة ما لا تهواه نفسه فينتقل منه إلى غيره»[5].

أما من حيث محتويات الكتاب فهو يشتمل على مائة وإثنين وثلاثين باباً، ذكرها المسعودي «على حسب مراتبها فيه واستحقاقها منه، لكي يقرب تناولها على من يريد تناول ذلك»[6] وخصص للحديث عنها الباب الثاني بأكمله، أما الباب الأول فقد جعله بمنزلة المقدمة في المؤلفات الحديثة، حيث تحدث فيه عن معاناته في جمع مادة الكتاب، ورحلاته التي قام بها في هذا السبيل، وقطعه البلاد النائية طولاً وعرضاً وتقحمه الشرق والغرب[7]، ثم تحدث عن سبب إقدامه على

(١) المصدر السابق ٢/ ٤١٨.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٨.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٣٧٨.
(٦) المصدر السابق ١/ ٢٠.
(٧) المصدر السابق ١/ ١٠.

التأليف في فن التاريخ، وذكر بعض كتبه التي ألفها من قبل في موضوعات مختلفة، ثم أورد قائمة للمصادر التي اطلع عليها، ولأشهر المؤلفات في التاريخ والأخبار، ومن خلال عرضه لها كان يعقد بعض المقارنات بينها، ويمارس شيئاً من التقويم والنقد لها.

والحقيقة أن بدء المسعودي بالبابين الأول والثاني وجعلهما كمدخل لكتابه هذا قد أعطاه ميزة وخاصية بين أقرانه من المؤرخين[1] حيث أتاح لمن أراد أن يقرأ كتابه أن يكون فكرة واضحة عن طريقة المؤلف، والجهود التي بذلها في إعداد الكتاب، ثم يعرف ما انتهى إليه البحث التاريخي حتى ذلك العهد بالاطلاع على تلك القائمة التي سرد فيها المسعودي أسماء من سبقوه في هذا المجال، ثم يجد القارىء بين يديه كشافاً بالموضوعات التي احتواها الكتاب تسهل عليه الوصول إلى ما شاء منها، والمسعودي بعمله هذا قد فتح الطريق أمام المؤلفين المحدثين الذين نهجوا نهجه وسلكوا مسلكه.

وابتداءً من الباب الثالث دخل المسعودي إلى موضوعات الكتاب، وأولها: في ذكر المبدأ وشأن الخليقة وذرء البرية من آدم إلى إبراهيم عليهما السلام[2] وآخرها: ذكر من حج بالناس من أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة[3]، وبين هذا وذاك اشتمل الكتاب على «الأخبار عن بدء العالم وأوليته وأقاويل الأمم في ذلك من أصحاب القدم والحدث، وما احتج به كل فريق منهم لقولهم على تباينهم، والخلق وتفرقهم على الأرض، والأنبياء وشرائعهم، والملوك وسيرهم وسياساتهم والأمم وآرائهم ونحلهم وشيمهم وأخلاقهم

---

(١) لم يسبق المسعودي في مجال ذكر المصادر ـ حسب علمي ـ إلا خليفة بن خياط في كتاب الطبقات حيث أشار إلى أسماء شيوخه الذين روى عنهم، كتاب الطبقات، تحقيق د. أكرم ضياء العمري الطبعة الثانية (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م)، ص ٢ ـ ٣؛ واليعقوبي حيث ذكر في أول الجزء الثاني الذي خصصه للتاريخ الإسلامي أسماء بعض الإخباريين الذين روى عنهم، تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م)، ج ٢ ص ٦.

(٢) المروج ١/ ٢٠.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٩.

ومساكنهم، من أخبار العرب، والفرس، والسريانيين، واليونانيين، والروم، والهند، والصين، وغيرهم من الأمم، ومن كان فيهم من الأطباء والحكماء والفلاسفة القدماء، والنواحي والآفاق، والأرض وشكلها وقسمتها، وما على ظهرها من عجيب البنيان، والعامر منها والغامر، والأفلاك وهيئاتها، والنجوم وكيفية تأثيراتها في هذا العالم الأرضي، ووصف الأقاليم السبعة ومقاديرها وأطوالها وعروضها، والبحار وخلجانها والمتصل منها والمنفصل، وما فيها وما حولها من العجائب، وما كان من الأرض براً فصار بحراً، وبحراً فصار براً على مرور الأزمان وكرور الدهور، وعلة ذلك وسببه الفلكي والطبيعي، والأنهار ومبادئها ونهاياتها، وأخبار الأمم الداثرة والممالك البائدة، وجامع تاريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، ومولده ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه وسواربه[1] إلى وفاته، والخلفاء والملوك من بعده، وكتابهم ووزرائهم، والغرر من أخبارهم، وما كان من الكوائن والأحداث والحروب في أيامهم إلى سنة ٣٤٥هـ في خلافة المطيع»[2].

* * *

متى ألف المسعودي هذا الكتاب؟

لأجيب على هذا السؤال قمت بحصر شامل لجميع السنوات ذات العلاقة بتأليف الكتاب، وهي السنوات التي غالباً ما يشير إليها المسعودي في نهاية حديثه عن أمة[3]، أو ملك[4]، أو بلد[5]، أو نهر[6]، أو جزيرة[7]،

(١) سرايا جمع سرية، وهي الحملة التي يبعثها النبي صلى الله عليه وسلم للاستطلاع أو القتال، دون أن يشترك فيها وهي مأخوذة من السُّرى وهو المشي في الليل، أما السوارب فهي التي تكون في وضح النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ الرعد، آية ١٠، ومعناها ظاهر ماش في بياضه. انظر: تفسير ابن كثير (بيروت: دار الفكر (١٤٠هـ)، ج ٢ ص ٥٠٤. وانظر: التنبيه، ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠.

(٢) التنبيه، ص ١١٠ ــ ١١١.

(٣) المروج، انظر على سبيل المثال ١/٦٦، ١٥٥، ١٦٣.

(٤) المصدر السابق، انظر على سبيل المثال ١/٩١، ٢١٦، ٢٣٦، ٢/٦٣.

(٥) المصدر السابق، انظر على سبيل المثال ١/٤٤، ٥٠، ١٩٣، ٢٥٢، ٢/١٦٩، ٤/٣٥٣.

(٦) المصدر السابق، انظر على سبيل المثال ١/١١٤، ٢٤٦، ٢/٧١.

(٧) المصدر السابق، انظر على سبيل المثال ٢/١٠٠.

أو قبر[١]، أو رجل[٢]، أو أي شيء غير ذلك[٣]، حيث أن المسعودي يبين الحالة التي كان عليها ذلك الشيء وقت كتابته عنها.

ولكن قبل أن أذكر رأيي في هذا الموضوع أحب أن أعرض بعض الآراء التي قيلت فيه، فالدكتور جواد علي في بحثه عن «موارد تاريخ المسعودي» ذكر أن المسعودي شرع بتأليف «هذا الكتاب سنة **٣٣٢هـ**... ثم استمر في تسويده وإكماله إلى أن انتهى منه في جمادى الأولى سنة **٣٣٦هـ**، وكان ذلك بفسطاط مصر، فكانت هذه النسخة هي النسخة الأولى للكتاب... فتكون مدة اشتغاله بها حوالي أربع سنوات وتنتهي حوادثها بحوادث سنة **٣٣٦** للهجرة»[٤].

أما الأستاذ هادي حسين حمود فذهب في رسالته[٥]، وفي بحثه عن «مؤلفات المسعودي» إلى أن المسعودي ألّف معظم المروج في سنة **٣٣٢هـ**، إلا أنه يتابع الدكتور جواداً علي، فيذكر أنه «انتهى من تأليفه في الفسطاط جمادى الأولى سنة **٣٣٦هـ**»[٦].

والواقع أن لي رأياً يخالف رأي الأستاذين الفاضلين فيما يتعلق بتأليف هذا الكتاب، فمن خلال استعراض جميع السنوات المذكورة ذات الصلة بالموضوع تبين أن المسعودي شرع في تصنيف الكتاب سنة **٣٣٢هـ**، في خلافة المتقي لله **(٣٢٩ ـ ٣٣٣)**[٧] وأنه أتمه في السنة نفسها، والدليل على ذلك أننا نجد

---

(١) المصدر السابق، انظر على سبيل المثال: ٢/١٣، ٣٦، ٣/١٨٨.

(٢) المصدر السابق، انظر على سبيل المثال: ١/١٩٢، ٢١٢، ٢٢٧، ٤/٩٦، ٢٧٠، ٣٥٠، ٥/٢١٥.

(٣) الحقيقة أن إشارات المسعودي إلى تلك السنوات في كتاب المروج كانت كثيرة جداً تزيد عن تسعين مرة، ذكر سنة **٣٣٢هـ** فيها حوالي اثنتين وسبعين مرة.

(٤) جواد علي: موارد المسعودي، ص ١٠.

(٥) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، ص ٧٣.

(٦) «موارد تاريخ المسعودي»، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الثالث (بغداد **١٣٩٩هـ**)، ص ٦٧.

(٧) انظر المروج ١/١٠، وقد ورد ذكر هذا الخليفة في هذا الكتاب مرات كثيرة نظراً لأن المسعودي كان مقدراً أن ينهي الكتاب في عهده، فارتبط اسمه بذهنه، فذكره في ٢/٦٣، ٤١٦، و٤/٧٢، ٧٤، ٢٨١، ٥/١٧٦.

إشارات المسعودي إلى هذه السنة مستمرة في ثنايا الكتاب بجميع أجزائه وحتى ـ قبيل نهاية الجزء الأخير منه، وعلى وجه التحديد في نهاية حديثه عن الخليفة العباسي القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢)[١]، وهناك دليل آخر وهو نص المسعودي صراحة على تأليف الكتاب في هذه السنة، وهو قوله في معرض حديثه عن النسخة الأخرى التي كتبها فيما بعد، «وهي أضعاف ما تقدم من النسخة المؤلفة في سنة ٣٣٢»[٢].

ثم عاد المسعودي إلى الكتاب في شهر جمادى الأولى من سنة ٣٣٦ فزاد فيه أحداث السنوات من ٣٣٢ ـ ٣٣٦ الواقعة في خلافة المتقي لله[٣]، والمستكفي بالله[٤]، وشطراً من خلافة المطيع لله[٥]، وراجع بعض أبواب الكتاب فعدل بعض السنين التي أثبتها من قبل إلى سنة ٣٣٦[٦]، لكنه لم يأتِ عليها كلها.

وكان في نية المسعودي أن يزيد في الكتاب ما يحدث من حوادث وما يستجد من أيام الخلفاء إن فسح له في الأجل ومُدَّ له في العمر[٧]، وقد حدث ذلك، ففي سنة ٣٤٥ أعد نسخة جديدة ومنقحة ومزيدة من مروج الذهب أصبحت أضعاف النسخة الأولى التي ألفها سنة ٣٣٢، يقول عنها ـ في معرض

---

(١) المصدر السابق ٥/٢١٥.

(٢) التنبيه، ص ١٥٥. وانظر مقدمة الطبعة الفرنسية للكتاب، معربة بقلم الأستاذ يوسف أسعد داغر، في طبعة دار الأندلس (بيروت سنة ١٣٨٥)، ص ٩.

(٣) بويع المتقي لله، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر لعشر خلون من ربيع الأول سنة ٣٢٩، وخلع وسملت عيناه يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ٣٣٣، المروج ٥/٢٣١.

(٤) بويع المستكفي بالله، وهو أبو القاسم عبدالله بن علي المكتفي يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ٣٣٣، وخلع في شعبان سنة ٣٣٤ لسبع بقين من هذا الشهر، انظر: المروج ٥/٢٤٤.

(٥) بويع المطيع لله، وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر، لسبع بقين من شعبان سنة ٣٣٤، وتوقف المسعودي في تاريخه هذا عند عهد هذا الخليفة، المروج ٥/٢٥٩.

(٦) والظاهر أن المسعودي ركز مراجعته للكتاب على الجزء الثاني فجاءت أكثر تعديلاته فيه، انظر: ١/٢٩، ١٩٣، ٢/١٤٧ ـ ١٤٨، ١٥٠ ـ ١٥١، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٩٢، ٣٩٨ ـ ٣٩٩، ٤٠٧، ٤١١، ٥/٢١٥، ٢٧٣، ٢٧٥.

(٧) المروج ٥/٢٨٢.

حديثه عن خسرو ابرويز الفارسي: «وقد أتينا على ما كان في أيامه في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في النسخة الأخيرة التي قررنا أمرها في هذا الوقت وهي سنة ٣٤٥، وهي أضعاف ما تقدم من النسخة المؤلفة في سنة ٣٣٢»[١]، ويقول عنها أيضاً ــ وهو يؤرخ لأباطرة الروم ــ «وفي النسخة الأخيرة من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر التي قررنا أمرها في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا [٣٤٥] وهي أضعاف ما تقدم من النسخ»[٢].

وجُزِّىء الكتاب في النسخة الأخيرة على «ثلاثمائة وخمسة وستين جزءاً، فإذا اجتمع كانت سمته مروج الذهب ومعادن الجوهر، وإذا افترق كان كل جزء منه كتاباً قائماً بنفسه مضافاً إلى ما اشتمل عليه وأفرد له»[٣]، وكان الجزء السابع منه محتوياً على أخبار الفرس الأولى «وهم الكيانيون والطوائف من الأشغان والأردوان وغيرهم، والساسانية وطبقاتهم وأنسابهم وملوكهم إلى يزدجرد بن شهريار آخرهم . .»[٤].

ومن الراجح أن المسعودي قد أضاف تاريخ أحداث السنوات التي وقف عندها في النسخة الأولى حتى سنة ٣٤٥، وعلى الرغم من هذه الإضافة «والزيادات الكثيرة، وتبديل المعاني، وتغيير العبارات»[٥]، ومضاعفة حجم هذه النسخة الأخيرة واجتهاد المسعودي في أن يخرجها بصورة حسنة، بعثت الرضا في نفسه، وقرر أمرها واعتبرها هي المعوَّل عليها دون غيرها من النسخ ــ أقول على الرغم من ذلك كله فإنها لم تبلغ مبلغ النسخة الأولى من حيث انتشارها بين الناس واستفاضتها بينهم، وذلك بشهادة المسعودي نفسه[٦]، ومما يؤكد ذلك

(١) التنبيه، ص ١٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٥ ــ ١٧٦؛ وانظر ص ١١٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١١١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٧؛ وانظر ص ٩٤، ١٠٥، ١٤٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٩٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٩٧، والسبب في ذلك هو أن النسخة الأولى تناقلها النساخ منذ ظهورها، وانتشرت بين الناس بصورة سريعة بسبب تقبلهم لها، فلما ظهرت النسخة الثانية وكانت أكبر حجماً من الأولى لم تلق من العناية والاهتمام والتقبل مثلما لقيته سابقتها.

الانتشار ذلك العدد الهائل المحفوظ من مخطوطات المروج [النسخة الأولى] في مكتبات الشرق والغرب[1]، ولعل ذلك الانتشار كان هو السبب في بقاء تلك النسخة حتى عصرنا هذا، فهي الموجودة والمطبوعة.

أما النسخة الثانية فقد ضاعت كما ضاع غيرها من تراث المسعودي، لكنها كانت موجودة في زمن المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥هـ)، حيث كان ينقل منها واعتمد عليها في كتابه الخطط، والدليل على ذلك أنه قال ـ وهو يتحدث عن زيادات النيل حكاية عن المسعودي ـ: «قال والمعمول عليه في وقتنا هذا وهو سنة خمس وأربعين وثلثمائة أنه زاد على الستة عشر ذراعاً»[2].

* * *

هذا وقد حاول المسعودي أن يضفي شيئاً من الحصانة على كتابه هذا، وعلى سائر كتبه الأخرى، ليحميها من عبث العابثين، فوضع تخويفاً في أول الكتاب وفي آخره قال فيه: «فمن حرّف شيئاً من معناه أو أزال ركناً من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه أو لبس شاهدة من تراجمه، أو غيره أو بدله أو انتخبه أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو إضافة إلى سوانا، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره، وجعله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين وآية للمتوسمين، وسلبه الله ما أعطاه وحال بينه وبين ما أنعم به عليه من قوة ونعمة مبدع السموات والأرض، من أي الملل كان والآراء، إنه على كل

(١) توجد نسخ خطية كثيرة في مكتبات باريس وفيينا وليدن ولندن واكسفرد وكمبريدج ومنشستر واسكوريال واستراسبورغ وميلان وفاس والجزائر والقاهرة واستنبول والموصل وبنكيبور وغير ذلك من كبار المدن وصغارها.
انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٥٨/٣؛ وفؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية د. محمود فهمي حجازي ود. فهمي أبو الفضل، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧)، ج١ ص٥٣٧ ـ ٥٣٨).

(٢) أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت: دار صادر، بدون تاريخ)، ج١ ص٦٠، وسنشير لهذا الكتاب بالخطط المقريزية.
وهذا النقل ليس من نسخة المروج الأولى لأنها لا تتعدى سنة ٣٣٦هـ، ولوجود إضافات في النص المذكور لا توجد فيها، وليس كذلك من التنبيه لعدم وجود هذا النص فيه.

شيء قدير، وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي وآخره ليكون رادعاً لمن ميَّله هوى أو غلبه شقاء، فليراقب أمر ربه وليحاذر منقلبه، فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة، وإلى الله المصير»[1] «وكذلك نقول في سائر ما تقدم من تصنيفنا ونظمناه من تأليفنا»[2].

طبعات كتاب المروج وترجماته:

لقي هذا الكتاب عناية كبيرة فطبع عدة طبعات في الغرب وفي الشرق، وسأستعرض بإيجاز أهم طبعاته وترجماته إلى اللغات المختلفة:

* طبع أول مرة في باريس عام ١٧٨٧م بعناية (De Guignes)[3].
* ثم نشر بين عامي ١٨٦١ ـ ١٨٧٧م في باريس أيضاً، مع ترجمة فرنسية، في تسعة أجزاء بعناية المستشرقين الفرنسيين باربيه دي مينار (Barbier De Meynard) وباڤيه دي كرتاي (Pavet De Courtaille)، ونشرته مكتبة بنجامين ديرا وهذه الطبعة محشوة بالأخطاء النحوية، ومشحونة بالأغلاط والتصحيفات والتحريفات[4]، إضافة إلى أن الترجمة غير صحيحة في بعض الأحايين[5].
* أما أقدم طبعة له في مصر فهي طبعة بولاق سنة ١٢٨٣هـ، في جزئين[6].
* وطبع بهامش كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري، بالقاهرة سنة ١٣٠٢ ـ ١٣٠٤هـ، في الأجزاء الثلاثة الأولى[7].

---

(١) المروج، ١/١٨ ـ ١٩.

(٢) المصدر السابق، ٥/٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٣) د. عبدالله يوسف الغنيم: المخطوطات الجغرافية العربية في المتحف البريطاني، (الكويت: مطابع كويت تايمز، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ١٤.

(٤) انظر: مقدمة المروج، تحقيق شارل بلا ١/٥.

(٥) جان سوفاجيه: رائد التراث العربي، اقتبسه صلاح الدين المنجد، (بيروت: دار العلم للملايين ١٩٤٧م)، ص ٤١.

(٦) انظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٣/٥٨.

(٧) المرجع السابق، ٣/٥٨.

* وطبع بهامش كتاب الكامل لابن الأثير، في القاهرة سنة ١٣٠٣هـ، في الأجزاء من الأول إلى العاشر[١].

* وطبع في القاهرة أيضاً بمفرده سنة ١٣٠٣هـ[٢].

* وطبع فيها أيضاً سنة ١٣١٣هـ[٣].

* ثم حققه الأستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد، وطبعه عدة طبعات في القاهرة[٤].

* وطبعته دار الأندلس في بيروت سنة ١٣٨٥/١٩٦٥م، ووضع فهارس تلك الطبعة يوسف أسعد داغر.

* قام شارل بلا (Charles Pellat) بتصحيح القسم العربي من طبعة دي مينار ودي كرتاي الفرنسية وحققها في بيروت من سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٩م، في سبعة مجلدات تحتوي على فهارس متنوعة، نشرته الجامعة اللبنانية، وقد اعتمدت على هذه الطبعة في بحثي هذا لجودتها وحداثتها.

* وحقق يوسف أسعد داغر الكتاب وطبعه في بيروت سنة ١٩٧٣م، ولهذه الطبعة فهارس متنوعة أيضاً.

* في سنة ١٨٤١م بدأ الدكتور لويس سبرنجر (L. Sprenger) بترجمة الكتاب إلى اللغة الانجليزية لكنه لم ينجزه كاملاً، فلم يظهر إلا قسم منه[٥].

* توجد مخطوطة لترجمة فارسية لقسم منه في مكتبة كلية الفلسفة بطهران[٦].

---

(١) المرجع السابق، ٣/٥٨.
(٢) د. الغنيم: المخطوطات الجغرافية. .، ص ١٤.
(٣) المروج ١/٦.
(٤) سزكين: تاريخ التراث العربي، ١/٥٣٩.
(٥) أ. فازلييف: العرب والروم، ترجمة عبدالهادي شعيرة (القاهرة، بدون تاريخ)، ص ٢٤٨؛ وكارادفو: مفكرو الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الأولى (بيروت: الدار المتحدة للنشر ١٩٧٩م)، ص ١٠٠.
(٦) سزكين: تاريخ التراث العربي، ١/٥٣٨.

* وله ترجمة فارسية كاملة أعدها ميرزاحيدر علي فخر الأدباء، سنة ١٣١٦هـ، توجد في طهران[١].
* عملت له ترجمات جزئية إلى لغات مختلفة[٢].

وما من شك في أن كتاباً مثل المروج يحظى بهذا الاهتمام البالغ من الطبعات الكثيرة، والتحقيقات المتعددة، والفهارس المتنوعة، لهو كتاب ـ حقاً ـ على درجة كبيرة من الأهمية، جعلت العلماء الأوروبيين يحملون رأياً حسناً عنه وعن مؤلفه منذ القرن الثامن عشر الميلادي، ويرفعونه إلى مرتبة سامقة[٣] نستشف ذلك من خلال النقول والمقتطفات الكثيرة المأخوذة من المروج، والتي أثبتوها في أبحاثهم المختلفة عن الحضارة الإسلامية، وثنائهم العاطر عليه[٤]، واهتمامهم بطباعته، ونقله إلى لغاتهم، هذا مع ما كان له من عناية وأهمية خاصة في المشرق منذ تأليفه.

(ب) كتاب التنبيه والإشراف:

هذا الكتاب الثاني المطبوع من كتب المسعودي، كما أنه في الوقت نفسه هو السابع ضمن سلسلة الكتب التاريخية المسعودية، والأخير منها، ولذلك كان له أهمية خاصة، إذ أن المسعودي أودعه آراءه النهائية في جميع الموضوعات التي عالجها كما أودعه أفكاره الناضجة بعد رحلة حياته المليئة بالتجارب والدروس والمفاجآت.

أما سبب تأليف الكتاب فأفصح عنه المسعودي بعد أن قدم عرضاً لمجموعة كتبه التاريخية ومحتوياتها، حيث أراد أن يودع هذا الكتاب «من فنون

---

(١) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/٥٩.
(٢) المرجع السابق، ٣/٥٩.
(٣) انظر: مقدمة الطبعة الفرنسية للمروج، ترجمة الأستاذ يوسف أسعد داغر، ١/١٠.
(٤) انظر كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١/١٨١؛ وفرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي، بغداد: مكتبة المثنى ١٩٦٣م، ص ١٨٧.

المعارف وضروب الأخبار مما لم تأت الترجمة على وصفه ولا انتظمت ذكره»[1] لا سيما وأنه قد تحصل لدى المسعودي معلومات جديدة عن بعض الطوائف والأديان بعد استقراره بمصر واختلاطه ببعض العلماء الأقباط.

ومن الأهداف الرئيسة لتأليف الكتاب، والتي ركز عليها المسعودي في مواضع كثيرة منه، أنه أراد أن يشتمل على لُمَع وجوامع تكون منبهة على ما تقدم جمعه وتأليفه من كتبه السالفة[2]، وليكون مدخلاً إليها[3]، ولا سيما أنه كان مبنياً عليها وسلماً إليها[4]، وإن في اسم الكتاب لأفصح تعبير عن هذا المعنى.

ومن الواضح أنه هنا اعتمد الإيجاز والاختصار طريقاً، إذ «في القليل كفاية لمن كان له بالعلم عناية»[5] والدلالة بالشيء اليسير على الشيء الكثير[6]، «ومن ضمن الاختصار لم يجز له الإكثار»[7]، وركز المسعودي على أن يذكر فيه «طرفاً من كل باب ليستدل الناظر فيه بما رسمناه على المراد مما تركنا قانعين بالتعريض والإشارة من التطويل في العبارة»[8]، هذا مع التركيز على اختيار أفضل وأوجز الآراء عندما تختلف وجهات النظر في قضية من القضايا[9]، لأن الكتاب كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر[10]

أما من حيث محتويات الكتاب فقد تحدث عنها المسعودي حينما قال: أردنا أن «نودعه لمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها، والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة، وما لكل فصل من المنازل، والتنازع في المبتدأ به منها، والاستقصات، وغير ذلك، والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها، والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها

(١) التنبيه، ص ٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٦، ١٥١، ١٥٨، ١٧٦، ١٨٤، ٣٣٤، ٤٠١.
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٤) المصدر السابق، ص ٨٣.
(٥) المصدر السابق، ص ٤٥.
(٦) المصدر السابق، ص ٧٢.
(٧) المصدر السابق، ص ٢٢٧.
(٨) المصدر السابق، ص ٢٢٧.
(٩) المصدر السابق، ص ٢٨١.
(١٠) المصدر السابق، ص ٣٥٤.

وغامرها، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها، وتأثيراتها في سكانها وما اتصل بذلك، وذكر الأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها، وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة، الخمسة والنيرين، ووصف الإقليم الرابع وتفضيله على سائر الأقاليم، وما خص به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها، وما اتصل بذلك من الكلام في عروض البلدان وأطوالها، والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك، وذكر البحار وأعدادها، وما قيل في أطوالها وأعراضها واتصالها وانفصالها، ومصبات عظام الأنهار إليها، وما يحيط بها من الممالك، وغير ذلك من أحوالها، وذكر الأمم السبع في سالف الزمان ولغاتهم وآرائهم ومواضع مساكنهم وما بانت به كل أمة من غيرها وما اتصل بذلك، ثم نتبع ذلك بتسمية ملوك الفرس الأولى والطوائف والساسانية على اختلاف طبقاتهم وأعدادهم ومقدار ما ملكوا من السنين، وملوك اليونانيين وأعدادهم ومقدار ملكهم، وملوك الروم على طبقاتهم من الحنفاء، وهم الصابئون والمتنصرة وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين، وما كان من الكوائن والأحداث العظام الديانية والملوكية في أيامهم، وصفة بنودهم وحدودها ومقاديرها وما يتصل منها بالخليج وبحري الروم والخزر.. وذكر الأفدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت[1]، وتواريخ الأمم، وجامع تاريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحصر ذلك وما اتصل به، ومعرفة سني الأمم الشمسية والقمرية وشهورها وكبسها ونسيئها، وغير ذلك من أحوالها.. وذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواربه وكتابه ووفاته، والخلفاء بعده، والملوك وأخلاقهم وكتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم، وما كان من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية في أيامهم، وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع»[2].

---

(١) إن ما كتبه المسعودي عن الأفدية بين المسلمين والروم هو من أفضل ما كتب عنها، انظر التنبيه، ص١٨٩ ــ ١٩٦.

(٢) التنبيه، ص٤٠١.

والواقع أننا إذا نظرنا إلى موضوعات الكتاب نظرة شاملة نجد أنه يشتمل على ثلاثة أقسام رئيسة: فالقسم الأول، مخصص للمادة الجغرافية، وتشمل موضوعات من الجغرافيا الفلكية والطبيعية والوصفية[1]، والقسم الثاني مخصص للفرس والروم، والقسم الثالث مخصص للتاريخ الإسلامي، ويفصل بين القسمين الأول والثاني فصل مهم حول الأمم السبع في سالف الزمان، وهو في الحقيقة مقدمة للقسم الثاني، ويربط بين القسمين الثاني والثالث فصلان حول طرائق تعيين التواريخ وتحديد الأوقات عند مختلف الأمم[2].

ويذكر المسعودي في نهاية الكتاب أنه سبق له وأن ألف في سنة ٣٤٤ نسخة أولى منه كانت على الشطر من هذه النسخة، ثم زاد فيها ما رأى زيادته وكمال الفائدة به «فالمعول من هذا الكتاب على هذه النسخة دون المتقدمة»[3].

وكان فراغ المسعودي من تأليفه لهذا الكتاب بفسطاط مصر سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع[4]، ومن حسن الحظ أن التي وصلتنا هي النسخة الأخيرة المعتمدة من قبل المسعودي، وهي التي طبعت:

- وقد لقي هذا الكتاب العناية والاهتمام بطبعه وترجمته منذ عام ١٨١٠م، فقد راجعه وعلق عليه المستشرق ساكي (Saki)[5]
- ثم نشره دي غويه (De Coeja) ضمن المكتبة الجغرافية العربية تحت رقم ٨ في ليدن سنة ١٨٩٤م، مع تعاليق وذيول[6].
- ثم طبع في القاهرة عام ١٣٥٧هـ بتحقيق الأستاذ عبدالله إسماعيل الصاوي، وذكر بعض الاستدراكات على الطبعة الأوروبية[7].

---

(١) انظر كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١٨٢/١.
(٢) انظر ناصيف نصار: مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨م)، ص٦٦.
(٣) التنبيه، ص٤٠١.
(٤) المصدر السابق، ص٤٠١.
(٥) الخربوطلي: المسعودي، ص٣٨.
(٦) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٥٩/٣.
(٧) انظر مقدمة هذه الطبعة، ص (ك).

- وقد أعيد تصوير طبعة أوروبا في مكتبة خياط في بيروت سنة ١٩٦٥م، وقد اعتمدت على هذه الطبعة المصورة في دراستي[١].
- وأعيد تصوير طبعة الصاوي في مكتبته المثنى ببغداد[٢].
- وأعادت تصويره عن هذه الطبعة أيضاً دار التراث في بيروت[٣].
- وأخيراً طبعته دار الهلال ببيروت سنة ١٩٨١م، معتمدة على طبعة الصاوي السابقة.

أما من حيث ترجماته، فقد كان ترجمه إلى اللغة الفرنسية كارا دي فو (Carra de Vaux) في سنة ١٨٩٧م[٤]، وإلى اللغة الأوردية عبدالله العمادي في حيدر أباد سنة ١٩٢٦م[٥].

هذا وقد كان المستشرقون منقسمين حول قيمة هذا الكتاب، فبعضهم ينزل به إلى أدنى، وآخرون يرفعونه إلى مكانة عالية، قال، دي مينار ناشر المروج ومترجمه إلى الفرنسية: «فكتاب التنبيه والإشراف الذي رأى فيه كريمر (Kramer) (أنشودة ألتم) ليس بالفعل سوى مختصر وجيز جامد جاف، إذ أنه سرد ممل لا مرح فيه ولا حياة، لأسماء ومسميات وتواريخ تنفر العين من قراءتها نفورها من كشاف أو فهرس تراصفت فيه الأسماء وتتالت بسأم، ولكن إذا ما قارناه بمروج الذهب وعارضنا هذا بذاك اكتسب الأول قيمة لم نكن لنتوقعها له، فالحوادث التي تخفيها الظلال لا تلبث أن تبرز بوضوح، والصور الناصلة تأخذ بالحركة وتمور بالحياة»[٦].

---

(١) وذلك لسببين: الأول أني لم أعثر على طبعة الصاوي إلا بعد أن قطعت شوطاً في إعداد هذه الرسالة، الثاني أنه لا توجد ملاحظات جذرية أو اختلافات كبيرة بين الطبعتين.
(٢) الغنيم: المخطوطات العربية، ص١٩.
(٣) المرجع السابق، ص١٩.
(٤) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/٥٩.
(٥) سزكين: تاريخ التراث العربي، ١/٥٣٩.
(٦) مقدمة الطبعة الفرنسية: الترجمة العربية بقلم يوسف أسعد داغر، ١/٩.

ويقول بروكلمان: إن المسعودي «جمع فيه خلاصة مجهوده الأدبي»[1].

أما كراتشكوفسكي فيؤكد أن «اتساع أفق المسعودي ليظهر بجلاء أيضاً في مصنفه هذا»[2].

ومما يزيد في أهمية هذا الكتاب بالنسبة لمؤلفات المسعودي أنه زيادة على ما سبق إيضاحه من أهميته يضيف معلومات جديدة لم يذكرها من قبل، حدثت بعد تأليفه لكتبه السابقة وحتى سنة ٣٤٥هـ.

(ج) كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران: (منسوب)

في سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م طبع الأستاذ عبدالله الصاوي في القاهرة كتاباً يحمل هذا العنوان، ونسبه إلى المسعودي.

وإذا ما نظرنا إلى محتويات هذا الكتاب نظرة عامة نجد أنه ينقسم إلى قسمين غير متساويين، أولهما وهو الأصغر يبحث في خلق العالم وعجائب الأمم القديمة، ويركز مؤلفه هنا بشكل خاص على الأساطير والعجائب المتعلقة ببحر الهند.

وثانيهما وهو الأكبر يعالج التاريخ الأسطوري القديم لمصر، وهو لا يعتمد فيه على المصادر اليونانية أو الروايات الهيروغليفية[3].

والحقيقة أن هذا الكتاب يختلف كثيراً عن كتاب المسعودي المعروف الذي أفاض في الحديث عنه في كتابيه المطبوعين السابقين، وهو كتاب «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة»[4]، ولا يمكن أن يكون هو بحال من الأحوال للاعتبارات التي سأذكرها فيما يرد بعد.

---

(١) تاريخ الأدب العربي، ٣/٥٩.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١/١٨٣.

(٣) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١/١٨٥.

(٤) سيأتي الحديث عن هذا الكتاب ضمن كتب المسعودي المفقودة.

وقد سبقني في الحديث عن هذا الكتاب، وكتاب إثبات الوصية للإمام علي بن أبـي طالب[1] كل من الدكتور جواد علي[2] والأستاذ هادي حسين حمود[3]، ومن قبلهما المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي[4]، وأثاروا قضية التشكيك في نسبة هذا الكتاب للمسعودي، وأوردوا عدداً من الأدلة التي تباعد بين هذا الكتاب وبين المسعودي[5].

أما الأستاذ الصاوي ناشر الكتاب فحينما جاء يقدم له وقع في حيرة وارتباك، فمرّة قال: إنه كتاب أخبار الزمان نفسه[6]، ومرة قال: إنه اختصار له[7]، أو قسم منه[8]، ومرة رابعة قال: إن كتاب أخبار الزمان المعروف للمسعودي غير هذا[9]، ثم ساق عدداً من الأدلة التي تثبت صحة هذا الرأي[10].

أما من حيث نسبة الكتاب إلى المسعودي فأكد الصاوي أنه له و «في غاية من القوة»[11].

هذا وبعد قراءة الكتاب وإمعان النظر فيه ظهر لي وبصورة واضحة وجلية أنه ليس للمسعودي، بل هو بعيد عنه كل البعد، ويمكن أن أضيف زيادة على ما ذكره الأساتذة السابقون الأدلة الآتية:

---

(١) سأتحدث عنه بعد هذا الكتاب مباشرة.
(٢) موارد المسعودي، ص٧ ـ ٩.
(٣) منهج المسعودي، ص٦٤.
(٤) انظر تاريخ الأدب الجغرافي، ١/١٨٥ ـ ١٨٦.
(٥) يمكن مراجعة هذه الأدلة في الصفحات المشار إليها آنفاً.
(٦) أخبار الزمان المطبوع، ص٨.
(٧) المصدر السابق، ص١٤.
(٨) المصدر السابق، ص١٧.
(٩) المصدر السابق، ص١١.
(١٠) المصدر السابق، ص١١ ـ ١٤.
(١١) المصدر السابق، ص١٤.

* ورد في الكتاب المطبوع في حديثه عن الأنهار الأربعة ـ سيحان وجيحان والنيل والفرات ـ أنها تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي من وراء البحر المظلم، ثم قال: «وممن جاء بهذا وذكره أبو صالح كاتب الليث وغيره من المحدثين، ذكروا أن رجلاً من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ يقال له حايد وصل إلى القبة، وله خبر يطول ذكره، هذا الخبر الذي قال المسعودي إنه يطول ذكره أثبته هنا»[١].

فيظهر من هذا أن المسعودي هو أحد مصادر الكتاب وليس مؤلفه، وليس بعد هذا التصريح من بيان.

* طغيان المادة الخرافية على محتويات الكتاب، وولع مؤلفه بإيراد القصص والحكايات الغريبة، فهو كتاب أشبه بقصص ألف ليلة وليلة بما حواه من خرافات وأساطير لا تمتّ إلى سمت العلماء ووقارهم الذي يتحلى به المسعودي بصلة.

* ترتيب الأبواب في هذا الكتاب يختلف كثيراً عن ما درج عليه المسعودي في ترتيبه التاريخي لأبوابه في مروج الذهب والتنبيه والإشراف، فعلى سبيل المثال نجد أنه تحدث عن الفرس[٢]، ثم عن اليونانيين[٣]، ثم عن الروم[٤]، في كلا الكتابين بهذا الترتيب. بينما نجد في هذا الكتاب أنه تحدث عن اليونانيين[٥]، وبعد عدد من الأبواب القصيرة تحدث عن الافرنج[٦]، [هكذا] وبعدها أيضاً تحدث عن الروم[٧]، ثم عن الفرس[٨].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤٣.
(٢) المروج، ١/ ٢٦٠ ـ ٣٢٧؛ والتنبيه، ص٨٥ ـ ١١١.
(٣) المروج، ٢/ ٥ ـ ٣١؛ والتنبيه، ص١١١ ـ ١٢٢.
(٤) المروج، ٢/ ٣٢ ـ ٦٤؛ والتنبيه، ص١٢٢ ـ ١٩٦.
(٥) أخبار الزمان (المطبوع، ص٩٣.
(٦) المصدر السابق، ص٩٦.
(٧) المصدر السابق، ص٩٩.
(٨) المصدر السابق، ص١٠٠.

والمادة التاريخية المشتملة عليها هذه الأبواب تختلف كثيراً عن ما هو موجود في كتب المسعودي من حيث الشكل والمضمون.

* كثرة الأخطاء النحوية وتكرارها، مما يدل على جهل مؤلفه بقواعد اللغة العربية، ولا سيما في مسألة تذكير وتأنيث الأعداد[1].

* ركاكة أسلوب مؤلفه، واستخدامه ألفاظاً لم ترد مطلقاً على لسان المسعودي في كتابيه المطبوعين[2].

وعلى أية حال فلم أعتمد على هذا الكتاب فيما يتصل ببحثي هذا لاعتقادي أنه ليس للمسعودي للأدلة التي سقتها والأدلة التي ذكرها غيري من قبل.

وقد عرف هذا المصنف في أوروبا مبكراً، وترجمه إلى الفرنسية فاتييه (Fattier) منذ عام ١٦٦٦م معتمداً على نسخة خطية فقدت بالتالي، ونسبه إلى شخص من نسج خياله.

وفي عام ١٨٩٨م ترجمه ترجمة علمية إلى اللغة الفرنسية أيضاً المستشرق كارادافو (Carra de Vaux)[3] معتمداً على نسخ خطية كثيرة محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس.

وقد سبقت الإشارة إلى طبعة الصاوي له في سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

وطبعته كذلك دار الأندلس في بيروت عدة مرات.

---

(١) المصدر السابق، انظر مثلاً، ص٢٨، ٣٠ ـ ٣١، ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) المصدر السابق، مثلاً في افتتاح الكتاب قال: «قال الشيخ أبو الحسن»، مع أن لفظة (الشيخ) لم ترد على لسان المسعودي في مثل هذا المقام، انظر، ص٢٣؛ ولفظة أخرى مشابهة وهي «قال المسعودي رحمه الله»، ص٣٩، ولم يعرف أن المسعودي كتب مثل هذا، وإن ورد احتمال أن هذه الألفاظ من زيادات النساخ، إلا أنها لم ترد في كتب المسعودي الثابتة، وانظر قوله: «وباقي ذكرها عند ذكر مدائن مصر إن شاء الله تعالى»، ص٤٩ عبارة ركيكة، وتعبيره عن المساحة بالتسكير، مثل قوله: «وجزائر الرانج كثيرة منها جزيرة تعرف بسديدة تكسيرها أربعمائة فرسخ..»، ص٦٢، وغير هذا كثير.

(٣) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١/١٨٦.

(د) كتاب إثبات الوصية للإمام علي ابن أبـي طالب (عليه السلام) : (منسوب) :

طبع هذا الكتاب ونسب إلى المسعودي، وهو يبتدىء بهـذه العبارة: «الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، روى عن عالم أهل البيت، عليهم السلام. . .»[١]، وينتهي بقوله: «وللصاحب ـ عليه السلام ـ منذ ولد إلى هذا الوقت وهو شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ست وسبعون سنة وأحد عشر شهراً ونصف شهر، قام مع أبيه أبـي محمد أربع سنين وثمانية أشهر، ومنها منفرداً بالإمامة [اثنتان وسبعون][٢] سنة وشهوراً، وقد تركنا بياضاً لمن يأتي بعدنا والسلام»[٣].

أما من حيث محتويات الكتاب فقد تناول فيه مؤلفه فكرة الوصية عند الشيعة والمتوارثة منذ عهد آدم، حيث قدر الله لكل نبـي وصياً يأتي من بعده، كما تحدث عن الإمامة التي هي استمرار للنبوة، وتحدث عن الأئمة وذكر أسماء الأوصياء من بعدهم، فالإطار العام لهذا الكتاب هو تواريخ الأنبياء وأوصيائهم، والأئمة وأوصيائهم، وما وقع في أيامهم من أحداث ومِحَن حتى عصر الإمام المهدي ونوابه[٤].

وكما سبق وأن أشرت من قبل إلى أن كلا من الدكتور جواد علي في بحثه عن موارد المسعودي[٥]، والأستاذ حمود في رسالته عن المسعودي[٦] قد أثارا مسألة التشكيك في صحة نسبة الكتاب إلى المسعودي، وأوردا بعض الأدلة على ذلك، فإني أضيف إلى أدلتهما ما يأتي:

---

(١) إثبات الوصية. . (النجف: المطبعة الحيدرية سنة ١٩٥٥م)، ص١.

(٢) هكذا.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢٦.

(٤) حمود: منهج المسعودي، ص٦٥.

(٥) ص١٥.

(٦) ص٧١.

* عثرت في كتاب «مجموع السنة»[1] ضمن أحد مباحثه على تعليق لجامعه السيد محمود الملاح ـ على كتاب إثبات الوصية، تناول فيه مقتطفات من بعض ما ورد في هذا الكتاب من آراء ومعتقدات شيعية تخالف الإسلام، وتنقض ما كان مجمعاً عليه سلف هذه الأمة، وقام بالرد عليها، وصرح في أثناء بحثه أن هذا الكتاب لابن مطهر[2].

وأثبت محمود الملاح قوله قبل هذا «كنا علقنا على كتاب إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي، ونشرنا تعليقاتنا في جريدة السجل مزيفين نسبته»[3].

وسواء أثبتت نسبة هذا الكتاب لابن المطهر أم لم تثبت فإنه لا يمكن أن يكون من تأليف المسعودي لاختلاف أسلوبه وطريقته في عرضه عن أسلوب وعرض المسعودي.

* مرَّ بنا في أثناء حديثنا عن كتاب مروج الذهب أن المسعودي حاول أن يضع حصانة على كتبه لئلا تسول لأحد نفسه فيحرف شيئاً من معانيها أو يزيل

---

(١) يحتوي الجزء الأول من هذا الكتاب على عدد من الرسائل والبحوث لطائفة من العلماء، ولم يدون عليه مكان ولا سنة طبع.

(٢) يسمى بهذا الاسم عدد من رجال الشيعة، لكن الشخص المذكور هنا قال عنه محمود الملاح ما نصه: «كنت أظن ابن مطهر على شيء من دقة النظر لما بلغني أنه كان يصارع ابن تيمية في ميدان المناظرة، فلما وقفت على طراز كتابه هذا تبين لي أن بعض الحجا مقتطع من الحجارة» مجموع السنة ١/١٩٥، ومن هذا النص نقف على أن ابن مطهر هذا كان معاصراً لابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ). وهذه ترجمته: هو الحسن أو الحسين بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي، من شيوخ الشيعة وأحد كبار علمائهم، ولد وسكن وتوفي في الحلة بالعراق سنة ٧٢٦هـ، له مصنفات كثيرة في الأصول وفقه الإمامة والنحو والمنطق بلغت مائة وعشرين كتاباً، منها كتاب في الإمامة رد عليه ابن تيمية.

انظر عنه: ابن حجر: الدرر الكامنة، ٢/١٥٨ ـ ١٥٩؛ وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ٩/٢٦٧؛ وعمر بن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) تحقيق رفعت البدراوي، الطبعة الأولى (بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٩هـ، ١٩٧٠م)، ٢/٣٩٨.

(٣) مجموع السنة، ١/١٩٤.

ركناً من مبانيها أو يطمس واضحة من معالمها أو يلبس شاهدة من تراجمها أو يغيرها أو يبدلها أو ينتخبها أو يختصرها أو ينسبها إلى غيره أو يضيفها إلى سواه، فتوسل إلى الله تعالى أن يعاجل من يفعل شيئاً من ذلك بعقوبة من عنده ويسلبه ما أعطاه[1].. ووضع ذلك التخويف في أول الكتاب وفي آخره، ومن هنا فمن غير المعقول أن يترك المسعودي بياضاً في نهاية أحد كتبه ليكمله من يأتي بعده، وهو الحريص ذلك الحرص على أن تبقى كتبه خالصة له كما رسمها وبالشكل الذي تركها عليه.

* الدعاء للخلفاء والأئمة بـ (عليه السلام) من الألفاظ المستخدمة لدى الشيعة بوضوح وكثرة، ولا توجد في مصنفات المسعودي المطبوعة.

ومهما يكن من أمر فاني لم أعتمد على هذا الكتاب ولم أعتبره من ضمن مؤلفات المسعودي[2].

* * *

(١) المروج، ٥/٣٠٢.

(٢) طبع في طهران، سنة ١٣٢٠هـ، (انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٣/٦٠)، كما طبع في النجف عدة مرات، أحدها سنة ١٩٥٥م.

ثانياً:

المخطوط

في أثناء جمعي لمادة هذا البحث كنت حريصاً على تقليب فهارس المخطوطات لكل مكتبة وصلت إليها رغبة في تحقيق حلم ظل يراودني ولا زال وهو العثور على شيء من مؤلفات المسعودي غير الكتابين المطبوعين، وكم تكون فرحتي شديدة عندما يلوح لي اسم المسعودي أمام أحد تلك الكتب في سجل المخطوطات.

ومع استمرار البحث اجتمع لدي عدد من المخطوطات مضافة إلى المسعودي. وسأحاول فيما يأتي أن أقدم تعريفاً موجزاً بكل منها مع التحري عن مدى صحة نسبتها إلى المسعودي.

(أ) أخبار الزمان وعجايب البلدان، للمسعودي[1]:

تبتدىء هذه المخطوطة بعد البسملة بـ «قال الشيخ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبدالله الهذلي المسعودي رحمه الله ورضي عنه: نبتدي بحمد الله وذكره وشكره والثناء عليه والشكر له والصلاة على أنبيائه ورسله وملائكته،

(١) هكذا ورد العنوان في الورقة الأولى من المخطوط، أما في الورقة الأخيرة فقد جاء كما يلي: «كتاب أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجايب البلدان والغامر بالماء والعمران» والنسخة الأصلية لهذه المخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم (١٤٧١)، ويوجد في هذه المكتبة أيضاً عدد آخر من النسخ غير هذه المذكورة تختلف عنها من حيث عدد الصفحات لكن المادة المكتوبة واحدة، وتحمل تلك النسخ الأرقام من ١٤٧٢ ــ ١٤٧٥ والنسخة الأخيرة تمثل النصف الأول فحسب، وعدد أوراقها ٧٧ ورقة.

ونخصص سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وأصحابه بأفضل صلواته...»[1]، وتنتهي بقوله: «فغرق الجميع ولم يفلت منهم أحد، وحملت أرواحهم إلى النار، ولما هلكوا طرح الله منهم جملة على عبر البحر، منهم فرعون، في موضع مرتفع من الأرض، حتى رأوه وعرفوه، وبين الله ذلك في كتابه الكريم الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، تم وكمل كتاب أخبار الزمان»[2].

وعدد أوراقها ثنتان وثلاثون ومائة ورقة من القطع الصغير، وكما رأينا فهي منسوبة للمسعودي، ولكن عند قراءتها تبين أنها أصل لكتاب أخبار الزمان المطبوع والمنسوب للمسعودي وتأكد ذلك بعد المقارنة والتطبيق من أولها إلى آخرها، وقد سبق أن أوضحنا رأينا في ذلك الكتاب[3].

(ب) كتاب أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجايب البلدان والخراب والعمران، للعلامة المسعودي[4]:

أول هذه النسخة بعد البسملة «قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبدالله الهذلي المسعودي ــ رحمه الله تعالى ورضي عنه ــ نبتدي بحمد الله وذكره وشكره والثناء عليه والصلاة على أنبيائه وملائكته، ونخصص سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه بأفضل صلواته وأكمل تحياته...»[5] وآخرها: «... وأخرجوا تابوت يوسف ــ عليه السلام ــ من النيل وحملوه معهم، تم الكتاب المبارك بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله وحده»[6].

---

(١) ورقة (٣/ أ).

(٢) ورقة (١٣٢/ ب).

(٣) راجع أعلاه، ص١٠٤، وما بعدها.

(٤) هذا المخطوط محفوظ في مكتبة فيينا الأهلية تحت رقم (٦٦٦).

(٥) ورقة (٣/ أ).

(٦) ورقة ١٨١/ ب).

وعدد أوراق المخطوطة إحدى وثمانون ومائة ورقة، من القطع الصغير، مكتوبة بخط جميل، وهي منسوبة للمسعودي كما هو واضح.

وقد كنت أقرأ لبعض المستشرقين[1] ممن كتبوا عن المسعودي أو غيرهم من العرب المحدثين[2] في حديثهم عن كتاب أخبار الزمان للمسعودي، أن هذا السفر النفيس قد ضاع، ولا يوجد منه الآن سوى الجزء الأول الذي يحفظ في مكتبة فيينّا، فدعاني ذلك التكرار والاحالات المتواترة إلى شد الرحال إلى تلك المكتبة على أمل الظفر بذلك الجزء والاطلاع عليه، ولكن المفاجأة التي تلقيتها ــ مع الأسف الشديد ــ عند تقليب أوراقه كانت غير سارة، وذلك عندما ظهر لي أنه لا يعدو أن يكون إحدى نسخ مخطوطات ذلك الكتاب المطبوع في مصر باسم أخبار الزمان، وينسب إلى المسعودي، وبعد مقارنة الكتابين تبين تطابقهما التام ما عدا نقص قليل لا يتجاوز الصفحة ونصف الصفحة في آخر هذا الكتاب المخطوط.

(ج) تاريخ أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجايب البلدان والغامر بالماء والعمران، للعلامة المسعودي[3]:

وهو صورة طبق الأصل عن نسخة فيينّا، إلا أنه غير ناقص في آخره[4]

(د) كتاب مختصر العجائب والغرائب:

جمع الشيخ محمد القزويني[5]:

يبتدىء هذا الكتاب بعد البسملة بقوله: «نبتدي بذكر الله وحمده والثناء

(١) انظر مثلاً بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٥٧/٣.
(٢) انظر مثلاً نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٢.
(٣) هذا المخطوط محفوظ في مكتبة برلين تحت رقم (٩٤٢٦).
(٤) انظر ورقة (١٥٤/ أ).
(٥) يحفظ هذا المخطوط في المكتبة الأهلية بباريس تحت الرقم (١٤٧٢).

عليه والشكر له، والصلاة على جميع أنبيائه وملائكته وتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأزواجه بأفضل صلواته وأكمل زكواته وأجمل تحياته، ثم نذكر ما وقع إلينا من أسرار الطبائع...»[1] وينتهي بقول: «فغرقوا الجميع ومروا بأرواحهم إلى النار وطرحهم البحر بعد هلاكهم إلى ذلك العبر، وألقي فيهم فرعون حتى ري[2] وعرف، تم مختصر العجايب والغرايب بحمد الله وعونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً»[3].

وفي آخره ملحق معنون بقوله: «ومما عمل لكافور في فضائل مصر» من ورقة (١٦١/ أ) حتى نهايته.

يقع هذا الكتاب في تسع وثمانين ومائة ورقة، من الحجم الكبير، ومكتوب بخط واضح، أما مادته فهي مادة المخطوطات سالفة الذكر نفسها، وتختلف عنها في صياغة بعض الألفاظ، ووجود تقديم أو تأخير في بعض الجمل.

والكتاب منسوب إلى الشيخ محمد القزويني[4]، وقد بحثت لتحقيق هذا الاسم في معاجم الأعلام فما وجدت أحداً ينطبق عليه إلا محمد بن عبدالرحمن القزويني (المتوفى سنة ٧٣٩هـ) وهو صاحب كتاب تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، لكن لم أجد ضمن مؤلفاته أي إشارة توحي إلى موضوع هذا الكتاب لا من قريب ولا من بعيد.

ولا أستبعد أن يكون الشخص المقصود هنا هو المؤرخ والجغرافي المعروف زكريا بن محمد القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢هـ) وصاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، وكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وقد قارنت بين هذا الكتاب الأخير والكتاب المخطوط (مختصر العجائب والغرائب) فلم أجد ــ في

---

(١) ورقة (١/ ب).

(٢) ري تحريف لكلمة رؤي كما وردت في إحدى نسخ المخطوطات.

(٣) ورقة (١٦٠/ ب).

(٤) كان مما دعاني إلى دراسة هذا المخطوط مع أنه لم ينسب للمسعودي هو تشابه مادته مع مادة المخطوطات المذكورة قبله، ووجوده في فهرس المكتبة الأهلية بباريس ضمن المؤلفات المنسوبة للمسعودي.

الواقع ـ تشابهاً تاماً بين الكتابين في سائر موضوعاتهما، غير أني لاحظت أن هناك شبهاً يسيراً في البحث الخاص بالبحار وما فيها من الجزر والحيوانات العجيبة، ويقع هذا البحث في كتاب عجائب المخلوقات تحت عنوان (النظر الثالث: في كرة الماء) في الصفحات من ١٤٨ ـ ١٩٥، ويقابله في المخطوط المعلومات الواقعة تحت عنوان (البحر المحيط وما فيه من العجائب) الورقات من (١٦/ أ ـ ٤١/ ب)، ووجه الشبه بينهما احتواء كل منهما على معلومات غريبة مغرقة في الخيال عن تلك الجزر وسكانها وحيواناتها.

وعلى أي حال فإننا نلاحظ أن تلك المخطوطات كلها تدور في فلك ذلك الكتاب المطبوع ولم تخرج عنه، بل تعتبر أصولاً له، لكنها لا يمكن أن تكون من تأليف المسعودي نفسه لما فيها من مجافاة لأسلوبه العلمي الرصين ولطريقته في التأليف، ولما سبق أن أوضحناه من قبل من أسباب[١].

(هـ) كتاب تاريخ مروج الذهب ومعادن الجوهر[٢]:

هذا المخطوط في الحقيقة هو أحد أصول مروج الذهب المطبوع لكن سبب إيراده في هذا الموضع هو اشتماله في أوله على إثنتين وسبعين ورقة لا توجد المعلومات الواردة فيها في كتاب المروج، وعند فحصها ظهر أنها مقتطفات من أخبار الزمان (المنسوب) للمسعودي، ولم يَسِرْ فيها جامعها على النظام المعهود لذلك الكتاب المطبوع، بل أعمل فيها يده بالتقديم والتأخير، حتى إن الناسخ لما بدأ في تدوين مادة كتاب مروج الذهب الحقيقية دخل فيها مباشرة من غير تمييز بينها وبين تلك المقتطفات، غير أن القارىء الفطن يحس باختلاف الأسلوب وتغيره.

ومادة مروج الذهب تبدأ من ورقة (٧٢/ أ) من قوله: «وهلك فرعوناً

---

(١) انظر ص١٠٤، وما بعدها من هذه الرسالة.

(٢) هذا المخطوط في المكتبة الأهلية بباريس تحت الرقم ١٤٧٨ وعنوانه في فهرس المكتبة ليس مروج الذهب كما هو مدون عليه، وإنما المكتوب فيه تحت هذا الرقم هو (أخبار الزمان).

غرقاً حين خرج في طلب بني اسرائيل حتى أخرجهم موسى بن عمران، وجعل الله لهم طريقاً في البحر يبساً. . .» وتقابل في المروج المطبوع، ص ٨٧ من الجزء الثاني.

وقد وضع ميشيل صباغ فهرساً (مخطوطاً)[١] باللغة العربية لتلك المقتطفات من عشر ورقات، ولكنه غير واف بها كلها.

(و) مختصر عجائب الدنيا، للمسعودي[٢]:

يضم هذا المخطوط بين دفتيه كتابين، يهمنا منهما الكتاب الأول الذي يشغل الأوراق السبعين الأولى من المخطوط، ويبدأ بقوله: «الحمد لله باريء المسموكات ورازق المخلوقات وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له رب الأرض والسماوات وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله خير خلقه وعلى آله وصحبه ما دامت الأرض والسماوات، وبعد فنبتديء بذكر الله تعالى وحمده والثناء عليه والشكر له. . .»[٣] وينتهي بقوله: «فغرق الجميع وعجل الله بأرواحهم إلى النار ثم طرحهم البحر وبقي فرعون حتى رؤي وعرف، اللهم اهدنا ولا تضلنا وتوفنا على الإيمان كما خلقتنا آمين يا رب العالمين»[٤].

أما الكتاب الآخر[٥] فيبدأ من السطر الأخير من ورقة (٧٠/ ب) حتى نهاية المخطوط ورقة (٢١٠/ ب)، ولا يدخل هذا الكتاب في صميم بحثنا لثبوت تأليفه في عصر متأخر عن عصر المسعودي، حيث يوجد فيه نقول من

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس، رقم ١٤٨٦.

(٢) هذا المخطوط موجود في المكتبة السليمانية بتركيا تحت رقم ٢٢٤٠.

(٣) ورقة (١/ أ).

(٤) ورقة (٧٠/ ب).

(٥) لم يضع ناسخ المخطوطة عنواناً جديداً لهذا الكتاب، فبمجرد أن انتهى من الكتاب الأول شرع في البسملة وبدأ في الكتاب الثاني، وحتى لم يبدأ صفحة جديدة، أو يشر إلى أنه بدأ في كتاب آخر.

مؤلفين جاءوا بعد المسعودي[٤]، وحتى من المسعودي نفسه[٤]، وكذلك وجود إشارات إلى سنوات متأخرة بقرون عديدة بعد وفاة المسعودي[٦].

والكتاب الأول الذي يهمنا مقسم إلى ثلاثة أجزاء، ينتهي الأول منها بورقة (١٥/ أ)، ثم يبدأ الجزء الثاني وينتهي بورقة (٤٦/ ب)، ثم يتلوه الجزء الثالث الذي ينتهي في أواخر ورقة (٧٠/ ب).

ومن حيث مادة الكتاب فأغلبها مشابه للمادة الموجودة في المخطوطات السابقة التي تعتبر أصولاً للنسخة المطبوعة المسماة (أخبار الزمان).

ومن هنا نرى أن مؤلف هذا المخطوط والمخطوطات السابقة المشار إليها سلفاً قد يشتركون في النقل من مصدر واحد، وغير ناقل بعضهم من بعض، بدليل احتواء هذا المخطوط على معلومات غير موجودة أصلاً في تلك المخطوطات واحتواء المخطوطات نفسها على معلومات لا ترد في هذا المخطوط، هذا إضافة إلى اختلاف ترتيب الموضوعات بينه وبينها في المواد المشتركة.

وأنا لا أستبعد أن يكون ذلك المصدر المنقول منه هو أخبار الزمان المؤلف من قبل المسعودي بدليل وجود نوع من التشابه في بعض الموضوعات التي طرقت

---

(١) أمثال الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) ورقة (٨٤/ ب) و(٨٥/ ب)؛ وابن خلكان (ت ٦٠٨هـ) ورقة (١٢٤/ ب) و(١٢٥/ أ)، (١٨٣/ ب)؛ وأبي المظفر سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) ورقة (٧٣/ ب) و(٧٧/ أ) و(١١٥/ أ)؛ وأبي شامة (ت ٦٦٥هـ) ورقة (١٢٨/ أ)؛ والقزويني (ت ٦٨٢هـ) ورقة (٧٨/ ب) و(١٥١/ ب)؛ وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ورقة (٩٨/ ب) و(١٢٨/ أ) و(١٧٣/ ب)، وغيرهم.

ويلاحظ هنا أن هذا الكتاب يشير إلى مصادره بكثرة، بخلاف الكتاب الأول الذي يكتفي أحياناً بقوله: «قال صاحب التاريخ» انظر ورقات (١٥/ أ) و(٢١/ أ) و(٢٣/ ب) و(٢٤/ ب) و(٣١/ أ) و(٤٧/ أ).

(٢) انظر ورقات (٨٨/ أ وب) و(٨٩/ أ وب) و(٩١/ ب) و(٩٦/ أ) و(٩٩/ ب) و(١٢٤/ أ) و(١٣٤/ ب).

(٣) انظر مثلاً ورقة (١١٦/ أ) حيث يشير إلى سنة إثنتين وخمسين وأربعمائة، وورقة (١١٨/ ب) حيث يشير إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وورقة (١٠٨/ ب) حيث يشير إلى سنة تسع وسبعمائة وغيرها.

في هذا المخطوط[1] وموضوعات عالجها المسعودي في كتابه مروج الذهب[2].

أما مؤلف الكتاب المذكور اسمه على المخطوط فهو المسعودي، ولكن الحقيقة تبدو غير ذلك، لأنني عثرت في كتاب كشف الظنون، لحاجي خليفة، على اسم مؤلفه الحقيقي حيث قال في معرض حديثه عن كتاب عجائب الدنيا: «ولإبراهيم بن وصيف شاه مختصر أوله الحمد لله باريء المسموكات... ذكر فيه أسرار الطبائع وأصناف الخلق وغرائب ما صنعوا»[3]. ويؤكد ذلك في نظري وجود مقتطفات منه في خطط المقريزي منسوبة إلى إبراهيم بن وصيف شاه نفسه (المتوفى سنة ٥٩٩هـ)[4].

(ز) كتاب فيه أخبار الملوك، للمسعودي[5]:

يكتنف عنوان هذا المخطوط شيء من الغموض إذ جاء كما يلي: «هذا كتاب فيه أخبار الملوك وبعض ما تكلموا عليه بعض الجفور مع شيء من أخبار سطيح بن الأشقر مع شقيق الكاهن وأخبار الاسفندادي مما نقله الإمام المسعودي في كتاب عجائب الزمان وغرائب البلدان»، وهو يبدأ بقوله بعد البسملة والحمد: «وبعد فهذا كتاب لطيف ومختصر مفيد ظريف، فيه أخبار بعض الملوك وبعض ما تكلموا بعض الجفور مع شيء من أخبار سطيح بن الأشقر مع شقيق الكاهن وأخبار الاسفندادي مما نقله الإمام المسعودي في كتاب عجائب الأزمان

---

(١) انظر مختصر العجائب والغرائب ورقة (٢٨/ ب) وما بعدها عن «ممالك الزنج وغانة والكوكو والبربر وفزانة والزغاوة ودمدم والنوبة والبجة».

(٢) انظر المروج ٢/١٢٥، وما بعدها (ذكر السودان...).

(٣) كشف الظنون ٢/١١٢٦.

(٤) انظر كتاب الخطط المقريزية ١/٣٢، ٣٧، ١١١، ١٢٤، ١٣٥، ١٥٠، ١٥٦، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٩؛ والمقريزي ينقل من هذا الكتاب وكتاب آخر لابن وصيف شاه اسمه جواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الديار المصرية انظر عنه: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية (بيروت: مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م)، ج ١ ص ١٢٥.

(٥) هذا المخطوط مصور عن نسخة محفوظة بدار الكتب القومية بمصر تحت رقم ٣٤٣ الزكية.

وغرائب البلدان، قال المسعـودي ـ رضي الله عنه ـ آمين: جمعت هذا الكتاب من كتب شتى، قال عبدالله بن سلام صاحب الغرائب من الكلام، لما رواه أحمد بن غانم في كتاب الملاحم: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسـول الله صلى الله عليه وسلم. . .»[1].

وينتهي بقوله: «وهذا آخر ما يسر الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب، وكان الفراغ من تعليقه يوم الأحد المبارك عند آذان الظهر ثماني شهر محرم الحرام من شهور سنة أربعة وعشرين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ـ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»[2].

وهو يقع في حدود ستين ورقة من الحجم الصغير؛ أما مادته فتمثل نتفاً من أخبار وتاريخ بلاد المغرب على لسان سطيح الكاهن، ورد فيها أسماء لملوك وزعماء وقادة وقبائل بربرية، ثم يتحدث بعد هذا عن الملاحم والفتن التي تتكون بين يدي الساعة، وما يحدث في آخر الزمان من ظهور الدجال والمسيح ـ عليه السلام ـ وقبيل نهايته عقد بابين غريبين الأول (ما جاء من الأمثال)[3] والثاني (باب إكرام أهل الفضل والشرف)[4].

ويبدو لي أن هذا المخطوط مختصر من الكتاب الذي وردت الإشارة إليه في ناصية المخطوط وينسب إلى المسعودي وهو كتاب (عجائب الزمان [الأزمان] وغرائب البلدان) أو أن مؤلفه اعتمد عليه كثيراً[5].

وعلى أي حال فإن نسبته إلى المسعودي لا يمكن أن تثبت لأسباب كثيرة منها:

---

(١) ورقة (٢/ أ).

(٢) ورقة (٥٩/ ب).

(٣) ورقة (٤٩/ ب).

(٤) ورقة (٥١/ أ).

(٥) انظر ورقات (٢/ أ، ١٨/ أ).

ـ أنه ينقل من مؤلفين ظهروا بعد وفاة المسعودي، منهم: مطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى بعد سنة ٣٥٥هـ)[١]، وابن عبدالبر القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣هـ)[٢]، وابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١هـ)[٣] وابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧هـ)[٤] ومحيي الدين بن العربي [هكذا] (المتوفى سنة ٦٣٨هـ)[٥]، والمنذري (المتوفى سنة ٦٥٦هـ)[٦].

(١) انظر (٤٧/ ب)، وهو مؤرخ مشهور نسبته إلى بيت المقدس، توفي في بست من بلاد سجستان، من أشهر مؤلفاته: البدء والتاريخ، ظهر منه ستة أجزاء حققها كليمان هوار ونشرها مع ترجمة إلى الفرنسية، انظر عنه: الزركلي؛ الاعلام قاموس تراجم... الطبعة الثالثة (بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)، ج ٨ ص ١٥٩.

(٢) ورقة (٤٠/ أ)، وهو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي، أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ وأديب مشهور، توفي بمدينة شاطبة من الأندلس سنة ٤٦٣هـ، من كتبه: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، جامع بيان العلم وفضله، الدرر في اختصار المغازي والسير. انظر عنه: أحمد بن يحيى الضبي، بغية الملتمس، (القاهرة، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م)، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٣) ورقة (٤٠/ أ)، وهو علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، أبو القاسم محدث ومؤرخ مشهور توفي بدمشق سنة ٥٧١هـ، من مؤلفاته: تاريخ دمشق الكبير ويعرف بتاريخ ابن عساكر، كشف المغطى في فضل الموطا، انظر عنه: النجوم الزاهرة ٧٧/٦.

(٤) انظر ورقة (٤٠/ أ، ب) وهو عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، أبو الفرج علامة عصره في التاريخ والحديث، توفي ببغداد سنة ٥٩٧هـ، له مصنفات كثيرة منها: الأذكياء، تلبيس ابليس، تلقيح فهوم أهل الأثر في مختصر السير والأخبار، المنتظم في تاريخ الملوك والامم. انظر عنه: وفيات الأعيان ١٤٠/٣ ـ ١٤٢.

(٥) ورقة (٢٧/ ب)، وهو محمد بن علي بن محمد بن عربي، أبو بكر، يعتبر من أئمة المتكلمين في علوم كثيرة، ولد بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق فزار مصر والحجاز والشام والعراق، له مصنفات غزيرة نحو أربعمائة، منها: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، فصوص الحكم، مفاتيح الغيب. انظر عنه: أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٦٧هـ)، ج ٢ ص ٣٦١ ـ ٣٨٤.

(٦) انظر ورقة (٤/ أ)، وهو عبدالعظيم بن عبدالقوي بن عبدالله المنذري، أبو محمد، عالم بالحديث واللغة العربية والتاريخ، كانت وفاته بمصر سنة ٦٥٦هـ. من مؤلفاته: التكملة لوفيات النقلة، شرح التنبيه، مختصر صحيح مسلم، انظر عنه: طبقات الشافعية ١٠٨/٥؛ وكتاب (المنذري وكتابه التكملة لوفيات النَّقَلَة، لمؤلفه بشار عواد معروف، (النجف: مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)، ص ٧ وما بعدها.

- يتحدث عن ملوك وأمراء من أسرة بني مرين[1]، الذين حكموا في بلاد المغرب الأقصى، ومن المعروف أن بني مرين لم يظهروا على الساحة كحكام إلا في حدود سنة **٥٩٢هـ / ١١٩٥م**.
- فيه ذكر لمشروب (القهوة)[2]، والمعروف أن البن المحمص المطحون لم يستخدم في بلاد العرب إلا حوالي القرن الخامس عشر الميلادي[3].
- هذا إضافة إلى اشتمال هذا الكتاب على خرافات ورموز وطلاسم غريبة[4].

* * *

---

(١) انظر ورقة (١٧/ أ، ب).
(٢) ورقات (٣٣/ أ ــ ٤٤/ أ).
(٣) انظر الموسوعة العربية الميسرة، ص ٤٠٦.
(٤) انظر ورقات (٢٨/ أ ــ ٣٠/ ب).

ثالثاً:

المفقود

١ ــ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة[1]:

يمثل هذا الكتاب في نظر المسعودي (الكتاب الأعظم)[2] بالنسبة لمؤلفاته الأخرى، إذ أنه اعتبره قمة إنتاجه بما أودع فيه من العلوم والفنون التي استطاع أن يلم بها أثناء مرحلة تحصيله العلمي وخلال أسفاره ورحلاته.

وقد بالغ المسعودي في تقريظ هذا الكتاب والثناء عليه، وكان فخوراً به، يحيل إليه في كل مناسبة يعمد فيها إلى إجمال موضوع أو اختصاره أو إشارة إليه بفحوى من العبارات أو تلويح إليه بضرب من المقالات، في أي كتاب من كتبه، فيذكر أنه فصل فيه القول وبين، وبسط فيه وأسهب، فيمس الباحث عندئذٍ حيرة وألم بسبب ضياع ذلك السفر النفيس.

وهو أول كتاب ألّفه المسعودي في سلسلته التاريخية التي كتبها[3].. وسبقت الإشارة إليها. وهو أشملها على الإطلاق، بدليل أن المسعودي أشار إليه في مروج الذهب وحده مرات تنيف على الأربعين ومائة.

---

(١) دوّن المسعودي اسم الكتاب كاملاً وكما أشرت إليه في مواضع من المروج، منها ١/٢٤١، ٢/١٣٤، ٥/٥٧، ٢٢٩، ٢٧٢.

(٢) المروج، ١/١٠، ٢/٤٩.

(٣) صرح المسعودي بذلك في مواضع كثيرة من المروج، منها ٣/٣٦٤، ٥/٢٧٢.

وقد بيّن المسعودي الموضوعات التي تناولها الكتاب بشكل عام، فقال: «قدمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدونها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها وأصناف مناهلها وأخبار غياضها وجزائر البحار والبحيرات الصغار، وأخبار الأبنية المعظمة والمساكن المشرفة، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل وتباين الأوطان، وما كان نهراً فصار بحراً، وما كان بحراً فصار براً وما كان براً فصار بحراً على مرور الأيام وكرور الدهور، وعلة ذلك وسببه الفلكي والطبيعي، وانقسام الأقاليم بخواص الكواكب ومعاطف الأوتاد ومقادير النواحي والآفاق، وتباين الناس في التاريخ القديم واختلافهم في بدئه وأوليته من الهند وأصناف الملحدين وما ورد في ذلك من الشرعيين، وما نطقت به الكتب وورد على الربانيين. ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الداثرة والقرون الخالية والطوائف البائدة على اختلاف أجناسهم وتغاير أنواعهم واختلاف أديانهم، وما مضى في أكناف الزمان من حكمهم ومقاتل فلاسفتهم وأخبار ملوكهم وأخبار القياصر إلى ما في تضاعيف ذلك من أخبار الأنبياء والرسل والأتقياء إلى أن أفضى الله بكرامته وشرف برسالته محمداً نبيه صلى الله عليه وسلم: فذكرنا مولده ومنشأه ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه إلى أوان وفاته، ثم اتصال الخلافة واتساق المملكة بزمن زمن، ومقاتل من ظهر من الطالبيين إلى الوقت الذي شرعنا فيه تصنيف كتابنا هذا [المروج] من خلافة المتقي لله أمير المؤمنين وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة[1]».

ويظهر أن المسعودي رتبه حسب موضوعاته التي عالجها فيه على ثلاثين فناً، ويتضح ذلك من قوله: «في كتاب أخبار الزمان في الفن الأول من جملة الثلاثين فناً»[2]، وقوله: «في كتابنا أخبار الزمان في الفن الثاني من جملة الثلاثين فناً»[3].

وكان من بحوث الفن الأول«أجناس السودان وأنواع مساكنهم ومواضعهم

---

(١) المروج ١/٩ ــ ١٠.

(٢) المصدر السابق، ٢/١٢٩.

(٣) المصدر السابق، ١/١٤٨.

من الفلك ولأية علة تفلفلت شعورهم واسودت ألوانهم وغير ذلك من أخبارهم وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم في أنسابهم»[١].

أما الفن الثاني فيبدو أنه عالج فيه النظريات حول تكون البحار والأنهار ونشأتها والبحيرات، فذكر تنازع المتقدمين «من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين في مبادىء كون البحار وعللها»[٢]، و«ما أوردوه من البراهين في مساحة البحار ومقاديرها والمنفعة في ملوحة مائها واتصال بعضها ببعض وانفصالها، وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان، ولأية علة كان الجزر والمد في البحر الحبشي أظهر دون سائر البحار»[٣]، وتنازع الناس ممن سلف وخلف في النيل وزيادته ــ على الشرح والإيضاح ــ «وغيره من الأنهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار»[٤].

وعالج في الفن الرابع عشر من ضمن مباحثه آراء المجوس حول خلق آدم عليه السلام وتزاوج ذريته[٥].

وخصص الفن الثلاثين للحديث عن «خلفاء بني العباس ومن ظهر في أيامهم من الطالبيين»[٦] وبعد ذلك لا نجد عند المسعودي أي إشارة تهدينا إلى موضوعات سائر فنون الكتاب، على الرغم من ترديد اسمه وكثرة الإحالات عليه.

وهذا الكتاب بحكم المفقود في العصر الحاضر، وما قيل من أنه يوجد منه الجزء الأول أو بعض الأجزاء الأخرى فادعاء لم يثبت عند التحقيق، ويبدو أنه

---

(١) المصدر السابق، ٢/١٢٩.
(٢) المصدر السابق، ١/١٤٨.
(٣) المصدر السابق، ١/١٥١.
(٤) المصدر السابق، ٢/٦٧.
(٥) المصدر السابق، ١/٣٨.
(٦) المصدر السابق، ٤/٣٢٢.

لكبر حجمه وتعدد أجزائه[1]، كان قليل التداول بين الناس. حتى إن السخاوي[2] حين ذكره ثم ذكر المروج بعده قال: «إن الأخير هو المتداول»[3]، لكنه كان موجوداً على أي حال ولم يكن مجهولاً بالنسبة للأجيال المتقدمة من المؤرخين، خلافاً لما يدعيه ولتر فيشل (Walter Fischel) من أنه هو والكتاب الأوسط ظلا غير معروفين لابن خلدون[4] وغيره من المؤرخين[5].

ومن حسن الحظ أنني عثرت على كتابين يحتويان على نقول من كتاب أخبار الزمان، أحدهما مخطوط[6] وهو كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، لعبدالرحمن السيوطي[7]، والآخر مطبوع، وهو كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي.

---

(١) يقع الكتاب في عشرين جزءاً، انظر: فازلييف: العرب والروم، ص ٢٨٤، أو في أكثر من عشرين مجلداً. انظر: حيدر بامات: مجالي الإسلام، نقله إلى العربية عادل زعيتر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٦م)، ص ١٦٢، أو في ثلاثين جزءاً، انظر كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١/١٧٨، ود. نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٣، ود. شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ١/٤٠٣.

(٢) محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي، شمس الدين، مؤرخ حجة وعالم بالحديث والتفسير والأدب، توفي بالمدينة المنورة سنة ٩٠٢هـ، له مصنفات كثيرة جداً منها: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، المقاصد الحسنة، الجواهر المجموعة. انظر عنه كتاب: الضوء اللامع، ٨/٢ ــ ٣٢.

(٣) الإعلان بالتوبيخ، ص ١٤٥.

(٤) عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو زيد، مؤرخ وفيلسوف وعالم اجتماعي مشهور، كانت له همة لتسنم المراتب العالية إلى جانب اشتغاله بالعلم، توفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ، أشهر مصنفاته كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب، والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، واشتهر منه مقدمته.

انظر عنه: كتابه العبر (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ج٧ ص٣٧٩؛ والمقري: نفح الطيب، ٣/٢٧٥.

(٥) W. Fischel, «Ibn Khaldun and Al-Masudi» (MMCV) P. 54.

(٦) محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس، تحت الرقم ١٥٥٢.

(٧) ورقة العنوان ساقطة من المخطوط وكذا اسم المؤلف، لكن فهرس المكتبة ينسب هذا الكتاب إلى السيوطي. وانظر: كشف الظنون، ١/٢٢٩ ــ ٢٣٠.

أما الكتاب الأول فتوجد فيه اقتباسات من أخبار الزمان ومن مروج الذهب أيضاً، وقد رجعت إلى نصوص المروج[1] فوجدتها متطابقة مع ما ورد في المخطوط[2]. أما النصوص المقتبسة من أخبار الزمان فحين رجعت إليها في المواضع المشابهة لها في المروج أيضاً وحيث يحيل المسعودي إلى أخبار الزمان وجدتها لا تطابقها نصاً، ولكنها تحمل نفس الطابع وروح المؤلف وفيها زيادات كثيرة لا توجد في المروج، مما يدل على أنها نقول صحيحة من أخبار الزمان.

وسأثبت هنا نماذج قصيرة من تلك النقول للدلالة على ذلك الأثر التاريخي العظيم ولبيان طريقة المسعودي فيه.

قال مؤلف بدائع الزهور عن سبب تسمية مصر بهذا الاسم: «قال أبو الحسن المسعودي في كتاب أخبار الزمان: إن مصر كان اسمها في قديم الزمان درسان أي باب الجنان، وسميت بعد الطوفان جزلة، وقد اختلف أهل العلم في المعنى الذي سميت من أجله بمصر، فقال قوم سميت بمصرام بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فلما كثر استعمالها أسقطوا منها الميم للتخفيف فسميت مصر والله أعلم بذلك»[3].

ونقل عن المسعودي من كتاب أخبار الزمان نفسه معلومات تتصل بنهر النيل، من حيث زيادته ونقصانه[4].

ونقل عنه أيضاً حديثاً عن ملوك الأقباط وابتداء دولتهم، فقال: «قال المسعودي لما هلكت دلوكة انتشا[5] من بعدها شخص من أولاد أشراف القبط يقال له دركون بن بكوطبس، فوقع الاتفاق من الجند على توليته فولوه عليهم،

(١) انظر: المروج، ١/١١٤، ٣/١٠٤.

(٢) ورقة ١٨ ب، ٢٧ ب.

(٣) بدائع الزهور، ورقة ٤١ ب.

(٤) انظر: المروج، حيث يحيل المسعودي إلى أخبار الزمان، ٢/٦٧؛ وبدائع الزهور، ورقة ٢٠ ب.

(٥) هكذا، ولعلها بمعنى ظهر.

فأقام في الملك مدة طويلة ثم هلك، فتولى من بعده شخص يقال له مرينوس فأقام في الملك مدة، وفي أيام قدم بخت نصر إلى مصر وجرى منه ما جرى من خراب مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبي نسائها. . . واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحداً بعد واحد إلى آخر من تولى منهم وهو المقوقس. . »[1].

وأما الكتاب الثاني وهو الخطط المقريزية، ففيه نقول واقتباسات كثيرة من المسعودي من كتبه الثلاثة، أخبار الزمان، ومروج الذهب[2]، والتنبيه والإشراف[3]، وهو يصرح أحياناً باسم الكتاب الذي ينقل منه، وأحياناً أخرى لا يصرح به، بل يكتفي بقوله: «قال المسعودي»، وقد صرح بنقله من كتاب أخبار الزمان أربع مرات، وسأورد هنا بعض تلك النقول لإلقاء المزيد من الأضواء على ذلك الكتاب، قال المقريزي: «وذكر أبو الحسن المسعودي في كتاب أخبار الزمان أن بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب بقراوس الجبار بن مصريم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام في نيف وسبعين راكباً من بني عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعاً من الأرض يقطنون فيه فراراً من بني أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فأطالوا المشي عليه، فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه أعجبهم، وقالوا هذه بلد زرع وعمارة، فاقطنوا فيه واستوطنوا وبنوا فيه الأبنية المحكمة والصنائع العجيبة، وبنى نقراوس [هكذا] مصر وسماها باسم أبيه مصريم، وكان نقراوس جباراً له قوة. وكان مع ذلك عالماً، وله ائتمر الجن في هلاك بني أبيه، ولم يزل مطاعاً. . . »[4].

---

(١) بدائع الزهور ورقة ١٥٨ أ، وانظر: المروج، ٢/٩٣.

(٢) من الطريف أن المقريزي هنا ينقل من مروج الذهب النسخة الأخيرة المؤلفة سنة ٣٤٥، والمفقودة الآن، انظر: الخطط، ١/٦٠؛ وانظر أيضاً، ٢٦، ٣٨، ٤١، ٥٠، ٥٣، ٦٦، ٦٧، ٧٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٩، ١٧١، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٧، ٢٤٠، ٢٤٧، ٤٩٤.

(٣) المصدر السابق، ١/١٥٦.

(٤) المصدر السابق، ١/١٨ ــ ١٩، وانظر: أخبار الزمان (المطبوع والمنسوب للمسعودي)، ص ١٣٦.

وفي أثناء حديث المقريزي عن مدائن أرض مصر، نقل عن المسعودي النص الآتي: «ذكر أبو الحسن المسعودي في كتاب أخبار الزمان أن الكوكة وهي أمة من أهل أيلة ملكوا الأرض وقسموا الصعيد على ثمانين كورة، وجعلوه أربعة أقسام، وكان عدد مدن مصر الداخلة في كورها ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب، والكور مثل أخميم وقفط وقوص والفيوم، ويقال: إن مصر بن بيصر قسم الأرض بين أولاده، فأعطى ولده أشمون من حد بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا إلى الجنادل، وأعطى لولده صا من صا أسفل الأرض إلى الإسكندرية، وأعطى ولده منوف وسط الأرض السفلى ومنف حولها، وأعطى لولده قفط غربي الصعيد إلى الجنادل، وأعطى لولده أتريب شرقي الأرض إلى البرية، برية فاران، وأعطى لبناته الثلاثة [هكذا] وهن الفرما وسريام وبدورة بقاعاً من أرض مصر محددة فيما بين إخوتهن»(١).

ومما نقله عنه من كتاب أخبار الزمان أيضاً قوله: «إن أول من تحقق بالكهانة وغير الدين وعبد الكواكب البودسير، وتزعم القبط أن الكواكب كانت تخاطبه، وأن له عجائب كثيرة، منها أنه استتر عن الناس عدة سنين من ملكه، وكان يظهر لهم وقتاً بعد وقت مرة في كل سنة، وهو حلول الشمس في برج الحمل، ويدخل الناس إليه فيخاطبهم وهم يرونه فيأمرهم وينهاهم ويحذرهم مخالفة أمره، ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب فصار يجلس في أعلاها، وله وجه عظيم، فيخاطبهم»(٢).

وعند حديث المقريزي عن مدينة الإسكندرية، قال: «ذكر أبو الحسن المسعودي في كتاب أخبار الزمان أن الكوكة وهي أمة في غابر الدهر من أهل أيلة ملكوا الأرض وقسموها على ثلاثين كورة وأربعة أقسام، كل قسم عمل، وبنوا في كل عمل مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب، وله بربا وهي بيت الحكمة، وله هيكل على اسم كوكب، فيه أصنام من ذهب، وجعلوا

(١) الخطط ١/١٢٩.

(٢) المصدر السابق ١/١٣٧، وانظر: أخبار الزمان (المطبوع)، ص ١٣١ ــ ١٣٢.

الإسكندرية واسمها رقودة خمس عشرة كورة، وجعلوا فيها كبار الكهنة، ونصبوا في هياكلها من أصناف الذهب أكثر مما نصبوا في غيرها، فكان ما بها أكثر من مائتا [هكذا] صنم من ذهب»[1].

ومن خلال هذه النصوص المنقولة نصاً عن كتاب أخبار الزمان للمسعودي نلاحظ وجود تشابه طفيف بينها وبين بعض النصوص الموجودة في كتاب أخبار الزمان المطبوع والمنسوب للمسعودي، وأحياناً نلاحظ تطابقاً لفظياً في بعض العبارات، ولكن هذا لا يقوم وحده دليلاً كافياً على نسبة هذا الكتاب المطبوع للمسعودي بجانب الأدلة الأخرى القوية التي تنفي ذلك.

ويمكن أن يعزى ذلك التشابه إلى أن المسعودي كان أحد المصادر التي نقل منها مؤلف الكتاب المطبوع، أو أنه هو والمسعودي نقلا من مصدر واحد والله تعالى أعلم.

أما من حيث تأليف المسعودي لكتاب أخبار الزمان فقد وصل فيه ــ كما صرح بذلك ــ إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وعندها انتهى من تصنيفه إياه[2]. وهذه السنة نفسها هي التي وقف عندها في كتابه الأوسط الذي سيأتي الحديث عنه بعد هذا الكتاب، وهي نفسها التي شرع فيها بتصنيف كتاب المروج[3].

ومن هنا يظهر أن المسعودي كان قد بدأ في تصنيف كتاب أخبار الزمان قبل سنة ٣٣٢هـ، ثم أتبعه بتأليف كتاب الأوسط، حيث وقف به عند هذه السنة نفسها[4]، ثم رأى أن يزيد في كتاب أخبار الزمان ويمد أحداثه إلى هذه السنة أيضاً، لأنه ليس من المعقول أن يكون المسعودي قد أنجز تأليف هذه الكتب الثلاثة الضخمة في سنة واحدة فحسب.

---

(١) الخطط، ١/١٤٤.

(٢) المروج ١/١٠.

(٣) انظر تفصيل القول في ذلك في ص ٩١ وما بعدها من هذه الرسالة.

(٤) المروج ١/١٠، ٥/٢٣.

أما ما ذكره بروكلمان[1]، وكراتشكوفسكي[2]، من أن المسعودي قد بدأ في تصنيفه سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م فقول لا يستند على دليل، بل الثابت عند المسعودي نفسه أنه أنهى تصنيفه في هذه السنة كما هو واضح من الإشارة السابقة.

ومجمل القول أن سنة ٣٣٢هـ كانت سنة مشهودة بالنسبة لتأليف المسعودي التاريخي فعندها وقف في أحداث كتابيه الكبيرين أخبار الزمان والأوسط، وفيها ألف كتاب المروج كاملاً، ثم زاده فيما بعد ذلك. ومن هنا يبدو أن الفترة الزمنية التي قضاها المسعودي في تأليف كتبه التاريخية كانت فترة قصيرة إلى حد ما، قياساً على تأليفه لكتاب المروج وإنجازه إياه في سنة واحدة، وإن كنا لا نعلم بالتحديد متى شرع المسعودي في تصنيف كتابي أخبار الزمان والأوسط إلا أنه يرجح أن يكون قد بدأ في ذلك بعد استقراره بمصر.

٢ ــ الكتاب الأوسط:

يعتبر الكتاب الثاني في سلسلة المسعودي التاريخية، وهو موسوعة في التاريخ العام يبدأ من بدء الخليقة وذرء البرية وينتهي إلى الوقت الذي عنده انتهى المسعودي في كتابه الأعظم[3]، وهو سنة ٣٣٢هـ.

وهو من حيث مادته وحجمه كتاب مجمل وسط بين أخبار الزمان المفصل الواسع وبين المروج المختصر الحاوي للّمع[4]، ويظهر أن المسعودي أضاف فيه أموراً جديدة لم ترد في الكتاب الأول. إما بسبب عدم وقوفه عليها أو أنها لم تقع إلا بعد انتهاء تأليف ذلك الكتاب[5]، أو أنه أراد أن يميزه بوضع معلومات جديدة فيها لم يسجلها هناك.

---

(١) تاريخ الأدب العربي، ٥٧/٣.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي، ١٧٨/١.

(٣) المروج ١٠/١.

(٤) المصدر السابق ٢٠٤/٥.

(٥) جواد علي: موارد تاريخ المسعودي، ص ١٠.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا الكتاب في المروج مرات كثيرة جداً، تزيد عن مائة وعشرين مرة، أحياناً مقروناً مع كتاب أخبار الزمان وأحياناً على انفراد، ويبدو أن المسعودي قد سار فيه على نفس الخطة التي سار عليها في المروج[١] من حيث التبويب والتقسيم.

ويحتوي الكتاب على معلومات عن الممالك والأمم القديمة[٢]، وعلى معلومات مفصلة عن الفتوحات الإسلامية[٣]، وعن المذاهب القديمة[٤]، ومعتقدات الفرق المختلفة[٥]، ويقدم عرضاً لتراجم بعض الشخصيات والأعلام ممن اشتهر من الفقهاء والمحدثين وغيرهم من أهل الرأي والأدب[٦].

٣ ــ فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف[٧] :

يحتل هذا الكتاب المرتبة الرابعة، ويأتي بعد المروج في حلقة السلسلة التاريخية التي ألفها المسعودي تباعاً، ويمكن أن نقف على بعض البحوث التي تناولها من خلال الإحالات إليه الواردة في كتاب التنبيه والإشراف، فنجد فيه فصلاً عن «أخبار مصر وعجائبها وما خصصت به من الفضائل التي لا يشرك أهلها فيها غيرهم من أهل البلدان»[٨]. وحديثاً عن سائر كلام الأمم في قسمة المعمور من الأرض وتسميته[٩]، وباباً عن اليمانية والنزارية وما جرى بينهما من كلام وحجاج وافتخار وخطوب[١٠]، ويحدثنا المسعودي بإسهاب عن ما دونه في

---

(١) T. Khalidi: Islamic Historiography, p. 155.

(٢) المروج ١/٩٤، ١٧٣، ٢٠٨، ٢٥٣، ٢٥٩، ٣١٩، ٣٢٠ وغيرها.

(٣) المصدر السابق ٣/٧٤، ٩٢، ١٢٤، وغيرها.

(٤) المصدر السابق ١/١١٠.

(٥) المصدر السابق ٣/٣٤٥.

(٦) المصدر السابق ١/١٨، ٣/٣١٢، ٤/٤٩، ١٩٥، ٢٩٦، ٣٤٤، ٣٦٣، ٥/١٧٤.

(٧) التنبيه، ص ٢.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٩) التنبيه، ص ٣١.

(١٠) المصدر السابق، ص ٨٣.

هذا الكتاب حول أخبار اليونانيين وأنسابهم وآرائهم وديارهم[1]، وكيفية غلبة الروم عليهم، وتنازع الناس في الفلاسفة كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس أروم هم أم يونانيون، وبيان المسعودي رأيه في ذلك إلى جانب الأقوال الأخرى، وأخبار الاسكندر وسيره في مشارق الأرض ومغاربها، واختلاف الناس فيه، وأخبار خلفائه الذين جاؤوا من بعده وأخبار الفلاسفة وآرائهم، ويبدو أن المسعودي في دراسته لليونانيين والبيزنطيين وثقافاتهم في هذا الكتاب[2] يملأ الفجوة الواسعة في حقل هذه الدراسات[3]. وذكر فيه أيضاً الفلسفة وحدودها، والأخبار عن كمية أجزائها[4]، وأتى فيه على أخبار رسل النبي صلى الله عليه وسلم ومبعوثيه إلى الملوك والأمراء «مع من أرسلوا إليه، ورسل من كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والملوك ووفودهم إلى سائر الملوك والأمم»[5]. ولا بد أن يكون قد أفرد فيه فصلاً للحديث عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه تحدث فيه عن مغازيه وسراياه على الشرح والإيضاح[6]، وكذلك تحدث عن الأمويين ومن كان بعدهم[7]، وما كان ببلاد افريقية من الحروب والوقائع والزحوف منذ افتتحت إلى سنة ٣٤٥هـ[8].

٤ ــ ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور[9]:

هذا هو الكتاب الخامس في المجموعة التاريخية المسعودية، وهو يشترك معها في الإطار العام من حيث المعلومات والموضوعات[10]، لكن المسعودي نبه

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٥ ــ ١٢١، ١٨٢، ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٤، ١٤٧، ١٥١، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٦، ١٧١، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٠، ١٩٥، ٢١٣.

(٣) Khalidi: op.cit., p. 156.

(٤) التنبيه، ص ١٢١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤.

(٩) المصدر السابق، ص ٢.

(١٠) المصدر السابق، ص ٤٠٠.

إليه بشكل خاص حينما كان يتحدث عن ملوك الطوائف من ملوك الفرس[1] فلا بد والحالة هكذا أن يكون مشتملاً على معلومات واسعة عنهم، وكذلك فيه تفصيل عن البيزنطيين: أديانهم، كنائسهم، أديرتهم، أبنيتهم، فترات حكمهم، والصراع بينهم وبين الفرس من جهة وبينهم وبين المسلمين من جهة أخرى[2].

٥ ــ الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار [3]:

ألف المسعودي هذا الكتاب قبل كتاب التنبيه مباشرة[4]، وهو السادس ضمن السلسلة التاريخية، ويبدو أن المسعودي كان يوليه أهمية خاصة بحكم إشاراته المتعددة إليه، وهو في نظري صورة موسعة من كتاب التنبيه لقول المسعودي بتأكيد وتكرار: «إنه تال له ومبني عليه»[5].

ومن أبواب هذا الكتاب التي عولجت فيه بصورة متميزة باب عنونه المسعودي، بقوله: «باب ذكر السواد ومساحته ووصف طساسيجه وقسمته، والعراق وحدوده من الأرض، ووصف نهاياته في الطول والعرض»[6]، وبين المسعودي في هذا الباب لماذا انحرف نهر دجلة وخرج عن عموده[7]. ومن أبوابه أيضاً باب الأمم السبع القديمة، وبين المسعودي فيه كيفية اجتماع حكماء هذه الأمم في سالف الدهر، حيث اجتمع في كل مجمع منها سبعة حكماء في أعصار مختلفة وأوقات متباينة عند حوادث وأحوال أوجبت اجتماعهم[8]، وتناول فيه

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٦٧.
(٣) المصدر السابق، ص ٢.
(٤) المصدر السابق، ص ٥.
(٥) المصدر السابق، ص ٨٤، ٩٧.
(٦) المصدر السابق، ص ١٠٢.
(٧) المصدر السابق، ص ٥٣ ــ ٥٤.
(٨) المصدر السابق، ص ٨٤.

أيضاً تاريخ أباطرة بيزنطة أو أخبار ملوك الروم[1]، وكان من بحوث هذا الباب بيان ما جرى لبعض هؤلاء الملوك مع من ظهر في أيامهم من الفلاسفة والعلماء[2].

وتحدث المسعودي في هذا الكتاب عن التاريخ الإسلامي بدءاً من مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم[3]، وغزواته وسراياه[4]، ومروراً بتاريخ الخلفاء الراشدين[5]، والأمويين[6]، وانتهاء بالتاريخ العباسي في فترة ضعفه وتفككه[7].

وإلى هنا تنتهي سلسلة كتب التاريخ السبعة التي كان المسعودي حريصاً على الربط بينها والتذكير بها، إذا أضيف إليها كتابا مروج الذهب والتنبيه والإشراف الموجودين.

٦ ــ نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر:

تعرفنا على هذا الكتاب من خلال إشارة واحدة، وعلى الرغم من أن المسعودي لم يعده ضمن سلسلة كتبه التاريخية المعتبرة[8]، إلا أنه يبدو أن مادته تحمل صبغة تاريخية قد لا تختلف كثيراً عن كتبه التاريخية الأخرى[9].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٤، ١٣٧، ١٤٤، ١٧٦، ١٩٥، ٢٧٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٨.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٨٨، ٣٠١.
(٦) المصدر السابق، ص ٣٢٩.
(٧) المصدر السابق، ص ٤٠١.
(٨) المصدر السابق، ص ٢.
(٩) المصدر السابق، ص ٤٠٠ ــ ٤٠١.

٧ ـ الأخبار المسعوديات:

قال المسعودي: «هي أخبار نسبت إلينا»[١] وهي تحتوي على معلومات تاريخية عن أخبار العرب في الجاهلية[٢]، وعن أحكام الأندلس من المسلمين[٣].

٨ ـ وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار:

أيام كان المسعودي يؤلف كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر كان يقول: «أرجو من الله تعالى أن يفسح لنا في البقاء. ويمد لنا في العمر ويسعدنا بطول الأيام فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمنه فنوناً من الأخبار وأنواعاً من ظرائف الآثار، على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف، على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار، ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار، تالياً لما سلف من كتبنا ولاحقاً بما تقدم من تصنيفنا»[٤]. ومع تكرار الوعود من المسعودي والثناء العاطر المسبغ على هذا الكتاب قبل الشروع في تأليفه، وحين تيسر فيها بعد لم يبلغ ما كان متوقعاً أن يحوزه حتى من رضا المسعودي نفسه، وذلك حين أشار إليه في كتاب التنبيه إشارة عابرة لا توحي بالرضا والقبول[٥]. ويبدو أنه ضمّنه معلومات تاريخية متفرقة[٦]، وإن كان هناك إشارات موجزة إلى بعض مباحثه التي شملها، مثل احتوائه على تاريخ الأندلس منذ افتتاحها وحتى عصر المسعودي، وذكر ولاتها وحروبهم مع الأمم المجاورة[٧].

---

(١) وليس معنى هذا أنها منحولة على المسعودي، بل المعنى أنه سمى هو كتابه هذا الأخبار، فقال الناس الأخبار المسعوديات.

(٢) التنبيه، ص ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٤) المروج ٢٧٣/٥ ـ ٢٧٤.

(٥) التنبيه، ص ٣٣٣.

(٦) المروج ٥٨/٥، ٢٠٤.

(٧) التنبيه، ص ٣٣٣.

٩ ــ تقلب الدول وتغير الآراء والملل:

وهو من الكتب ذات الصبغة التاريخية، وقد جاءت الإشارة الوحيدة إليه في كتاب التنبيه تؤكد احتواءه على معلومات تاريخية عن الحروب التي جرت بين الأغالبة والفاطميين في شمال افريقيا، وصدام هؤلاء الأخيرين مع الثائر الاباضي أبي يزيد البربري الزناتي[١].

١٠ ــ راحة الأرواح:

هذا الكتاب تاريخي أيضاً، وهو حسب قول المسعودي يبحث في أخبار سير ملوك الأمم، وأخبار مقاتلهم، ومنها أخبار البخت نصر[٢]، وسيره نحو المغرب[٣].

١١ ــ كتاب المبتدأ:

يبدو أن المسعودي ألف هذا الكتاب لبحث وتدوين مبدأ الخلق وتاريخ الأنبياء عليهم السلام[٤] ومن الجائز أن يكون قد جعله على طراز كتاب وهب بن منبه وأمثاله من الكتب التي تبحث في الإسرائيليات[٥].

---

(١) التنبيه، ص ٣٣٤.

(٢) بختنصر هو ابن الملك نابو بولصر ملك الكلدانيين في بابل المتوفى سنة ٦٠٧ق.م. تولى بختنصر الملك بعد أبيه، ثم غزا بيت المقدس وهاجم الإسرائيليين عدة مرات فقتل منهم وسبى، وتشتتوا في البلاد، وحارب الفينيقيين في سوريا، والفراعنة في مصر، اختل عقله في آخر أيامه ثم شفي ومات سنة ٥٥١ق.م. وقد تحامل كارادفو (Carra de Vaux) وهو المحرر لمادة (بختنصر) في دائرة المعارف الإسلامية (انظر: الترجمة العربية ٣/٤٢٩ ــ ٤٣٠)، تحامل على المؤرخين المسلمين، وقال: إنهم شوهوا كثيراً قصة البختنصر، وجعل قصته كما وردت في الكتاب المقدس عندهم مقياساً لذلك. انظر عن البختنصر: محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧١م)، ج ٢ ص ٥٠ ــ ٥١؛ وانظر: المروج ١/٦٨، ٢٦٩.

(٣) المروج ٢/٩٤.

(٤) المصدر السابق ١/٥٧، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م).

(٥) جواد علي: «موارد تاريخ المسعودي»، (مجلة سومر، العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، بغداد ١٩٦٤م)، ص ١٨.

هذا وقد ألف المسعودي كتباً كثيرة تبحث في مجالات أخرى غير التاريخ وطرق موضوعات متفرقة في الأديان والعقائد والإمامة والرحلات والفلسفة والاجتماع وغيرها، ويمكن أن نصفها ـ بإيجاز ـ حسب إشارات المسعودي إليها في كتابي المروج والتنبيه على النحو التالي:

١٢ ـ المقالات في أصول الديانات:

كان المسعودي قد استهل حياته العلمية في تصنيف الكتب التي تبحث في ضروب المقالات وأنواع الديانات قبل أن يشرع في تأليف الكتب التاريخية، وكان من أوائل كتبه في هذا الصنف كتاب المقالات في أصول الديانات، وهو من أعظم مؤلفات المسعودي في العقائد والأديان[١]، ويمكن أن نقدر مدى أهميته بمعرفتنا بكثرة إشارات المسعودي إليه.

والظاهر أنه يبحث في المذاهب التي تنتمي إلى الإسلام مثل المعتزلة[٢]، والخوارج[٣]، والشيعة[٤]، وفي الأديان والمذاهب غير الإسلامية، كاليهودية[٥]، والنصرانية[٦]، والثنوية، والديصانية والصابئة، والمجوس[٧]، والخرمية[٨]. كما تناول بحث مسائل مثل مسألة تصرف المؤمنين مع الفاسقين[٩]، وتنازع الناس

---

(١) هادي حمود: «مؤلفات المسعودي»، (المورد، المجلد الثامن، العدد الثالث، بغداد ١٣٩٩هـ)، ص ٦٩.

(٢) المروج ٤/٦٠ ـ ١٥٨.

(٣) المصدر السابق ٣/٣٤٦.

(٤) ذكر المسعودي من ضمن أبوابه (باب تفرق الشيعة ومذاهبهم). انظر: المروج ٤/٨٢، ٣٢٢، ٣٥٠؛ والتنبيه، ص ٣٩٧.

(٥) المروج ٢/٨٢ ـ ٨٣.

(٦) التنبيه، ص ١٥٤.

(٧) المروج ٢/٨٣.

(٨) المصدر السابق ٤/١٤٤؛ والتنبيه، ص ٣٥٣.

(٩) المروج ٢/٧٢.

في الأنساب والفضل بها[١]، وتنازع الناس في أيمان عبدالمطلب[٢] وما قيل عن الجن والشياطين[٣]، واختلاف أقوال الفرق في التحكيم والحكمين[٤].

وقد ألمح المسعودي إلى بعض المسائل الفلسفية والمذهبية التي عالجها فيه مع كتاب آخر له هو كتاب خزائن الدين وسر العالمين بقوله: «ذكرنا.. أقاويل الأمم في العوالم الأربعة عالم الربوبية وعالم العقل وعالم النفس وعالم الطبيعة، ومراتب الروحانية والجواهر العلوية والأجسام السمائية وسائر الوسائط، والفرق بين النار والنور ومراتب الأنوار، وما قاله كل فريق منهم في ذلك، من الهند وقدماء الفلكيين وأصحاب الاثنين ومن وافقهم من أصحاب التأويل في هذا الوقت، والحنفاء والكلدانيين وهم البابليون.. والشمنية وهم صابئة الصين وغيرهم وهم على مذاهب بوداسب، وعوام اليونانيين.. وصابئة المصريين الذين بقيتهم في هذا الوقت صابئو الحرانيين، وقولهم بنبوة آغاثديمون وهرمس وأميروس وأراطس وأريباس وأراني الأول والثاني وغيرهم... وما جرى بين فرفريوس الصوري صاحب كتاب ايساغوجي في المدخل إلى كتاب أرسطاطاليس في المنطق، وكان نصرانياً ينصر مذهب صابئة اليونانيين مخفياً لذلك وبين أنابو الكاهن المصري، وكان ينصر الفلسفة الأولى التي كان عليها فيثاغورس وثاليس الملطي وغيرهما، وهي مذهب صابئة المصريين من المسائل والجوابات في العلوم الإلهية وذلك في رسائل بينهم معروفة عند من عني بعلوم الأوائل وما كانوا عليه من الآراء والنحل»[٥].

ويبدو هذا الكتاب في صبغته جدلياً أي أنه كتاب بحث ونظر وليس كتاب إيضاح وخبر[٦].

---

(١) المصدر السابق ٢/١٧١.
(٢) المصدر السابق ٢/٢٥٩.
(٣) المصدر السابق ٢/٢٩٤.
(٤) المصدر السابق ٣/١٥٣.
(٥) التنبيه، ص ١٦١ ــ ١٦٢.
(٦) Khalidi: Islamic Historiography, p. 157.

١٣ ــ خزائن الدين وسر العالمين :

يتفق هـذا الكتاب مـع كتاب المقـالات في بعض مـوضـوعـاتـه[١]، وهو مخصص بصورة جوهرية للآراء الاعتقادية والدينية للمذاهب المختلفة[٢]، مثل إشارته بصورة مطولة إلى مذاهب الخرمية[٣]، وإيضاحه «الفرق بين مذهب مزدق وما كان يذهب إليه في التأويل وما ذهب إليه ماني، والفرق بين ماني ومن تقدمه من أصحاب الاثنين كابن ديصان ومرقيون وغيرهما، وما ذهبوا إليه جميعاً في الفاعلين. وأن أحدهما خير محمود مرغوب، والآخر شرير مذموم مرهوب منه، والفرق بين هؤلاء جميعاً وما يذهب إليه الباطنية أصحاب التأويل»[٤].

١٤ ــ الاسترجاع في الكلام :

أودع المسعودي هذا الكتـاب دحضاً لبعض المزاعم الفاسـدة، مثل اعتقادات الزرادشتية، وآراء المانوية الملحدة حول مسائل النور والظلمة[٥].

١٥ ــ الإبانة عن أصول الديانة :

يبدو أن المسعودي أودع هذا الكتاب آراءه الخاصة فيما يتعلق بالفرق والمذاهب المختلفة مثل إيضاحه الفرق بين المعتزلة وأهل الإمامة، وما بان به كل فريق منهم عن الآخر[٦]، كما أنه خصص أجزاء منه لكسر آراء بعض الفرق الملحدة، مثل الصابئة والمانية والمرقيونية والديصانية وهدم مذاهبهم[٧].

واستقصى فيه الحديث عن مذاهب الخرمية والمزدكية والماهانية، وأصحاب الاثنين وجميع من قال بالقدم على تباينهم، وسائر من خالف التوحيد، وذكر

---

(١) التنبيه، ص ١٦١ ــ ١٦٢.
(٢) Khalidi: op.cit., p. 161.
(٣) التنبيه، ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦.
(٤) المصدر السابق، ص ١٠١.
(٥) المروج ٢/٣٠٤.
(٦) المصدر السابق ٤/٦٠.
(٧) المصدر السابق ١/١٠٩ ــ ١١٠.

ما بين تلك الفرق من تنازع واختلاف، وسجل مناظراته مع من شاهده منهم في ذلك الكتاب[1].

١٦ ــ الانتصـــار:

هذا الكتاب مخصص بصورة رئيسة للحديث عن الخوارج وفرقهم واعتقاداتهم وفنَّد فيه المسعودي آراءهم المتعلقة بالتحكيم وغيره من المسائل[2] وهو غير كتاب «الاستبصار» ــ الذي سيأتي الحديث عنه ــ حيث توهم الدكتور جواد علي أنهما كتاب واحد، وأن الاختلاف في كتابة هذا اللفظ على الوجهين إنما هو من تحريف النساخ[3].

١٧ ــ نظم الأدلة في أصول الملة:

يقدم لنا المسعودي وصفاً مفصلاً لمحتوياته التي تندرج تحت ما يسمى بعلم أصول الفقه، فقد اشتمل على «أصول الفتوى وقوانين الأحكام كتيقن القياس والاجتهاد في الأحكام ووقع الرأي والاستحسان ومعرفة الناسخ من المنسوخ، وكيفية الإجماع وماهيته، ومعرفة الخاص والعام، والأوامر والنواهي، والحظر والإباحة وما أتت به الأخبار من الاستفاضة والآحاد، وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم وما ألحق بذلك من أصول الفتوى»[4]، وأمثال ذلك.

١٨ ــ نظم الأعلام في أصول الأحكام:

يبدو أن هذا الكتاب شبيه إلى حد كبير بكتاب نظم الأدلة فقد تم فيه بحث «تنازع المتفقهين في مقدمات أصول الدين والحوادث التي اختلفت فيها آراؤهم، وما يذهب إليه من القول الظاهر وإبطال القياس والرأي والاستحسان

---

(١) التنبيه، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤.

(٢) المروج ٤/٢٧.

(٣) انظر: (موارد تاريخ المسعودي)، ص ١٣؛ وانظر: هادي حمود: (مؤلفات المسعودي)، ص ٧٠.

(٤) المروج ١/١١.

في الأحكام، إذ كان الله جل وعز أكمل الدين وأوضح السبيل وبين للمكلفين ما يتقون في آياته المنزلة وسنن رسوله المفضلة التي زجرهم بها عن التقليد ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد وما اتصل بذلك من الكلام في أصول الفتوى والأحكام العقليات منها والسمعيات وغير ذلك من فنون العلم وضروب الأخبار»[١].

١٩ ــ المسائل والعلل في المذاهب والملل:

يشترك مع كتابي نظم الأدلة ونظم الأعلام في بعض الموضوعات الفقهية[٢] وينفرد عنهما باحتوائه على مناظرات كثيرة جرت بين المسعودي وبين بعض النصارى في بغداد وفي تكريت قد أودعها المسعودي في هذا الكتاب[٣].

٢٠ ــ الواجب في الفروض اللوازم:

هذا الكتاب في الفقه، ومن ضمن موضوعاته التي تناولها زواج المتعة، والمسح على الخفين ــ وهما نقطتا خلاف بين أهل السنة والشيعة ــ وطلاق السنة وطلاق العدة وطلاق التعدي وغير ذلك[٤].

٢١ ــ الاستبصار في الإمامة:

أحد الكتب الهامة التي ألفها المسعودي في موضوع الإمامة، فتناول فيه «وصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار وحجاج كل فريق منهم»[٥] وتناول آراء الخوارج في التحكيم وغيره، ورد عليهم فيها[٦] وتطرق

---

(١) التنبيه، ص ٤ ــ ٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٤ ــ ٥.
(٣) المصدر السابق، ص ١٥٥.
(٤) المروج ٣/٢٨٠.
(٥) المصدر السابق ١/١١.
(٦) المصدر لاسابق ٤/٢٧.

لمسألة أيمان عبدالمطلب وتنازع الناس فيها[1]، ومسألة إسلام علي بن أبـي طالب وما قاله أصحاب النص والاختيار واحتجاجاتهم في ذلك[2]، وكان فيه أيضاً بحث عن موضوع زواج المتعة وتنازع الآراء فيه[3].

٢٢ ـ الصفوة في الإمامة:

عالج هذا الكتاب موضوع الإمامة أيضاً وطرق نفس الموضوعات التي أشرنا إليها في كتاب الاستبصار[4]، ولم يشر المسعودي إلى تفرده بموضوعات أخرى غيرها، هذا ولا يمكن أن يكون الاسمان في هذا الكتاب والذي قبله لمسمى واحد بسبب تحريف أو تصحيف في الأسماء من طريق النساخ أو غيرهم، لأن المسعودي نفسه أشار إلى الكتابين في موضع واحد في أكثر من مناسبة.

٢٣ ـ حدائق الأذهان في أخبار أهل بيت النبـي ﷺ وتفرقهم في البلدان:

يؤرخ المسعودي في هذا الكتاب لآل بيت النبـي صلى الله عليه وسلم ويتحدث عن مناقبهم وأخبارهم[5] وركز بصفة خاصة على إبراز فضائل علي بن أبـي طالب ومناقبه ومقاماته، ووصف زهده ونسكه، وأتى فيه على جمل من أخباره وسيره، وأنواع كلامه وخطبه[6]، ويحتوي على تاريخ الثوار العلويين ومقاتلهم ووفياتهم في أرجاء العالم الإسلامي[7].

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٥٩.
(٢) المصدر السابق ٣/١٦.
(٣) المصدر السابق ٣/٢٨٠.
(٤) المصدر السابق ١/١١، ٢/٢٥٩، ٣/١٦.
(٥) المصدر السابق ٣/٢٧٦.
(٦) المصدر السابق ٣/١٧٩.
(٧) المصدر السابق ٤/٢٠٢، ٤/٣٢٣، ٥/٦٢.

٢٤ ــ مزاهر الأخبار وطرائف الآثار للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة :

هذا الكتاب كسابقه في أخبار آل البيت، ومن المباحث التي أشار إليها ذكر عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ وحروبه مع علي بن أبي طالب في صفين(١)، وبيان فضائل علي(٢) ومقاتل الطالبيين(٣).

٢٥ ــ رسالة البيان في أسماء الأئمة القطيعية من الشيعة :

خصص المسعودي هذه الرسالة لحياة الأئمة الاثني عشر في المذهب الشيعي، فهو يتضمن معلومات عن تسلسلهم وأسمائهم وأسماء أمهاتهم، ومواضع قبورهم، ومقادير أعمارهم، وكم عاش كل واحد منهم مع أبيه ومن أدرك من أجداده(٤). وكيفية أعدادهم وجميع الأمور المتعلقة بهم(٥).

٢٦ ــ الزاهي :

لا نستطيع أن نجزم بمحتويات هذا الكتاب بدقة، لكن إشارة المسعودي الوحيدة إليه وهو يتحدث عن إسلام علي بن أبي طالب وتنازع الناس في كيفيته وما قالته الشيعة والأباضية وأهل السنّة في ذلك(٦).

٢٧ ــ سر الحياة :

كان تأليف المسعودي لهذا الكتاب بعد سنة ٣١٣هـ وقبل سنة ٣٣٢هـ حيث أشار إلى أنه دون فيه مناظرة جرت بينه وبين أحد النصارى في

---

(١) المصدر السابق ٣/١٢٩.
(٢) المصدر السابق ٣/١٧٩.
(٣) المصدر السابق ٥/٦٥.
(٤) المصدر السابق ٤/٢١٦، ٣٤٩.
(٥) التنبيه، ص ٢٩٧.
(٦) المروج ٣/١٦.

سنة ٣١٣هـ. حول مسألة الثالوث وغيرها من معتقدات النصارى[١].

ويبدو أن هذا الكتاب يبحث في موضوعات تتعلق بالنفس ومدى الصلة بينها وبين الجسم[٢]، وكيف أن النفوس أبداً إلى أوطانها مشتاقة، وعلة حنينها إليها[٣] وما ذهب إليه الناس في تحديد النفس، والفرق بينها وبين الروح، وطبقات النفوس وصفاتها وأنواعها، وآراء أهل الملل المختلفة حولها[٤]، وبحث فيه أيضاً عن الروح وكلام العرب في الجاهلية عنها وكلام غيرهم من أهل الملل ممن سلف وخلف في تنقل الأرواح[٥]، وما تميزت به بعض فرق الشيعة في أقوالها في هذا الموضوع[٦]، وأقوالها في غيبة المهدي المنتظر وحجاج كل طائفة منهم فيه، وبيان ما اختارته لنفسها وما اجتبته لمذهبها[٧]، كما بحث فيه أيضاً عن مذاهب الخرمية بفرقها المتعددة ومواطنها المختلفة، وسجل فيه بعض مناظراته معهم[٨].

٢٨ ـ القضايا والتجارب:

يظهر أن لهذا الكتاب أهمية خاصة حيث أنه يحوي تحليلاً لبعض المواقف والمشكلات والتجارب التي مر بها المسعودي أثناء تنقله وترحاله في المدن والبلاد التي زارها، وسجل فيه ما شاهده حساً في مطافاته الأرض والممالك، وما نمى إليه «خبراً من الخواص وأسرار الطبيعة من الحيوان والنبات والجماد في عجائب البنيان والآثار والبقاع»[٩]، وتحدث فيه عن الأثر المناخي للأقاليم على السكان

---

(١) التنبيه، ص ١٥٥.
(٢) المروج ١/٢٦٢.
(٣) المصدر السابق ٢/١٨٦.
(٤) المصدر السابق ٢/٣١٦ ـ ٣١٧.
(٥) المصدر السابق ٢/٢٨٨.
(٦) المصدر السابق ٤/٣٥٠.
(٧) المصدر السابق ٥/١٠٨.
(٨) التنبيه، ص ٣٥٣.
(٩) المروج ٢/٩١.

والنبات والحيوان والجماد، حيث ذكر ما «تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهواؤها في حيوانها من الناطقين وغيرهم، وما تأثير البقاع في النامي من النبات وما ليس بنام مثل الجماد كتأثير أرض الترك في وجوههم وصغر أعينهم... وأرض يأجوج ومأجوج في صورهم وغير ذلك»[1].

وتحدث فيه أيضاً عن «ضروب التوليدات في أنواع الحيوانات والنبات من تطعيم الغروس والأشجار، وما تولد من الطعوم في المذاق... في أنواع الفلاحات وغيرها».. وذكر فيه «باب خواص الأشياء ومعرفتها والطلسمات وعجائبها»[2]، وخصائص بعض المياه وآثارها على الحياة[3]. وخصائص بعض الحيوانات[4]، والنوعيات الكيمائية لبعض المعادن وأثرها على الإنسان[5].

٢٩ ـ الزلف:

تحدث فيه المسعودي عن مقالات الفلاسفة في النفس وأنواعها من الناطقة والغضبية والحسية والشهوانية[6]، وفيه أشبع القول «في الموسيقى وأصناف الملاهي والإيقاع وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسبة النغم، وما استعملته كل أمة من الأمم من أصناف الملاهي، من اليونانيين والروم والسريانيين والنبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الأمم.. ومناسبة النغم للأوتار وممازجة ما بين النفس والألحان وكيفية تولد الطرب وإيقاع السرور وذهاب الغم وزوال الحزن، وعلل ذلك الطبيعية والنفسية، وما أحاط بذلك من جميع الوجوه»[7].

وتحدث فيه عن سلطان النيرين وكيفية تأثيرهما على الحياة الحيوانية

---

(١) المروج ١/١٨٠.
(٢) المصدر السابق ٢/٩٢.
(٣) المصدر السابق ٢/٢٦.
(٤) المصدر السابق ٢/١١٢.
(٥) المصدر السابق ٤/٥٤.
(٦) المصدر السابق ١/٢٦٢.
(٧) المصدر السابق ٢/٤٦.

والنباتية[١]، وتناول فيه أسباب طول أعمار الناس في الأمم القديمة، وضخامة أجسامهم، ووجود بعض الحيوانات والمعادن في بعض البلدان دون بعضها الآخر[٢]، كما تحدث فيه أيضاً عن الملك «والخصال التي يستحق بها الملك من وجدت فيه، وما ذكر عن حكماء الفرس وأسلافها في ذلك وغيرها من حكماء اليونانيين كأفلاطون وما ذكره في كتاب السياسة المدنية، وغيره ممن تأخر عن عصره»[٣].

٣٠ ـ المبادىء والتراكيب:

أشار المسعودي إلى هذا الكتاب في المروج مرة واحدة في معرض حديثه عن تأثير الشمس والقمر على الأرض وطبائع الجسم الأربع[٤].

ومن الصعوبة بمكان أن نحدد موضوع الكتاب من خلال إشارة واحدة، لأن المسعودي عودنا في كتاباته الموسوعية أن لا يقتصر على موضوع في كتاب، بل غالباً ما يطرق موضوعات متعددة.

٣١ ـ طب النفوس:

عالج هذا الكتاب موضوعات نفسية وروحية، كتأثير الأحلام في النفوس، وتقلبها حسب الأمزجة والأخلاط وما يصاحبها من السرور والضحك والحزن والألم وغير ذلك[٥]، وعلة حنين النفوس إلى أوطانها وشوقها إليها[٦].

٣٢ ـ النهى والكمال:

الظاهر أن موضوع هذا الكتاب كسابقه، فهو يتناول أثر الضحك

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٥٧، ٣٦٣.
(٢) المصدر السابق ٢/١٥٥.
(٣) المصدر السابق ١/٣١١.
(٤) المروج ٢/٣٥٧.
(٥) المصدر السابق ٢/٣١٦.
(٦) المصدر السابق ٢/١٨٦.

والسرور على الروح، والأمزجة الأربعة وغلبتها على الأجسـام، وهي المرة الصفراء والمرة السوداء والدم والبلغم(١).

٣٣ ــ الرؤوس السبعية من السياسة الملوكية ومللها الطبيعية(٢):

تحدث المسعودي في هذا الكتاب عن مسائل فلسفية مثل الروح والجوهر، الاسطقسات الأربعة وهي النار والهواء والماء والأرض، وذلك في باب السياسة المدنية وعدد أجزائها وعللها الطبيعية(٣)، واستقصى فيه خواص تأثير الأشخاص العلوية [الأجرام السماوية] والغرائب الفلسفية(٤)، وتحدث فيه بتفصيل وإيضاح عن القيافة وأسرارها(٥)، وعن عظم أجسام الأمم القديمة، وطول أعمارهم(٦)، ووصف المسعودي كتابه هذا بأنه «كتاب مشهور مستوعب»(٧).

٣٤ ــ الدعاوى السنيعة:

يبدو هذا العنوان غامضاً، ومن الأبحاث التي تناولها المسعودي فيه بحث عن دعاوى العرب في الجاهلية وغيرهم من أهل الملل الأخرى حول تنقل الأرواح(٨).

٣٥ ــ مقاتل فرسان العجم:

ألف المسعودي كتابه هذا معارضاً فيه أبا عبيدة معمر بن المثنى في كتابه مقاتل فرسان العرب، وقد تحدث المسعودي فيه عن مصارع «فرسان الفرس

---

(١) المصدر السابق ٢/٣١٦.

(٢) في طبعة عبدالحميد للمروج ورد اسم هذا الكتاب كما يلي «الرؤوس السبعة في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره» ٢/١٧١.

(٣) المروج ٢/٣٦٣.

(٤) المصدر السابق ٢/٣٠٤.

(٥) المصدر السابق ٢/٣٠٧.

(٦) المصدر السابق ٢/١٥٥.

(٧) المصدر السابق (طبعة عبدالحميد) ٢/١٧١.

(٨) المصدر السابق ٢/٢٨٨.

وشجعانهم على طبقاتهم من الملوك وغيرهم ممن أجمع على تقديمه وتفضيله وشجاعته ومقاماته المشهورة وأيامه المذكورة»[1].

* * *

هذه هي الكتب التي ذكرها المسعودي في كتابيه مروج الذهب والتنبيه والإشراف في مناسبات الحديث عن موضوعات كان قد عالجها فيها من قبل، ولذلك فإنه من الممكن أن نجزم بصحة نسبتها إليه، لأنه هو الذي ذكرها بنفسه وتحدث عنها وعن محتويات كل منها إما بإيجاز أو بتفصيل.

أما الكتب التي ذكرها غير المسعودي ونسبها إليه فسأعرض هنا أسماء ما وقفت عليه منها، ولكن لا أجزم بصحة نسبتها إليه ما دام أنها مفقودة ولا يمكن قراءتها وفحصها والحكم عليها.

١ ــ التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم[2].

٢ ــ كتاب الرسائل[3].

٣ ــ المسالك والممالك[4].

٤ ــ أخبار الخوارج[5]، والمعروف أن للمسعودي كتاب الانتصار خصصه للحديث عن الخوارج وفرقهم[6].

٥ ــ رسالة البيان عن أصول الأحكام[7].

٦ ــ عجائب الدنيا[8].

---

(١) التنبيه، ص ١٠٢.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٢٠، وياقوت: معجم الأدباء ١٣/٩٤، والسخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ١٥٤.

(٣) الفهرست، ص ٢٢٠، ومعجم الأدباء ١٣/٩٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، (بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٦٥)، ص ٩٠، وحاجي خليفة: كشف الظنون ٢/١٦٦٤.

(٥) معجم الأدباء ١٣/٩٤.

(٦) انظر: الكتاب رقم ١٦ من كتب المسعودي المفقودة.

(٧) طبقات الشافعية ٢/٣٠٧.

(٨) كشف الظنون ٢/١١٢٦.

٧ ـ بشرى الأبرار[١].

٨ ـ رسالة في أحوال الإمامة[٢].

٩ ـ المعالي (المعاني) في الدرجات[٣].

١٠ ـ الهداية إلى تحقيق الولاية[٤].

١١ ـ كتاب الأدعية[٥].

١٢ ـ الفهرست[٦].

١٣ ـ كتاب النصرة[٧].

١٤ ـ رسالة إلى أبـي صفوة المصيصي[٨].

* * *

---

(١) البغدادي: إيضاح المكنون ١/١٨٣.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربـي ٣/٦٠.

(٣) أحمد بن علي النجاشي: كتاب الرجال (بمبـي: ١٣١٧هـ)، ص ١٧٩.

(٤) أبو علي: منتهى المقال، ص ٢١٣.

(٥) العاملي: أعيان الشيعة ٤١/٢٠٧.

(٦) النجاشي: الرجال، ص ١٧٩.

(٧) الخوانساري: روضات الجنات، ص ٣٧٣.

(٨) أبو علي: منتهى المقال، ص ٢١٣.

رابـــعـــاً:

نظرة تقويمية لمؤلفات المسعودي

مؤلفات المسعودي ـ كما رأينا ـ كثيرة ومتنوعة سجل فيها معارفه وتجاربه، فجعل بعضها على شكل سلسلة تاريخية، تناول فيها تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حتى عصره، وخصص بعضها للحديث عن الأديان وتاريخها، والمعتقدات وألوان الأفكار والملل قديمها وحديثها، وعالج في بعضها موضوع الإمامة والاختلاف الدائر حولها بين الفرق الإسلامية، وفي بعضها تناول موضوعات في الفلسفة والاجتماع والكون والحياة وغير ذلك.

وإذا ما دققنا النظر في إشارات المسعودي إلى تلك الكتب نلاحظ أنه في كتاب مروج الذهب أكثر من الإشارة إلى كتابي أخبار الزمان والكتاب الأوسط وأكثر من الإحالات عليهما، بينما في كتاب التنبيه والإشراف نجده يركز في الإشارة إلى كتابي فنون المعارف وكتاب الاستذكار، إضافة إلى كتاب المروج، وهذا يدلنا على أهمية تلك الكتب ورضا المسعودي عنها، فكتابا أخبار الزمان والأوسط هما خير نموذج للثقافة والعلم اللذين استبحرا في القرن الرابع الهجري من تاريخ العالم الإسلامي[1]، ومروج الذهب قلما يخلو كتاب في معناه من النقل عنه أو الرجوع إليه، لأن المسعودي تفنن فيه في نقل نوادر الأخبار، وأحوال الرجال، وغرر الحوادث والوقائع، مما لا يسع ذوي الدراية جهله أو التغافل عنه.

وكتب المسعودي بصفة عامة ذات فائدة علمية كبيرة تشكل في مجموعها

---

(١) مروج الذهب (تحقيق يوسف داغر) ١/٩.

كنزاً يفوق كل ثمن عن المعارف التاريخية والجغرافية والدينية، وذلك أنه حاول أن يربط بين المعلومات التي كان يوردها في كل منها بالإشارة إلى المفصل منها عند الإيجاز، والدلالة على المواضع التي يستفيد منها القارىء عند إيراد اللمع والدلالة على المتقدم منها بالمتأخر، فهي إذن تشكل وحدة متكاملة مبني بعضها على بعض، ولا يمكن الاستغناء بالمتأخر منها عن المتقدم أو العكس، ولا سيما سلسلة الكتب التاريخية، ومن هنا لنا أن نقدر مدى الخسارة والفراغ الذي خلفه ضياع كتبه الأولى، وبالأخص الكتب الضخمة الواسعة ككتاب أخبار الزمان والأوسط وفنون المعارف.

هذا وقد أثار بعض الباحثين تساؤلاً حول مسلك المسعودي في التأليف من حيث تكرار الكتب في موضوع واحد أو فن واحد، وعن أهدافه الحقيقية التي كان يرمي إليها من وراء ذلك، هل هي مجرد إطالة واختصار، أو إعادة وتكرار للتظاهر بكثرة التأليف وبسعة المعرفة[1]؟.

ومن أجل ذلك عقدت مقارنة بين كتابي المسعودي المطبوعين لمعرفة الفرق بينهما، وللتحري عن السبب الذي دفعه إلى كتابة مجموعة من الكتب في فن واحد كالتاريخ مثلاً.

وقد تبين بعد المقارنة أن كتاب التنبيه يختلف عن كتاب المروج من حيث طريقة عرض المعلومات ومن حيث حجمها، وأنه يرد في أحدهما فصول عديدة لا ترد في الكتاب الآخر، وأما الموضوعات المشتركة بينهما فهي تختلف من حيث الطول والقصر بين كل منهما، ويحظى كتاب التنبيه بوجود استدراكات وزيادات لا توجد في المروج فات المؤلف ذكرها فيه حين تأليفه أو استجدت بعده.

وكأن المسعودي كان متوقعاً لورود مثل هذا التساؤل، فها هو يقول في نهاية حديثه في كتاب المروج عن أحد الخلفاء العباسيين: وله «أخبار حسان وأشعار وملح ومنادمات ومكاتبات ومراسلات قبل الخلافة، قد أتينا على

---

(١) جواد علي: «موارد تاريخ المسعودي»، ص ١٩.

مبسوطها وما استحسناه منها ما لم نورده في هذا الكتاب، في كتابنا أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة، وكذلك في الكتاب الأوسط إذ كنا ما ضمناه كل كتاب منها لم نتعرض لذكره في الآخر ولو كان كذلك لم يكن بينها فرق وكان الجميع واحداً»[١].

وقال في المروج: «وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً مما لم نذكره فيما سلف من كتبنا»[٢].

وقال أيضاً: «ودللنا في هذا الكتاب بالقليل على الكثير وبالخبر اليسير على الجليل الخطير، وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب ما لم نذكره في الآخر مما لا يسع تركه ولم نجد بداً من إيراده ولما دعت الحاجة إلى وصفه، وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الأحداث وما كان فيه من الكوائن إلى وقتنا هذا»[٣].

وقال في نهاية حديثه عن أخبار أحد الخلفاء الأمويين: «وقد أتينا على كثير من مبسوطها في كتابينا أخبار الزمان والأوسط، وإنما نذكر في هذا الكتاب ما لم نورده في ذينك الكتابين، كما أن ما ذكرناه في الكتاب الأوسط هو ما لم نورده في كتاب أخبار الزمان»[٤].

وقال: «. . . وقد أوضحنا الكلام في هذا المعنى [الأحلام] في كتاب النهى والكمال وفي كتاب طب النفوس فلا وجه لإطنابنا في هذا الموضع من كتابنا هذا»[٥].

وقال: «وإنما ذكرنا لمعاً من هذه الفنون لندل بها على ما لم نورده مما تقدم إيرادنا إياه فيما سلف من كتبنا وسبق من تصنيفنا»[٦].

---

(١) المروج ٥/٥٧ ـ ٥٨.
(٢) المصدر السابق ٣/٧٤.
(٣) المصدر السابق ٥/٢٧٣.
(٤) المصدر السابق ٣/٣٨٠.
(٥) المصدر السابق ٢/٣١٦.
(٦) المصدر السابق ١/١٠٨.

وقال في التنبيه بعد أن عدد أسماء بعض كتبه: «وكل واحد من هذه الكتب تالٍ لما قبله ومبني عليه، وخصصنا كل كتاب منها بتلاقين وعبارات مما لم نخصص به الآخر إلا ما لا يسع تركه»[1].

□□□

(1) التنبيه، ص ٩٧، وانظر: ص ١٧٦.

الفصل الثالث

مَصَادِر المَسْعُودِي

أولاً: الرحلات.

ثانياً: العلماء، وأهل الخبرة والاختصاص.

(أ) الشيوخ.

(ب) علماء مسلمون وغير مسلمين.

(ج) أهل الخبرة والاختصاص.

ثالثاً: الكتب:

(أ) الكتب المقدسة.

(ب) كتب الفلاسفة اليونانيين.

(ج) كتب الهيئة (الفلك) والجغرافيا العربية.

(د) كتب الإخباريين والمؤرخين.

مصـــادر المســـعودي

اعتمد المسعودي على ثلاثة أنواع من المصادر:

* **النوع الأول**: تجريبـي، وهو ما استمده من رحلاته وأسفاره، وما وقع له فيها من مشاهدة ومعاينة للأحداث على طبيعتها، وما تحصل له من تجارب وملاحظات خلال تلك الأسفار.

* **النوع الثاني**: شفهي، ويقصد به ما تحصل عليـه المسعودي من معلومات جديدة أو ما صحح به معلومات خاطئة أو مغلوطة من خلال لقائه بالعلماء، من ذوي الصلة المباشرة بالحدث أو شهود العيان للوقائع، وأهل الخبرة والاختصاص.

* **النوع الثالث**: كتابـي، وهي تلك الأسفار والكتب التي ألفها علماء عاشوا قبل المسعودي غـالباً، أو عـاصروه، ثم قـرأها وهضم مـا فيها من معلومات، ومن ثم استعان بها في تأليفه لمصنفاته.

هذا وسوف أتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة من المصادر التي أفاد منها المسعودي، مبيناً أهميته وقيمته التاريخية، وكيف أفاد منه في تصنيفه وكتاباته.

* * *

أولاً:
الــرحــلات

استعرضنا في الفصل الأول في حديثنا عن رحلات المسعودي الأقطار والممالك والأقاليم التي رحل إليها، وقلنا إنه زار مناطق فارس وخوزستان وكرمان وسجستان والسند والهند وسيلان وبعض منـاطق أندونيسيـا، وزار الساحل الشرقي لأفريقية، وجنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وخراسان والمناطق المطلة على بحر الخزر، وزار مصر. ثم استقر بها إلى أن وافته منيته.

والواقع أنه كان لتلك الرحلات أثر هام جداً في مؤلفات المسعودي، إذ أصبحت المعلومات التي حصلها عن طريق المعاينة المباشـرة والمشاهـدة والتجربة تشكـل جانبـاً مهماً من المعـارف الفريـدة الجديـدة التي لم يسبق إليها المسعودي من قبل، ولعل تلك الرحلات قد ساعدت على تكوين ملكة الملاحظة والنقد والمقارنة والنظرة الشاملة لديه، فجاءت ملاحظاته وأحكامه النقدية سديدة وصائبة في أغلب الأحيان.

والمسعودي من أوائل المؤرخين الذين أدخلوا هذا النوع من المصادر في مؤلفاتهم واعتمدوا عليه في تدوين أخبارهم، ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا أن اليعقوبي[1] (المتوفى بعد سنة ٢٩٢هـ) كانت له رحلات إلى أرمينية والهند

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي: مؤرخ وجغرافي من أهل بغداد، كان كثير الأسفار، من مصنفاته: التاريخ (تاريخ اليعقوبي)، البلدان، وكتاب صغير في أخبار الأمم السالفة، مشاكلة الناس لزمانهم، انظر عنه: معجم الأدباء، ٥/١٥٣ ــ ١٥٤؛ وياسين إبراهيم الجعفري، اليعقوبي: المؤرخ والجغرافي (بغداد: دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م)، ص١٩ وما بعدها.

والمغرب وغيرها، ومع ذلك لم نلمس في مؤلفاته أثراً لتلك الرحلات، وتحاشى أن يسطر فيها شيئاً من ذلك(١).

ونجد كذلك الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) قد رحل إلى مصر وعاش فيها مدة، وخالط علماءها وكتب عن تاريخها القديم(٢)، ولكن كما ورد عن أهل الأخبار لا كما رأى أو سمع، ولم نجد عنده شيئاً عن الأهرامات أو آثار الفراعنة في مصر أو غيرها من الآثار، مع أنه مؤرخ، ومن واجب المؤرخ أن يبحث ويدقق ويسأل ويستقصي الأخبار، لذا فإنه دخل مصر وخرج منها وكأنه لم يذهب إليها، ولكن قد نعذر الطبري لأنه كانت له طريقته وأسلوبه الخاص في التأليف، حيث نجد تاريخه «كتاباً صارماً فيه خلق علماء تلك الأيام: متانة في الأسلوب، وأسانيد، وروايات مستقلة أو متداخلة حسب الموقف، لا مكان فيه لوصف الآثار ولا لوصف عادات الناس وحياتهم اليومية»(٣).

ومن هنا فإن باستطاعتنا القول: إن المسعودي كان رائداً في هذا المجال، حيث أن مؤلفاته وكتاباته التاريخية قد اصطبغت بصبغة المؤرخ المتحرك الحي الذي يرى الأشياء الجامدة المهملة التي لا يؤبه بها فيكتب عنها فيبعث فيها الحياة والحركة ويجليها للعيان.

وكان مما هيأ له عوامل النجاح في رحلاته وتحقيقه الفوائد الجمة منها إلى جانب ما تميز به من حب الاستطلاع واكتشاف المجهول استعداده النفسي والعقلي حيث كان يحمل نفساً لا تمل المطالعة والتسجيل، وعيناً فاحصة دقيقة النظر في كل ما حولها، ولساناً لا يني عن السؤال والجدل في كل شيء ولا سيما في شؤون الأفكار والملل والنحل، ورجلاً تحمله إلى حيث شاء من الناس من ذوي الصلة المباشرة بما يريد أن يعرف(٤).

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢/١٠.
(٢) انظر: تاريخ الطبري، ١/٣٨٦ وما بعدها.
(٣) جواد علي: «موارد تاريخ المسعودي»، ص٢٦.
(٤) انظر: شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ٢/٤٦.

ويعتقد المسعودي أن من أولى المهام التي يجب على المؤرخ أن يلتزم بها ويطبقها أن لا يكتب عن شيء إلا إذا كان قد خبره بنفسه وشاهده حساً إذا كان باستطاعته ذلك، وإلا تركه لمن يستطيع، ومن أجل هذا نراه يطوف الآفاق ليراها بنفسه ويختبرها بشخصه، ويستنتج من مشاهداته[1]. فهو من أولئك المؤرخين الذين اتخذوا الأسفار منبعاً ورافداً يمد صاحبه بالعلم العملي والمعرفة الصحيحة الواقعية، ونتيجة لاعتقاد المسعودي هذا نراه يصدر أحكاماً على ما يقع تحت يديه من مؤلفات انطلاقاً من ذلك المبدأ، فإذا نظرنا إلى بعض النماذج من ذلك، نرى ثناءه العاطر على أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥هـ) الذي ألف كتاب «الأوراق في أخبار خلفاء بني العباس وأشعارهم»، وله أيضاً كتاب آخر عن وزرائهم وشعرائهم، وقد ذكر في هذين الكتابين «غرائب لم تقع إلى غيره وأشياء تفرد بها» وتكمن قيمتها التاريخية في أنه «شاهدها بنفسه»[2]. وعلى العكس من ذلك الجاحظ[3] (المتوفى سنة ٢٥٥هـ)، فقد حمل عليه وانتقده انتقاداً لاذعاً ـ على الرغم من احترامه إياه وتقديره لمقامه في دولة الأدب ـ وذلك لتأليفه في موضوعات كان يليق به أن يجتنبها، لأن من يؤلف فيها يحتاج إلى خبرة طويلة ورؤية ومشاهدة للأحداث على طبيعتها، ومن الأوهام التي عاب على الجاحظ تدوينها في كتابه المترجم بكتاب «الأمصار وعجائب البلدان» قوله: «إن نهر مهران السند من نيل مصر، واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه»، ويتساءل المسعودي مستغرباً: «فلست أدري كيف وقع له هذا

---

(١) جورج غريب: أدب الرحلة، الطبعة الثالثة (بيروت دار الثقافة ١٩٧٩)، ص٣٤.

(٢) المروج، ١/١٥.

(٣) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، من أكبر أئمة الأدب العربي، مولده ووفاته بالبصرة، أصابه الفالج في آخر عمره، وكانت وفاته بسقوط مجلدات من الكتب عليه، ترك زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً في شتى ألوان المعارف، منها: البيان والتبيين، االحيوان، البخلاء، التاج، المحاسن والأضداد، فضائل الأتراك، انظر عنه: تاريخ بغداد، ٢١٢/١٢ ـ ٢٢٠؛ ومعجم الأدباء، ٧٤/١٦ ـ ١١٤؛ والذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال: تحقيق علي محمد البجاوي، (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، ج٣ ص٢٤٧، وانظر مقدمة كتاب الحيوان، تحقيق الأستاذ عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده)، ج١ ص٣ وما بعدها.

الدليل»[1]، إلا أنه يؤكد أن ذلك لم يأته إلا لأنه «لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار، ولا تقرى[2] الممالك والأمصار»، ثم يصحح معلومات الجاحظ فيقول: «أو لم يعمل أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند من أرض قنوج من مملكة بروزة، وأرض قشمير وقندهار والطاقي، حتى ينتهي إلى بلاد المولتان، ومن هنالك يسمى مهران الذهب»[3].

ومن هذا القبيل انتقاده لسنان بن ثابت بن قرة[4] (المتوفى سنة **٣٣١هـ**)، الذي ألّف كتاباً جعله رسالة إلى بعض إخوانه من الكتاب، ودوّن فيه أخباراً «زعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها»[5].

وهكذا يبدو لنا ما كان يعلقه المسعودي على مبدأ المشاهدة والمعاينة للأحداث من أهمية، ولهذا فقد أخذ على نفسه أن يطوف في الآفاق والنواحي، ويجوب الأماكن النائية ولسان حاله ومقاله يردد «مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة»[6].

وكنا في معرض حديثنا عن رحلات المسعودي قد ألمحنا إلى بعض الجوانب من تجاربه ومشاهداته والمعالم البارزة التي كانت تشد انتباهه، ونضيف هنا أنه كان يحرص على زيارة أماكن العبادة في بعض البلاد التي زارها، ووصفها

---

(١) المروج، ١/١١٣.

(٢) تَقَرَّى: يظهر من السياق أنها بمعنى طاف وجاب، ولم أعثر على هذا اللفظ فيما رأيت من المصادر اللغوية.

(٣) المروج، ١/١١٣.

(٤) سنان بن ثابت بن قرة الحراني، أبو سعيد، طبيب وعالم نبغ في العصر العباسي، خدم الخليفة المقتدر بالله وجعله رئيساً للأطباء، وخدم بعده القاهر بالله والراضي، وكانت وفاته ببغداد سنة **٣٣١هـ**، من مؤلفاته النجوم، ورسالة في تاريخ ملوك السريانيين، وكتاب التاجي.
انظر عنه: ابن النديم: الفهرست، ص٣٨٠؛ وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٣٠٠ وما بعدها.

(٥) المروج، ١/١٧.

(٦) المصدر السابق، ١/١٠.

وصفاً دقيقاً، كوصفه لبعض بيوت النار الفارسية القديمة في مدينتي اصطَخر[1] وجور[2] الفارسيتين، وكوصفه لبيت الذهب وهو المعبد الموجود بالهند، وما «فيه من العجائب والبنيان الشامخ المزخرف بأنواع الجواهر وما يؤنق العين من الذهب الأحمر، حتى قد بهر العيون منظره وسار في الأمم ذكره»[3] ومتى دخله الاسكندر[4] وكيف كان الناس يحجون إليه من السند والهند[5].

وشاهد في بعض المدن الهندية كيفية تعذيب الهنود لأنفسهم بالنار وأنواع العذاب الأخرى وهم أحياء، وأن من أراد منهم ذلك «يصير إلى باب الملك فيستأذن في إحراق نفسه، ثم يدور في الأسواق وقد أججت له النار العظيمة وعليها من قد وكل بإيقادها، ويسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير وقد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان، قد قشر جلدته من رأسه وجعل عليها الجمر، وعليها الكبريت والسندروس، فيسير وهامته تحترق وروائح دماغه تفوح وهو يمضع ورق التانبول وحب الفوفل[6]. . فإذا طاف المعذب لنفسه بالنار في الأسواق، وانتهى إلى تلك النار، وهو غير مكترث لا يتغير في مشيته ولا يجبن في خطوته، فمنهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمراً كالتل العظيم تناول بيده خنجراً، ويدعى الجري عندهم فيضعه في لبته»[7] ويؤكد المسعودي مشاهدته لهذا المنظر في بلاد صيمور فيقول: «ورأيت رجلاً من فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة، وهو يتكلم فقطعها بالخنجر ودفعها

---

(١) المصدر السابق، ٢/٣٩٩.

(٢) المصدر السابق، ٢/٤٠٠.

(٣) التنبيه، ص٢٠١.

(٤) المصدر السابق، ص٢٢١.

(٥) المروج، ١/١٩٩.

(٦) ورق التانبول، نبت في بلاد الهند على هيئة ورق الريحان الصغير، يشد اللثة ويقوي عمود الأسنان، المروج، ١/٢٤٧.

(٧) المروج، ١/٢٤٧ ـ ٢٤٨.

إلى بعض إخوانه تهاوناً بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار»[١].

ونحن حينما نورد مثل هذا النص نريد أن نبين كيف أن مشاهدات المسعودي وملاحظاته كانت تشكل جزءاً مهماً في عمله بغض النظر عما فيها من زيادة أو مبالغة.

وبوجه عام فإن رحلة المسعودي إلى الهند كانت مفيدة جداً، واستطاع أن يستغلها استغلالاً طيباً، فجمع معلومات قيمة عن الناس وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم وفكرهم، نجدها كلها موثقة في مؤلفاته الواسعة، وطبيعة المعلومات التي أوردها توضح مقدرته على الملاحظات الدقيقة والاختبارات الفاحصة لمجموعة تجاربه في الهند[٢].

ويصف لنا المسعودي مشاهداته وانطباعاته والشعور الذي سيطر عليه وهو يجتاز بحر الزنج، ويتحدث عن العجائب والأخطار التي يتعرض لها من يعبر هذا البحر، وقدم وصفاً لسمك الأوال، وكيف أنه كان «يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء، فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم»[٣].

وحينما كان المسعودي بين أهل الشحر من بلاد حضرموت سألهم عن النسناس، وأورد لهم بعض أخباره فاستظرفوها وتعجبوا منها، ورأى أنهم يتوهمون أنه ـ أي النسناس ـ في بعض بقاع الأرض مما نأى عنهم وبعد كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم[٤]، واستنتج المسعودي من ذلك أن النسناس غير موجود على الإطلاق. وإنما هو من هوس العامة واختلاطها.

ومن الجوانب التي توضح لنا اعتماد المسعودي المشاهدة والمعاينة كمورد من موارده، تدوينه معلومات عن أنواع من الأبقار رآها تستخدم في حمل الأثقال

---

(١) المصدر السابق، ٢٤٨/١.

(٢) S. Maqbul Ahmad, Al-Masadi on the King of India, (MMCV) p. 98.

(٣) المروج، ١٢٦/١.

(٤) المصدر السابق، ٣٦٧/٢.

بالري وأصبهان وقم، ومقارنته بينها وبين الجواميس بالثغر الشامي وانطاكية وبلاد السند والهند وطبرستان[1].

وكان المسعودي خلال رحلاته يهتم بالآثار ويتتبعها ويدوّن ما يتعرف عليه من معلومات عنها، ففي زيارته لمدينة حران لفت انتباهه كتابات قديمة بالخط السرياني لاحظها على باب مجمع الصابئة[2]. وفي مدينة تدمر ألقى الأضواء على مبانيها العجيبة وملاعبها الباهرة[3]، وفي قرية الناصرة بفلسطين رأى في كنيستها التي تعظمها النصارى «توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرُّب تتبرك به النصارى»[4].

ووصف آثار خرائب بلاد قوم لوط؛ سدوم والمدن الأخرى، وهي «بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين إلا أن ذلك في حيز الشام، وهي باقية إلى وقتنا هذا، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، خراب لا أنيس بها، والحجارة المسوّمة موجودة فيها يراها السفر سوداء براقة»[5].

ووقف المسعودي عند مدينة انطاكية وقدم لنا وصفاً لسورها الذي يعتبر أحد عجائب العالم في البناء وما فيه من أبراج وحصون وطبقات وأبواب حديد، وذكر المسعودي أن آثار تلك الأبواب كانت بينة وقت تأليفه لكتاب المروج، وعجب من كيفية تصريف مياهها وتوزيعه على بيوت السكان وقال: إنه رأى فيها «من هذه المياه ما يستحجر في مجاريها المعمولة من الخزف لترادف التِّقْن[6] فيتراكم طبقات ويمنع الماء من الجريان انسداده فلا يعمل الحديد في كسره»[7].

---

(١) المروج، ٢/١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢) المصدر السابق، ٢/٣٩٣.
(٣) المصدر السابق، ٢/٤٠٠.
(٤) المصدر السابق، ١/٧١.
(٥) المصدر السابق، ١/٥٠؛ وانظر: ٢/٢٣٥.
(٦) التِّقْن: هو ما يترسب من الماء في الجدول أو المسيل أو نحوه، انظر: القاموس المحيط، ٤/٢٠٥.
(٧) المروج، ٢/٢٦.

وعندما ارتحل المسعودي إلى مصر زار مدينة الاسكندرية وشاهد منارتها التي تعتبر إحدى عجائب البنيان في العالم في زمانه. فتحدث عنها بالتفصيل في كتابي مروج الذهب[1] والتنبيه والإشراف[2]، كما تحدث عن الأهرام[3]، وغيرها من الآثار[4].

والواقع أن اهتمام المسعودي بالآثار قد أضفى على مصنفاته قيمة علمية فائقة، وذلك لأنه لفت الأنظار منذ ذلك الوقت المبكر إلى أهميتها وقيمتها التاريخية، على الرغم من أن كثيراً من المؤرخين لم يهتموا بها ولم يأبهوا لها، بل إن بعضهم اعتبر الحديث عنها من العبث وإضاعة الوقت والجهد، ولكن المسعودي كان على العكس من ذلك فجاءت مصنفاته زاخرة بالحديث عنها، وخاصة ما وقعت عليه عيناه، وما شاهده عن كثب فقد أفاض فيه وفصل.

والظاهر أن المسعودي قد خص أحد مؤلفاته فأودعه تجاربه ومشاهداته الحسية أثناء أسفاره، وما صح عنده من الأخبار المنقولة عن طريق الثقاة، ها هو ذا يقول: «وقد أتينا على سائر ما شاهدناه حساً في مطافاتنا الأرض والممالك وما نمي إلينا خبراً من الخواص وأسرار الطبيعة من الحيوان والنبات والجماد في عجائب البنيان والآثار والبقاع في كتابنا المترجم بكتاب القضايا والتجارب»[5].

* * *

(١) المصدر السابق، ٢/١٠٤ وما بعدها.
(٢) التنبيه، ص٤٧ ـ ٤٨.
(٣) المصدر السابق، ص١٩.
(٤) المروج، ٢/٩١.
(٥) المروج، ٢/٩١.

ثانياً:

العلماء،
وأهل الخبرة والاختصاص

يعتمد هذا المصدر في الحقيقة على المصدر الأول الذي هو الرحلات، وهو مكمل له، إذ أنه في أثناء تلك الرحلات تم لقاء المسعودي بالعلماء المسلمين من ذوي الاهتمامات المتنوعة، والعلماء غير المسلمين من ممثلي الأديان والمذاهب والنحل المختلفة في بلدان كثيرة، وعقد المسعودي معهم مناظرات ومناقشات، دار الحديث فيها عن شؤون تتعلق بأديانهم وأوطانهم وغير ذلك مما خفي على المسعودي وأراد الاستيضاح عنه أو زيادة معرفته حوله، وفي أثناء تلك الرحلات أيضاً تم الاتصال بشهود العيان المطلعين الحقيقيين على الأحداث الواقفين عليها، وبأهل الخبرة في بعض الصناعات والأعمال، والمختصين في مجالات متعددة.

(أ) الشـــيوخ:

تمثل دراسة المسعودي الأولى التي تلقاها على أيدي شيوخه في مطلع حياته العلمية رافداً مهما من جملة الروافد التي استقى منها مادته ومعارفه، فكما سبق وأن تحدثنا من قبل كان له لقاء بعدد جم من العلماء في كل من بغداد والبصرة على وجه الخصوص، وكان أولئك العلماء ممن اشتهروا بالعلم في عصرهم وانتهت إليهم علوم اللغة العربية وآدابها، والعلوم الإسلامية بوجه عام، فمثلاً أبو خليفة الجمحي (ت ٣٠٥هـ) روى عنه المسعودي أخبـاراً تتعلق بوقعـة

الجمل[1]، والدولة الأموية[2]، والعباسية[3]، وبعض أخبار الشعراء العذريين والمتيمين[4].

ونقل عن أبي الحسن أحمد بن سعيد الدمشقي الأموي (ت ٣٠٦هـ) بعض المعلومات المتصلة بالخلفاء الأمويين[5]، وجملاً من أنساب آل أبي طالب[6].

وفي أحداث فتح مكة، وبعض المسائل المتعلقة بالسيرة النبوية حدث المسعودي عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠)، وهو المؤرخ المعروف بتضلعه في مثل هذه المسائل[7].

وعن إبراهيم بن جابر القاضي[8] (ت سنة ٣١٠) روى المسعودي بعض الأحداث التي شاهدها إبراهيم بنفسه يوم أن كان يتلقى العلم على أيدي شيوخه في بغداد، وقد كان للمسعودي معه لقاء، وحوار في كل من بغداد وحلب[9].

أما أبو بكر محمد بن دريد (ت ٣٢١) فقد كان المسعودي ملازماً له، وروى عنه شيئاً من أخبار الدولة الأموية[10]، والدولة العباسية[11]، وشيئاً من أخبار الخيل وحلائبها[12].

---

(١) انظر المروج ٣/١٠٤.

(٢) المصدر السابق ٤/٥٢.

(٣) المصدر السابق ٤/٢٣١.

(٤) المصدر السابق ٥/٢٧، ٧١.

(٥) المصدر السابق ٣/٣٢٤، ٣٨٠.

(٦) التنبيه، ص ٣٠٠، ويلاحظ هنا أمر عجيب حينما ينقل المسعودي عن هذا الشيخ الأموي بعض أنساب آل أبي طالب!

(٧) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٨) إبراهيم بن جابر أبو إسحاق، فقيه ومحدث فاضل، وكان ثقة إماماً له كتاب في اختلاف الفقهاء جم الفوائد اسمه كتاب الاختلاف. انظر عنه الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٦/٥٣ ــ ٥٤.

(٩) المروج ٥/١٦٣ ــ ١٦٤.

(١٠) المروج ٢/٢٩٩.

(١١) المصدر السابق ٢/٥٨، ٤/٢٣١، ٥/٥٣، ٦٩.

(١٢) المصدر السابق ٢/٣٧١.

وحدث عن أبـي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (ت ٣٢٣) بعض ما رواه مما كان يدور في مجالس الأدباء والعلماء من نوادر ومناظرات[١].

ونقل عن إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه) (ت ٣٢٣) بعض أخبار الخليفة المتوكل على الله[٢]، والخليفة المكتفي بالله[٣] العباسيين.

وأما أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥) فقد كان المسعودي معجباً به، ولذا فقد أكثر من الرواية عنه، ولما كان الصولي من الأشخاص المعدودين والمبرزين في لعبة الشطرنج في عصره فقد نقل عنه أخباراً ومسائل تتعلق بها[٤]، وروى عنه أخباره ومجالساته ومنادماته مع الخلفاء العباسيين[٥]، وهي أخبار موثقة رواها عنه المسعودي مباشرة ومن غير واسطة.

وحدث أيضاً عن أبـي الحسن (أو الحسين) الطوسي أخباراً تتعلق ببني أمية[٦]، وأخرى عن أنساب آل أبـي طالب[٧].

وليس بامكاننا أن نتتبع جميع ما رواه المسعودي عن كل شيخ من أشياخه ونحدده على وجه الدقة، ولكن ما نود أن ننبه إليه هو أن أغلب ما نقله عنهم كان حكاية لأحداث شاهدوها بأنفسهم، أو كانوا أحد الأطراف فيها، أو رووها بالسند المتصل حتى وصلت إليه، ومن هنا تتضح لنا مدى أهمية وقيمة المعلومات التي حصل عليها المسعودي عن طريق هذا المصدر.

---

(١) المصدر السابق ٥/١٨٦.

(٢) المصدر السابق ٥/١١.

(٣) المصدر السابق ٥/١٩١.

(٤) المصدر السابق ١/٩٠، ٥/٢١٨.

(٥) المصدر السابق ٥/١٧٩، ١٨٨ ــ ١٨٩، ٢١٨ ــ ٢١٩، ٢٢٦ ــ ٢٢٨.

(٦) المصدر السابق ٣/٣٢٤، ٤/٢٢، وهنا أيضاً يلاحظ نقل المسعودي أخبار بني امية عن أحد رجال الشيعة!.

(٧) التنبيه، ص ٣٠٠.

(ب) العلمـــاء:

كان من أقوى الاهتمامات التي استحوذت على فكر المسعودي حينما يحل في بلد من البلدان أثناء تجواله ورحلاته أن يلتقي بعلماء ذلك البلد ويتحادث معهم ويناقشهم فيما يريد أن يتوصل إليه من معلومات، ولهذا نراه في أكثر البلدان التي زارها كان حريصاً على الوصول إلى أماكن العبادة فيها، لأنها غالباً ما تكون مأوى وملتقى للعلماء، وقادة الفكر، سواء أكان سكان ذلك البلد مسلمين أم يهود أم صابئين أم نصارى أم مجوس أو غيرهم من أهل الديانات والملل.

ومن خصائص المسعودي أنه كان يتطرق إلى ذكر معظم أسماء العلماء الذين التقى بهم أو نقل عنهم، ويبين رأيه فيهم ومدى ثقته بهم ورضاه عنهم.

ـ علماء مسلمون:

ومن أبرز العلماء المسلمين الذين قابلهم المسعودي وتبادل معهم المعلومات والمعارف أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي[1]، وهو رجل ذو ميل واهتمام بجمع المعلومات التاريخية والجغرافية عن البلاد البعيدة التي كان يرتادها التجار والبحارة المسلمون كالهند والصين، ووصفه المسعودي بأنه «من أهل التحصيل والتمييز»[2]. وكان لقاؤه به في مدينة البصرة سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة، ومع أن المسعودي لم يذكره إلا مرة واحدة إلا أنه على ما يظهر قد أفاد من مؤلفه «ذيل أخبار الصين والهند» كثيراً، حينما تحدث عن ملوك الصين والترك[3]،

---

(١) في نسخة المروج التي حققها شارل بلا ورد اسمه هكذا (أبو زيد محمد بن يزيد السيرافي) ١٧٢/١، ولعل اسمه الصحيح هو (الحسن بن يزيد السيرافي) كما ذكره أبو زيد نفسه في تذييله على كتاب التاجر سليمان، انظر المروج ١٠٦/٦، وانظر أيضاً (طبعة عبدالحميد) ١٤٥/١.
وأبو زيد هذا رحالة معروف ظهر في القرن الرابع الهجري وعاصر المسعودي، وقد وضع ذيلاً لكتاب التاجر سليمان، الذي ألفه عن رحلاته في الهند والصين، والكتابان محفوظان في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٢٨١، وقد نشر رينو (Reinaud) ذيل أبي زيد في باريس سنة ١٨٤٥م.

(٢) المروج ١٧٢/١.

(٣) المصدر السابق، ١٦٢/١، وما بعدها.

وحينما تحدث عن الهنود وعوائدهم[1]، مع أن المسعودي لم يشر إلى ذلك الاقتباس على الاطلاق. ومن جملة الأخبار التي استقاها المسعودي من أبي زيد حكاية (ابن هَبَّار القرشي) الذي خرج من البصرة إلى بلاد الصين، وسأله أبو زيد عن مدينة (خمدان) عاصمة الصين فقص عليه أخبارها وأحوالها[2] وكذلك خبر التاجر السمرقندي الذي سافر إلى الصين ووقعت عليه ظلامة من خادم ملكها، فرفع التاجر أمره إلى الملك فأنصفه ورفع عنه الظلم[3].

وممن التقى به المسعودي وحدث عنه أحمد بن عبيدالله بن محمد بن عَمَّار (المتوفى في حدود سنة ٣١٤هـ) وهو أحد الحفاظ الشيعة، حدث عنه برواياته عن علي بن سليمان النوفلي بعض الأحداث والخطوب التي جرت لابن الزبير في مكة المكرمة[4].

أما الراوية أبو جعفر محمد بن سليمان المنقري فقد التقى به المسعودي وروى عنه كثيراً من الأخبار بروايته عن العتبي وغيره[5].

والتقى بعلي بن محمد[6] الوراق الأنطاكي الفقيه، وهو المعروف بابن الغنوي ــ التقى به المسعودي بمدينة انطاكية، وتبادل معه المعلومات وأنشده بعض الأشعار التي نظمها علي بن محمد بن بسام في هجاء الأمير الموفق[7].

وفي مصر رأى المسعودي أبا الحسن المهراني المصري وحدث عنه بحديثه عن عمر بن شَبَّه[8].

---

(١) المصدر السابق ١/٢٤٧.

(٢) المصدر السابق ١/١٦٨.

(٣) المصدر السابق ١/١٦٦.

(٤) المصدر السابق ٣/٢٧٩، وهنا أيضاً يلاحظ كيف أن المسعودي ينقل أخبار ابن الزبير عن أحد الشيعة.

(٥) المصدر السابق ١/٨، ٢/٣٠٥، ٣/٣١٢، ٣٢٢ ــ ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٤٩ ــ ٣٥٩.

(٦) يسميه المسعودي في بعض المواضع محمد بن علي، المروج ٥/١٧٢، ١٩٧، ولكن تسميته بعلي أقرب إلى الصواب، لأنه يكنى بأبي الحسن.

(٧) المروج ٥/١٩٧.

(٨) المصدر السابق ٣/٢٧٦، ٢٧٩.

وفي البصرة التقى بالراوية أبـي اسحاق الجوهري، وروى عنه[١].

وبها أيضاً التقى بالكلابـي[٢]، وزوى عنه بعض أحاديثه التي رواها عن عمر بن شَبَّه[٣].

وأسنـد المسعودي بعض أخبـاره إلى محمد بن عبـدالله الدمشقي[٤]، وهو رجل من ندماء الخليفة العباسي المتقي لله ومن خواصه.

واجتمع بمحمد بن فَرَج الرُّخَّجي[٥] بمدينة جرجان أثناء ترحاله فيها، وقص عليه بعض أخبار العلويين، وآثارهم التي رووها بالسند المتصل حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧].

ومن بين الشعراء التقى المسعودي بأبـي الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الكاتب، وهو المعروف بـ كشاجم[٨]، في مدينة حلب، ووصفه المسعودي بأنه: «من أهل العلم والدراية والمعرفة والأدب»[٩].

وقد حادثه وسجل بعض قصائده، وقصائد أخرى لغيره أنشدها إياه[١٠].

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٧٦.

(٢) هكذا أورد المسعودي اسمه من غير زيادة أو توضيح.

(٣) المصدر السابق ٣/٢٧٩.

(٤) المصدر السابق ٥/٢٣٤ ــ ٢٣٨.

(٥) المصدر السابق ٥/١١٩.

(٦) هو أخو عمر بن فَرَج الرُّخَّجي، أحد علية الكتاب الذين خدموا المتوكل على الله فترة من الزمن، ثم غضب عليه وصادر أمواله وأموال أخيه محمد، انظر المروج ٥/٢٠.

(٧) المروج ٥/٨٢ ــ ٨٣.

(٨) شاعر مشهور من كتاب الإنشاء، فارسي الأصل، كانت له جولات في مدن الشام ومصر، استقر بعدها في حلب في كنف أبـي الهيجاء عبدالله والد سيف الدولة الحمداني، وصار من الشعراء البارزين في البلاط الحمداني، له مؤلفات منها: أدب النديم، المصايد والمطارد، وله ديوان شعر، توفي سنة ٣٦٠هـ. انظر عنه: ابن النديم، الفهرست، ص ٢٠٠؛ وابن العماد: شذرات الذهب ٣/٣٧ ــ ٣٨.

(٩) المروج ٥/٢٢١.

(١٠) المصدر السابق ٥/٢٢١.

وعلى الرغم من أن المسعودي لم يشر بنفسه إلى حدوث أي لقاء بينه وبين الفيلسوف الرازي، إلا أننا نجد لدى ابن أبـي أصيبعة في حديثه عن الرازي أن من ضمن مؤلفاته: «رسالة في كلام جرىٰ بينه وبين المسعودي في حدوث العالم» ويدلنا هذا ــ إن كان صحيحاً ــ على لقاء المسعودي بالرازي الذي كان معاصراً له، وأخذ عنه مشافهة إلى جانب الأخذ من كتبه[1].

وهكذا فقد التقى المسعودي بأعداد كبيرة من العلماء المسلمين، لا يمكننا أن نتعرف إلا على بعضهم ممن أشار إليهم في كتابيه المروج والتنبيه، وفي بعض الأحيان تأتي إشاراته مبهمة على سبيل الإجمال، كقوله: «أخبرني غير واحد من أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد»[2]، وقوله: «حدث عدة من الإخباريين من ذوي المعرفة. . .»[3]، وقوله: «ذكر ذوو العناية بأخبار المتقدمين»[4] أو «ذكر جماعة من أهل الدراية»[5]، أو قوله مثلاً وهو يتحدث عن بدء ممالك الهند: «ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا العناية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه»[6]، أو عندما يتحدث عن أنساب آل أبـي طالب أنه أخذها من ذوي المعرفة بأنسابهم[7].

ــ علماء غير مسلمين:

في تجوال المسعودي وترحاله لم يكن تلقيه عن العلماء، وعقد المناظرات والمناقشات معهم مقصوراً على فئة دون أخرى، بل كانت خطته أن لا يميز بين جنس أو ملة في سبيل الحصول على معلومات جديدة هو في أمسّ الحاجة إلى معرفتها، وكان شعاره دوماً حكمة تروى عن علي بن أبـي طالب وهي:

---

(١) ابن أبـي أصيبعة: عيون الأنباء، ص ٤٢٧، وانظر:

A. Shboul, Al-Masudi and his world, p. 42.

(٢) المروج ١/٢٢٤.

(٣) المصدر السابق ٤/١٩٣، ٢٦١.

(٤) المصدر السابق ٢/٥.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٤.

(٦) المصدر السابق ١/٨٤.

(٧) التنبيه، ص ٣٠٠.

«الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك»[1] وكانت مناقشاته ومناظراته مع العلماء الذين يدينون بغير الإسلام من يهود أو نصارى أو مجوس أو غيرهم، في كل من العراق وفارس وفلسطين ومصر وغيرها تدل على تعمقه وفهمه لتلك الديانات، وعلى اضطلاعه بعلم أصول المناظرات، وتطبيقه إياه تطبيقاً فائقاً أثار اعجاب خصومه وجعلهم يعترفون بفضله ويثنون عليه، ولا سيما أنه كان لا يتعجل في إصدار الأحكام على قوم حتى يعرف ما عندهم معرفة حقيقية بواسطة علمائهم، وينكر على من لا يجهد نفسه في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ويأخذ بالشائعات أو ما كان دارجاً على ألسنة العامة من الأقوال[2].

ومن هنا فقد أخذ على نفسه أن يتصل بمصادر المعلومات الصحيحة عن الأديان والفرق والبلدان النائية، وهم العلماء المعترف بهم، وقد تحقق له في هذا المجال نجاح ملموس، فكان له اتصال بأفراد وجماعات على مختلف المستويات، فمن طائفة اليهود اتصل بعدد من العلماء المحمودين عندهم ممن قاموا بترجمة التوراة من العبرانية إلى اللغة العربية، وممن يعتمد اليهود عليهم في تفسير الكتب العبرانية: التوراة والزبور، وهي أربعة وعشرون كتاباً كما يقول المسعودي[3]، فمن أولئك أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني (المتوفى في حدود سنة ٣٢١هـ)، وهو أشمعثي المذهب، جرت بينه وبين المسعودي مناظرات كثيرة. تدور حول نسخ الشرائع والفروق بينها وغير ذلك، وذلك ببلاد فلسطين والأردن[4].

ومنهم سعيد بن يعقوب الفيومي، المشهور بسعديا (ت سنة ٢٣١)، من

---

(١) المروج ٤/٣٧٣؛ وانظر هذه الحكمة بتمامها لدى ابن عبدالبر في كتابه جامع بيان العلم وفضله، بتحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م)، ج ١ ص ١٢١.

(٢) التنبيه، ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٣.

أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية[1]. وكانت له رئاسة على كثير من علماء اليهود، وفي خلافة المقتدر بالله جرى بين سعديا وبين يهودي آخر محاورة في مجلس الوزير علي بن عيسى وغيره من الوزراء والقضاة وأهل العلم في مسألة من المسائل، وقد شاهده المسعودي وحاوره[2].

ومنهم يهودا بن يوسف، المعروف بابن أبي الثناء، وهو تلميذ لثابت بن قرة الصابيء في الفلسفة والطب، أجرى معه المسعودي مناظرات، في مسائل من الطب والفلسفة وغيرها، وذلك بمدينة الرقة[3] ومنهم سعيد بن علي المعروف بابن اشلميا، ناظره المسعودي بمدينة الرقة أيضاً[4].

وفي مدينة بغداد التقى بعدد من متكلميهم مثل يعقوب بن مردويه، ويوسف بن قيوما، وأجرى معهم مناظرات ومحادثات في مسائل مهمة[5].

وكان آخر من شاهد منهم إبراهيم اليهودي التستري، وهو آخر من ترجم التوراة إلى العربية في عصر المسعودي، وكان متضلعاً في العلوم، ومن أحذق المتأخرين من اليهود في النظر وأحسنهم تصرفاً فيه[6].

ومن خلال محاورات المسعودي لأولئك العلماء اليهود ولقاءاته بهم يبدو أنه قد حصل على معلومات قيمة عن الديانة اليهودية وكتبها المقدسة كالتوراة، والاختلافات الدائرة عند اليهود بشأنها[7].

أما العلماء النصارى الذين التقى بهم فمن أبرزهم أبو زكرياء دِنْخَا النصراني، وكان متفلسفاً جدلاً نظاراً، وقد وقعت بينه وبين المسعودي مناظرات

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٤، وذكر عدداً من مصنفاته.

(٢) التنبيه، ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٤.

(٦) المصدر السابق، ص ١١٤.

(٧) المروج ١/٦٨ ــ ٦٩.

ومجادلات كثيرة في مسائل فلسفية وفي الثالوث وغيره، وذلك «ببغداد في الجانب الغربـي بقطيعة أم جعفر، وبمدينة تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء»[1] في سنة ٣١٣هـ، وقد دون المسعودي نص تلك المناظرات في كتابين من كتبه الضائعة وهما كتابا المسائل والعلل في المذاهب والملل، وسر الحياة.

وكان للمسعودي اتصالات بالنصارى اليعاقبة[2] في كثير من المدن التي وصل إليها، مثل تكريت وحلب ومصر وأنطاكية، وهذه المدينة الأخيرة هي مقر كرسي اليعاقبة، لأن يعقوب البرذعاني الذي ينسبون إليه هو أصلاً من أنطاكية، ولهم كرسي آخر في مصر، لأن «الغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وما يليها من أرض النوبة والأحابش رأي اليعقوبية، وبها منهم ما لا يحيط به الإحصاء كثرة»[3].

ومن رجال الدين السريان أخذ المسعودي بعض المصطلحات والتسميات التي كانت تطلق على عيسى ابن مريم عليه السلام[4].

وبوجه عام فإن اتصالات المسعودي بالنصارى في كل من بلاد الشام ومصر كانت كثيرة جداً، وذلك نتيجة لاستقراره بمصر في السنين الأخيرة من حياته، وزياراته المتكررة لمدن الشام التي كان يقطنها جموع من النصارى، ومن جراء مخالطته لهم ونقاشه الدائب معهم استطاع أن يكون رصيداً طيباً من المعلومات عنهم، وفي النهاية قدم لنا مادة جديدة قيمة ودقيقة سجلها في كتاب التنبيه والإشراف.

---

(١) التنبيه، ص ١٥٥.

(٢) اليعاقبة أو اليعقوبية فرقة نصرانية، وهي إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح ـ عليه السلام ـ والفرقتان الأخريان هما الملكانية والنساطرة، ويدور مذهب اليعاقبة على القول: بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح. انظر عنهم: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ١ ص ٣٩ ـ ٤٠؛ والشهرستاني: الملل والنحل، ج ٣ ص ٤٠، طبع الكتابان في (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٨٤هـ).

(٣) التنبيه، ص ١٥٠ ـ ١٥٥.

(٤) انظر: جوادي علي: «موارد تاريخ المسعودي»، ص ٤٥.

ومن الثابت اتصال المسعودي بعلماء الصابئة[1] في مدينة حران، وخاصة مالك بن عقبون، وهو أحد علمائهم المشهورين، خاطبه المسعودي في شأن قرابينهم وذبائحهم، وبعض القضايا الأخرى المنسوبة إليهم[2]، وترجم له مالك كتابة رآها على باب مجمع الصابئة بمدينة حران وكان المسعودي شغوفاً بالاطلاع على محتواها، فوجد أنها قول لأفلاطون معناه: «من عرف ذاته تأله»[3].

ومن المحتمل أن يكون المسعودي قد رأى ابن عيشون الحراني القاضي فقد قال عنه: إنه ذو «فهم ومعرفة، وتوفي بعد الثلاثمائة»[4].

ولا بد أن يكون المسعودي قد التقى بالعلماء الفرس[5] وحادثهم في شأن المجوسية، لأننا نجد لديه تفاصيل ودقائق كثيرة عنها، ولأننا نجده يصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي طرحها بعض متكلمي الإسلام ومصنفي كتب المقالات، «مما تأباه المجوس ولا تنقاد إليه ولا تقر به»[6] ويرى المسعودي أن قصور الفهم في مثل هذه الأحوال ناشيء من سماع بعض العامة تحكي أو تعتقد بعض الأشياء فتنسب إلى الجميع[7] على الرغم من أن العلماء وذوي الدراية من ذلك المذهب لا يعترفون بكل ما ينسب إليهم.

ويدلنا المسعودي على المصادر الأصلية التي استقى منها مادته التي كتبها عن المجوس، عن أخبارهم والغرر من أيامهم، فيقول: إنه أخذها «عن

---

(١) الصابئة: لفظة آرامية تطلق على فرقتين، الأولى جماعة المندائيين أتباع يوحنا المعمدان، والثانية صابئة حران الذين عاشوا زمناً في كنف الإسلام، وهم وثنيون يقولون بوجود وسائط بين الله والعالم، أقاموا لها الهياكل، ولهم طقوس كثيرة، نبغ منهم في عصر الإسلام عدد من العلماء مثل ثابت بن قرة وابنه سنان، وأبو إسحاق بن هلال وغيرهم. انظر عنهم: التنبيه، ص ٩٠ ــ ٩١؛ والشهرستاني: الملل والنحل ٣/٨٨، والموسوعة العربية الميسرة، ص ١١١٢.

(٢) المروج ٢/٣٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢/٣٩٣.

(٤) المصدر السابق ٢/٣٩٢.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٧٧.

(٦) التنبيه، ص ٩٣.

(٧) المصدر السابق، ص ٩٤.

علمائهم كالموابذة والهرابذة وغيرهم من ذوي المعرفة بأخبارهم بأرض العراق وخوزستان وفارس وكرمان وسجستان والماهات وغير ذلك من أرض الأعاجم»[1]، بالإضافة إلى ما نقله من الكتب الصحيحة المشهورة عندهم.

ويصرح المسعودي بأنه قد جرت بينه وبين بعض طوائف الخُرَّمية[2] مناظرات ومجادلات في مواطن كثيرة من سكناهم في أرض فارس والمناطق المجاورة لها[3].

وسجل كل تلك المناظرات في كتابين من كتبه المفقودة هما كتابا المقالات في أصول الديانات وسر الحياة[4].

والواقع أن مناقشات المسعودي مع علماء الفرق والطوائف المختلفة التي لا تدين بالإسلام ذات قيمة كبيرة تدل على تعمقه وفهمه لتلك المعتقدات وتعطي صورة حية واضحة المعالم للحال التي كانت عليها، بالإضافة إلى كون المعلومات التي حصل عليها المسعودي عن طريقها معلومات موثقة دقيقة مأخوذة من مصادر أصلية معترف بها من قبل أصحابها.

(ج) أهل الخبرة والاختصاص:

ومن جملة المصادر التي لجأ إليها المسعودي في بعض الأحيان أقوال أهل الخبرة والمعاينة الذين كانت لهم جولات في بعض الميادين ووقفوا على الأشياء التي يتحدثون عنها بأنفسهم مرات عديدة، أو أنهم من ذوي المعرفة الناتجة عن

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٠.

(٢) الخرمية: مجموعة من الفرق يضمها هذا الاسم تلتقي حول أفكار معينة في اهمها الإباحية وتعاطي الملذات المحرمة وتناسخ الأرواح، وغير ذلك. انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٧٠ ـ ١٧١؛ والغزالي: فضائح الباطنية، تحقيق عبدالرحمن بدوي (الكويت: مؤسسة دار الكتب الثقافية، بدون تاريخ)، ص ١٤، وقد كتب الدكتور محمد سالم العوفي بحثاً وافياً عن الخرمية وبابك الخرمي، وكان موضوع رسالته لدرجة الماجستير التي حصل عليها من كلية العلوم الاجتماعية في سنة ١٣٩٨هـ.

(٣) التنبيه، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٤) التنبيه، ص ٣٥٣.

الممارسة الفعلية لمهنة أو صنعة من الصنائع، ولا ينبغي أن يقلل من قيمة هذا المصدر بسبب أن أولئك الأشخاص قد يعوزهم في بعض الأحيان تحكيم العقل العلمي في بعض الأمور أو القضايا، لأن ذلك قد يعوض بالممارسة الطويلة، وبتواتر ورود الخبر من أشخاص كثيرين.

وأغلب المعلومات التي استفادها المسعودي عن طريق هذا المصدر معلومات تتصل بجغرافية البحار أو الأنهار أو أشياء أخرى تتعلق بها، استقصاها من التجار والبحارة المترددين فيها أو من غيرهم من ذوي النباهة والفطنة، فها هو ذا مثلاً عندما تحدث عن خليج القسطنطينية وبين أطواله وأبعاده. أكد على أنه واصل بين بحري مايطس أو بنطس (البحر الأسود) وبحر الشام أو الروم (البحر الأبيض المتوسط) وذلك بخبر رواه له شاهد عيان وقف على الموضع بنفسه، وهو أبو عمير عدي بن أحمد بن عبدالباقي الأذني، شيخ الثغور الشامية في وقت المسعودي، وهذا الشيخ من أهل التحصيل والشغف بالعلم[1]، وقد قص على المسعودي «أنه حين عبر إلى القسطنطينية في هذا الخليج حين دخل لإقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وتردده مما يلي بحر مايطس، وربما يتبين في هذا الماء الذي يلي بحر الشام فيجده فاتراً، وهذا يدل على اتصال ماء هذين البحرين، وأنه قد دخل من بحر الروم إلى هذا الخليج أيضاً»[2].

ثم يتابع المسعودي حديثه عن خليج القسطنطينية وما عليه من مدن وعمائر، وبوجود المد والجزر فيه، وذلك عن طريق شهود عيان آخرين من أهل التحصيل والمعرفة ممن كانوا يقومون بالغزو ويشنون الغارات على المدن المجاورة لذلك الخليج[3].

ويروي عن أبي عمير المذكور قصة غزو الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) لملك الروم نقفور بن استبراق (Nicephoras 1) (٨٠٢ ـ ٨١١م)

---

(١) المروج ٢/٤٤.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٤ ـ ٤٥.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٥.

وحصاره حصن هرقلة واستشارته لكل من مخلد بن الحسين وأبي إسحاق الفزاري في شأن ذلك الحصار، والخطط التي يجب اتباعها[1] وحول نهاية هذا الحصار يثبت لنا المسعودي رواية ذكرها له جماعة من أهل الخبرة من أهل الثغور، وهو يعتبرها روايات عن مصادر ذات صلة بالأحداث التي يكتب عنها[2].

وعن نظرية اتصال بحر بنطس أو مايطس ببحر الخزر (قزوين) التي ذهب إليها «أكثرُ من عرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر»[3]، يتصدى المسعودي لرد هذه النظرية وأن بحر الخزر منفصل تمام الانفصال عن بحر مايطس ولا علاقة له به، ويستشهد على صحة ما يذهب إليه بأقوال التجار المسلمين الذين دخلوا بلاد الخزر، والذين ركبوا في بحر مايطس إلى بلاد الروس والبلغر، وأكدوا له أن بحر الخزر لا يتصل به أي بحر من هذه البحار أو شيء من مياهها أو من خلجانها، إلا من نهر الخزر[4].

وتساءل المسعودي عن المصادر التي اعتمد عليها من قال بذلك القول: «ولست أدري كيف ذلك ولا من أين قالوه! أمن طريق الحس أم من طريق الاستدلال والقياس، أم توهموا أن الروس ومن جاورهم على هذا البحر هم الخزر»[5].

ثم وضح لنا كيفية استقصائه والجهود التي بذلها حتى تأكد من تلك الحقائق أو توصل إليها، وذلك أنه ركب هو نفسه بحر الخزر وقطعه من الشرق إلى الغرب وفي أثناء ذلك كان كما يقول: «لم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم ولا غيره من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك»[6] فكل يخبره أن لا صلة على الإطلاق بين البحرين.

---

(١) المصدر السابق ٢/٥٩.
(٢) المصدر السابق ٢/٥٦ ـ ٥٨.
(٣) المصدر السابق ١/١٤٧.
(٤) المصدر السابق ١/١٤٦ ـ ١٤٧.
(٥) المصدر السابق ١/١٤٧.
(٦) المصدر السابق ١/١٤٧.

وعندما يجد المسعودي تفاوتاً بين المصادر المكتوبة وبين ما يخبر به شهود العيان نلحظ منه ميلاً إلى قول هؤلاء الأخيرين، وإن كان لا يقطع برأيهم، ومن الأمثلة على ذلك أنه وجد نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين، يخبرون عن البحر الحبشي (بحر العرب) في أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم في كتبهم من حيث مقادير الطول والعرض والمساحة، حيث يخبرون أن ذلك لا غاية له في موضع منه[1].

ووجد الأمر كذلك بالنسبة للبحر الرومي، فقد شاهد أرباب المراكب فيه من الحربية والعمالة وهم النواتية وأصحاب الأرجل والرؤساء ومن يلي تدبير المراكب والحرب فيها مثل لاون المكنى بأبي الحارث[2] وهو غلام زرافة صاحب طرابلس الشام وشاهدهم يعظمون طول البحر الرومي وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه[3].

ويقول: «وعلى هذا وجدت عبدالله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام، ولم يبق في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أبصر منه بالبحر الرومي ولا أسن منه، وليس فيمن يركبه من أرباب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو ينقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والحذق وما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه»[4].

ويلحظ الباحث من نص المسعودي السابق مبلغ دقته وتحريه عن الأشخاص الذين استفاد منهم أو اعتمدهم من جملة مصادره، وكيف أنه كان

---

(١) المصدر السابق ١/١٥١.

(٢) هو رجل بيزنطي تحول إلى الإسلام، واحتل مركزاً مرموقاً في البحرية الإسلامية، عرف بحملاته البحرية الرائعة ضد البيزنطيين، وخاصة الحملة الموفقة التي سلبت فيها مدينة سلانيك في عام ٢٩١هـ والظاهر أن المسعودي قد التقى به بعد سنة ٣٠٠هـ، انظر: A. Shboul: Al-Masudi and his world, pp. 235-236.

(٣) المروج ١/١٥١.

(٤) المصدر السابق ١/١٥٢.

حريصاً على تدوين ما يعرفه عنهم من صفات تضعهم في مرتبة الثقاة المؤهلين لأن ينقل عنهم.

ومن المعارف الجغرافية التي استقاها المسعودي من شهود العيان معلومات تتعلق بنهر الفرات من حيث منابعه والمصادر التي تغذيه بالمياه، يقول: «وأخبرني بعض إخواننا من المسلمين ممن كان في أرض النصرانية أسيراً أن الفرات إذا توسط أرض الروم تجلبت إليه مياه كثيرة، منها نهر يخرج مما يلي بحيرة المارزيون...»(١).

ويتحدث عن العنبر وأماكن وجوده وكيف يتكون، فيستشهد بأقوال نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرهما، من التجار الذين كانوا يختلفون إلى مناطق تواجده، حيث أخبروه «أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر (هركند) ويتكون كتكون أنواع الفطر من الأبيض والأسود والكمأة ونحوها، فإذا خبث البحر واشتد قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر»(٢).

ويصور المسعودي بعض الخرافات الشائعة على ألسنة النواخذة والبحارة الذين يجوبون المحيط الهندي والجزائر الواقعة فيه، غير جازم بصحتها أو استحالة حدوثها(٣).

ويتصل المسعودي بأهل المعرفة والاختصاص في حرفة من الحرف أو صنعة من الصنائع أو ضرب من التجارة ليأخذ التفاصيل اللازمة التي يحتاجها، ومن ذلك أنه حينما كان بصعيد مصر التقى ببعض الرجال المهتمين بتجارة الزمرد،

---

(١) المصدر السابق ١/١١٧.

(٢) المصدر السابق ١/١٧٩ والواقع أن هذه المعلومات ليست صحيحة، إذ أثبت العلم الحديث أن العنبر ـ وهو مادة شمعية الشكل ـ ينتج داخل القناة الهضمية لحوت العنبر، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٢٤٠؛ وحسين فوزي: السندباد القديم، ص ١٥٧ وما بعدها، وكان العرب من قبل قد عرفوا شيئاً عن العلاقة بين العنبر ودابة العنبر التي هي سمك البال أو الأوال، ولكنهم كانوا يظنون أن هذه السمكة تبتلعه إذا قذف به البحر، ولم يكونوا يتصورون أنه يتكون في جوفها. انظر: المروج ١/١٧٨.

(٣) المروج ١/١٨١.

وهم أناس من ذوي الدراية ممن اتصلت معرفتهم بهذا المعدن وعرفوا هذا النوع من الجوهر(١).

وفي مصر أيضاً بحث عن تفسير لاسم (فرعون) وأشكل عليه معرفة اشتقاقه أو معناه، فلجأ إلى جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر، من أهل الخبرة، لكنه لم يجد لديهم جواباً لتساؤله، فاجتهد في تفسيره كما تراءى له(٢).

وعن الصقالبة(٣) وهم السلاف (Slavs) من المحتمل جداً أن يكون قد جمع معلوماته عنهم من الرحالة والتجار الذين عرفوا الشعوب السلافية، والذين قابلهم المسعودي في بغداد وفي موانىء بحر قزوين أو في مراكز أخرى للتجارة العربية، وكذلك من الرقيق الصقالبة الذين كانوا يـوجدون بكثرة في البلاد الإسلامية (٤).

وعن «بلاد الواحات وهي بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم»(٥) وكان ملكها في زمن المسعودي هو عبدالملك بن مروان(٦) أخذ المسعودي المعلومات المتصلة بها من أحد نواب هذا الملك الذين شاهدهم عند باب الأخشيد محمد بن طغج، وذلك في سنة ثلاثين وثلاثمائة، وقد سأله المسعودي عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتاج إلى علمه من خواص أرضهم، فأخبره هذا الرجل «عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج، وما يحمل من بلادهم، وما بأرضهم من العيون الحامضة وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم»(٧).

---

(١) المصدر السابق ٢/١٣٥.

(٢) المصدر السابق ٢/٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢/١٤٢ ـ ١٤٤.

(٤) T. Lewicki: «Al-Masudi on the Slavs», (MMCV) pp. 11-13.

(٥) المروج ٢/١٣٦.

(٦) هذا الملك رجل من قبيلة لواته، يدين هو وقومه بالولاء لبني أمية، قال عنه المسعودي: إنه رجل مرواني المذهب، ويركب في آلاف من الناس خيلاً ونجباً راجع المروج ٢/١٣٦.

(٧) المروج ٢/١٣٦.

وأوضح المسعودي خطته في جمع المعلومات المهمة عن المناطق البعيدة التي لم يصلها، حيث قال: «وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم»[1].

ومما سبق يظهر لنا كيف كان المسعودي مهتماً بجمع مادته العلمية من مصادرها الأصلية، وكيف كان حريصاً على توثيقها، وأن دقته في الرواية لتعود إلى هاتين الناحيتين، وهما الرجوع إلى المصادر الأصلية والرجوع إلى العلماء المختصين الموثوق بهم في كل فرع من فروع المعرفة.

* * *

---

(١) المصدر السابق ١/١٣٦.

ثالثاً:

الكتب

كان إدخال صناعة الورق إلى بلدان العالم الإسلامي في بداية القرن الثاني الهجري[1] من العوامل الرئيسة التي ساعدت على انتشار العلوم والمعارف وتنوع الثقافات، وذلك بتيسير استنساخ الكتب وسهولة تداولها بين الناس، وظهور المكتبات العامة والخاصة ومحلات بيع الكتب في مختلف مراكز الثقافة الإسلامية.

وإن إلقاء نظرة سريعة على كتاب الفهرست لابن النديم أو على غيره من الكتب المماثلة لتبين لنا وفرة إنتاج المسلمين الثقافي، وتنوع التراث الذي خلفوه في شتى ميادين العلم والمعرفة، وما من شك في أن المسعودي قد استفاد إلى حد بعيد من مثل تلك التسهيلات ومن ذلك الثراء الفكري الناضج، وتمكن من الاطلاع على المؤلفات التاريخية والأدبية والفقهية وغيرها من المؤلفات التي كتبت بواسطة علماء عاصروه أو عاشوا في العصر الذي سبقه، واطلع كذلك على مؤلفات العلماء والفلاسفة الإغريق والمسلمين ودراساتهم الفلسفية والعلمية، وتظهر لنا بجلاء حقيقة هذا القول إذا ما دققنا النظر في عدد الكتب والمؤلفات التي ذكرها المسعودي في ثنايا كتابيه المروج والتنبيه، والتي تنيف على المئين عدداً.

أما المقدمة الببليوجرافية التي صدر بها كتاب المروج فقد ذكر فيها وحدها

(١) انتقلت صناعة الورق من الصين إلى سمرقند، ومنها إلى بغداد ثم بقية بلدان العالم الإسلامي وقد كثر الورق وفشا بين الناس منذ عهد هارون الرشيد. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٨٦.

ما يزيد على ثمانين مؤلفاً ممن كان له إسهام في إثراء الدراسات التاريخية بوجه خاص والفكر الإسلامي بوجه عام، وفي تلك المقدمة التي استعرض فيها المسعودي أسماء من سبقوه في التأليف عن التاريخ والأخبار، وأشهر المصنفات التي ظهرت في هذا الفن استبعد ذكر أسماء المؤلفات التي لا يعرف مؤلفوها، والمؤلفات غير المشهورة، وكذلك أعرض عن ذكر «كتب تواريخ أصحاب الحديث ومعرفة أسماء الرجال وأعصارهم وطبقاتهم»[1] لأن ذلك مما يصعب حصره في مثل مؤلفه هذا.

ومهما يكن من أمر فإن الكتب المذكورة في المقدمة والمشار إليها تعتبر هي الموارد الرئيسة التي استقى منها المسعودي مادة كتبه، أما موارده الأخرى من الكتب فهي مؤلفات رجع إليها واستفاد منها وأشار إليها ولكنه لم يذكرها في المقدمة، وإنما كان يشير إليها عند المناسبة أو في الأمكنة الملائمة التي اعتمد فيها على تلك الموارد، وهي موارد متنوعة مختلفة بعضها في التاريخ وبعضها في الجغرافيا وبعضها في الأدب وبعضها في الفلسفة والطب وغير ذلك من الفنون[2].

ولم يكتف المسعودي بسرد مصادره التي اعتمد عليها سواء في المقدمة أو في ثنايا كتبه، وإنما جاوز ذلك إلى الحكم على بعضها ونقدها نقداً علمياً صحيحاً، فهو أحياناً يعلق على المؤلف ويبين طريقته في التأليف ومزايا مصنفاته وتأثيره على المؤلفين الآخرين الذين جاؤوا بعده[3]، وأحياناً أخرى يبين لماذا وصلت بعض المؤلفات إلى مرتبة سامقة ودرجة رفيعة من الكمال[4]، وأحياناً أخرى ينتقد بعض المؤلفين أو مؤلفاتهم، ويبين الأسباب التي دعته إلى ذلك[5] وأحياناً يكشف

---

(١) المروج ١٧/١.
(٢) انظر: جواد علي: موارد تاريخ المسعودي، ص ٢٥.
(٣) المروج ١٤/١، انظر ثناءه على عبيدالله بن خرداذبة.
(٤) المصدر السابق ١٥/١، انظر حديثه عن تاريخ الطبري.
(٥) المصدر السابق ١٦/١، انظر إشارته إلى سنان بن ثابت بن قرة.

عن المؤرخين الذين يعمدون إلى سلب أو نقل ما هو موجود في مؤلفات غيرهم فينسبونه إلى أنفسهم[1].

ومن هنا نرى كيف أن المسعودي كان حريصاً على عرض مصادره وتحليلها وبيان قيمتها الموضوعية، والدلالة على فضل أصحابها وبيان منـزلتهم من العلم[2].

هذا وسوف أتحدث عن مصادر المسعودي مقتصراً على تلك التي صرح برجوعه إليها في ثنايا كتابيه المروج والتنبيه سواء أشار إليها في مقدمة المروج أو لم يشر إليها، وأحب أن أنبه في هذه المناسبة إلى أن المسعودي في الكتابين المذكورين قد ذكر عدداً كبيراً جداً من أسماء المؤلفات والكتب المؤلفة قبله، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة رجوعه إليها كلها، فقد يكون سمع بها أو قرأ عنها شيئاً، أو حتى اطلع عليها لكنه لم يذكرها على أنها أحد مصادره، ولهذا فليس كل ما ذكر من هذا القبيل يعتبر مصدراً من مصادر المسعودي.

وسنتناول الحديث عن مصادر المسعودي من الكتب على النحو التالي:

(أ) الكتب المقدسة:

ـ **القرآن الكريم**:

اعتبر المسعودي القرآن الكريم مصدراً مهماً من مصادره التي اعتمد عليها ونقل منها، وخاصة في الأبواب التي تتحدث عن المبدأ وشأن الخليقة وذرء البرية، وعن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم مع أممهم، ولو ذهبنا نتتبع الأماكن والمواضع التي استشهد فيها المسعودي بآيات القرآن الكـريم لاضطررنا إلى الإسهاب[3]، ولكن ما يجب الالتفات إليه هو أن المسعودي كان عندما يجد نصاً من القرآن الكريم مبيناً لقضية من القضايا أو مسألة من المسـائل

---

(١) المصدر السابق ٣٥٩/٢، انظر إشارته إلى ابن قتيبة ونقله عن أبي حنيفة الدينوري.

(٢) انظر: الجزء الخاص بالمصادر من مقدمة المروج ١٢/١ ـ ١٧.

(٣) انظر: فهرس الآيات القرآنية التي ذكرها المسعودي في كتاب المروج ٧/٦ ـ ١٠.

يقف عنده ويحترمه وينسف كل الأقوال الأخرى التي لا تتفق معه أو تنافيه. ومن الأمثلة التي توضح ذلك، أنه عندما تحدث عن كيفية تصور الجنين في الرحم، أورد آراء أهل القدم، وهم فلاسفة اليونان: جالينوس وأرسطاطاليس وغيرهم[1] وآراء أصحاب الاثنين وغيرهم ممن تقدم وتأخر[2]، ثم ختم حديثه عن هذا الموضوع بقول: «والذي يقضي على سائر ما تقدم وصفه وينقطع علم العقول عنده هو ما أخبر به الباري عز وجل في كتابه بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصوِّرُكُمْ في الأرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[3]، ولم يخبر عن كيفية وقوع ذلك وما سبب مواده، بل استأثر بعلمه وأبدى الدلالة بظهور حكمته دالة على توحيده وإتقانه لما أظهر لعباده من حكمته، ثم أخبر تعالى عن المبدأ الذي خلقهم منه فقال: ﴿يا أيُّها النَّاسُ إن كُنتُم فِي رَيْبٍ مِن البَعْثِ فإنَّا خَلَقْناكُمْ مِن تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقةٍ وغَيرِ مُخَلَّقةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم ونُقِرُّ في الأَرْحَامِ ما نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم ومِنْكُم مِن يُتَوَفَّى ومِنكُم مَن يُردُّ إلى أَرذَلِ العُمرِ﴾[5] الآية»[6].

ـ وأما السنة النبوية المطهرة، فقد كان المسعودي يحفظ كثيراً من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ويستشهد بها في مناسبات عديدة[7]، وقد خصص أحد أبواب كتاب المروج لـ«ذكر ما بدأ به عليه السلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأنام»[8].

(١) المروج ٢/٣٥٤.
(٢) المصدر السابق ٢/٣٥٥.
(٣) سورة آل عمران: آية رقم ٦.
(٤) سورة الحجرات: آية رقم ١٣.
(٥) سورة الحج: آية رقم ٥.
(٦) المروج ٢/٣٥٦.
(٧) انظر: فهرس الأحاديث النبوية التي أوردها المسعودي في كتاب المروج ٦/١١ ــ ١٤.
(٨) المروج ٣/٣٣ ــ ٣٨.

ـ التـــوراة[1]:

وكذلك رجع المسعودي إلى التوراة، واعتبرها مصدراً رئيساً من مصادره، ولا سيما في الأبواب الثلاثة الأولى من كتاب المروج، وهي التي تتناول قصة المبدأ والخلق، وقصة إبراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الأنبياء والملوك من بني إسرائيل[2].

وقـد أفصح المسعـودي في مواضـع كثيرة من هـذه الأبواب[3] ومن غيرها[4]، بأخذه من التوراة المترجمة إلى اللغة العربية، وكان عدد من أحبار اليهود قد نقلوها إلى اللغة العربية، منهم حنين بن إسحاق، وقد أثنى المسعودي على ترجمته، وقال عنها: إنها «أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس»[5] مما يدل على أن المسعودي قد عوَّل عليها، وكان حنين قد ترجمها عن اليونانية من النسخة التي ترجمت للملك اليونان أبطليموس الكسـندرس في الاسكندرية، حيث قام اثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود بنقلها من العبرانية إلى اليونانية[6] ومن المؤكد اطلاع المسعودي على أكثر من نسخة من نسخ التوراة المترجمة[7]. وكما أشرنا من قبل[8] كان عدد من اليهود قد ترجموها مثل أبـي كثير يحيـى بن زكريا

---

(١) هي العهد القديم وهو كتاب اليهود الذي أنزله الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام، ولكن اليهود حرفوه وبدلوه بعد وفاته. انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٩٢/١ وما بعدها؛ وانظر: هوروفتز (Horovitz): مادة توراة، دائرة المعارف الإسـلامية، التـرجمة العربية ٥/٦.

(٢) قام د. شارل بلا منقح ومصحح كتاب المروج بمقابلة ما ذكره المسعودي في هذه الأبواب الثلاثة مع نصوص التوراة مشيراً إلى أسفارها وأرقام نصوصها، وهي مقابلة دقيقة بين فيها أوجه التـطابق والاختـلاف بـين مـا ذكـره المسعـودي ومـا هـو مـوجـود في التـوراة. انـظر: المروج ٣١/١ ــ ٧١.

(٣) المروج، انظر مثلاً: ٣٦/١، ٤٥، ٥٥، ٥٧، ٦٩.

(٤) المصدر السابق، انظر مثلاً: ٣٣/٢، ١٦٩، ٢٣٥، ٣٤٩، ٦/٣؛ والتنبيه، ص ٧٨، ٨١.

(٥) التنبيه، ص ١١٢.

(٦) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٧) المروج ٥٧/١ ــ ٦٩.

(٨) راجع ص ١٣٤ ــ ١٣٥ من هذه الرسالة.

الكاتب الطبراني، وسعيد بن يعقوب الفيومي، وقد نقل هذان الاثنان من النص العبري الأصلي[١].

- الإنجيــل[٢]:

وقد استفاد المسعودي من الإنجيل وسجل بعض المعلومات المتعلقة بالمسيح عليه السلام[٣]، وأورد قصة دعوة الحواريين، وذكر أسماء أصحاب الأناجيل الأربعة، وتحدث عن هذه الأناجيل حتى كأنه قد رآها[٤]. وتحدث عن قيام بعض تلاميذ المسيح[٥] بالدعوة إلى الله تعالى، وما لاقوه في سبيل ذلك من الحبس والضرب والقتل والصلب منكسين على رؤوسهم[٦]، ثم أشار إلى تفرق أولئك التلاميذ في الأرض ووفياتهم وأماكن قبورهم[٧] وإلى عددهم وبعض تشريعاتهم[٨].

ومن الغريب أن المسعودي لم يتطرق إلى ذكر أي معلومات واضحة تفيد عن ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، لكن من المؤكد أنه قد اطلع على إحدى الترجمات القديمة المنقولة عن اليونانية والسريانية والقبطية[٩]. بدليل ما أورده من

---

(١) انظر: هوروفتز (Horovitz): مادة التوراة، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ٥/٦.

(٢) هو العهد الجديد، وهو كتاب النصارى الذي أنزله الله تعالى على عيسى ابن مريم عليه السلام ولكنه أيضاً قد دخله التحريف والتغيير، لأنه لم يكتب إلا بعد أن رفع الله عيسى إلى السماء. كتبه الحواريون الأربعة وهم مَتّى ويوحنا ومرقص ولوقا، وغيرهم. انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٩/٢ وما بعدها؛ وكارادفو (Carra de Vaux): مادة إنجيل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ١٣/٣ ــ ١٤.

(٣) المروج ٣٤/٢.

(٤) المصدر السابق ٧١/١، ٣٧/٢.

(٥) هم بطرس وبولس وتوما.

(٦) المروج ٧٣/١ ــ ٧٤، ٣٥/٢.

(٧) المصدر السابق ٣٦/٢؛ والتنبيه، ص ١٢٨.

(٨) المروج ٣٧/٢.

(٩) انظر: كارادفو: «مادة إنجيل»، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ١٠/٣.

معلومات دقيقة عن المسيح وتلاميذه، وبدليل بعض الإشارات العابرة إلى ذلك[1].

ومما سبق ظهر لنا أن المسعودي كان ينقل من مصادره بدقة مستخدماً نفس الألفاظ التي يجدها في الكتب[2]، ويخبرنا أنه كان في بعض الأحيان يعرض عن ذكر بعض التفصيلات التي يجدها في الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى؛ كالتوراة والإنجيل، وذلك إذا رأى أنها لم ترد في كتاب الله تعالى وهو القرآن الكريم، أو لم يخبر بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم[3].

(ب) كتب الفلاسفة اليونانيين:

منذ أن نهضت دولة بني العباس اعتنى خلفاؤها بنقل العلوم من اللغات الأجنبية إلى اللسان العربي، وبخاصة علوم اليونان، من فلسفة وهندسة وطب وغيرها[4]، وقد ازدهرت حركة النقل والترجمة في عهد الخليفة هارون الرشيد ولا سيما بعد أن امتد نفوذ المسلمين إلى بعض المدن الرومية الكبرى التي يوجد فيها أعداد كبيرة من المؤلفات اليونانية القديمة، وكذلك بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وبذلهم الأموال الضخمة لهم، أما في عهد المأمون فقد وصلت حركة الترجمة ذروتها وازدهرت العلوم بشكل عام، وقد كان بين المأمون «وبين ملك الروم مراسلات ــ وقد استظهر عليه المأمون ــ فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسَلْما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل»[5]، وصارت دائرة النقل تتسع

(١) انظر: المروج ١/٧١، ٢/٤٠١.
(٢) المصدر السابق ١/٣٥.
(٣) المصدر السابق ١/٧١.
(٤) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٤٠.
(٥) المصدر السابق، ص ٣٣٩.

وتنداح حتى جاء عصر المسعودي فكانت أغلب المصنفات اليونانية بأيدي القراء[1].

ومما يلفت النظر اهتمام المسعودي البالغ بدراسة وتقصّي ذلك التراث حتى أصبح لديه إلمام تام بأغلب ما ألف في ميادين الجغرافيا والفلك والطب والفلسفة والمنطق... وأصبحت أسماء الفلاسفة اليونانيين وأسماء مصنفاتهم تتردد في كتبه، ولم يكن المسعودي مجرد قارىء وناقل فحسب، بل كان ينقد ويحلل ويدقق في بعض المشكلات والمسائل التي طرقوها، ويبين عن أوجه النقص والعوار فيها، وقد كان ذا معرفة واطلاع على ما ألفوه منذ أقدم عصورهم، فيبدو أنه شاهد بعض مصنفات أنبدقليس (Empedocles) (ت ٤٣٥ق.م.)، حيث ذكر في معرض حديثه عن كيفية تصور الجنين في الرحم أن «هذا موجود في كتاب أنبدقليس الكبير فيما ذكره من مذهبه في كيفية تركيب العالم واتصال النفس بعالمها وغير ذلك»[2]. أما سقراط الحكيم (Socrates) (ت ٣٩٩ق.م.) فكان يعرف بعض آرائه[3]، وتحدث عن زهده[4]، وكيفية مقتله[5].

وأما أبقراط (Hippocrates) (ت ٣٧٠ق.م.)، فقد عرف المسعودي كتبه المصنفة في الطب التي ترجمها وشرحها جالينوس (Galen) وغيرها، ككتاب الفصول، وكتاب تقدمة المعرفة وهو كتاب الأمراض الحادثة[6]، وكتاب ماء الشعير وهو كتاب تدبير الأمراض، وكتاب أبتديما[7] وهو كتاب الأهوية

(١) لمعرفة أشهر الفلاسفة اليونانيين وأسماء مصنفاتهم، انظر: المصدر السابق، ص ٣٧١ وما بعدها.

(٢) المروج ٢/٣٥٥.

(٣) التنبيه، ص ١١٧؛ والمروج ١/٢٨٩.

(٤) المروج ٤/٣٨١.

(٥) المصدر السابق ٢/٣١٧.

(٦) يسمي ابن النديم هذا الكتاب الأمراض الحادة ويعتبره كتاباً مستقلاً. انظر: الفهرست، ص ٤٠١.

(٧) اسمه عند ابن النديم (ابيذيميا). الفهرست، ص ٤٠١.

والبلدان، وغير ذلك من الكتب المنسوبة إليه من السنن وغيرها»[1]. وعرف «كتاب ايمان أبقراط»[2] الذي فسره وشرحه جالينوس. وقام بترجمته حنين بن إسحاق، وحكى المسعودي عنه كثيراً من حكمه[3] ومقالاته[4]. ومن أعمال أفلاطون (Plato) (ت ٣٤٧ق.م.) كان يعرف كتاب السياسة المدنية[5]، الذي هو كتاب الجمهورية (Republic)، وكتاب فادون[6]، الذي يبحث في النفس، و «كتابه المعروف بطيماوس فيما بعد الطبيعة وهو ثلاث مقالات إلى تلميذه طيماوس (Timaeus) مما ترجمه يحيى بن البطريق، وهو غير كتابه طيماوس الطبي الذي ذكر فيه كون العالم الطبيعي وما فيه، والهيئات والألوان وتراكيبها واختلافها وغير ذلك، شرحه جالينوس، وفسره حنين بن إسحاق، وذكر بأنه سقط عنه منه كراستان، الأولى والثانية، والذي حصل من ترجمته أربع مقالات»[7].

وأما أرسطاطاليس بن نيقوماخس (Aristotle)[8] (ت ٣٢٢ق.م.)، فقد أحاط المسعودي بأكثر مصنفاته وأشار إليها في مناسبات عديدة، ومن أشهرها كتاب المنطق الذي أفاض في الحديث عنه[9]، وكتاب الحيوان تحدث فيه عن أجزاء الحيوانات ومنافع أعضائها[10]، وقد نقله إلى العربية ابن البطريق[11]، وكتاب السياسة «الذي رسمه بسياسة المدن وهو كتاب ذكر فيه سياسة أمم ومدن

(١) التنبيه، ص ١٣٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣١.
(٣) المروج ٢/١٨٦.
(٤) المصدر السابق ٢/٣٧٤ ـ ٣٧٦، ٤/٢٤١، ٣٧٩.
(٥) المصدر السابق ٢/٣١٧؛ والتنبيه، ص ١١٨، ١٣١.
(٦) المروج ٢/٣١٧؛ والتنبيه، ص ١٣٢.
(٧) التنبيه، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٨) انظر: تفسير المسعودي لمعنى هذا الاسم في التنبيه، ص ١١٦.
(٩) انظر: المروج ١/٥٦، ١١١، ١١٦، ١٥٠، ٢/٩، ٧٣، ١١٢، ١٢٣، ١٣٧، ٣١٦، ٣٥٤، ٣٩١؛ والتنبيه، ص ٦٩ ـ ٧٠.
(١٠) المروج ١/١١٦، ٢/١١٢، ١٢٣؛ والتنبيه، ص ١١٦.
(١١) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٥٢.

اليونانيين، ويسمى باليونانية (بوليطيا ـ Politics)»[١]، ومن كتبه عرف المسعودي أيضاً كتاب ما بعد الطبيعة (Metaphysica)، الذي ذكر فيه ترتيب العوالم، وفسره طامستيوس (Themistius)[٢]، وترجمه إلى العربية إسحاق بن حنين[٣]، وكتاب الآثار العلوية[٤]، وكتاب السماء والعالم[٥]، وكتاب سمع الكيان[٦]، وكتاب النفس[٧]، وعرف رسائله التي كان يبعث بها إلى الاسكندر في السياسات الديانية والملوكية[٨]، وقد كان أرسطاطاليس معلماً للاسكندر ووزيراً له[٩]. «قال المسعودي: وأرسطاطاليس هو تلميذ أفلاطون، وأفلاطون تلميذ سقراط (Socrates) وسقراط تلميذ أرسيلاوس (Archilaus)، وأرسيلاوس تلميذ انكساغورس (Anaxagoras)[١٠].

ومن المحتمل اطلاع المسعودي على مصنفات كل من ثاوفرسطس (Theophra stus) (ت ٢٨٧ق. م.)، وهو ابن أخت أرسطاطاليس[١١]، وأوذيموس (Eudemus) في الفلسفة المدنية[١٢]. ورأى المسعودي كتاب جغرافيا في صورة الأرض وشكلها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها[١٣] لمؤلفه مارينوس (Marinus) وأثنى عليه[١٤]. كما اطلع على أرصاد أبَّرخس[١٥] أو هيبارخس

---

(١) التنبيه، ص ٧٨.
(٢) هو ثامسطيوس.
(٣) التنبيه، ص ١٦٣، ١٢٠؛ والمروج ٢/ ٩.
(٤) التنبيه، ص ٣٠ ـ ٤٧، ٦٩ ـ ٧٠.
(٥) المصدر السابق، ص ٦٩ ـ ١٢٠.
(٦) المصدر السابق، ص ١٢٠.
(٧) المروج ٢/ ٣١٦، و٣١٧، ٣٩١.
(٨) التنبيه، ص ٨٧، ٢٠٢.
(٩) المروج ١/ ٢٧٦، ٢/ ٩.
(١٠) التنبيه، ص ١٢١؛ والمروج ٢/ ٩.
(١١) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٥٣.
(١٢) التنبيه، ص ١٢١.
(١٣) المصدر السابق، ص ١٢٧.
(١٤) المصدر السابق، ص ٣٣.
(١٥) المصدر السابق، ص ١٢٩، ٢١٩ ـ ٢٢٠، ٢٢٢.

(Hipparchus) وهو أحد واضعي أسس علم الهيئة وقياس الدرجات[١].

أما بطليموس القلوذي (Ptolemaeus) (ت ٢٦١م)[٢]، فقد كان المسعودي متشبعاً بكتبه ومطلعاً على معظمها، ولعل هذا يعود إلى إعجابه الشديد به وميله إلى آرائه[٣]، وقد استفاد المسعودي من مصنفاته في الجغرافيا وفي الهيئة والفلك، مثل كتاب جغرافيا[٤]، وقد كشف المسعودي عن محتوياته[٥]، وكتاب المجسطي (Megiste)[٦]، وكان «أول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك، ففسره له جماعة فلم يتقنوه ولم يرض ذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلم [هكذا] صاحب بيت الحكمة، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه»[٧]، وعرف المسعودي كتابه في الهيئة[٨]، وكتابه مسكون الأرض[٩]، وقد انتقد المسعودي بطليموس في هذا الكتاب الأخير لأنه كان قد عاب على بعض الفلاسفة قبله اعتمادهم على أقوال المخبرين من التجار وغيرهم، فلما جاء يؤلف كتابه هذا وقع فيما حذر منه وعاب عليه، «وهذا دخول منه فيما أنكره»[١٠] على غيره، وقرأ كتابه في المدخل إلى الصناعة الكُريَّة[١١]، ونقل منه، كما عرف كتبه الأخرى مثل: المقالات الأربع[١٢]، والقانون[١٣] الذي عمل

(١) د. جواد علي: موارد تاريخ المسعودي، ص ٣٣.

(٢) يسميه المسعودي في المروج بطليموس، وفي التنبيه أبطليموس.

(٣) التنبيه، ص ٢٧.

(٤) المروج ٢/٣٥٩؛ والتنبيه، ص ٣٣، ١٢٧، ١٢٩.

(٥) المروج ١/١٠١.

(٦) المصدر السابق ١/١٠٤، ٢٦٩، ٢/٣٣٦، ٣٥٩، ٥/٢١١؛ والتنبيه، ص ١٢، ١٢٩.

(٧) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٧٤.

(٨) التنبيه، ص ١٢، ١٩٨ ـ ١٩٩؛ والمروج ١/١٠٤، ٢/٣٣٦، ٣٥٩.

(٩) التنبيه، ص ٣٠.

(١٠) المصدر السابق، ص ٣٠.

(١١) المصدر السابق، ص ٦٩.

(١٢) المصدر السابق، ص ١٧.

(١٣) المصدر السابق، ص ١٢٩.

عليه ثاون الاسكندراني (Theon)[1]، وكتاب الأنوار[2]، وكتاب الموسيقى[3].

وكان المسعودي عارفاً أيضاً بمؤلفات جالينوس (Galen) (ت ٢٠٠م) وهو «تاج الأطباء وإمامهم في عصره الذي به يقتدون وعلى كتبه يعولون»[4]؛ فقد عرف كثيراً من شروحاته وتعليقاته على كتب أبقراط[5]، وأفلاطون[6]، وتعضيداته لبطليموس في كثير من أقاويله وأرصاده[7]، كما عرف مؤلفاته الخاصة، ومنها كتابه في المني[8]، وكتابه في الأخلاق[9]، وأثبت كثيراً من حكمه[10]، وأقواله المشهورة المعتمدة[11].

وأثبت المسعودي نقولا عن فرفوريوس الصوري (Porphyry) (ت ٣٠٥م) من كتابه إيساغوجي (Isagoge) في المدخل إلى كتب أرسطاطاليس في المنطق[12]، وذلك في كتاب المسعودي المفقود كتاب الرؤوس السبعية[13].

وهكذا نلاحظ أن المسعودي كان على معرفة وعلم بكثير من أعمال الفلاسفة اليونانيين القدامى منهم والمحدثين كفيثاغورس (Pythagoras)، وثاليس (Thales)، وأنبدقليس (Empedocles) والرواقيين (Stoics) وأميروس (Homer)،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٥، ١١٢، ١٢٩، ١٣٦، ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧، ١٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص ١٢٩.
(٤) المصدر السابق، ص ١٣١.
(٥) المصدر السابق، ص ٧٤، ١٣١.
(٦) المصدر السابق، ص ١٣١، ١٦٣.
(٧) المصدر السابق، ص ١٢٩.
(٨) المروج ٢/٣٥٤.
(٩) التنبيه، ص ١٣١.
(١٠) المروج ٢/١٨٦.
(١١) المصدر السابق ١/٩١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢/٨٤، ٤/٢٤٣، ٣٧٩، وقد ذكر المسعودي أن لثابت بن قرة الحراني كتاباً جمع فيه ما ذكره جالينوس في سائر كتبه، من أفعال النيرين ــ وهما الشمس والقمر ــ في هذا العالم. التنبيه، ص ٧٢ ــ ٧٣.
(١٢) التنبيه، ص ٦٠، ١٦٢؛ والمروج ٢/١٤٦.
(١٣) المروج ٢/٣٦٣.

وأرسيلاوس (Archilaus)، وسقراط (Socrates)، وأفلاطون (Plato)، وأرسطاطاليس (Aristotle)، وثاوفرسطس (Theophrastus) وثامسطيوس (Themistius)، وأبقراط (Hippocrates) وجالينوس (Galen)، وغيرهم من الفلاسفة والأطباء[1].

(ج) كتب الهيئة (الفلك) والجغرافيا العربية:

في المؤلفين الباقيين من مصنفات المسعودي وهما المروج والتنبيه، وقبل أن يدخل فيهما إلى معالجة الموضوعات التاريخية ابتدأ بمقدمة جغرافية طرق فيها بعض الموضوعات الجغرافية الهامة المطروحة على الساحة آنذاك، مثل: الأرض، والبحار، والأنهار، والجبال، والأقاليم السبعة[2]، والمد والجزر[3]، وتحدث أيضاً عن الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها[4]، وقسمة الأزمنة وفصول السنة[5]، والرياح ومهابها وتأثيراتها[6]، وغير ذلك.

وقد استعان المسعودي في حديثه عن الموضوعات السابقة بالمؤلفات الإغريقية القديمة وبما صنفه العلماء والفلاسفة المسلمون المحدثون الذين برعوا وأجادوا في تلك العلوم، ومن انضوى تحت لوائهم من صابئة الحرانيين، ومن هنا تأتي إشارات المسعودي إلى مصنفات في الجغرافية هي الآن مفقودة[7].

ويأتي إبراهيم بن حبيب الفزاري[8] (ت حوالي ١٨٠ هـ)، وهو من أوائل

---

(١) التنبيه، ص ١١٥.

(٢) انظر: المروج، ١/٩٩؛ التنبيه، ص٢٢.

(٣) المروج، ١/١٣١.

(٤) التنبيه، ص٧.

(٥) المصدر السابق، ص١٤.

(٦) المصدر السابق، ص١٧.

(٧) انظر زيادة: الرحالة العرب، (بيروت: دار الهلال، ١٩٥٦م)، ص٤٧.

(٨) إبراهيم بن حبيب بن سليمان بن سمرة بن جندب الفزاري، أبو إسحاق، جغرافي ومنجم، قيل: إنه أول من عمل في الإسلام أسطرلاباً، ترجم لأبي جعفر المنصور كتاب السند هند، =

العلماء المسلمين الذين اشتغلوا بعلوم النجوم وهيئات الفلك، يأتي في مقدمة من أخذ عنهم المسعودي مقادير الأطوال والمسافات، خاصة في افريقية[١]، لكنه يقرن النقل عنه بكلمة (زعم) مما يوحي بعدم القبول التام أو الرضا الكامل عن كل ما حكاه عنه.

ومن أصحاب علوم الهيئة استفاد المسعودي في مصنفات محمد بن موسى الخوارزمي[٢] (ت في حدود سنة ٢٣٦هـ) وهو الرياضي والفلكي المشهور، وصاحب الزيج[٣]، التي كان الناس يعوّلون عليها في عصره وبعده[٤]، وقد رأى المسعودي له كتاباً في التاريخ يبدو أنه قد رجع إليه، ذكره في المقدمة أثناء حديثه عن مصادره[٥]، كما رجع إلى زيجه وإلى غيرها من مصنفاته[٦]، ورجع المسعودي إلى كتاب الفصول الثلاثين لمؤلفه محمد بن كثير الفرغاني[٧]، (المتوفى بعد سنة ٢٤٧هـ)، وقد أشار إليه أكثر من مرة وصرح بالنقل منه[٨].

= له من المصنفات زيادة على قصيدته في علم النجوم، كتاب المقياس للزوال، وكتاب الزيج على سني العرب، وكتابان آخران في عمل الأسطرلاب.
انظر عنه: المروج، ٥/٢١١؛ وابن النديم: الفهرست، ص٣٨١.

(١) المروج، ٢/٣٧٦ ــ ٣٧٧.

(٢) محمد بن موسى الخوارزمي، أبو عبدالله، من أهل خوارزم، كان منقطعاً إلى خزانة بيت الحكمة للمأمون، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، من كتبه: الزيج، وكتاب الجبر والمقابلة، وقد اشتهر هذا الكتاب في أوروبا وترجم إلى اللاتينية ثم الانجليزية، وارتبط اسم الخوارزمي بكثير من المسائل الرياضية التي طرقها.
انظر عنه: ابن النديم: الفهرست، ص٣٨٣؛ وفيدمان (Wiedmann) «مادة الخوارزمي» دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، ٩/١٨ ــ ٢٢.

(٣) الزيج هي الجداول الفلكية.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص٣٨٣.

(٥) المروج، ١/١٣؛ وانظر: ٢/٣٩.

(٦) المصدر السابق، ٢/١٠٤، ٣٥٩؛ والتنبيه، ص٤٥، ١٨٦، ١٩٩، ٢٢٢.

(٧) محمد بن كثير الفرغاني، منجم مشهور، كان فاضلاً مقدماً في صناعته، له من الكتب: الفصول الثلاثين، عمل الرخامات. انظر عنه: ابن النديم: الفهرست، ص٣٨٩؛ وكحالة: معجم المؤلفين، ٢/١٤٥.

(٨) المروج، ٢/٤٠، ١٠٤، ٣٥٩؛ والتنبيه، ص١٩٩.

واستخدم المسعودي أيضاً زيجات حَبَش بن عبدالله المروزي[1]، (المتوفى نحو سنة ٢٥٠هـ) وذكر أن له ثلاث زيجات هي زيج الممتحن، والسند هند، والشاه، وقال: إنه إذا قيل زيج حبش مطلقاً فإنما يراد به الممتحن، لأنه هو المشهور، وما من شك في اطلاع المسعودي على زيج الممتحن[2] والسند هند[3]، أما زيج الشاه فلم يذكر شيئاً عن رجوعه إليها.

ومن بين مصادر المسعودي المكتوبة التي يلهج بذكرها دائماً نجد مؤلفات الكندي[4] فيلسوف العرب والإسلام (المتوفى نحو ٢٦٠هـ)، وكان صاحب كتب كثيرة في الفلسفة والنجوم والفلك والجدل والحساب والهندسة والطب والمنطق والنفس والسياسة وغير ذلك من سائر فنون المعرفة[5]، وكانت رسالته في البحار والمد والجزر من الكتب التي أفاد منها المسعودي ورجع إليها كثيراً[6]، ونقل نصوصاً من «بعض رسائله في أفعال الأشخاص العلوية والأجسام السماوية في هذا العالم»[7]، ولتحديد المعمور والمسكون من الأرض رجع إلى كتابه رسم المعمور من الأرض[8] وهو خرائط وصور عن الأرض، واستقى

---

(١) حبش بن عبدالله المروزي الحاسب، كان عالماً بالرياضيات في زمن المأمون والمعتصم وبعده، وقد جاوز المائة من السن، له من التصانيف: الأبعاد والأجرام، الرخائم والمقاييس، وغيرها إضافة إلى كتب الزيج. انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٤؛ القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، ١٣٢٦هـ، ص١٧٠.

(٢) التنبيه، ص٢٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٤) يعقوب بن إسحاق بن الصَّبَّاح الكندي، أبو يوسف، أحد أبناء الملوك من كندة، نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد فتعلم ونبغ في علوم كثيرة، ومن تصانيفه: رسالة في التنجيم، اختيارات الأيام، تحاويل السنين.
انظر عنه: الفهرست، ص٣٥٧ ـ ٣٦٥؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٢٨٥ ـ ٢٩٣.

(٥) لقد أحصى ابن النديم من مصنفاته، ما يزيد على ثلاثمائة كتاب أو رسالة، وفصلها بحسب الموضوعات التي كتبت فيها.

(٦) التنبيه، ص٥١؛ وانظر المروج، ١/١٣٥، ١٣٩، ١٤٨.

(٧) المروج، ١/٩٢.

(٨) التنبيه، ص٢٥.

بعض أخبار الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ ــ ٢٢٧هـ) من رسالته المترجمة بـ سبل الفضائل[1].

وتحدث عن تصنيفه لرسالة تسمى إبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها جعلها في مقالتين وبين فيها «تعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله وخُدَعَ أهل هذه الصناعة وحيلهم»[2]، ثم نَقْضَ الفيلسوف الرازي لهذه الرسالة على الكندي، وأرى من القول أن ما ذكره فاسد وأن ذلك قد يتأتى فعله[3].

ويظهر من هذا أن المسعودي كان على خلاف مع الكندي في بعض آرائه؛ ففيها يتصل بنسب (يونان) مثلاً يذهب الكندي إلى أنه أخ قحطان، ولكن المسعودي يرى غير ذلك، فيفند أدلة الكندي التي يحتج بها، ويذكر أدلة المخالفين له في ذلك[4].

ونرى من مصادر المسعودي كتابين لـ أبي معشر البلخي[5] (المتوفى سنة ٢٧٢هـ) هما كتاب المدخل الكبير إلى علم النجوم[6] وكتاب الألوف[7]، والظاهر أن المسعودي كان يقدر مصنفات أبي معشر ويحترمها[8]، كما رجع

---

(١) المروج، ٣٦٢/٤ ــ ٣٦٣.

(٢) المصدر السابق، ١٥٩/٥.

(٣) المصدر السابق، ١٥٩/٥ ــ ١٦٠.

(٤) المصدر السابق، ٦/٢.

(٥) جعفر بن محمد بن عمر البلخي، أبو معشر، عالم فلكي مشهور، كان أولاً من أصحاب الحديث ثم تعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، توفي بعد أن جاوز المائة بواسط سنة ٢٧٢هـ، من مؤلفاته: كتاب المدخل الكبير. . ، المدخل الصغير، الألوف في بيوت العبادات، هيئة الأفلاك، طبائع البلدان، وغيرها.
انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٦؛ وفيات الأعيان، ٣٥٨/١ ــ ٣٥٩.

(٦) المروج، ١٧٥/١، ٢٩٠/٢.

(٧) المصدر السابق، ٤٠٧/٢.

(٨) المصدر السابق، ١٧٥/١، ٣٥٩/٢؛ والتنبيه، ص١٩٩.

المسعودي لبعض مؤلفات ابن البازيار[1]، ومن أهمها كتابه المنتخب[2] من كتاب الألوف لأبـي معشر.

وتأتي مؤلفات أحمد بن الطيب السرخسي[3] (ت ٢٨٣هـ) ـ وهو تلميذ لصيق للكندي ـ في مرتبة هامة لدى المسعودي، وغالباً ما كان يقرن ذلك مع الكندي في مقامات متعددة[4]، وذكر من مؤلفاته التي اطلع عليها أو نقل منها رسالة في منافع الجحار والجبال والأنهار[5]، ومختصراً لكتب المنطق[6]، وكان له مصنفات على شكل رسائل عن أصحاب الكهف والرقيم[7]، وذكر أن له «كتاباً حسناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها»[8]، والمسعودي يقدر منزلة السرخسي من العلم ويجله، ولهذا فإنه حين رأى كتاباً فيه جمل من أخبار العالم ويحتوي على معلومات لا يوافق عليها المسعودي، قدر أنه منسوب إلى السرخسي ولا يمكن أن يكون من تأليفه، لأن أكثر الأخبار المذكورة فيه على خلاف ما هو موجود في كتبه[9]. وقد روى المسعودي خبر قبض الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) على السرخسي واحتواء جميع أمواله بنغمة حزن

(١) محمد بن عبدالله بن عمر بن البازيار، كان فاضلاً مقدماً في صناعة النجوم، وتتلمذ على أبـي معشر وحبش بن عبدالله، له من الكتب كتاب الأهوية، كتاب الزيج، كتاب القرانات وتحويل سني العالم وغيرها.
انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٥؛ وهدية العارفين، ٢/١٤.

(٢) المروج، ٢/٤٠٧.

(٣) أحمد بن محمد بن مروان السرخسي، أبو العباس، كان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء العرب، حسن المعرفة جيد القريحة كان معلماً للخليفة المعتضد بالله ثم نادمه وخص به، ثم غضب عليه فحبس، ثم قتل، من مصنفاته: كتاب السياسة الكبير، وكتاب السياسة الصغير، وكتاب المدخل إلى صناعة النجوم، وكتاب المدخل إلى صناعة الطب.. وغيرها.
انظر عنه: الفهرست، ص٣٦٥ ـ ٣٦٧؛ وابن أبـي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٢٩٣ ـ ٢٩٥.

(٤) المروج، ١/١٣٥، ١٣٩، ١٤٨، ٢/٣٩.

(٥) التنبيه، ص٥١.

(٦) المصدر السابق، ص٦٠.

(٧) المروج، ٢/٤٠.

(٨) التنبيه، ص٧٥.

(٩) المروج، ١/٢٤١.

وألم، وأثنى عليه لمكانته المرموقة في الفلسفة ولمصنفاته الحسان في أنواع الفلسفة وفنون الأخبار[1].

وكان المسعودي يعرف بعض مؤلفات ثابت بن قرة الحراني[2] (المتوفى سنة ٢٨٨هـ) مثل كتابه الذي «جمع فيه ما ذكره جالينوس في سائر كتبه من أفعال النيرين»[3]، وقد علمه المسعودي عن طريق ابنه سنان بن ثابت بن قرة، وكذا رسالته «في نصرة رأي أبّرخس؛ على أنَّ لأوج الشمس حركة مخالفاً لقول أبطليموس، وقد امتحن هذه الرسالة عدة من أهل الهندسة»[4]، وكان ثابت من العلماء الذين اهتموا بعلوم اليونان، وخدموا في مجال الطب والفلسفة، وأصبح لهم تلاميذ مبرِّزون فيهما[5].

ومن المؤرخين والجغرافيين البارزين استعان المسعودي بمصنفات عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبة[6] (ت في حدود سنة ٣٠٠هـ) أثنى عليه وقال: إنه «كان إماماً في التأليف متبرعاً في ملاحة التصنيف، أتبعه من هذه طريقته وأخذ منه ووطىء على عقبه وقفى أثره، وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ فإنه أجمع هذه الكتب جداً وأبرعها نظماً وأكثرها علماً

---

(١) المصدر السابق، ١٦١/٥.

(٢) ثابت بن قرة بن مروان الحراني الصابيء، أبو الحسن، طبيب وحاسب وفيلسوف ومترجم، اتصل بالخليفة المعتضد بالله فكانت له عنده منزلة رفيعة، صنف حوالي مائة وخمسين كتاباً، منها: الذخيرة في علم الطب، المسائل الهندسية، مراتب العلوم، طبائع الكواكب، الهيئة، وغير ذلك، كانت وفاته سنة ٢٨٨هـ.

انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٠؛ وعيون الأنباء، ص٢٩٥ ــ ٣٠٠.

(٣) التنبيه، ص٧٢.

(٤) المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٥) المصدر السابق، ص١١٣.

(٦) عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبة، أبو القاسم، يسميه ابن النديم عبيدالله بن أحمد، تولى منصب صاحب البريد بنواحي الجبال بإيران، ونادم الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ ــ ٢٧٩هـ) بسامرا، له من المصنفات: كتاب جمهرة أنساب الفرس، كتاب الشراب، إضافة إلى كتبه في التاريخ والجغرافيا التي شاهدها المسعودي واستفاد منها. انظر عنه: المروج، ١٤/١؛ الفهرست، ص٢١٢ ــ ٢١٣؛ معجم المؤلفين، ٢٣٦/٦.

وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها، ومن كتبه النفيسة كتابه في المسالك والممالك وغير ذلك، مما إذا طلبته وجدته وإن تفقدته حمدته»[1]. ومن واقع هذا الثناء يبدو أن المسعودي كان معجباً بمؤلفات ابن خرداذبة أيما إعجاب، فنقل عنه من كتابه في التاريخ[2]، ومن كتابه في الجغرافيا «المسالك والممالك» كثيراً من الأخبار[3]، ونقل من كتاب آخر له يسمى اللهو والملاهي عدة صفحات كاملة[4]، ومع ذلك فإن المسعودي كان ينتقده في بعض الأحيان، ويسجل عليه بعض الملاحظات[5] مع الاعتراف بفضله وجودة تأليفه.

وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي[6] (ت سنة ٣١٣هـ) من العلماء الذين صنفوا في ميادين مختلفة من العلم، قرأ المسعودي بعض مصنفاته ودون منها ما يحتاج إليه، ونرى إشارته إلى كتابه سير الخلفاء[7]، وإلى كتابه الذي صنفه ورد فيه على الكندي حول دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها، وكتبه الأخرى التي صنفها «وأفرد كل واحد منها بنوع من الكلام في هذه الصنعة، في الأحجار المعدنية والشعر وغير ذلك من كيفية الأعمال»[8]، ونرى كذلك إشارته إلى الكتاب الذي ألفه الرازي عن الحرانيين ومذاهبهم،

---

(١) المروج، ١/١٤.

(٢) هذا الكتاب في عداد المفقود الآن، ومن هنا تأتي أهمية نقل المسعودي عنه، انظر المروج، ٢/٤٩.

(٣) المروج، ١/٢٤١؛ والتنبيه، ص٧٥.

(٤) المروج، ٥/١٢٦ ــ ١٣٢.

(٥) المصدر السابق، ١/٢٤١.

(٦) محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر، حكيم وفيلسوف ومن أئمة صناعة الطب، ولد بالري فنبغ واشتهر وتولى تدبير بيمارستان الري، ثم رياسة أطباء البيمارستان العضدي في بغداد، عمي في آخر عمره، وتوفي في بغداد سنة ٣١٣هـ تقريباً، من تصانيفه المشهورة: كتاب المنصوري في الطب وغيره. انظر عنه: عيون الأنباء، ص٤١٤ ــ ٤٢٧؛ ووفيات الأعيان، ٥/١٥٧ ــ ١٦٠؛ وشذرات الذهب، ٢/٢٦٣

(٧) المروج، ١/١٥.

(٨) المصدر السابق، ٥/١٥٩ ــ ١٦٠.

رأى المسعودي فيه «أشياء يطول ذكرها ويقبح عند كثير من الناس وصفها»[١]، وإلى كتابه الذي صنفه على مذاهب الفوثاغوريين والانتصار لهم، وهو في ثلاث مقالات، وذلك بعد سنة ٣١٠هـ[٢].

واستعمل المسعودي زيج محمد بن جابر البتاني[٣] (المتوفى سنة ٣١٧هـ) وأشار إليه مرتين في المروج وهي الزيج الكبير[٤]. لأن للبتاني نسختين منه أولى وثانية، والثانية أجود من لأولى[٥]، وهي الزيج الكبير، وللبتاني آراء خالف فيها بعض أصحاب الزيجات في النجوم والقوانين التي أجمعوا عليها[٦].

ولا بد أن المسعودي قد اطلع على الكتاب الذي ألفه محمد بن أحمد الجيهاني[٧] العالم الجغرافي المعروف، (المتوفى سنة ٣٣٠هـ) «في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة»[٨]، وهو كتاب المسالك والممالك لأن حديثه عنه حديث مطلع خبير.

---

(١) المصدر السابق، ٢/٣٩٤.

(٢) التنبيه، ص١٦٢.

(٣) محمد بن جابر بن سنان البتاني، أبو عبدالله، حاسب منجم، ولد في بتان من ضواحي حران بعد سنة ٢٣٥هـ، من آثاره: كتاب معرفة مطالع البروج، الزيج، رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات، وغيرها. انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٩ ــ ٣٩٠؛ ووفيات الأعيان، ٥/١٦٤ ــ ١٦٧؛ وأبا الفداء: المختصر في أخبار البشر، ٢/٧٤.

(٤) المروج ٢/١٠٤، ٥/٢٨٠؛ وانظر: ١/١٣٧؛ والتنبيه، ١٩٩.

(٥) الفهرست، ص٣٩٠.

(٦) التنبيه، ص٢٢٣.

(٧) محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني، أبو عبدالله، أديب وكاتب تولى الوزارة لنصر الثاني الساماني (٣٠١ ــ ٣٣١هـ) في خراسان، من آثاره: كتاب الرسائل، وكتاب المسالك والممالك، وكتب العهود للخلفاء والأمراء.
انظر عنه: البغدادي: هدية العارفين، ٢/٣٦.

(٨) التنبيه، ص٧٥.

وهناك احتمال كبير أن المسعودي قد استفاد من رسالة ابن فضلان[1]، وهي الرسالة التي كتبها بعد أن عاد من البعثة التي أرسلها إلى بلاد البلغار والصقالبة الخليفة العباسي المقتدر بالله[2] (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ)،وقد اكتسبت هذه الرسالة أهمية كبيرة وأصبحت عمدة للمؤرخين والجغرافيين الذين جاؤوا بعد ابن فضلان، نظراً لاحتوائها على معلومات قيمة ونادرة عن تلك البلاد.

ومن مصادر المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف كتاب المدينة الفاضلة للفارابي[3] (المتوفى في رجب سنة ٣٣٩هـ)، حيث نجد اقتباسات منه ومن مقدمته على وجه الخصوص[4]، ويبدو أن المسعودي كان على علم تام بمحتويات الكتاب، وقد استفاد منه أيضاً في كتابه المفقود فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف، فالشواهد التي أوردها في كتاب التنبيه تدل على ذلك[5]، وقد

(١) أحمد بن فضلان، المعلومات عن شخصه نادرة، يعرف عنه أنه أحد أعضاء البعثة التي قامت من بغدادسنة ٣٠٩هـ إلى بلاد البلغار استجابة لطلب ملكهم من الخليفة العباسي أن يرسل إليهم بعثة تفقههم في الدين الإسلامي الذي اعتنقوه وتبني لهم مسجداً وحصناً يتحصنون فيه من ملوك الخزر، وقدالتقى ابن فضلان وهو في طريق رحلته بالوزير الساماني محمد بن أحمد الجيهاني وتبادل معه بعض المعلومات، وبعد ان رجع ابن فضلان من تلك الرحلة كتب كتيباً صغيراً ضمنه مشاهداته وأفكاره عنها، وأصبح ذلك الكتيب أو الرسالة مرجعاً هاماً للباحثين.
انظر عنه: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١٨٦/١ ـ ١٨٧؛ ونقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص١٩٥.

(٢) نقولا زيادة: الرحالة العرب، ص٤٦؛ وانظر أيضاً الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١٩٥.

(٣) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، من أكبر فلاسفة المسلمين، يعرف بالمعلم الثاني، كان يجيد لغات كثيرة من بينها اليونانية، توفي بدمشق، له نحو مائة كتاب منها: إحصاء العلوم، المبادىء الملوكية، إبطال أحكام النجوم، السياسة المدنية، جوامع السياسة. انظر عنه: وفيات الأعيان، ١٥٣/٥ ـ ١٥٧؛ وابن الوردي: تتمة المختصر، ٤٢٤/١.

(٤) قام استرن (S.M. Stern) بإجراء دراسة ومقارنة لما كتبه المسعودي في التنبيه وما كتبه الفارابي في المدينة الفاضلة، وأوضح أوجه التشابه والاختلاف بينهما في بحثه «Al-Masudi and the philosopher Al-Farabi», See (MMCV) pp. 28 — 41).

(٥) انظر التنبيه، ص١٢١ ـ ١٢٢؛ وانظر أيضاً، ١١٧ ـ ١١٩.

أعطى فيه إطاراً عاماً لتاريخ الفلسفة عند الإغريق والعرب بشيء من التفصيل، واقتبس كثيراً من الفارابـي(١).

هذا ومن غير المستبعد أن يكون المسعودي قد نقل عن سليمان التاجر السيرافي(٢) بعض الفقرات التي تتضمن معلومات جغرافية، ومما يقوي هذا الاعتقاد أن أحد المستشرقين لما قام بنشر ترجمة جديدة لمذكرات سليمان التاجر سنة ١٩٢١م حاول أن يستعير من مروج الذهب فقرات يسد بها النقص الذي وجده في المذكرات(٣)، ونجد كذلك تشابهاً كبيراً في المعلومات وحتى في الألفاظ أحياناً بين ما جاء في المذكرات وما ورد في المروج(٤).

وأشار المسعودي إلى كتاب رآه لـ محمد بن أحمد بن النجم بن أبـي عون الكاتب، يترجم بكتاب النواحي والآفاق والأخبار عن البلدان وكثير من عجائب ما في البر والبحر(٥). وإلى زيج بني المنجم(٦) وبعض مصنفاتهم(٧). وبصفة عامة نجد إشارات مقتضبة إلى عدد من العلماء الذين استفاد المسعودي من

---

(١) D. M. Dunlop, «Asource of Al-Masudi: the Madinat Al--Fadilah of Al-Farabi» (MMCV) p. 71.

(٢) سليمان التاجر رجل من أهل سيراف، المعلومات عن شخصه شحيحة جداً، ولا يعرف عنه إلا أنه قد سافر مراراً إلى الهند والصين بغرض التجارة في القرن الثالث الهجري، وقد وصف خط سيره ورحلاته البحرية في مذكرات دونها على درجة عالية من الدقة والأهمية لقدمها أولاً ولقربها من الحقيقة ثانياً، وقد أضاف إليها أبو زيد السيرافي ذيلاً يحتوي على معلومات إضافية كثيرة. انظر كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ١/١٤١؛ ونقولا زيادة: الرحلات والجغرافية عند العرب، ص ١٤٩.

(٣) انظر حسين فوزي: حديث السندباد القديم، ص٢٣.

(٤) انظر المروج، ١/١٧٩ وما بعدها، وقارنه بنص من مذكرات التاجر سليمان في (حديث السندباد القديم) ص ٢٣ وما بعدها.

(٥) التنبيه، ص٧٥.

(٦) بنو المنجم أسرة فارسية الأصل، كان جدها أبو منصور منجماً للخليفة أبـي جعفر المنصور، أما ابنه أبو علي فكان مولى للمأمون وأسلم على يديه، وساهم في الأرصاد التي أجريت في أيامه، وألف بعض المصنفات الفلكية، وتوالى عدد من أحفادهم في النبوغ والظهور.
انظر عنهم: الفهرست، ص ٢٠٥ وما بعدها؛ ومعجم الأدباء ١٥/١١٢ ــ ١٢٠.

(٧) انظر المروج ١/١٤٨، ٢/١٧١، ٣٥٩؛ والتنبيه، ص١٩٩.

مصنفاتهم، مثل العالم اليهودي الأصل ما شاء الله بن أثْرَىٰ(1)، ومحمد بن خالد المَرْوَرُوذي(2)، وابن الفَرَّخان الطبري(3)، وأبـي بكر الحسن بن الخصيب(4) والنَّيْريزي(5) وغيرهم.

وهكذا نلاحظ من خلال استعراضنا لمصادر المسعودي الجغرافية والفلكية نقطتين بارزتين الأولى: اهتمامه بالإفصاح عن مصادره في هذا المجال وبيانها تفصيلاً أو الإلماح إليها إجمالاً.

الثانية: فيما يتعلق بالتواريخ وحساب السنين نلحظه يبدي ميلاً إلى ما يذهب إليه أصحاب الزيج والمنجمون أقرب من ميله إلى ما دونه المؤرخون في كتبهم(6) ويعول عليهم وخاصة في تاريخ ما قبل الهجرة.

(د) كتب الإخباريين والمؤرخين:

احتوت مقدمة كتاب المروج التي تحدث فيها المسعودي عن مصادره على أغلب المؤلفات التي دونها الإخباريـون والمؤرخون السـابقون أو المعـاصرون

---

(1) المروج، ٢/١٠٤، ٣٥٩؛ والتنبيه، ص١٩٩، ما شاء الله بن أثرى كان يهودياً في أيام المنصور وإلى أيام المأمون، وكان أوحد زمانه في علم الأحكام، له من الكتب: كتاب المواليد الكبير، المعاني، الأمطار والرياح، الدول والملل، انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٦.

(2) التنبيه، ص١٩٩، وهو من أصحاب الأرصاد، كان فاضلاً وعالماً، سماه ابن النديم عمر بن محمد، له من الكتب: تعديل الكواكب، صنعة الأسطرلاب المسطح، انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٦.

(3) التنبيه، ص١٩٩، وهو عمر بن حفص، أبو حفص؛ من مصنفاته: كتاب المحاسن، كتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب.
انظر: الفهرست، ص٣٨١.

(4) المروج، ١/١٠٠؛ والتنبيه، ص١٩٩، وهو أحد المنجمين الحذاق بصناعة النجوم، من مؤلفاته: كتاب يسميه الكار مهتر يحتوي على أربعة كتب. انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٥.

(5) المروج، ٢/١٠٤، ٣٥٩؛ والتنبيه، ص١٩٩، وهو الفضل بن حاتم النيريزي أبو الفضل، ممن يشار إليه في علم النجوم، من كتبه: كتاب الزيج الكبير، كتاب الزيج الصغير، كتاب سمت القبلة. انظر عنه: الفهرست، ص٣٨٩.

(6) المروج، ٢/٥٣، ٣٠٣، ٣/٤٠، ٥/٢٧٩ ـ ٢٨٠.

للمسعودي في التاريخ وأخبار الماضين بإجمال، ثم عاد المسعودي يبين ويوضح في أثناء كتابته عن المواطن التي استفاد فيها من تلك المصادر بالتفصيل وكما سبق وأن ألمحت سأركز في بحث مصادر المسعودي على تلك التي أشار إليها صراحة في ثنايا مؤلفاته، لأنه لا يمكن أن يتطرق شك في صحة رجوعه إليها.

كما أود أن أنبه هنا إلى أن من بين تلك الكتب التاريخية التي استخدمها المسعودي وخاصة في بحث التاريخ الإسلامي كتب كثيرة مفقودة، أو لم يكشف النقاب عنها حتى الآن، ولذا فإن رجوع المسعودي إليها وتدوينه بعض الفقرات منها ذو أهمية كبيرة[1].

وسنرى في حديثنا التفصيلي الآتي عن كتب الاخباريين والمؤرخين كمصدر من مصادر المسعودي أن اطلاعه عليها كان واسعاً وشاملاً، وأن استفادته منها كانت واضحة وقيمة، حيث أن اطلاعه على حشد كبير من تلك المؤلفات مكنه من الوقوف على وجهات نظر مختلفة وآراء متباينة أو متوافقة، فأصبح لديه رصيد جم من المادة العلمية في موضوعات كثيرة صاغها في القالب الذي يرضى عنه في مؤلفاته.

ولو ذهبنا نتتبع كتب الأخبار الأولى التي دونت في صدر التاريخ الإسلامي لوجدنا من بين الرواة الأوائل الذين اطلع المسعودي على مصنفاتهم عبيد بن

---

(١) كنت قد أزمعت أن أميز في الحديث عن كتب الإخباريين والمؤرخين التي رجع إليها المسعودي بين الكتب المفقودة والكتب الموجودة، فأتحدث أولاً عن المفقودة ثم أتبعها بالموجودة، ولكن هناك بعض الصعوبات والمحاذير وقفت دون تحقيق ذلك. منها: أن المسعودي في بعض الأحيان لا يفصح عن اسم الكتاب الذي ينقل منه ويكتفي بمجرد الإشارة إلى مؤلفه، وهذا يوقع في حرج لأن المؤلف قد يكون له أكثر من مصنف واحد وأحياناً في موضوع واحد أيضاً، ومنها أن الكشف عن ما إذا كان الكتاب مفقوداً أو موجوداً يحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير، وقد لا يثمر ذلك في النهاية عن نتيجة صادقة وحاسمة في الموضوع. ولهذا آثرت أن أتحدث حسب التسلسل الزمني لوفيات المؤلفين، مع الإشارة بقدر الإمكان وحسب المعلومات القريبة المتوافرة إن كان الكتاب الذي رجع إليه المسعودي موجوداً أو مفقوداً.

شريه الجرهمي[1] (المتوفى نحو سنة ٦٧هـ)، وهو الذي وفد على معاوية بن أبـي سفيان فسأله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سنيها[2].

وصنف كتاباً في ذلك كان متداولاً بين الناس ومشهوراً في أيام المسعودي[3]. ويظهر أن المسعودي كان يعتبر أخبار عبيد عن حمير وكهلان وغيرهم من الأمم الماضية التي سكنت اليمن هي المصدر الأول الذي يجب أن يستقى منه وذلك لثبوت مروياته وصحتها عند كثير من الإخباريين[4].

ومن أوائل الإخباريين والقصاص الذين استقى منهم المسعودي وهب بن منبه[5] (المتوفى في حدود سنة ١١٤هـ)، وكان كتابه المبتدأ الذي أشار إليه المسعودي وغيره من المؤرخين[6] أول محاولة لكتابة تاريخ الرسالات السماوية[7]، وهذا الكتاب مفقود الآن، وتوجد منه مقتطفات لدى ابن قتيبة

---

(١) عُبَيْد أو عَبيْد بن شَرْيَة الجرهمي، إخباري أدرك النبـي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه، ووفد على معاوية بن أبـي سفيان من صنعاء فسأله عن الأخبار المتقدمة فأجابه عنها، وأمر معاوية بتدوينها؛ عاش عبيد إلى أيام عبدالملك بن مروان، وله من الكتب، كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين.

انظر عنه: الفهرست، ص ١٣٢؛ ومعجم الأدباء ١٢/٧٢ ــ ٧٨.

(٢) المروج ٢/٢٠٨، ٢١٠، ٢٦٤.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٠٦.

(٤) التنبيه، ص ٨٢؛ والمروج ٢/٤٠٦.

(٥) وهب بن منبه: أبو عبدالله، إخباري من التابعين، له معرفة بأخبار الأوائل وأحوال الأنبياء وسير الملوك، ولد بصنعاء، وصحب ابن عباس، وولاه عمر بن عبدالعزيز قضاء صنعاء، وتوفي بها، واختلف في سنة وفاته، فقيل ١٠٤ أو ١١٠ أو ١١٤ أو ١١٦، والراجح أنه توفي سنة ١١٤هـ، حيث يؤكد ذلك كل من ابن أخيه عبدالصمد بن معقل والذهبـي، له من التصانيف: كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وغير ذلك، وكتاب القدر، وكتاب المبتدأ.

انظر عنه: المروج ٤/٣٩ ــ ٤٠؛ وفيات الأعيان ٦/٣٥ ــ ٣٦؛ والذهبـي: ميزان الاعتدال ٤/٣٥٢ ــ ٣٥٣.

(٦) المروج ١/٧٣، ٢/٢٩٢.

(٧) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت: المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٠م)، ص ٢٦.

والطبري والمسعودي والثعلبي صاحب كتاب عرائس المجالس[1].

وفي موضع واحد فحسب نجد نقلاً مباشراً[2] دونه المسعودي عن الزهري[3] (ت سنة ١٢٤هـ) قد يكون من أحد مؤلفاته المفقودة التي ألفها في السيرة والمغازي[4]، أو نسب قريش[5]، أو من مجموعة الأحاديث المسماة الزهريات[6]، والمسعودي يشك في صحة الخبر الذي رواه عن الزهري، لأنه «مجتنب من حيث الآحاد، ومرسل عند من لا يرى قبول المراسيل»[7].

وقد استفاد المسعودي من المصنف الذي ألفه عيسى بن لهيعة المصري[8] (ت سنة ١٤٥هـ) ويدعى بكتاب الجلائب والحلائب في بحثه عن الخيل[9] وابن لهيعة ممن ذكرهم المسعودي في مقدمة المروج.

(١) يوسف هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، الطبعة الأولى، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م)، ص ٣٢.

(٢) التنبيه، ص ٢٩٠.

(٣) محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري، أبو بكر، محدث حافظ فقيه مؤرخ، من أهل المدينة نزل الشام واستقر بها، ومن الرواد الأوائل الذين ألفوا في المغازي والسير. انظر عنه: أبا يوسف يعقوب البسوي: المعرفة والتاريخ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، (بغداد: مطبعة الإرشاد ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ١/٦٢٠ ـ ٦٤٢؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/٣٢٦ ـ ٣٥٠.

(٤) د. سيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٨١م)، ص ٥٩.

(٥) انظر: المصعب بن عبدالله الزبيري: نسب قريش، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف ١٩٧٦م)، ص ٣ حيث يذكره أحد مصادره.

(٦) د. سيدة إسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه الطبعة الثانية (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص ٢٩.

(٧) التنبيه، ص ٢٩٠.

(٨) عيسى بن لهيعة المصري: محدث أقل شهرة من أخيه عبدالله بن لهيعة (ت سنة ١٧٤هـ). انظر عنه: ابن حجر: لسان الميزان ٤/٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٩) المروج ٢/٢٧١.

كما استفاد أيضاً مما صنفه النسابة والإخباري محمد بن السائب الكلبي[1] (المتوفى سنة ١٤٦هـ) وهو من رواة ونسابي اليمن الرواد الذين ساهموا في ظهور علم الأنساب[2]، وقد أسند إليه المسعودي بعض الأخبار التي رواها من مصنفاته مباشرة أو عن طريق ابنه هشام[3].

وفي بحث السيرة النبوية والمغازي رجع المسعودي إلى ابن إسحاق[4] (المتوفى سنة ١٥٢هـ)، وكان يعتمد آراءه ويقدمها[5]، ويوردها أحياناً بصيغة الجزم[6]، ونقل عنه بعض الأخبار المتصلة بحياة معاوية بن أبي سفيان بعد أن شاخ وهرم[7] ويقرر المسعودي أن محمد بن إسحاق هو أول من جمع «كتب المغازي والسير وأخبار المبتدأ، ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة»[8]، وذلك في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ).

---

(١) محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النضر، مفسر إخباري نسابة راوية، ولد بالكوفة وتوفي بها، وهو ضعيف الحديث ويرمى بالتشيع، من آثاره: كتاب تفسير القرآن. انظر عنه: الفهرست، ص ١٣٩؛ وميزان الاعتدال ٣/٥٥٦ ـ ٥٥٩.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٧٥م) ١/٣٦١.

(٣) المروج ١/٧٩، ٢/١٩١ ـ ١٩٢، ١٩٥؛ والتنبيه، ص ٧٩، ٨١.

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، أبو عبدالله، محدث إخباري عارف بأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم، توفي ببغداد، واختلفت فيه الآراء بين موثق ومضعف، لكن الراجح أنه ثقة «حسن الحديث صالح الحال صدوق، وما انفرد به ففيه نكارة، فإن في حفظه شيئاً، وقد احتج به أئمة فالله أعلم»؛ ميزان الاعتدال ٣/٤٧٥ ومن تصانيفه: كتاب الخلفاء، وكتاب السيرة، والمبتدأ والمغازي. انظر عنه: الفهرست، ص ١٣٦؛ وابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، الطبعة الثانية (بيروت: دار الجيل ١٩٧٤م) ١/٧ ـ ١٧ وقد أورد في ترجمته كل ما قيل فيه، وتصدى للدفاع عنه.

(٥) المروج ٣/٢١.

(٦) المصدر السابق ٣/٦٣.

(٧) المصدر السابق ٣/٢٤٢.

(٨) المصدر السابق ٥/٢١١.

ونلاحظ من بين مصادر المسعودي من الرواة والإخباريين الأوائل الشرقي ابن القطامي[1] (ت نحو سنة ١٥٥هـ) وقد استفاد منه المسعودي في حديثه عن معركة صفين[2]، وعن أنساب اليمن[3]، كما نقل عنه أخباراً أخرى[4].

ويأتي أبو مخنف لوط بن يحيى الغامدي[5] (ت ١٥٧هـ) في طليعة المؤرخين الأوائل الذين رأى المسعودي مصنفاتهم ونقل منها في مواضع كثيرة من كتبه[6]، وقد كان لنقل المسعودي وغيره من المؤرخين كالطبري من مصنفات أبي مخنف[7] أثر بالغ الأهمية لفقدان تلك المصنفات وضياعها، ومن ثم فإن تلك النقول هي الشواهد الحية الباقية التي تدلنا على نوعية آثار مؤلفها.

وابن دأب[8] (ت سنة ١٧١هـ) الإخباري الذي اشتهر بأخباره مع الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) وحظي عند الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) حظوة لم تكن لأحد[9]، أحد الإخباريين الذين روى عنهم المسعودي أخباراً كثيرة

(١) هو الوليد بن الحصين بن حبيب بن جمال الكلبي، أبو المثنى، عالم بالأدب والنسب، من أهل الكوفة، استقدمه أبو جعفر المنصور إلى بغداد ليؤدب ولده المهدي، قالوا عنه: إنه ضعيف الحديث. انظر عنه: المروج ١٧٨/٤؛ والبيان والتبيين ٣٢٢/١، ٤٥/٣ ـ ٤٨؛ وتاريخ بغداد ٢٧٨/٩ ـ ٢٧٩.

(٢) المروج ١٤٣/٣.

(٣) المصدر السابق ١٩٢/٢؛ والتنبيه، ص ٨١.

(٤) المروج ١١٨/١، ١٩١/٢، ٢٤٨.

(٥) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي الغامدي، أبو مخنف، راوية عالم بالسير والأخبار، ولكنه متروك الحديث، له مؤلفات كثيرة، منها: فتوح العراق، فتوح الشام، الجمل، صفين، الخوارج، والمهلب، وغيرها. انظر عنه: معجم الأدباء ٤١/١٧ ـ ٤٣؛ فوات الوفيات ٢٢٥/٣ ـ ٢٢٦.

(٦) انظر على سبيل المثال: المروج ٧٩/١، ١١٨، ٦٩/٣، ٩٨، ١٤٣، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٤١، ٢٩٦؛ التنبيه، ص ٣٥٨.

(٧) الفهرست، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٨) عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الليثي، أبو الوليد، محدث نساب راو شاعر، من أهل المدينة. انظر عنه: البيان والتبيين ٥١/١، ٣٢٤؛ والفهرست، ص ١٣٣؛ ومعجم الأدباء ١٥٢/١٦ ـ ١٦٥.

(٩) المروج ١٨٤/٤ ـ ١٩٠.

تتصل بالخلفاء[1]، ولكنه لم يذكر اسم مؤلفه الذي استقى منه أخباره.

ولا بد أن المسعودي قد رجع إلى كثير من مصنفات هشام بن محمد الكلبي[2] (ت سنة ٢٠٤هـ) وهي متنوعة أكثرها في الأنساب والتاريخ وأخبار العرب وأيامها[3]، وقد استفاد منه المسعودي في حديثه عن الفرس، وعن أنساب اليمن[5]، وتفرق الأزد في البلاد[6]، وغير ذلك[7].

أما الهيثم بن عدي الطائي[8] (ت سنة ٢٠٦هـ) الإخباري والمؤرخ فكان المسعودي مطلعاً على مصنفاته مستفيداً منها، وخاصة أثناء تدوينه للأخبار المتعلقة بالقبائل اليمنية وأنسابها[9]، وفي وقعتي الجمل وصفين[10]، بعض الخلفاء الأمويين[11] والعباسيين[12] ولا سيما أنه كان شاهد عيان لكثير من الأمور التي تمت

---

(١) المروج. انظر مثلاً ٢٤١/٣، ٣٢٦، ١١٢/٤، ١٣٧.

(٢) هشام بن محمد بن السائب الكلبي، أبو المنذر، مؤرخ عالم بالأنساب مطلع على تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، غير ثقة عند المحدثين، له مصنفات كثيرة جداً منها: جمهرة الأنساب، الأصنام، نسب الخيل، بيوتات قريش، بيوتات اليمن، ملوك كنده. انظر عنه: تاريخ بغداد ٤٥/١٤؛ ومعجم الأدباء ٢٨٧/١٩ ــ ٢٩٢؛ ووفيات الأعيان ٨٢/٦ ــ ٨٤.

(٣) الفهرست، ص ١٣٩ ــ ١٤٠.

(٤) المروج ٢٧٥/١، ٢٧٨.

(٥) المصدر السابق ١٩٢/٢، ١٩٥.

(٦) المصدر السابق ٣٢٩/٢ ــ ٣٣٠.

(٧) المصدر السابق ١٣٤/٣، ٢٤١.

(٨) الهيثم بن عدي بن عبدالرحمن الثعلي الطائي البحتري الكوفي، أبو عبدالرحمن، مؤرخ عالم بالأدب والنسب، قيل إنه كان يرى رأي الخوارج، وهو عند علماء الحديث من المدلسين ومن غير الثقاة، من تصانيفه: تاريخ الأشراف، الخوارج، التاريخ على السنين، ولاة الكوفة، خطط الكوفة، بيوتات قريش. انظر عنه: الفهرست، ص ١٤٥؛ ومعجم الأدباء ١٩ /٣٠٤ ــ ٣١٠؛ ووفيات الأعيان ١٠٦/٦ ــ ١١٤.

(٩) المروج ١٩٢/٢ ــ ١٩٤؛ والتنبيه، ص ٨١.

(١٠) المروج ١١٠/٣، ١٤٣، ٢٢٩.

(١١) المصدر السابق ٢٤١/٣، ٣٢١، ٤٤/٤، ٤٧.

(١٢) المصدر السابق ١٨٠/٤.

في عهودهم، حيث كان جليساً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، والظاهر أن مؤلفاته قد ذهبت كلها في عالم الضياع.

ومن المؤرخين القدامى الذين استعان المسعودي بمصنفاتهم الواقدي[1] (ت سنة ٢٠٧هـ) وهو من المتضلعين بمعرفة التاريخ الإسلامي وحركات الفتوح والمغازي فيه، ولم يصرح المسعودي بالإشارة إلا إلى كتاب واحد فحسب من مصنفات الواقدي، هو كتاب فتوح الأمصار[2]، أما كتبه الأخرى فلم يذكر شيئاً منها، مع وجود احتمال قوي برجوعه إلى بعضها على الأقل وخاصة كتاب المغازي، وذلك لكثرة تردد اسم الواقدي في مصنفات المسعودي[3].

ومن المصادر المكتوبة التي استفاد منها المسعودي مصنفات العالم اللغوي والإخباري النسابة أبي عبيدة معمر بن المثنى[4]، (ت سنة ٢١١هـ) فعند تدوينه لتاريخ الفرس استعان بالمصنف الذي ألفه أبو عبيدة في أخبار الفرس[5] وهو

---

(١) محمد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي، أبو عبدالله، محدث حافظ مؤرخ أديب فقيه مفسر، ولد بالمدينة، وانتقل إلى بغداد أيام الرشيد، وتولى القضاء في عهد المأمون، وكان من أوعية العلم إلا أن إجماع المحدثين يكاد يستقر على وهنه وضعفه، له مصنفات كثيرة وخاصة في الأخبار والمغازي والسير والحوادث وأيام الناس منها: كتاب المغازي وهو مطبوع، كتاب أخبار مكة، كتاب الطبقات، كتاب فتوح الشام، فتوح العراق، فتوح أفريقية، تفسير القرآن، تاريخ الفقهاء، وغيرها.

انظر عنه: المروج ٤/٣٣٠؛ والفهرست، ص ١٤٤؛ وتاريخ بغداد ٣/٣ ــ ٢١؛ وميزان الاعتدال ٣/٦٦٢ ــ ٦٦٦.

(٢) المروج ٢/٤٩، ٣/٥٠.

(٣) انظر مثلاً: المروج ٣/٢١، ٦٣، ٨٧، ١١٠، ٢١٢، ٤/٤٠، ١٩٩؛ والتنبيه، ص ٢٣٨، ٢٧٨، ٣٠٥، ٣٥٢، ٣٥٨.

(٤) معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري، أبو عبيدة، من أئمة العلم بالأدب واللغة والشعر والأخبار والنسب، كان يتهم بشيء من رأي الخوارج وبالشعوبية، بلغ نحو مائة سنة، ولم يحضر جنازته أحد لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا وضيع إلا تكلم فيه.

انظر عنه: المروج ٤/٣٣٣؛ والفهرست، ص ٧٩ ــ ٨٠؛ وتاريخ بغداد ١٣/٢٥٢ ــ ٢٥٨؛ وميزان الاعتدال ٤/١٥٥.

(٥) المروج ١/٢٦٤، ٢٩٥، ٣٢٤.

كتاب فضائل الفرس، الذي رواه عن عمر كسرى[1]، وقد انتزع المسعودي فصلاً كاملاً من كتاب الواحدة أو الوجوه «في مناقب العرب ومثالبها مفردة لا يشاركها فيها غيرها، وما أضيف إلى كل حي من أحياء العرب من قحطان وغيرهم من نزار، وما جرى في مجلس هشام بن عبدالملك في أوقات مختلفة بين الأبرش الكلبي والعباس بن الوليد وخالد بن سلمة المخزومي والنضر بن أبي مريم الحميري. . وما أورده الحميري من مناقب قومه من حمير وكهلان، وما أورده المخزومي من مناقب قومه من نزار بن معد بن عدنان، وما ذكره كل واحد منهم من المثالب فيما عدا قومه وبان عن عشيرته ورهطه، وقد قيل إن هذا الكتاب ألفه أبو عبيدة معمر بن المثنى مولى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي على لسان من ذكرنا وعزاه إلى من وصفنا، أو غيره من الشعوبية»[2]. ولأبي عبيدة كتاب مناقب قريش وفضائلها[3]، وكتاب المثالب يذكر فيه أنساب العرب وفسادها ويرميهم بما يسيء الناس ذكره ولا يحسن وصفه[4]، وكتاب الديباج[5]، وكتاب الخيل[6]، وكتاب النوائح[7]، وقد كان المسعودي مطلعاً على هذه الكتب مفيداً منها.

وكان من ضمن مصادره عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب السيرة النبوية[8]، وهو المعروف بسيرة ابن هشام لعبدالملك بن هشام[9] (ت سنة ٢١٨هـ) وهو من أصول مصادر السيرة النبوية المعتمدة.

---

(١) عمر كسرى إخباري فارسي اشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها حتى لقب بعمر كسرى. انظر عنه: المروج ١/٢٦٤.

(٢) المروج ٤/٤٨.

(٣) التنبيه، ص ٢١٠.

(٤) المروج ٤/٣٣٣.

(٥) التنبيه، ص ٢٤٣؛ والفهرست، ص ٧٩.

(٦) المروج ٤/٥٧؛ والفهرست ص ٨٠.

(٧) المروج ٢/٣٠٥؛ وانظر ٢٩٩؛ والفهرست، ص ٨٠.

(٨) المروج ٣/٥، ٢٤.

(٩) عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري، أبو محمد، مؤرخ وعالم بالأنساب واللغة وأخبار العرب، ولد ونشأ بالبصرة وتوفي بمصر، له غير السيرة النبوية كتاب التيجان في ملوك حمير رواه بسنده عن =

وكـذلك كتـاب غريب الحـديث[1] لأبـي عبيد القـاسم بن سـلام[2] (ت سنة ٢٢٤هـ) روى عنه المسعودي قصة أكل النبـي صلى الله عليه وسلم للذراع المسمومة في غزوة خيبر.

وقد أفاد المسعودي من مصنفات أبـي الحسن علي بن محمد المدائني[3] (ت سنة ٢٢٥هـ) وهو الإخباري والمؤرخ المشهور وصاحب المصنفات الغزيرة في أخبار النبـي صلى الله عليه وسلم وسيرته، وفي المغازي والفتوح، وأخبار النساء، وتاريخ الخلفاء والوقائع والأحداث، والجاهليين، والشعراء، والبلدان، ومصنفات المدائني في هذه الموضوعات على الرغم من كثرتها وتعددها[4] إلا أنها قد ضاعت ولم يبق منها إلا النزر اليسير[5]، وما حفظه المؤرخون المتأخرون من نقول في مؤلفاتهم كالطبري والمسعودي وغيرهما، وعلى الرغم من أن المسعودي كان

= وهب بن منبه، والقصائد الحميرية وغير ذلك. انظر عنه: السهيلي: الروض الأنف، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد (بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ) ج ١ ص ٧؛ ووفيات الأعيان ٣/١٧٧؛ والبداية والنهاية ١٠/٢٦٧.

(١) انظر التنبيه، ص ٢٥٨.

(٢) القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي ولاءً، أبو عبيد، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ولد بهراة وتوفي بمكة المكرمة، وكتابه الغريب ألفه في نحو أربعين سنة وهو أول كتاب ألف في غريب الحديث، ومن كتبه: المقصور والممدود، فضائل القرآن، الأمثال، النسب، الأموال، وغيرها.

انظر عنه: أبا بكر محمد بن خير الإشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه تحقيق فرنسشكه قدارة زيدين، الطبعة الثانية، (بيروت: المكتب التجاري، وبغداد: مكتبة المثنى، والقاهرة: مؤسسة الخانجي ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م)، ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥، ٥٠٩، ٥٣٤؛ وطبقات الشافعية ١/٢٧٠ ــ ٢٧٤.

(٣) علي بن محمد بن عبدالله بن أبـي سيف المدائني، أبو الحسن، ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن، وانتقل إلى بغداد وتوفي بها، كان عجباً في معرفة السير والمغازي، والأنساب، مصدقاً فيما ينقله، عالي الإسناد، من مؤلفاته: كتاب عهود النبـي صلى الله عليه وسلم، كتاب المغازي؛ كتاب أخبار الخلفاء؛ كتاب الخوارج. انظر عنه: تاريخ بغداد ١٢/٥٤ ــ ٥٥؛ ومعجم الأدباء ١٤/١٢٤ ــ ١٣٩؛ وسير أعلام النبلاء ١٠/٤٠٠ ــ ٤٠٢.

(٤) انظر: الفهرست، ص ١٤٧ ــ ١٥٢.

(٥) بقي من كتبه المردفات من قريش وهي رسالة مطبوعة، والتعازي مخطوط. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/١٤٠.

لا يهتم كثيراً بالإشارة إلى أسماء مصنفات المدائني، إلا أن اسمه كان يتردد بين الرواة والإخباريين الذين أفاد منهم، فقد نقل عنه مثلاً روايات تتصل بوقعة الجمل[1]، وصفين[2]؛ وعن تمصير البصرة وعمرانها[3] وبعض أخبار الخلفاء الأمويين[4]، والحجاج بن يوسف الثقفي[5] وأخبار الدعوة العباسية والخلفاء العباسيين[6]، ويرى المسعودي أن المدائني كان من المهتمين وذوي العناية بأخبار العباسيين[7]، وأنه كثير الكتب إلا أنه كان يؤدي ما سمع[8]، أي أنه كان لا يهتم بالنقد والتحليل وإبداء الرأي. ونستفيد من هذا حرص المسعودي على نقد مصادره، وبيان الطريقة التي سار عليها مؤلفوها. ويبدو أن المسعودي قد استفاد كثيراً في كتابه أخبار الزمان من مصنف المدائني المعروف بكتاب أخبار القلاع الذي ذكر فيه طرقاً من أخبار قلاع العالم الكثيرة، وما فيها من الأخبار العجيبة[9].

ونجد من مصادر المسعودي كتاب سلمويه[10](ت ٢٢٥هـ) عن الدولة العباسيةوأمراء خراسان[11]، ومع أن المسعودي لم يشر إليه إلا مرة واحدة إلا أن نقله عنه ذو أهمية بسبب ضياع ذلك الكتاب.

---

(١) المروج ٣/١١٥.

(٢) المصدر السابق ٣/٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ٣/٦٤؛ والتنبيه، ص ٣٥٨.

(٤) المروج ٣/٢٤١، ٣٢٦، ٤/١٩ ــ ٢٠، ٤٧، ٥/١٥٢.

(٥) المصدر السابق ٣/٣٤٨.

(٦) المصدر السابق ٤/٩٢، ١٠٤، ١٢٨.

(٧) المصدر السابق ٤/٢٦١.

(٨) المصدر السابق ٥/١٠٤.

(٩) المصدر السابق ١/٢٤٠.

(١٠) سلمويه بن بنان: طبيب حاذق، جعله المعتصم بالله طبيبه الخاص سنة ٢١٨هـ، وقد كان على معرفة بالسياسة وبواطن الأمور من جراء مخالطته وخدمته للخلفاء، وكان يدين بالنصرانية. انظر عنه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٣٤ ــ ٢٤٠.

(١١) التنبيه، ص ٦٥.

ومن معاصري المدائني العتبي الأموي[1] (ت ٢٢٨هـ) كان المسعودي يأخذ منه بعض الأخبار[2]، وأحياناً يشير إليه هو والمدائني مقترنين[3].

ويصرح المسعودي بنقله من كتاب أبي عيسى محمد بن هارون الوراق[4] (ت سنة ٢٤٧هـ)، وهو كتاب المجالس[5]، ومن المحتمل جداً أن يكون المسعودي قد رأى شيئاً من كتب أبي عيسى غير هذا الكتاب[6] لأننا نجده يذكر أن له أيضاً «تصنيفات كثيرة حسان، منها كتابه في المقالات في الإمامة وغيرها»[7].

ويحتمل احتمالاً قوياً أن المسعودي قد أفاد من مؤلفات مسلم بن أبي مسلم الجرمي[8]، وخاصة فيما كتبه عن الروم وبلادهم ونظمهم ومن جاورهم من الأمم، حيث ذكر المسعودي أن له «مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها، ومن جاورهم من الممالك من برجان والأبر والبرغر والصقالبة

---

(١) محمد بن عبيدالله بن عمر، أبو عبدالرحمن من بني أمية، أديب فاضل، يروي الأخبار وأيام العرب، ولد بالبصرة وتوفي بها، من مصنفاته: الخيل، الأخلاق، أشعار الأعاريب، وغيرها. انظر عنه: البيان والتبيين ١٨٢/٢؛ والفهرست، ص ١٧٦؛ وتاريخ بغداد ٣٢٤/٢ ــ ٣٢٦.

(٢) المروج ٣٥٤/٣، ٣٦٩، ٣٧٦.

(٣) المصدر السابق ٨/٤، ٢٦١، ١٩١/٥.

(٤) محمد بن هارون الوراق، أبو عيسى، عالم معتزلي، شيعي من أهل بغداد، كانت وفاته فيها في الجانب الغربي المعروف بالرملة.
انظر عنه: لسان الميزان ٤١٢/٥.

(٥) المروج ٢٣/٥.

(٦) انظر المصدر السابق ٤٥/٤، ٧٧؛ والتنبيه، ص ٣٩٦.

(٧) المروج ٢٣/٥.

(٨) لم أجد لهذا الرجل ترجمة وافية سوى ما ذكره المسعودي عنه، وهو أنه رجل من أهل الثغور المرابطين على حدود الدولة البيزنطية، وكان ذا منزلة رفيعة ومكانة عالية ومحل من العلم كبير، أسره البيزنطيون، وفي إحدى مرات تبادل الأسرى بين المسلمين والروم عرض عليه القول بخلق القرآن مقابل فدائه، فأبى الانقياد إلى ذلك، فأهين وترك. إلى أن تخلص فيما بعد. انظر عنه: التنبيه، ص ١٩١.

والخزر وغيرهم»[1] ومصنفات هذا الرجل مفقودة الآن، وربما تعزى كثير من تفصيلات المسعودي الدقيقة عن بلاد الروم إلى استفادته من تلك المصنفات.

وعلى الرغم من أن المسعودي كان ينقم على الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) نزعته العدائية لآل البيت، ومناصرته لخصومهم التقليديين الذين نافسوهم الخلافة من بني أمية وبني العباس، وذلك بتأليفه الكتب في تأييدهم والانتصار لهم ــ أقول: على الرغم من ذلك فإن المسعودي كان مولعاً بمصنفات الجاحظ ومعجباً بها أيما اعجاب، وكان يقدر فيه فكره المستقل وحجته الواضحة وبلاغته وأدبه وأسلوبه السلس الواضح، وحين أتى على ذكر وفاته أشاد به وقال: إنه «لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه ــ مع قوله بالعثمانية ــ وكتب الجاحظ ــ مع انحرافه المشهور ــ[2] تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب حسان، منها: كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيليين، وكتاب البخلاء، وسائر كتبه في نهاية الكمال مما لم يقصد منها إلى نصب ولا إلى دفع حق، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه»[3] ومن هنا فإن المسعودي قد تعرض لذكره في مواطن كثيرة[4] واقتبس من مؤلفاته فقرات، وإن كان في بعض الأحيان لا يشير إلى مصدرها، مع أنه قد أخذها من أحد مؤلفاته

---

(١) التنبيه، ص ١٩٠ ــ ١٩١.

(٢) يقصد المسعودي بهذه العبارة التي قبلها وهي (قوله بالعثمانية) ميل الجاحظ إلى الجانب الآخر المناهض للعلويين والشيعة، لأن المسعودي كانت ميوله الشيعية قوية جداً.

(٣) المروج ١٠٤/٥ ــ ١٠٥.

(٤) انظر مثلاً المروج ٩٢/١، حيث ذكر المسعودي أن له كتاباً في فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان، وانظر ١٧٠/٢، ٢٢٣/٣، والتنبيه، ص ٧٦.

الشهيرة[1] وأحياناً أخرى يشير إليها، ونرى من ذلك رجوعه إلى كتاب الحيوان حين جاء يتحدث عن الزرافة[2]، ثم عن الفيل[3]، ونقل عنه كلاماً طويلاً يتعلق به، ثم أبدى المسعودي وجهة نظره حول ما كتبه الجاحظ عن الفيل بأنه «أورد جوامع متفرقة ولمعاً غير منسقة في الفيلة وغيرها، وأعرض عن إيراد خواص أعضائها وكثرة منافعها وعجيب خصالها، وما ذكر من أسرار الطبيعة فيها، وما قالته فلاسفة الهند في بدئها. . . وكثرة الطرب الذي يوجد في الفيل دون غيره من الحيوان، وقبوله الرياضة والدراية والمعرفة عند المحاورة والدهاء والخبث والتمييز»[4].

وقد انتقد المسعودي الجاحظ في مسألة الكركدَّن [وحيد القرن] حيث قال: «زعم الجاحظ أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين وأنه يخرج رأسه من فرج أمه فيرعى، ثم يدخل رأسه في بطنها، وهذا القول أورده في كتاب الحيوان على طريق الحكاية والتعجب. . . ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ أمن كتاب نقلها أم مخبر أخبره بها»[5]؟ وذكر المسعودي أنه تحقق من هذه المسألة وتوصل إلى أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس. والواقع أن المسعودي في إيراده لهذه المسألة لم يكن أميناً ولا دقيقاً في نقله عن الجاحظ، لأن الجاحظ نفسه لم يكن مؤمناً بها[6] وإنما أوردها على طريق الحكاية ــ كما قال

(١) وقد توصل إلى هذه الحقيقة شارل بلا محقق المروج، وبمقارنة النصوص اتضح صواب ما توصل إليه، انظر مثلاً اقتباسه من كتاب البيان والتبيين ٤/٨٧، في المروج ٣/٣٠٣، واقتباسه من كتاب الحيوان ٦/٢١٥ في المروج ٢/٢٧٣؛ ومن الحيوان ٦/٢٢٠ في المروج ٢/٢٨٧؛ ومن الحيوان ٦/١٥٨ ــ ١٥٩ في المروج ٢/٢٩١؛ ومن الحيوان ٦/١٥٦ ــ ١٥٧ في المروج ٢/٢٠١.

(٢) المروج ٢/١١١؛ راجع كتاب الحيوان ١/١٤٢ ــ ١٤٣، ١٥١، ٧/٢٤١.

(٣) المروج ٢/١١٦ وما بعدها، راجع الحيوان ٧/٧٥ ــ ٧٧، ١٠٣، ١٠٥.

(٤) المروج ٢/١٢٣.

(٥) المصدر السابق ١/٢٠٥.

(٦) انظر مثلاً قوله: «ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من فرج أمه حتى يأكل شبعه، ثم يدخل رأسه من فرج أمه، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا ممتنعاً في الطبيعة وأرى جوازه موهوماً غير مستحيل إلا أن قلبي ليس يقبله» الحيوان ٧/١٢٥.

المسعودي ـ وليناقشها، ولذلك أورد دلائل وأشياء تنقضها وتنفيها لمجافاتها للعرف والعادة وسنن الحياة[1].

أما نقده إياه لقوله إن نهر مهران السند من نيل مصر بدليل وجود التماسح فيه[2] وذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصـار وعجائب البلدان فهو نقد صحيح إن كان الجاحظ قال ذلك حقاً، وكان المسعودي يثني على ذلك الكتاب بأنه في نهاية الحسن، وإن كان الجاحظ لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرّى الممالك والأمصار[3].

وأما النقد اللاذع الذي وجهه المسعودي للجاحظ فجاء عندما تطرق لذكر مصنفاته التي مدح فيها الأمويين والعباسيين وناهض فيها العلويين، مثل كتاب العثمانية[4] الذي «يحل فيه عند نفسه فضائل علي ـ رضي الله عنه ـ ومناقبه ويحتج فيه لغيره» والذي استقصى فيه الحجاج «وأيده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصوره من عقله»[5]، وكتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبـي سفيان، في الانتصار له من علي بن أبـي طالب وشيعته الرافضة، الذي ذكر فيه رجال المروانية، وأيد فيه إمامة بني أمية[6]، وكتاب إمامة ولد العباس الذي يحتج فيه الجاحظ لمذهب الراوندية وغير ذلك[7]، وأكد المسعودي أن الجاحظ لم يصنف هذا الكتاب ويبذل جهده فيه عن عقيدة واقتناع، لكنه فعل ذلك تماجناً وتطرباً[8].

---

(١) حيث قال الجاحظ: «والعجب كل العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه، ثم إدخاله رأسه بعد الشبع والبطنة، ولا بد ـ أكرمك الله ـ لما أكل من نجو، فإن كان بقي ذلك الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب، وان كان يروث في جوفها فهذا أعجب» الحيوان ١٢٥/٧.

(٢) المروج ١١٣/١، ١٩٧، ٢٣٣؛ والتنبيه، ص ٥٥.

(٣) المصدر السابق ١١٣/١.

(٤) المصدر السابق ٧٧/٤، ذكر المسعودي كتاب العثمانية وكتاب مسائل العثمانية، لكن الظاهر أنهما كتاب واحد.

(٥) المصدر السابق ٧٧/٤.

(٦) المصدر السابق ٧٧/٤.

(٧) المصدر السابق ٧٦/٤.

(٨) المصدر السابق ٧٧/٤.

وعلى أي حال فإن المسعودي كان قارئاً جيداً لمؤلفات الجاحظ، ووجد فيها مادة دسمة وقوية أفادته كثيراً في الحصول على معلومات قيمة عن الموضوعات التي طرقها في مصنفاته. ولا بد أن يكون تأثير الجاحظ قد امتد إليه بأي شكل من الأشكال، سواء من حيث الاهتمامات العلمية المتنوعة أو من حيث الطريقة والأسلوب.

ومن مصنفات الاخباريين والمؤرخين التي استفاد منها المسعودي مصنفات الزبير بن بكار[1] (ت سنة ٢٥٦هـ) وخاصة كتابه المترجم بكتاب أنساب قريش الذي كان مصدراً رئيساً للمسعودي في حديثه عن أنساب آل أبي طالب[2] وذويهم من بني هاشم[3] وغيرهم من قريش[4]، وكذلك كتابه في الأخبار المعروفة بالموفقيات[5] التي صنفها للموفق بن المتوكل العباسي، وكان مؤدباً له في صغره.

ومن مصادر المسعودي عن فتوح الأمصار كتاب عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم (ت سنة ٢٥٧هـ) الذي وضعه عن فتوح مصر والإسكندرية والمغرب والأندلس وأخبارها[6].

ويظهر أن المسعودي كان على إلمام ببعض مصنفات الراوية والإخباري

---

(١) الزبير بن بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت، أبو عبدالله، من أحفاد الزبير بن العوام، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامهم، ولد بالمدينة وتوفي بمكة، وهو ثقة من أوعية العلم، له مصنفات عديدة منها: أخبار العرب وأيامها؛ الأوس والخزرج؛ وفود النعمان على كسرى؛ ونوادر أخبار النسب؛ الاختلاف؛ وكتابه الموفقيات مطبوع. انظر عنه: الفهرست، ص ١٦٠ ـ ١٦٢؛ وتاريخ بغداد ٤٦٧/٨؛ ووفيات الأعيان ٣١١/٢ ـ ٣١٢.

(٢) المروج ٢٦١/٣، ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق ٩٥/٣، ٢٦١؛ والتنبيه، ص ٣٠٠.

(٤) المصدر السابق ١١٠/٣.

(٥) المصدر السابق ٣٣٨/٤؛ والتنبيه، ص ٣٢٤.

(٦) التنبيه، ص ٣٥٩.

عمر بن شَبَّه النميري[1] (ت سنة ٢٦٢هـ)، وقد استفاد منه خاصة في الأخبار ذات الصلة بعبدالله بن الزبير وقيامه بمكة المكرمة[2].

وقد ذكر المسعودي ابن قتيبة الدينوري[3] (ت سنة ٢٧٠هـ) في مقدمة كتاب المروج ضمن قائمة المصادر[4] ونقل من مؤلفاته، ومن بينها كتاب المعارف، ولكنه لم يشر إلى ذلك النقل[5]، كما اتهمه بالنقل والسرقة من كتب أبـي حنيفة الدينوري.

قال المسعودي: «وقد سلب ذلك[6] ابن قتيبة فنقله إلى كتبه نقلاً وجعله عن نفسه، وقد فعل ذلك في كثير من كتب أبـي حنيفة الدينوري»[7] ويوحي لنا المسعودي بهذه العبارة إلى أن ابن قتيبة كانت تعوزه الأصالة والاستقلال وأنه في كتبه مجرد ناقل عن غيره وناسب إلى نفسه، ويعتري الشك هذه المقولة لأن المعروف عن ابن قتيبة أنه صدوق دَيِّنٌ فاضل[8].

ويشير المسعودي في موضعين من كتاب المروج إلى أخذه من ابن

---

(١) عمر بن شبه بن عبيدة بن زيد النميري البصري، أبو زيد، كان صاحب أخبار ونوادر ورواية واطلاع كثير، وكان صدوقاً روى عنه الحافظ ابن ماجه صاحب السنن وغيره، من مصنفاته: الكتاب؛ النسب؛ أخبار بني نمير: تاريخ البصرة؛ أمراء الكوفة؛ السقيفة؛ جمهرة أشعار العرب؛ تاريخ المدينة المنورة، وهو مطبوع. انظر عنه: معجم الأدباء ١٦/٦٠ ــ ٦٢؛ وفيات الأعيان ٣/٤٤٠.

(٢) المروج ٣/٢٧٦، ٢٧٨، ٣/٣١٥.

(٣) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، من أئمة الأدب وصاحب تصانيف كثيرة، ولد ببغداد وسكن الكوفة، ثم تولى قضاء الدينور فترة فنسب إليها، وكانت وفاته ببغداد، من تأليفه: كتاب المعارف، أدب الكاتب؛ تأويل مختلف الحديث؛ عيون الأخبار وغيرها وينسب إليه كتاب الإمامة والسياسة، ولكن ذلك غير صحيح؛ انظر الأدلة التي تثبت عدم صحة هذه النسبة في شاكر مصطفى: التاريخ العربـي والمؤرخون ١/٢٤١ ــ ٢٤٢. عن ابن قتيبة: الفهرست، ص ١١٥ ــ ١١٦؛ ووفيات الأعيان ٣/٤٢ ــ ٤٣.

(٤) المروج ١/١٥.

(٥) انظر مثلاً المروج ١/٤٥ ــ ٤٦، ٣/٢١٣، ٢٧١، ٢٩٠، ٧/٤٨٠؛ وإشارات شارل بلا محقق المروج إلى هذا النقل في حواشي الصفحات المذكورة.

(٦) يعني حديثه عن أرباع العالم والمعمور من الأرض.

(٧) المروج ٢/٣٥٩.

(٨) الذهبـي: ميزان الاعتدال ٢/٥٠٣.

أبـي خيثمة[١] (ت سنة ٢٧٩هـ) وذلـك من مصنفه التـاريخي ذي الفوائـد الغزيرة[٢].

ولا بد أنه كان من ضمن مصادر المسعودي مؤلفات أحمد بن يحيى البلاذري[٣] (ت سنة ٢٧٩هـ)، ولا سيما مؤلفيه المشهورين وهما كتابا أنساب الأشراف، وفتوح البلدان، ويعرب المسعودي عن أصالة مؤلفات البلاذري، ويصف مؤلفه الأخير قائلاً: «ولا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه»[٤]، ومن هذا الكتاب أخذ المسعودي معلوماته عن فتح المسلمين لبعض البلدان وبناء المدن الجديدة وتمصيرها، مثل الفسطاط بمصر[٥]، والرملة بفلسطين[٦]، وواسط بالعراق[٧].

وكذلك استفاد المسعودي من مصنفات أحمد بن أبـي طاهر[٨] (ت سنة ٢٨٠هـ) فقد أخذ من كتابه المشهور بكتاب تاريخ بغداد أو أخبار بغداد[٩] ومن كتاب آخر له يسمى أخبار المؤلفين[١٠].

---

(١) أحمد بن زهير (أبو خيثمة) بن حرب بن شداد، أبو بكر، مؤرخ من حفاظ الحديث عالم متقن ثقة مأمون، مولده ووفاته ببغداد، له كتاب التاريخ وهو كبير. انظر عنه: طبقات الحنابلة ١/٤٤؛ وسير أعلام النبلاء ١١/٤٩٢ ــ ٤٩٣.

(٢) انظر المروج ٣/٢٩٠، ٣٧٢.

(٣) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، أبو العباس، مؤرخ وجغرافي وشاعر من أهل بغداد، جالس الخليفة المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ) وتوفي في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ ــ ٢٧٩هـ) وكان يجيد الفارسية له من المصنفات: أنساب الأشراف؛ فتوح البلدان؛ كتاب البلدان الصغير؛ كتاب البلدان الكبير (لم يتمه). انظر عنه: الفهرست، ص ١٦٤؛ البداية والنهاية ١١/٦٥ ــ ٦٦؛ النجوم الزاهرة ٣/٨٣.

(٤) المروج ١/١٤.

(٥) التنبيه، ص ٣٥٨.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٨) أحمد بن أبـي طاهر (طيفور) الخراساني، أبو الفضل، مؤرخ وكاتب بليغ، ولد ببغداد وتوفي بها، من تصانيفه: المنثور والمنظوم؛ سرقات الشعراء؛ فضل العرب على العجم. انظر عنه: تاريخ بغداد ٤/٢١١؛ معجم الأدباء ٣/٨٧ ــ ٩٨.

(٩) المروج ١/١٣، ٥/٥٧، ٦٢، ١٧٤؛ والتنبيه، ص ٣٦٠.

(١٠) المروج ٥/٥٤.

ونجد المسعودي يحدثنا عن محمد بن زكرياء الغلابي البصري[1] (ت سنة ٢٨٠هـ) وتصنيفه للكتاب المترجم بكتاب الأجواد وغيره[2]، مما يدل على اطلاعه عليه واستفادته منه[3].

وأبو حنيفة الدينوري[4] (المتوفى سنة ٢٨٢هـ) الذي احتوت مؤلفاته على الموضوعات العلمية والأدبية، أطراه المسعودي وأثنى عليه وذلك في معرض إيراده لبعض محتويات كتابه التاريخي المعروف بـ الأخبار الطوال، وقال عنه: إنه كان «ذا محل من العلم كبير»[5]. أما العالم اللغوي الكبير محمد بن يزيد المبرد[6] (ت سنة ٢٨٥هـ) فلا شك أن المسعودي كان على صلة بمؤلفاته وأخباره، ولا سيما مصنفه المشهور كتاب الكامل في اللغة والأدب، وقد روى عنه المسعودي أخباراً كثيرة تتعلق بالخوارج[7] ـ وكان المبرد قد أفاض الحديث عنهم في ذلك الكتاب ـ وتتعلق بالعلويين[8]، والدولة الأموية[9]،

---

(١) محمد بن زكرياء الغلابي البصري، أبو جعفر، محدث إخباري راو للسير والأحداث، ينسب إلى التشيع، قال عنه الذهبي: إنه ضعيف، وقال عنه الدارقطني: يضع الحديث، من مصنفاته: وقعة الجمل، صفين، الحرة؛ أمير المؤمنين؛ المبخلين. انظر عنه: الفهرست، ص ١٥٧؛ وميزان الاعتدال ٣/٥٥٠؛ وشذرات الذهب ٢/٢٠٦.

(٢) المروج ١/١٣.

(٣) المصدر السابق، ٣/٦، ٤/١٩٧ ـ ١٩٨، ٥/٢٢٦.

(٤) أحمد بن داود بن وَنَند الدينوري، أبو حنيفة، من أهل دينور، مؤرخ فاضل وعالم بالهندسة والحساب والنبات، معروف بالصدق، له مصنفات قيمة منها: الأخبار الطوال؛ الأنواء؛ النبات؛ الجبر والمقابلة؛ البلدان؛ انظر عنه: الفهرست، ص ١٦؛ ومعجم الأدباء ٣/٢٦ ـ ٣٢.

(٥) المروج ٢/٣٥٩.

(٦) محمد بن يزيد بن عبدالأكبر بن عمير بن حسان الأزدي، أبو العباس، إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، ولد بالبصرة وتوفي ببغداد، وكان ثقة ثبتاً. من تصانيفه الكثيرة: الكامل في اللغة والأدب المقتضب في النحو، الاشتقاق؛ إعراب القرآن؛ نسب عدنان وقحطان؛ المقرب؛ انظر عنه: الفهرست، ص ٨٧ ـ ٨٨؛ تاريخ بغداد ٣/٣٨٠ ـ ٣٨٧؛ معجم الأدباء ١٩/١١١ ـ ١١٢؛ البداية والنهاية ١١/٧٩ ـ ٨٠.

(٧) المروج ٣/٢٣٩.

(٨) المصدر السابق ٣/٣٧٦.

(٩) المصدر السابق ٤/٥٤.

والعباسية[1]، وأخبار بعض الشعراء[2]، والأمراء[3]، والبرامكة[4] وغيرهم.

ويبدو أن المسعودي قد اطلع على بعض مصنفات ثعلب[5] إمام الكوفيين في النحو واللغة (والمتوفى سنة ٢٩١هـ) لأنه نقل عنه بعضاً من أخبار أبي العتاهية الشاعر[6]، وشيئاً من أخبار الخليفة العباسي المأمون[7] (١٩٨ ـ ٢١٨هـ)، وتحدث عن بعض ما كان بينه وبين المبرد من التنافس العلمي[8].

وقد صرح المسعودي برجوعه إلى كتاب أخبار الوزراء لأبي عبدالله محمد بن داود بن الجراح[9] (ت سنة ٢٩٦هـ) الذي شرحه وزاد فيه أبو العباس أحمد بن عبيدالله بن محمد بن عمار[10]، وقد استفاد منه المسعودي في مجال تعيين

---

(١) المصدر السابق ٤/٣٠٨، ٥/٩.

(٢) المصدر السابق ٤/١٧٤، ١٧٧.

(٣) المصدر السابق ٥/٨٣.

(٤) المصدر السابق ٤/٢٣٥.

(٥) أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني بالولاء، أبو العباس، نحوي لغوي محدث مشهور بالحفظ وصدق الرواية، ثقة حجة، ولد ومات في بغداد، وأصيب في أواخر أيامه بصمم حتى كان المخاطب له يكتب ما يريد في رقاع، من مؤلفاته: المجالس؛ معاني القرآن؛ معاني الشعر؛ اختلاف النحويين؛ المصون في النحو. انظر عنه: الفهرست، ص ١١٠، ١١١؛ وتاريخ بغداد ٥/٢٠٤ ـ ٢١٢؛ ومعجم الأدباء ٥/١٠٣ ـ ١٤٦؛ والبداية والنهاية ١١/٩٨.

(٦) المروج ٤/٢١٨.

(٧) المصدر السابق ٤/٣٠٨.

(٨) المصدر السابق ٥/١٨٦.

(٩) محمد بن داود بن الجراح، أبو عبدالله، أديب وكاتب عارف بأيام الناس وأخبار الخلفاء والوزراء، من أهل بغداد، كان صديقاً لعبدالله بن المعتز ووزر له يوم خلافته، قضى مقتولاً بإشارة من ابن الفرات، له كتب منها: الورقة؛ الشعر والشعراء؛ مَنْ سُمِّيَ من الشعراء عمرو في الجاهلية والإسلام. انظر عنه: الفهرست، ص ١٨٥ ـ ١٨٦؛ وتاريخ بغداد ٥/٢٥٥؛ وفوات الوفيات ٣/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(١٠) انظر التنبيه، ص ٣٤٤؛ وأبو العباس هذا رجل من ثقيف كاتب ومؤرخ وأديب شيعي من أهل الكوفة، توفي سنة ٣١٤هـ، له مصنفات منها: المبيضة في مقاتل آل أبي طالب؛ الزيادات في أخبار الوزراء وهو شرح كتاب ابن الجراح؛ الأنواء؛ وعدد من الكتب في أخبار الشعراء. انظر عنه: الزركلي: الاعلام ١/١٦٠.

الخليفة العباسي الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) لبعض وزرائه[١].

ومن مصنفات أبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري[٢] (ت سنة ٣٣١هـ) التي كان المسعودي على علم بها كتابه الذي صنفه عن أخبار المقتدر بالله العباسي في ألوف من الأوراق، وقد وقع إلى المسعودي أجزاء يسيرة من هذا الكتاب[٣] وكذلك كتابه في أخبار الوزراء والكتاب[٤]، وكان الجهشياري معاصراً للمسعودي إلا أننا لا نجد أية إشارة تدل على لقاء بين العالمين، وقد يكون لبعد المسعودي عن بغداد موطن الخلافة والتي كانت داراً لكثير من العلماء وذوي الشأن دور في ذلك.

* * *

هذا ومن المعروف أن المسعودي لم يكن مقتصراً على النظر في المؤلفات ذات الصبغة الإسلامية البحتة فحسب لكنه تعدى ذلك إلى النظر في كل ما تسنى له النظر فيه ووقع تحت يده بغض الطرف عن ميول واتجاهات أو ديانات مؤلفيها ــ ولعل هدف المسعودي من ذلك كان الوقوف على وجهات النظر المختلفة وعلى الآراء والمعتقدات من مصادرها الأصلية التي يقر بها أصحابها، فعلى سبيل المثال نراه يتحدث عن بعض المصنفات التي ألفها علماء ينتمون إلى فرق بالغت في غلوها وتعدت حدود الشرع والدين الإسلامي من الشيعة وغيرهم، مثل كتاب الصراط الذي ألفه إسحاق بن محمد النخعي المعروف بالأحمر، والقسطاس لمؤلفه الفياض بن علي بن محمد بن الفياض وغير ذلك[٥]،

---

(١) التنبيه، ص ٣٤٤؛ وانظر ٣٥٢.

(٢) محمد بن عبدوس بن عبدالله الجهشياري، أبوعبدالله، مؤرخ وكاتب مترسل، نشأ في بغداد، وأصبح بعد أبيه حاجباً للوزير علي بن عيسى ثم للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر بالله، وتوفي ببغداد مستتراً، من آثاره: كتاب الوزراء والكتاب؛ ميزان الشعراء؛ أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم. انظر عنه: الفهرست، ص ١٨٤؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/٢٩٤؛ والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٩.

(٣) المروج ٥/١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) التنبيه، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥، ٣٥٢.

(٥) المروج ٢/٢٥٨؛ والتنبيه، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

وعن تاريخ الفرس مثلاً نراه قد اعتمد على مصادر فارسية بالدرجة الأولى كان بعضها مترجماً إلى اللغة العربية ككتاب السُّكِيسَران الذي ترجمه عبدالله بن المقفع من الفارسية الأولى إلى العربية[1]، وكتاب البَيْكار نقله ابن المقفع أيضاً[2]، وكتاب چوبين نامه، وهذا الكتاب مفرد للحديث عن أخبار بهرام چوبين، وما كان من مكايده حين سار إلى بلاد الترك محارباً، وغير ذلك من أخباره[3]، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية جبلة بن سالم، واعتمد المسعودي على كتاب الكارْنامَجَ ويبدو أن هذا الكتاب كان بلغته الأصلية، واستعان المسعودي بمن يعرف اللغة الفارسية من أبناء الفرس الذين دخلوا في الإسلام، ويحتوي هذا الكتاب على أخبار أردشير بن بابك الملك الفارسي وحروبه ومسيره في الأرض[4]، وقد سبقت الإشارة إلى نقل المسعودي عن أبي عبيدة الذي كان ينقل عن عمر كسرى المشهور بمعرفة أخبار فارس.

وعن تواريخ الروم والديانة النصرانية بشكل عام نجد المسعودي قد تحدث عنها حديث خبير ومطلع، ولا سيما أنه بعد استقراره بمصر وزياراته المتكررة للشام كان يلتقي أثناء ذلك بكثير من النصارى، وتمكن من الاطلاع على مؤلفات رومية ونصرانية في الكنائس والأديرة التي كان يرتادها في بعض الأحيان لهذا الغرض، لذلك نراه على إلمام تام بدقائق وتفاصيل تتصل بالديانة النصرانية، وكان على معرفة بالكتب الخاصة بأسرار هذه الديانة، مثل الكتاب المعروف ببركسيس، وكتاب ديونوسيوس «الفلوبا خيطوا» وغيرهما[5] وفي مدينة أنطاكية رأى «بعض تواريخ الروم الملكية في كنيسة القسيان»[6]، وقرأها ودون ما يحتاجه منها، ويبدو أن المسعودي كان شغوفاً بالاطلاع على كل ما رآه فيها وخاصة كتب التاريخ.

---

(١) المروج ١/٢٦٧ ــ ٢٦٨.

(٢) المصدر السابق ١/٢٢٩.

(٣) المصدر السابق ١/٣١٨.

(٤) المصدر السابق ١/٢٨٩.

(٥) التنبيه، ص ١٦٠.

(٦) المروج ٢/٣٤.

وكانت لغة الكثير من هذه الكتب رومية[1]، ومع ذلك توحي عبارات المسعودي وألفاظه بأنه كان على علم بمحتوياتها وتفاصيلها[2].

ومن مصادر المسعودي عن الهند نجد مصدرين عربيين هما: كتاب الآراء والديانات[3] للحسن بن موسى النوبختي[4] (ت ٣٠٠هـ)، وكتاب عيون المسائل والجوابات[5] لأبي القاسم البلخي[6] (ت سنة ٣١٩هـ).

ونظراً لميول المسعودي الأدبية نلحظ اهتمامه بإيراد المقاطع الشعرية مستشهداً بها أو مؤيداً لقضية من القضايا[7]، وهذا الأمر يجعلنا نميل إلى القول بأن الشعر يعتبر رافداً من الروافد التي استعان بها المسعودي في جمع معلوماته وتحقيقها.

وعلى أي حال فإن المتتبع لمصادر المسعودي يجد أنه كان حريصاً على ذكر مصادره بجانب أسماء مؤلفيها وذلك بصفة دائمة، إلا أنه أحياناً قد يشير إلى اسم كتاب من غير أن يذكر اسم مؤلفه، وقد يكون ذلك لاشتهار الكتاب في عصره، إلا أنه ليس مبرراً كافياً، لإيراده غفلاً من اسم مؤلفه، ومن تلك الكتب مثلاً كتاب أخبار التبابعة[8]، وكتاب عيون البلاغات[9]، وكتاب

---

(١) المصدر السابق ٢/٤٠.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٠؛ وانظر ٢/٥٠، ١٤٧.

(٣) المصدر السابق ١/٨٨.

(٤) الحسن بن موسى بن محمد النوبختي، أبو محمد، فلكي فيلسوف من أهل بغداد، يدعيه كل من المعتزلة والشيعة، ولا شك في تشيعه، له ما يقرب من ٤٤ كتاباً منها: فرق الشيعة، الرد على أصحاب التناسخ، الإمامة وغيرها. انظر عنه: الفهرست، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٥) المروج ١/٨٧.

(٦) عبدالله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي، أبو القاسم، أحد أئمة المعتزلة من أهل بلخ وسكن بغداد مدة ثم توفي ببلخ، من مصنفاته: تحفة الوزراء، مفاخر خراسان؛ أدب الجدل؛ التفسير. انظر عنه: تاريخ بغداد ٩/٣٨٤؛ ووفيات الأعيان ٣/٤٥.

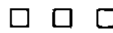
(٧) انظر مثلاً المروج ١/٥٧، ٢٧٨ ـ ٢٨٣، ٢/١٦٦ ـ ١٦٨، ٣٩٢.

(٨) المروج ١/١٨٧ ـ ٢/١٩٧، ولم أعثر فيما اطلعت عليه من مظان على اسم مؤلف هذا الكتاب.

(٩) المصدر السابق ٣/٣٧٥، لم أعثر على اسم مؤلفه.

الفلاحة، ويظهر أن المسعودي كان قد اطلع على أكثر من نسخة من هذا الكتاب الأخير[1].

وهكذا في ختام هذا الفصل نلاحظ أن المسعودي قد رجع إلى مصادر كثيرة جداً ومتنوعة، وحصل على معلومات قيمة ونادرة، منها ما استطاع الوصولَ إليه بنفسه عنِ طريق الرحلة والمشاهدة، ومنها ما توصل إليه عن طريق المساءلة والمحادثة، ومنها ما عرفه من خلال قراءاته الشخصية وغوصه في بطون المؤلفات والكتب، واستطاع المسعودي أن يسكب كل معلوماته ذات المصادر المتنوعة والمشارب المختلفة في قالب واحد مميز، وأن يعرضها لنا بشكل مغرٍ جذاب، وأسلوب سهل ممتنع.



(١) المصدر السابق ١/١٥٢ ـ ١٥٣، ووجدت في فهرست ابن النديم، ص ٢٤٣ ما نصه «كتاب الفلاحة للروم لعلي بن محمد بن سعد. . . كتاب الفلاحة لابن وحشية».

الفصل الرابع

خصائص كتابة المسعودي التاريخية

أولاً: تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين حتى عصر المسعودي.

ثانياً: خصائص كتابة المسعودي التاريخية.

(أ) ضوابط صحة المادة العلمية لدى المسعودي.

(ب) طريقة المسعودي في تدوين مادته العلمية.

(ج) التاريخ العالمي عند المسعودي.

(د) مزج المعلومات التاريخية بالجغرافيا.

(هـ) تأثير البيئة والفلك على الإنسان وغيره.

(و) الجوانب الحضارية في تاريخ المسعودي.

(ز) التمهيد لبعض العلوم الاجتماعية.

ثالثاً: المسعودي والشعر.

رابعاً: أسلوب المسعودي.

أولاً :

تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين حتى عصر المسعودي

ليس من هدفنا أن نتحدث في هذا المجال عن نشأة وتكون علم التاريخ عند المسلمين، والمراحل التي مر بها عبر القرون حتى عصر المسعودي، ولا عن العوامل التي ساعدت على ظهوره، ونشاط حركة التأليف فيه(١)، ولكن يهمنا هنا أن نبرز ـ بإيجاز ـ بعض الملامح المميزة لعدد من المؤرخين الكبار الذين سبقوا المسعودي في فترة النضج التاريخي، والذين قد يتفقون معه في بعض الخصائص أو يختلفون، لأننا من خلال ذلك نستطيع أن نتبين حقيقة منهج المسعودي التاريخي وأهم إضافاته في هذا المجال.

---

(١) هذا الموضوع قد أشبع بحثاً ودراسة من قبل عدد من الباحثين العرب وغيرهم. انظر على سبيل المثال لا الحصر: د. عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب؛ ود. سيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب؛ ود. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون؛ ود. عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب؛ ود. جواد علي: موارد تاريخ الطبري، وعنوان هذا البحث لا يصور حقيقته لأن سعة موارد الطبري جعلت المؤلف يتحدث عن نشأة التاريخ الإسلامي حتى عصر الطبري؛ وعمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية؛ ود. نورالدين حاطوم وزملاؤه: المدخل إلى التاريخ؛ وحسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب؛ ومحمد عبدالغني حسن: علم التاريخ عند العرب؛ وهاملتون جب: مادة (تاريخ) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، تحت هذه المادة تحدث المؤلف عن نشأة وظهور علم التاريخ الإسلامي، ج ٤ ص ٤٨٣ ـ ٥١٦؛ وفرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة المتناثرة في الكتب والمجلات العلمية المكتوبة باللغة العربية أو بغيرها من اللغات الأجنبية.

فإذا تجاوزنا مرحلة البواكير الأولى للتدوين التاريخي[1] ومرحلة ظهور الإخباريين ونشوء مدارسهم في كل من المدينة المنورة والعراق[2] خلال القرنين الأولين من الهجرة، نبدأ في القرن الثالث وخاصة في النصف الثاني منه بمصادفة المؤلفات التاريخية المهمة ذات الطابع التاريخي المميز التي ساعد على تطورها الازدهار العلمي عند المسلمين بصفة عامة، ونلاحظ أن التأليف التاريخي بدأ يتأصل ويتسع، حيث صار المؤرخون يحاولون الاستفادة من كل ما يقع تحت أيديهم من مواد السيرة ومن كتب الإخباريين ومن كتب الأنساب والمصادر الأخرى المتيسرة، وشملت دراساتهم الأمة بصورة منظمة، وكان أفقهم عاماً أو عالمياً، ونظرتهم التاريخية رحبة واسعة[3]، ولذلك شهدت هذه الفترة بداية ظهور عدد من المؤرخين الكبار الذين أصلوا هذا العلم ووضعوا أسسه، وخطوا به مراحل متقدمة إلى الأمام.

ويأتي في طليعة هؤلاء المؤرخين:

١ ــ خليفة بن خياط العصفري[4] (ت سنة ٢٤٠هـ):

وهو صاحب كتاب «التاريخ» وكتاب الطبقات[5]، وترجع أهمية كتاب

---

(١) انظر: د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٧٤/١ وما بعدها.

(٢) للوقوف بالتفصيل على ظهور هذه المدارس، وأشهر رجالها، راجع يوسف هوروفتز: المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، ص٣ وما بعدها؛ ود. عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ٦١ ــ ١٠٢، ١١٨ ــ ١٣٠؛ وانظر: د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ١٤٩/١ ــ ٢٠١.

(٣) انظر: د. عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٤) هو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة خليفة بن خياط الليثي العصفري، أبو عمرو، الملقب بـ شباب، عاش خليفة في مدينة البصرة وأخذ العلم عن شيوخها الكبار، فدرس علوم القرآن والحديث والتاريخ والأنساب، وكان له عدد من المؤلفات في هذه التخصصات لم يبق منها سوى كتابين اثنين هما: كتاب التاريخ وكتاب الطبقات، وقد حاز خليفة بن خياط على ثقة المحدثين وأئمة الجرح والتعديل أمثال البخاري ويحيى بن معين وعلي بن المديني والذهبي وغيرهم.
انظر عنه: وفيات الأعيان ٢٤٣/٢ ــ ٢٤٤؛ وسير أعلام النبلاء ٤٧٢/١١ ــ ٤٧٤؛ وانظر أيضاً ترجمته بالتفصيل في مقدمة كتابه: التاريخ بقلم محققه د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى (النجف: مطبعة الآداب ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م)، ج ١ ص ١٣ وما بعدها.

(٥) حقق هذين الكتابين وطبعهما د. أكرم ضياء العمري.

خليفة في التاريخ إلى أنه أقدم كتاب تحت أيدينا في تاريخ الإسلام العام، مرتب على الحوليات[1]، وإلى أنه يكشف عن اهتمامات تاريخية لا نجدها لدى الطبري الذي جاء بعده، فهو يبدي اهتماماً خاصاً بذكر أسماء الشهداء في الغزوات والمواقع الهامة، ويقدم قوائم هامة بأسماء العمال والولاة في عهد الخلفاء ومن كان من الموظفين الكبار على الشرطة وبيت المال والخزائن وغير ذلك من الوظائف الإدارية، ويقدم معلومات عن شمال أفريقية ووقعتي الحرة والزاوية لا نجدها في بقية المصادر[2]، وتاريخ خليفة مرتب على السنين الهجرية من السنة الأولى حتى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة، فهو قائم إذن على التنظيم الحولي.

أما كتاب الطبقات فهو يبحث في علم الرجال، وذكر فيه ابن خياط تراجم عدد كبير من رجال السلف، ورتبه على أساس المدن والعشائر والطبقات[3].

وهو يعتبر أقدم من أخذ بالترتيب الأنسابي من المصنفين في علم الرجال على الرغم من معاصرته لابن سعد صاحب الطبقات الكبرى، لأن ابن سعد كان ينقل عن ابن خياط في طبقاته[4].

وإذا فتشنا عن طريقة ابن خياط في توثيق معلوماته نجده قد استخدم الإسناد أحياناً، وتركه أحياناً أخرى وخاصة في كتاب الطبقات، حيث اكتفى بتقديم قائمة بمصادره في بداية الكتاب[5]، والواقع أن كتابي ابن خياط المذكورين «من وجهة نظر علم التاريخ يكشفان عن استقرار النظرة الوحدوية للأمة الإسلامية، ويعبران عن ثبات المعطيات الأولى سواء في نماذج الرجال

---

(١) د. صالح أحمد العلي: تقديمه لكتاب تاريخ خليفة ١١/١.

(٢) المرجع السابق ١١/١.

(٣) المرجع السابق ١١/١.

(٤) د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ٢٣٦/١.

(٥) كتاب الطبقات، ص ٢. وانظر مقدمة: د. العمري للكتاب، ص ١٥. وانظر أيضاً: تاريخ خليفة ٢٥/١.

أو نماذج الأعمال ـ التي تبني عليها تلك الأمة سلسلة وحدتها وتراثها في الخبرة عبر الزمن»[1].

٢ ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٠هـ):

لعبدالله بن مسلم بن قتيبة مؤلفات عديدة في مجالات مختلفة لكن الذي يهمنا منها هو مؤلفه التاريخي المعروف بكتاب المعارف، وهو في الحقيقة ليس كتاباً منظماً مفصلاً في التاريخ ولكنه تمتزج فيه مختلف خطوط الكتابة التاريخية، إذ نجد فيه فكرة تاريخ عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي في عصر الخليفة المعتصم[2] (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ)، وهو يحتوي على شيء من تاريخ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأنساب العرب والقبائل، والسيرة النبوية، وسير الصحابة والتابعين، وتراجم الخلفاء والملوك والمشهورين من أصحاب الرأي والأخبار والأحاديث والشعر، وأخبار الولاة وأصحاب الصناعات وغيرهم.

ويبدو أن ابن قتيبة هو أول من رجع رجوعاً مباشراً إلى العهد القديم ليأخذ منه مادته عن تاريخ الخلق وتاريخ الأنبياء عليهم السلام[3].

وابن قتيبة لم يقتصر على نقد مصادره فحسب بل كان أيضاً ينقد المعلومات التاريخية، ويبدو حيادياً في تسجيل الحقائق وعرض الآراء، وهو يورد الآراء السائدة المعروفة، وقد يعطي بعض الأحيان أحكاماً شخصية وآراء خاصة[4].

وقد سار في أجزاء من كتابه على أساس نظام الدول والملوك، وهو بذلك يعتبر من أوائل المؤرخين المسلمين الذين كتبوا على هذا النمط[5].

---

(١) د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ١/٢٣٦.
(٢) د. عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة...، ص ٥٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٥٤.
(٤) المرجع السابق، ص ٥٤.
(٥) انظر: كتاب المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، الطبعة الثانية (بيروت: ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص ٢٧١ وما بعدها. وانظر: د. سيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٩٤.

وعلى أي حال فإن ابن قتيبة ــ على الرغم من رأي المسعودي الخاص فيه[1] ــ فإنه يبدأ بالنسبة للتأليف التاريخي مرحلة من مراحل النظرة العالمية والحضارية لم تكن معروفة لدى المؤرخين السابقين إلا قليلاً، وهي وإن كانت محاولة محدودة إلا أنها تعتبر مرحلة مهمة من مراحل الوعي التاريخي الإسلامي[2].

٣ ــ البلاذري (ت ٢٧٩هـ):

كان أحمد بن يحيى البلاذري من رجال البلاط العباسي، وكان مجيداً للغة الفارسية، وقد ذاع صيته واشتهر مؤرخاً بسبب كتابيه المعروفين: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف.

أما كتاب فتوح البلدان فهو يبحث في تاريخ الفتوحات الإسلامية، وما تم فتحه من البلدان «صلحاً أو عنوة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وما فتح في أيامه وعلى الخلفاء بعده، وما كان من الأخبار في ذلك، ووصف البلدان في الشرق والغرب والشمال والجنوب»[3].

وكانت طريقة البلاذري في كتابته انتقاء المادة بعد النقد والتمحيص والاعتماد كثيراً على الروايات التي تتسم بالحياد والدقة[4]، مما جعل هذا الكتاب مصدراً أساسياً هاماً في بابه، حتى أن المسعودي قال عنه: «ولا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه»[5].

وأما كتاب أنساب الأشراف فهو كتاب عام في تاريخ الإسلام لكنه في إطار الأنساب، بمعنى أنه كان يكتب التاريخ على أساس عمود الأنساب لا على أساس الزمن التاريخي، ثم يجعل لكل موضوع عنواناً فرعياً خاصاً به كأنه وحدة

---

(١) انظر: ص ٢٢٠ من هذا الكتاب.
(٢) د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ٢٤٢/١ ــ ٢٤٣.
(٣) المسعودي: المروج ١٤/١.
(٤) د. الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ...، ص ٤٩.
(٥) المروج ١٤/١.

مستقلة؛ فهو ليس كتاباً تاريخياً متصل الحلقات ولكنه مجموع مكون من روايات داخل إطار الأنساب تحتوي على الأخبار والتراجم والأحداث والشعر وغير ذلك[1].

وكانت خطة البلاذري في هذا الكتاب تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأنساب وكتب الأخبار مع مراعاة التسلسل التاريخي في الغالب[2].

وكان البلاذري يستخدم الأسانيد عادة، وخاصة في رواياته التي تتعلق بأحداث المدينة المنورة، وأحياناً يكتفي بالإشارة إلى مصدره الذي ينقل عنه، وأحياناً أخرى يذكر بعض الروايات مفردة بدون إسناد[3].

والبلاذري في كتابيه السابقين ينبه إلى وحدة الأمة واتصال خبراتها في التاريخ الإسلامي، ويظهر قيمة تلك الخبرات في الميادين الإدارية والتشريعية[4].

٤ ـ أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ):

عالم فارسي الأصل، أكب على دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية والتطبيقية إلى أن بلغ مرتبة العلماء والكتاب البلغاء وصار من المقربين في البلاط العباسي. وأهمية أبي حنيفة تعود إلى تأليفه لكتاب الأخبار الطوال في التاريخ[5]، ويعتبر هذا الكتاب أنموذجاً آخر لبداية التأليف في التاريخ العالمي،

---

(١) انظر: د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي... ١/٢٤٤.

(٢) انظر: د. الدوري: المرجع السابق، ص ٤٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٥١.

(٥) تشكك بعض الباحثين في نسبة كتاب الأخبار الطوال المطبوع لأبي حنيفة، وذلك لعدم انطباق الاسم على محتويات الكتاب لإيجازها، لكن محقق الكتاب في طبعته العربية، أشار إلى نكتة لطيفة حول هذا المعنى فقال: إن الدينوري لم يتناول في كتابه الأخبار الطوال حوادث قصيرة العمر، لم تترسب مفاعلاتها فتكون تاريخاً له مقدماته وله نتائجه، مثل الفترة التي عاش فيها أبو حنيفة، وقد أراد الدينوري أن يبني كتابه من الأخبار التاريخية التي طالت أزمانها، وبعدت نتائجها، وكثر =

وإن كان في الدلالة على هذا المعنى أوضح من كتاب المعارف لابن قتيبة سالف الذكر، إلا أنه مع ذلك لم يتناول التاريخ العالمي بالمعنى الواسع، فهو عبارة عن انتقاء لبعض الأخبار والحوادث التي تم الربط بينها، ويمكن تقسيم محتويات الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يتناول آدم ـ عليه السلام ـ والأنبياء من بعده.

الثاني: تاريخ الفرس الساسانيين والروم.

الثالث: حروب العرب والعجم، وهو أكبر أقسام الكتاب، ويشتمل على تاريخ الفتوح الإسلامية في العراق وفارس، والحروب التي خاضها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وموجز في التاريخ الأموي، والتاريخ العباسي حتى موت المعتصم بالله سنة ٢٢٧هـ[١].

وقد كان أبو حنيفة يراعي التسلسل الزمني في التاريخ مع التركيز على بعض الحوادث التي يختارها، وهذا ما جعل تاريخه أقرب لأن يكون سلسلة من الأخبار التي يربط بينها[٢].

كذلك ظهر أبو حنيفة غير مهتم بإثبات الأسانيد الطويلة بل اكتفى بالسرد الروائي المتصل مقحماً فيه الكثير من الأشعار[٣]، ومن هنا كان نقد الروايات والأحداث ضئيلاً في كتاب الأخبار الطوال، ويبدو في هذا الكتاب شيء من الميل للعباسيين، وهذا أمر مألوف نظراً لمكانة الدينوري في البلاط العباسي، ولما يبدو في ثنايا موضوعات الكتاب من شعوبية مغلّفة.

وقد كان المسعودي يحمل رأياً طيباً عن أبي حنيفة، ونقل عنه في كتبه ـ

= الحديث عنها ـ كما يدل على هذا عنوان الكتاب. انظر: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر (بغداد: مكتبة المثنى، بدون تاريخ)، ص ق.

(١) انظر د. عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص ٢٦٠.

(٢) د. عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) انظر د. شاكر مصطفى: المرجع السابق ١/٤٩.

كما أشرنا إلى ذلك في بحث مصادر المسعودي ـ[1] كما كان يقدر منزلته العلمية حتى لقد قال عنه: «وكان أبو حنيفة ذا محل من العلم كبير»[2].

٥ ـ اليعقوبي (ت نحو سنة ٢٩٢هـ)[3]:

أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن واضح من أسرة كانت تعمل في دواوين الخلافة العباسية، وقد تزود من العلم وأكثر من الرحلات في سبيله، ولهذا فقد جمع خبرة علمية وعملية، وكتب مؤلفَين مشهورين هما: كتاب البلدان، وكتاب التاريخ، فأما كتاب البلدان فهو يتحدث عن الجغرافية التاريخية. وهو أقدم كتاب يصلنا من نوعه، وتركت المعلومات الجغرافية التي تناولها اليعقوبي في هذا الكتاب أثرها الواضح في كتابه التاريخي[4].

وأما كتاب التاريخ فهو الكتاب الذي نال به اليعقوبي الذكر، وهو يعتبر ثالث ثلاثة من الكتب[5] ألفت في التاريخ العالمي بالمعنى الواسع الذي انتهى إليه الفكر التاريخي الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

وهذا الكتاب على الرغم من إيجازه إلا أنه استطاع أن يعبر عن النظرة العالمية، وأن يحتوي على معلومات نجدها لأول مرة تجمع في إطار واحد، وهو مكون من جزءين: الأول في التاريخ القديم منذ بداية الخلق مروراً بتاريخ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وتاريخ الفرس القديم وتاريخ العرب في الجاهلية وتاريخ الأمم القديمة الأخرى كالأشوريين والبابليين والهنود واليونانيين

---

(١) المروج ٢/٣٥٩.

(٢) انظر، ص ٢٢٢ من هذا الكتاب.

(٣) تشير المصادر إلى أن وفاته كانت في سنة ٢٨٤هـ، ولكن نشر كتابه البلدان، واحتواءه على بعض الأشعار التي نظمها اليعقوبي سنة ٢٩٢هـ، أكد أن وفاته كانت في حدود هذه السنة. انظر الرسالة التي كتبها ياسين إبراهيم الجعفري عن: (اليعقوبي المؤرخ والجغرافي) ونال بها درجة الماجستير (بغداد: منشورات دار الرشيد ١٩٨٠م)، ص ٢٤ ـ ٢٦.

(٤) د. شاكر مصطفى: المرجع السابق ١/٢٥٠.

(٥) الكتابان الآخران هما كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري، وكتاب مروج الذهب للمسعودي، وسنتناولهما بالحديث فيما يرد من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

والرومانيين والمصريين والبربر والأحباش والزنوج والترك والصينيين[1]، والجزء الثاني خصصه لبحث التاريخ الإسلامي منذ مولد النبي صلى الله عليه وسلم حتى سنة ٢٥٩هـ في خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ ــ ٢٧٩هـ).

ويلاحظ على تاريخ اليعقوبي أنه في الجزء الأول المشتمل على تواريخ الأمم السالفة كان يبدي اهتماماً ملحوظاً في الإشارة إلى بعض الجوانب الحضارية ولا سيما عندما تضنّ عليه المصادر بالمعلومات عن الأحداث السياسية[2].

كما يلاحظ أيضاً في بحثه للتاريخ الإسلامي أنه لم يستطع إخفاء ميوله العلوية على الرغم من محاولته أن يبدو متزناً ودقيقاً في إيراد الأخبار، فقد طغت عليه عاطفته حتى إنه لم يعترف بخلافة الخلفاء الراشدين ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ سوى خلافة علي بن أبي طالب، فكان يصفها بأيام أبي بكر وأيام عمر وأيام عثمان[3].

وهكذا من باب أولى تحدث عن خلافة الأمويين والعباسيين، وإن كان تجاه العباسيين يظهر شيئاً من التسامح أو المجاملة[4].

وعلى أي حال فإن تاريخ اليعقوبي يمثل مرحلة من مراحل تطور علم التاريخ عند العرب بسبب براعة مؤلفه في اختيار مادته، وإعطائه التفسيرات التاريخية لبعض الأحداث، وعالمية محتواه.

ويهمنا أن نشير هنا إلى منهج اليعقوبي في العرض التاريخي، فقد اتبع طريقة العرض حسب توالي عهود الخلفاء خليفة بعد خليفة، واتبع في عهد كل

---

(١) انظر د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) انظر روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٨٤؛ ود. سيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٩٧.

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ٢/١٢٧، ١٣٩، ١٦٢، ١٧٨، ٢١٤.

(٤) انظر أمثلة على ذلك لدى الدوري، المرجع السابق، ص ٥٣.

خليفة تسلسل الحوادث على السنين، فجمع بذلك بين أسلوب التاريخ حسب العهود والتاريخ حسب السنين (الحوليات)[1].

وقد أعجبت هذه الطريقة المسعودي فطبقها في كتابه التاريخ الإسلامي كما سنتحدث عن ذلك ــ إن شاء الله ــ فيما يرد من هذا البحث.

هذا ولم يكن اليعقوبي يرى ضرورة لذكر الأسانيد في رواياته، وذلك لأن النظرة إلى الأسانيد التاريخية الهامة كانت قد استقرت قبله، فاكتفى بذكر مصادره الأساسية في مقدمة الجزء الثاني من كتابه[2].

٦ ــ الطبري (ت ٣١٠هـ):

يستغرق الحديث عن الطبري ومنهجه التاريخي صفحات كثيرة ليس هذا مكانها لكننا سنكتفي هنا بإبراز بعض الصوى الخاصة الموضحة لمنهجه وطريقته التي سار عليها في تدوينه لتاريخه المسمى بتاريخ الرسل والملوك[3].

والطبري آخر المؤرخين الذين ظهروا قبل المسعودي، وكان تاريخه يمثل قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في فترة التكوين[4]، ودليل ذلك أن أجيال المؤرخين المتعاقبة في العصور الإسلامية المتوالية ظلت عيالاً عليه في كل ما يختص بالقرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي.

ويمكن أن نقسم تاريخ الطبري إلى قسمين: الأول يبدأ بالخليقة ثم يتناول تاريخ الرسل عليهم السلام منذ آدم حتى محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يتحدث عن تاريخ بعض الأمم السالفة من الفرس وبني إسرائيل والروم، وتاريخ العرب القديم.

---

(١) د. شاكر مصطفى: المرجع السابق ١/٢٥٢.

(٢) انظر تاريخ اليعقوبي ٢/٦؛ والدوري: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٣) يسمى أحياناً بتاريخ الأمم والملوك، انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/١٦٣، ويعرف عند كثير من الناس بتاريخ الطبري اختصاراً.

(٤) د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٥.

الثاني، يتناول التاريخ الإسلامي من فجر الرسالة حتى سنة ٣٠٢هـ من خلافة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ).

ومنهج الطبري في تنظيم مادته وتدوينها واضح كل الوضوح، فقد سار على النظام الحولي وهو الترتيب على السنين في معظم أجزاء الكتاب الخاصة بالتاريخ الإسلامي، أما في الفترات الغامضة السابقة للإسلام فقد أوردها على أساس المواضيع، لأنه لم يكن بإمكانه اتباع التسلسل الزمني الحولي، كذلك كان يختم عهد كل خليفة بإيراد الأخبار العامة المتصلة به وبعصره، كذلك كان يختم عهد كل خليفة بإيراد الأخبار العامة المتصلة به وبعصره، مما لا يخضع للنظام الحولي، كوصفه الجسدي، والحديث عن بيته وأولاده، ورجال عصره المبرزين في مختلف المجالات[1].

هذا من حيث التنظيم، أما من حيث التوثيق فقد كان الطبري حريصاً كل الحرص على إثبات أسانيد الروايات التي ينقلها إلى كتابه مع الدقة وتحري الرواة الثقاة واختيار رواياتهم قدر طاقته[2]، وعلى الرغم من أن الأسانيد كانت قد استقرت في عهده إلا أنه مع ذلك أصر على إيرادها وتثبيتها سيراً على نهج المحدثين وطريقتهم المعتبرة في هذا الميدان، ولم يفعل كما فعل سلفه اليعقوبي الذي جاء تاريخه مجرداً من الأسانيد، لأن قيمة الروايات في نظر الطبري تعتمد على قوة أسانيدها، وكلما كان بدء السند أقرب إلى الحادثة كانت أفضل، وبهذا وصلتنا روايات وكتابات تاريخية مبكرة لم توجد إلا في كتابه[3]، وكان من أهداف الطبري في اتباع هذا المنهج إخراج نفسه من المسؤولية وإعفاؤها من تبعة ما قد يلحق بعض الأخبار من وجوه النقص أو الميل والهوى، لأنه يريد أن يكون حيادياً تمام الحياد، وهذا بالطبع ناتج عن ورعه وخوفه من الله تعالى، فهو فقيه ومفسر لكتاب الله تعالى قبل أن يكون مؤرخاً، ولذلك فهو يقول: «فما يكن في

---

(١) د. شاكر مصطفى: المرجع السابق ١/٢٥٩؛ وانظر: روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٨٦.

(٢) د. شاكر مصطفى: المرجع السابق ١/٢٥٨.

(٣) د. الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ٥٥.

كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئُه، أو يستشنعه سامعُه من أجل أنه لم يَعْرِف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُـؤتَ في ذلك من قِبَلِنا، وإنما أُتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا»[1].

هذا ويلاحظ على تاريخ الطبري عدة ملاحظات نذكر منها:

- أن مادته -التاريخية تعتبر من أوثق المواد منها في أي كتاب تاريخي آخر وذلك لتوثيقها بالأسانيد.
- احتوى على أخبار في التاريخ الفارسي لا توجد عند غيره.
- في تاريخ الروم كان دقيقاً جداً في تتبع أحداثه، مما يدل على رجوعه إلى مصادر تستند إلى وثائق صحيحة.
- انعدام التوازن في الكتاب بين التاريخ الإسلامي وتاريخ ما قبل الإسلام؛ حيث أن ما قبل الإسلام شمل الجزء الأول وبعض الثاني، أما باقي الأجزاء فكلها تبحث في التاريخ الإسلامي.
- لم يهتم بتاريخ الأحداث التي عاصرت الفترة الأخيرة من عمره، فكان فيها موجزاً مقلاً.
- أورد كثيراً من الإسرائيليات فيما يتعلق ببدء الخلق وقصص الأنبياء عليهم السلام.
- احتوى على كثير من النصوص الأدبية من شعر ونثر، وأوردها في مناسباتها.
- كان اهتمام الطبري منصباً على الأمور السياسية، أما الجوانب الحضارية الأخرى فلم تحظ منه باهتمام يذكر.
- افتقار تاريخ الطبري إلى الوحدة وارتباط السياق، حيث أن الحدث التاريخي عنده يكون مفككاً بسبب تكرار الروايات وبسبب السير على النظام الحولي[2].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م)، ج ١ ص ٨.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/٦؛ وانظر حول ما سبق من ملاحظات كلاً من: =

ومهما يكن من أمر فإن تاريخ الطبري قد حظي بالقبول منذ تأليفه وظلت تتناقله الأجيالُ جيلاً بعد جيل، فلا غرو أن أصبح اليوم المرجع الأول لدارسي التاريخ الإسلامي.

* * *

وهكذا يبدو من خلال الاستعراض السابق لأبرز المؤرخين المسلمين الذين ظهروا قبيل عصر المسعودي، ومحاولة التعرف على مناهجهم وأساليبهم، أهم الملامح المميزة لهم في كتاباتهم التاريخية، فنجد أنه قد تحددت بعض الأساليب والطرائق في مجال تنظيم المادة التاريخية، وأخذ بعضهم بنظام المنهج الحولي والترتيب السنوي المتعاقب، ولكن لما كان لهذا المنهج بعض العيوب التي من أبرزها أنه يمزق سياق الحادثة التاريخية الطويلة التي تمتد عبر عدد من السنين[1]، لجأ بعض المؤرخين إلى نظام التاريخ حسب الموضوعات، وهو التزام المؤرخ طريقة التاريخ إما للدول أو لعهود الخلفاء والحكام، وإما للسير والطبقات. كما اتضح لنا التزام بعضهم بإيراد الأسانيد وإهمالها من قبل بعضهم الآخر، كما نلاحظ أنه بدأ ظهور نوع من التواريخ العالمية التي لم تقتصر على التاريخ للأمة الإسلامية فحسب، بل تعدت ذلك إلى إدخال تواريخ الأمم الأخرى قديمة كانت أو معاصرة فيها، وكان من أبرز المؤرخين الذين خطوا هذه الخطوة كل من اليعقوبي والطبري، وإن كانت قد ظهرت قبلهما بدايات على أيدي كل من ابن قتيبة وأبي حنيفة الدينوري.

* * *

= د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ٢٥٦/١ ــ ٢٦٠؛ ود. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٦؛ ومحمد عبدالغني حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ١٧١ ــ ١٧٢.

(١) تحدث عن عيوب هذا المنهج عدد من المؤرخين نذكر منهم على سبيل المثال: عزالدين بن الأثير، صاحب كتاب الكامل في التاريخ ٦/١؛ وشهاب الدين النويري، صاحب كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون تاريخ)، ج ١٣ ص ٢ ــ ٣.
ومن المُحْدَثين كتب روزنثال عن هذا المنهج وعيوبه في كتابه علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٠٢؛ ود. سيد عبدالعزيز سالم في كتابه التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٨٢ ــ ٨٣.

ثـانيـــاً:

خصائص كتابة المسعودي التاريخية

كنت ألاحظ أثناء قراءاتي عن المسعودي أثناء جمع المادة العلمية لهذا البحث أو حتى قبل ذلك بقليل حينما كنت في مرحلة الإعداد لتسجيل الموضوع إشارات من بعض الكتاب إلى أن المسعودي كان من المؤرخين الذين ابتدعوا خطاً جديداً في كتابة التاريخ، وأنه كانت له طريقة مميزة في الكتابة التاريخية، وربما كانت تلك الإشارات من ضمن الدوافع والحوافز التي شجعت في وقتها على المضي قدماً في هذا الموضوع، وذلك من أجل الوقوف على جوانب الجدة في منهج المسعودي التاريخي.

والآن ونحن بصدد الحديث عن هذا المنهج سنتناوله من زوايا مختلفة ومتعددة لعلنا نوفق في العثور على شيء من جوانب هذه الجدة، أو على الأقل نبين طبيعة منهج المسعودي وأبرز خصائصه الكتابية في البحث التاريخي.

(أ) ضوابط صحة المادة العلمية لدى المسعودي :

لقد كان لظهور علم التاريخ عند المسلمين مختلطاً بعلم الحديث في المراحل الأولى من نشأته أثر كبير فيه من حيث موضوع البحث ومن حيث منهجه[1]، وكان من سيما ذلك المنهج إيراد الأخبار مقرونة بأسانيدها، وقد ظل المؤرخون المسلمون ملتزمين بهذه الطريقة حتى بلغت ذروتها على يد المؤرخ

(١) د. عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص ٢٥٤.

الجليل أبي جعفر الطبري في كتابه المعروف تاريخ الرسل والملوك، إلا أن الباحث المتتبع لمناهج المؤرخين المسلمين حتى قبيل عصر الطبري يلحظ أن هناك ميلاً من بعضهم نحو التخلص من هذه الطريقة السندية، فمن خلال استعراضنا السابق لأبرز المؤرخين المسلمين لاحظنا مثلاً أن خليفة بن خياط هو أول مؤرخ يميل إلى التخفف من الإسناد في مواضع من كتابه الطبقات[1]، وأن البلاذري كان أحياناً يذكر بعض الروايات مفردة من غير إسناد[2]، وكذلك أبو حنيفة الدينوري لم يهتم بإثبات الأسانيد واكتفى بالسرد الروائي المتصل[3]، وأخيراً اليعقوبي الذي لم ير لذكر الأسانيد في مؤلفه التاريخي ضرورة ملحة تدعو إليها[4].

ولما جاء المسعودي وأراد أن يكتب تاريخ مروج الذهب ثم بعد ذلك بزمن التنبيه والإشراف كان من خطته فيهما الإيجاز والاختصار وذكر إللمع المنبهة على ما سلف وأن دونه في مؤلفاته المطولة كأخبار الزمان والأوسط رأى أن من الأمور الباعثة على التطويل والحشو ذكر الأسانيد وتكرار الألفاظ فاشترط على نفسه هنا حذف الأسانيد وترك إعادة الألفاظ[5]، ولا سيما وأنه في كتبه المطولة السابقة كان يستخدم الأسانيد ويتتبع الرواة[6]، فلا داعي إذاً لتكرارها هنا[7]، هذا إضافة إلى أن النظرة إلى الأسانيد التاريخية الهامة كانت قد استقرت قبله[8]، وأن كثيراً من الأحداث التاريخية قد أصبحت معروفة ومثبتة جيداً بواسطة الأسانيد

(١) انظر: تاريخ خليفة بن خياط ١/٢٥، هذا وإن كان كتاب الطبقات يبدو للوهلة الأولى ليس صريحاً في التاريخ لأنه كتاب تراجم، إلا أن كتب التراجم والطبقات ذات صلة وثقى بعلم التاريخ، وتعتبر فرعاً من فروعه.
(٢) د. الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٥٠.
(٣) د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ١/٢٤٩.
(٤) د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٢.
(٥) المروج ٤/١٩٠؛ والتنبيه، ص ٢٧٩.
(٦) المروج ١/٣٦.
(٧) المصدر السابق ٣/١١٩.
(٨) د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٢.

المتعددة، ولهذا فإن وجود الأسانيد أصبح حشواً إضافياً لا لزوم له، وصار تكراره عديم الجدوى والفائدة ويبعث على الملل والسأم، كما أنه كان لا علاقة للإسناد بموضوعات التاريخ القديم كالتاريخ الهندي أو البيزنطي مثلاً.

وليس معنى هذا أن الإسناد قد اختفى اختفاء تاماً من مؤلفي المسعودي المذكورين، وإنما كان يبرز بين الفينة والأخرى، وخاصة في تدوين أحداث التاريخ الإسلامي، فيظهر الإسناد إما رواية عن شيوخه الذين حدثوه عن شيوخهم حتى الراوي الأول الذي عاصر الحدث أو شاهده[1]، وإما حكاية عن مؤلفات اطلع عليها تعتمد في أسلوبها على الأسانيد كتاريخ الطبري مثلاً[2]، ولهذا فإن إشارة بعض المؤرخين إلى أن المسعودي لم يستخدم الإسناد[3] تعتبر حكماً غير دقيق، لكن الصحيح أنه يعتبر بعد اليعقوبي من أبرز المؤرخين الذين تخففوا من الأسانيد.

وإذا كان المسعودي كذلك فلا بد أنه قدم بدائل لضبط صحة الأخبار ليكون القارىء على بينة وثقة ولئلا تساوره الشكوك في صحة ما يقرأ، وعند التدقيق نجد أن المسعودي قد استخدم بدائل متنوعة بهذا الخصوص، وأول ما نلاحظه في ذلك إثباته للمصادر التي رجع إليها واستخدمها في كتابه مروج الذهب، وذلك في المقدمة أو في ثنايا الكتاب حينما يتطلب الأمر إثباتها وهي كثيرة جداً ولم يقتصر المسعودي ـ كما أشرنا سابقاً ـ على سرد مصادره في المقدمة، بل إنه قدم دراسة تحليلية ونقدية لمعظمها، وخاصة ذات الأهمية منها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بحكم معرفة المسعودي السابقة بالأسانيد واطلاعه على نقلة الأخبار والروايات فإنه كان يلجأ أحياناً إلى تطبيق طريقة

---

(١) المروج، انظر مثلاً: ٣/١٠٤، ٢٧٩، ٣٢٣ ـ ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٤٩، ٣٥٩، ٣٨٠؛ والتنبيه، ص ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٩٣، ٣٠٠.

(٢) المروج، انظر: ٣/٢٢، ١٨٤، ٢٠٢.

(٣) راجع د. جواد علي: «موارد تاريخ الطبري»، بحث في مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد الثاني، سنة ١٩٥٢م، ص ١٧٦؛ ود. سيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٧٦.

المحدثين في قبول الأخبار التي أوردها، وذلك بالنظر إلى الطرق التي وصل بواسطتها الخبر؛ فإن كان الخبر جاء عن طريق الأفراد والآحاد فهو داخل في حيز الجائز والممكن لكنه غير ثابت الصدق والواقعية، وإن جاء عن طريق التواتر والاستفاضة الموجبة للعلم والعمل القاطعة للعذر في النقل، وقارنتها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها والانقياد، وخاصة في الأخبار الشرعية[1].

ومن الضوابط التي نجدها عند المسعودي لقياس صحة الأخبار التي يتحدث عنها مبدأ كنا قد تحدثنا عنه من قبل وأفضنا فيه القول عند الحديث عن مصادر المسعودي، وهو مبدأ التجربة والملاحظة الناتج عن المعاينة المباشرة للأشياء، وهو مبدأ كان باعث فخر واعتزاز للمسعودي حينما كان يلمسه في أثناء كتابته[2]، لأنه كان حقاً طريقاً علمياً سليماً للوقوف عن كثب على صحة الشيء من عدمه، وقد كانت معلومات المسعودي المستقاة من هذا المصدر تتميز بطابع التقرير والحسم بكل ما كان يؤكده أو ينفيه[3]، والمسعودي في هذه النقطة كان سباقاً ومتميزاً عن من سبقه من المؤرخين الذين لم يدركوا أهمية التجربة والفحص في العمل التاريخي، ومن هنا فإن أحد الباحثين المعاصرين يقرر عن طمأنينة أن المسعودي هو أول مؤرخ عربي مسلم اعتمد في منهجه العلمي على التجربة وعلى الملاحظة وأن بعض معارفه كانت مبنية على الاختبار إلى جانب المعارف النظرية[4].

وكذلك نجد لدى المسعودي من الضوابط التي يستخدمها لضمان صحة الأخبار ضابطاً على جانب كبير من الأهمية، وهو عرض المعلومات التي لا يترتب عليها شيء من أمور الدين على العقل لمعرفة مدى قربها من الواقع أو احتمال

---

(١) المروج ١/١٤٥؛ وانظر أيضاً: ٢/٦، ١٩٥، ٣٦٥، ٣٧١؛ والتنبيه، ص ٢٩٠، ٣٣٦.

(٢) التنبيه، ص ٥٠؛ المروج ١/١٠، ١٢.

(٣) المروج، انظر مثلاً: ١/١٢٠ في الحديث عن تنقل البحار وتغلغل المياه والأنهار على مر الدهور، و ١٤٧ في الحديث حول الصلة بين خليج القسطنطينية وبحر الخزر، و ٢٤١، في نقده لبعض آراء ابن خرداذبة، وانظر: التنبيه، ص ٤٩ ـ ٥٠، ٦٦.

(٤) د. علي الخربوطلي: الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي، ص ٢٥.

صدقها من كذبها. وقد قسم المسعودي الأخبار من هذا المنطلق إلى ثلاثة أقسام:

١ ــ ممكن أي جائز.
٢ ــ ممتنع أي مستحيل.
٣ ــ واجب أي ضروري.

وبهذه المقاييس كان المسعودي ينظر إلى بعض الأشياء التي يريد فحصها، ولدينا في كتاب المروج حالات عديدة توضح ذلك[١]، كما أنه كان يظهر لديه أحياناً أحكام مبنية على القياس والاستنتاج العقلي[٢]. ومن هنا يمكننا أن نقرر أن المسعودي كان من المؤرخين القلائل الذين اعتمدوا في منهجهم العلمي على استخدام ضوابط متنوعة للوقوف على صحة الأخبار، وجمع بين استخدام العقل والاستفادة من الضوابط الشرعية التي قررها علماء الأصول لبيان منزلة الحديث من حيث الضعف والقوة بالنظر إلى سنده هل هو متواتر أم آحاد؟

وبهذا فإن المسعودي لم يقف موقف المتفرج على الأحداث التي كانت تتجمع لديه كما فعل كثير من المؤرخين السابقين بل أعمل فيها نظره وفكره وأصدر فيها أحكامه، فجاء تاريخه قوياً نابضاً بالحياة والحركة، فعندما تتعدد الروايات والأقوال في أمر من الأمور يختار ويرجح الرأي الذي يميل إليه، فقد يبدأ بعرضه أولاً ثم يذكر الآراء الأخرى التي يشك في صحتها مصحوبة بكلمة (زعم)[٣]، أو في بعض الأحيان يبسط الآراء حول قضية من القضايا ثم يختار الرأي الذي يرجحه مدعماً بالشواهد والأدلة المؤيدة مع استخدام عبارة (وهذا

---

(١) المروج ١/١٤٥، ١٨٤، ٢/٢٩٣، ٣٦٧، ٤١٣ ــ ٤١٤.
(٢) المروج، انظر مثلاً: ١/١٤٤، ٢٠٨، ٢/٩١ ــ ٩٢، ٢٠٩؛ والتنبيه، ص ١٢٩ ــ ١٣٠.
(٣) انظر مثلاً الروايات حول مقدار سن الخليفة سليمان بن عبدالملك (٩٦ ــ ٩٩هـ) يوم أن مات، فاختار المسعودي أنه توفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة، ثم أشار إلى رواية تقول: قبض وهو ابن خمس وأربعين سنة، وأشار إلى رواية ثالثة تزعم أنه مات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، ويؤكد المسعودي ما ذهب إليه بأنه وجد أكثر شيوخ بني أمية يذهبون إلى هذا الرأي، المروج ٤/٥.

هو المستفيض) أو (وهذا هو الأشهر)[1]، ولم يقتصر المسعودي على عرض الرأي الذي يميل إليه إلا نادراً[2]، بل يرى أن «الواجب على كل ذي تصنيف أن يورد جميع ما قاله سائر الفرق في معنى ما ذكره»[3]، وإن كان غير راض عنها كلها.

وكما أن المسعودي كان يعلق دائماً على الأحداث والروايات ويحكم عليها[4]، نجده في حالات نادرة أيضاً يمتنع عن الحكم ويلقي المسؤولية على الراوي، لأنه هو المتقلد بها وعليه تقع العهدة في صحتها من عدمها[5].

وأخيراً في ختام مناقشة هذه الفقرة من خصائص منهج المسعودي التاريخي أحب أن أشير إلى نقطة مهمة تتعلق بالإسناد والمصادر، وهي أن المسعودي حينما قرر أن يخفف من الأسانيد في كتابيه المروج والتنبيه رأى أنه لا بد وأن يزودنا بمجموعة مصادره التي رجع إليها، والمسعودي حينما أتحفنا بهذه الثروة القيمة إنما وضع في الواقع بين أيدينا سجلاً ضخماً للمؤلفات التاريخية السابقة، ويزيد من قيمة عمله هذا أن جزءاً غير يسير من تلك المؤلفات هو في حكم المفقود الآن،

---

(١) انظر: المروج ١/٢٧٨ ــ ٢٨٠، في مسألة التنازع حول أنساب الفرس حيث ذكر المسعودي جملة آراء في تحديد الأب الأول للفرس ثم أيد في النهاية الرأي الذي مال إليه وهو انحدارهم من إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومما يدعم هذا الرأي في نظره أن «أكثر حكماء العرب من نزار بن معد تقول هذا وتعمل عليه في بدء النسب، وينقاد إليه كثير من الفرس ولا ينكرونه، وقد ذكرته شعراء العرب من نزار بن معد وافتخرت على اليمن من قحطان بالفرس وأنها من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل»، وأورد المسعودي نماذج من الشعر تؤكد هذا المعنى، المروج ١/٢٨٠؛ وانظر في مثل ذلك أيضاً: المروج ٢/٤٩ رأيه في نسب الأشبان؛ والمروج ٢/١٩٢ ــ ١٩٣ رأيه في أنساب اليمن.

(٢) المروج ٥/٣٨، حيث اقتصر في ذكر كيفية قتل الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ) على رواية واحدة، وأشار إلى وجود روايات أخرى غيرها، ولكنه اختار هذه الرواية في هذا الموضع لأنها أحسن لفظاً وأقرب مأخذاً.

(٣) المروج ٢/٢٩٤، وذلك مثل حديثه عن الجن، تشعب أنسابهم والمشهور من أسمائهم ومساكنهم من الأرض، وغير ذلك من الأشياء التي يقر بها أهل الشرع وينكرها غالبية أهل العقل والفحص، ولكنه هو كمصنف يهمه أن يعرض جميع الآراء.

(٤) المروج، انظر مثلاً: ٢/٤٠٦.

(٥) المصدر السابق ٢/٣٦٨، ٤/٣٦٦.

ولهذا فإن مؤلفات المسعودي باحتوائها على تلك المصادر تعتبر مرجعاً أساسياً مهماً لا يستغني عنه الباحثون في تاريخ ما قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي، في بحوثهم وتحقيقاتهم، ولو أن المسعودي فعل كما فعل الطبري من قبل وجرى على ذكر الأسانيد ومن ثم أغفل مصادره لحرمنا منها، ولأصبنا بخسارة تشبه الخسارة التي لحقتنا من جراء جهلنا بأسماء بعض مصادر الطبري، وذلك أن الأسانيد لا يتضح فيها اسم الكتاب الذي ينقل منه، لأن للكثير من الرواة والمشائخ الذين ينقلون الأخبار أكثر من مصنف واحد.

(ب) طريقة المسعودي في تدوين مادته العلمية :

تحدثنا في الفقرة السابقة عن الضوابط التي استخدمها المسعودي كضمانات لصحة الروايات أو المعلومات التي يتحدث عنها، وسنتحدث هنا عن طريقة المسعودي في تنظيم مادته العلمية والأساليب التي سار عليها في تدوين تلك المادة.

والغالب أنه استخدم طريقتين مميزتين في الكتابة التاريخية، هما:

١ ـ التاريخ حسب الموضوعات. ٢ ـ التاريخ الحولي.

أما الطريقة الأولى وهي التاريخ حسب الموضوعات فقوامها أو اعتمادها على الأشخاص الذين تدور حولهم الأحداث من خلفاء وأمراء وقواد وغيرهم من ذوي المقدرة على التأثير في مجريات الحوادث؛ فعندما يعقد موضوع الكتابة عن دولة من الدول تكون أشخاص الخلفاء والحكام لهذه الدولة هي المحور الذي يقوم عليه التبويب والترتيب والذي تساق من خلاله أحداث تاريخ الدولة أو الشعب.

وقد سار على هذه الطريقة المؤرخ ابن واضح اليعقوبي، وكانت موجودة قبله كما لاحظناها لدى ابن قتيبة، ويمكن أيضاً أن تكون قد ظهرت عند مؤرخين آخرين غير ابن قتيبة[1].

---

(١) انظر: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٣٠، حيث أشار إلى أن لابن إسحاق كتاباً في تاريخ الخلفاء؛ وانظر المروج، ١٣/١، حيث ذكر المسعودي أن محمد بن صالح بن النطاح قد ألف كتاباً في تاريخ الدولة العباسية.

ومهما يكن من أمر، فإن المسعودي قد استحسن هذه الطريقة ولاقت هوى وقبولاً عنده، وذلك لاتصافها بالترتيب والتنظيم، فاستخدمها في عرض مادته العلمية؛ فنجد أبواباً كثيرة من المروج مدونة حسب هذا النظام، مثل الأبواب التي تحدث فيها عن تاريخ الصين والترك[1]، وعن السريانيين[2]، والبابليين[3]، وتاريخ الفرس[4]، واليونانيين[5]، والروم[6]، وملوك مصر[7]، والافرنجة والجلالقة[8]، وتاريخ اليمن القديم[9]، وملوك الحيرة[10]، وملوك الشام[11]، هذا بالإضافة إلى التاريخ الإسلامي الذي يمكن أن تشاهد فيه هذه الطريقة بصورة جلية، فهو مثلاً يعقد الباب لخلافة أبي بكر أو عمر أو غيرهما من الخلفاء الأمويين أو العباسيين، فيتحدث عن نسبه ويذكر لمعاً من أخباره وسيره[12]، ثم يذكر جملاً من الكوائن والأحداث في تضاعيف ذلك.

ومن هنا نرى أن المسعودي كان يجمع الحوادث التاريخية وما يتعلق بها من أحوال الشعوب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها تحت رؤوس موضوعات باسم الدول والممالك أو الخلفاء والحكام والملوك أو الأمم والشعوب[13].

---

(١) المروج، ١/١٥٤ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ١/٢٤٤ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق، ١/٢٥٤ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق، ١/٢٦٠ وما بعدها؛ والتنبيه، ص ٨٥ وما بعدها.

(٥) المروج، ٢/٥ وما بعدها؛ والتنبيه، ص ١١١ وما بعدها.

(٦) المروج، ٢/٣٢ وما بعدها؛ والتنبيه، ص ١٢٢ وما بعدها.

(٧) المروج، ٢/٨٥ وما بعدها.

(٨) المصدر السابق، ٢/١٤٥ وما بعدها.

(٩) المصدر السابق، ٢/١٩٦ وما بعدها.

(١٠) المصدر السابق، ٢/٢١٣ وما بعدها.

(١١) المصدر السابق، ٢/٢٣١ وما بعدها.

(١٢) المصدر السابق، انظر مثلاً، ٣/٣٩ ـ ٤٠ وما بعدها؛ و٣/١٨٨ وما بعدها؛ و٤/٩٤ ـ ٩٥ وما بعدها.

(١٣) المروج، انظر مثلاً ٢/٦٥، و١/٢٠٩.

هذا ويجب أن يلاحظ أن المسعودي في استخدامه لهذه الطريقة كان يسير حسب التسلسل التاريخي أو الزمني للأحداث، فلا يقدم حدثاً وقع في سنة متأخرة على حدث آخر وقع في سنة سابقة، بل يذكر كل حدث بحسب وقوعه الزمني.

ويبدو أن المسعودي قد استفاد هذه الطريقة من بعض المؤرخين المسلمين كاليعقوبي، ومن بعض الكتب الفارسية التي اطلع عليها كالكتاب الذي اطلع عليه بمدينة اصطخر عند بعض الفرس «يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم... مصور فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً، منهم خمسة وعشرون رجلاً وامرأتان، قد صور الواحد منهم يوم مات شيخاً كان أو شاباً، وحليته وتاجه ومخط لحيته وصورة وجهه... وصورة كل ملك كان في حرب قائماً وكل من كان في أمر جالساً، وسيرة كل واحد منهم في خواصه وعوامه، وما حدث في ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة»[1]، فلا يستبعد أن يكون المسعودي قد تأثر بطريقة هذا الكتاب والكتب الفارسية الأخرى التي كان يسير معظمها على طريقة التاريخ حسب تولي الحكام، وذلك لأن المؤرخين الفرس كانوا يرون أن أخلاق الحاكم والادارة السياسية أهم عناصر التاريخ[2]، وقد سار المسعودي في الأبواب التي تبحث في المبدأ والخليقة والرسل والأنبياء على نفس النهج الذي سار عليه المؤرخون المسلمون قبله كالطبري واليعقوبي وغيرهما، وهي طريقة مستمدة من أهل الكتاب مبنية على أسس توراتية[3]، وإن كان يتخللها في بعض الأحيان تعديلات تقتضيها مراعاة النصوص الشرعية الإسلامية.

ـ التاريخ الحولي:

لما كان المنهج الحولي القائم على تدوين الأخبار والحوادث حسب ترتيب السنين تلحقه بعض العيوب التي من أبرزها ـ كما سلف ـ تمزيق سياق الحادثة

(١) التنبيه، ص ١٠٦.

(٢) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٢٦.

(٣) د. جواد علي: موارد تاريخ المسعودي، ص ٢٧.

التاريخية التي تمتد وقائعها إلى سنين كثيرة، لذلك لجأ المسعودي إلى طريقة أخرى يستفيد بها من مميزات هذا المنهج كالدقة في تسجيل الأحداث مثلاً، وذلك من غير أن يقع في شيء من عيوبه.

والطريقة هي استعمال التاريخ الحولي داخل إطار التاريخ الموضوعي فيضع العناوين الرئيسة في الكتاب بحسب عهود الخلفاء مثلاً، ثم يعالج الحوادث التفصيلية الدقيقة حسب السنين الهجرية، ويربط بين الأحداث بكلمة (وفيها)[1] ويمكننا أن نعتبر هذه الطريقة مزجاً بين الطريقة الموضوعية والطريقة الحولية.

والظاهر، والله أعلم، أن المسعودي سلك في كتابيه المفقودين، أخبار الزمان والأوسط، نفس المسلك الذي سار عليه في كتاب المروج من حيث التنظيم وتدوين الأخبار، ويبدو ذلك من خلال إشارات موجزة إلى بعض المعلومات المدونة في الكتابين، وخاصة ما يتعلق بطريقة الحوليات، حيث ذكر المسعودي أنه قد أتى على ذكر شيوخ المحدثين ونقلة الآثار من أول زمن الصحابة ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وذلك في سنة ست من الكتاب الأوسط[2]، وفي نهاية حديثه عن الخليفة المعتمد على الله العباسي ذكر أن له أخباراً حساناً، وأنه كان في عهده حوادث وكوائن مختلفة في أماكن وبقاع متباينة قد أتى على مبسوطها والغرر منها، وما حدث في كل سنة من أيامه من الحوادث في كتابيه أخبار الزمان والأوسط[3]، ومما يلفت الانتباه في تاريخ المسعودي أثناء تطبيقه للنظام الحولي أنه كان ــ غالباً ــ يتتبع وفيات الأعيان والمشهورين من العلماء والنابهين وغيرهم من أصحاب المنازل الرفيعة[4]،

---

(١) انظر نماذج لهذه الطريقة في المروج، ٣/٢٨ ــ ٣١، ٢١١ ــ ٢١٧، ٢٩٣، ٢٩٧، و ٥/١٤٨ ــ ١٥١، ١٦٠ ــ ١٧٤، ١٨٦ ــ ١٨٧.

(٢) المروج، ٥/٨٠، وإن كانت هذه العبارة يكتنفها شيء من الغموض إلا أنها تدل على أن المسعودي كان يسير على نظام الحوليات في ذلك الكتاب.

(٣) المصدر السابق، ٥/١٣٦.

(٤) انظر نماذج من ذلك في: المروج، ٤/٣٩، ١٥٩، ١٩٩، ٢٠٣، ٣٢٩، ٣٤٩، ٥/٢١، ٤٥، ٧٩ ــ ٨٠، ٨٧، ١١٩، ١٧٤.

ويوضح المسعودي السبب الذي من أجله سلك هذا النهج، فيقول: «وإنما نذكر وفاة هؤلاء لدخولهم في التاريخ، وحمل الناس العلم عنهم من الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1] ولأن هؤلاء هم نقلة السنن المشتهرين بذلك، ولحاجة أهل العلم وأصحاب الآثار إلى معرفة أوقات وفاتهم[2]، وكذلك لأنه «ربما يرد على هذا الكتاب من لا غرض له فيما ذكرناه فيه ويكون غرضه معرفة وفاة هؤلاء الشيوخ»[3].

وقد يتبادر إلى ذهن المسعودي أحياناً وهو يدون بعض معلوماته مجهداً نفسه في جمعها وحصرها وترتيبها أنه يسلك منهجاً جديداً لم يسبق إليه، فهذا هو ذا يقرر ــ بعد أن تحدث عن سيرة النبـي صلى الله عليه وسلم وناقش أعداد الغزوات والسرايا وقارن آراء كثيرة تدور حولها ــ أنه لم ير أحداً من المؤرخين أو أصحاب السير حصل ذلك مثل تحصيله ولا رتبه مثل ترتيبه، «ومن أراد علم ذلك فليتصفح كتب من عني بهذا الشأن من الأسلاف والأخلاف يقف على حقيقة ما قلنا وفضيلة ما أتينا، ففهم ذلك بعد الكفاية يسير ومطلبه قبل الكفاية عسير»[4].

على أن مما يلحظه الدارس المتتبع لمنهج المسعودي وطريقته في التدوين أنه كان يتبع طريقة العرض الموسع المبسوط في تاريخه لدولة أو أمة، ثم في نهاية الحديث عنها يثبت سجلاً أو كشافاً إحصائياً بعدد ملوكها وسني حكمهم ويعرض الآراء وما قالته الكتب في ذلك[5]، ولشعور المسعودي بأهمية هذا العمل نراه يضع مستخلصاً أو جامعاً للتاريخ منذ بدء العالم إلى مولد النبـي صلى الله عليه وسلم، يشير فيه بإيجاز إلى كيفية بدء العالم وأقوال الفلكيين والطبيعيين في ذلك،

---

(١) المصدر السابق، ٥/١٧٤.

(٢) المصدر السابق، ٥/٢٠٥.

(٣) المصدر السابق، ٥/١٨٧.

(٤) التنبيه، ص ٢٧٩، والواقع أن المسعودي كان محقاً في ذلك حيث كانت كتابته في السيرة مختصرة ولكنها كانت دقيقة وشاملة.

(٥) انظر مثلاً: المروج، ١/٣٢٣، ٢/٦٣ ــ ٦٤، ٩٥.

ثم يورد آراء الأمم والطوائف المختلفة حول عمر الدنيا، من الهنود، واليهود، والنصارى، والصابئة، واليونانيين، والمجوس، وما قاله أهل البحث والنظر من المسلمين حول حدوث العالم، وغير ذلك من المباحث الموجزة المستخلصة لبعض ما مر ذكره مطولاً في الكتاب(١).

ثم وضع في نهاية المروج مستخلصاً آخر للتاريخ الإسلامي من الهجرة النبوية إلى وقت فراغه من تأليف الكتاب في جمادى الأولى من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وقد ذكر في هذا المستخلص مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومبعثه وهجرته ووفاته باليوم والشهر والسنة، ثم أتبع ذلك بذكر أيام الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين، ثم العباسيين، يذكر مدد حكمهم بالتفصيل وقد كرر ما ذكره في هذا المستخلص مرتين، الأولى، كانت على حساب أهل الزيجات وما ذكره أصحاب النجوم على ما يوجبه تاريخهم(٢)، والثانية، كانت على حساب أصحاب السير والأخبار من أهل النقل والآثار(٣). والذي يلاحظ في هذا الشأن أن المسعودي كان يميل إلى آراء أهل الزيجات أكثر من غيرهم لأنهم «يراعون هذه الأوقات ويحصلون علمها على التحديد»(٤) وأنه سار في أثناء الكتاب في تحديده لتلك الأزمان على حساب أصحاب السير والتواريخ ممن عني بأخبار الملوك والخلفاء.

ويظهر، والله أعلم، أن المسعودي بطرائقه المشار إليها أعلاه في حصر المعلومات ووضع المستخلصات أو جوامع التواريخ كان سباقاً على غيره من المؤرخين ورائداً في هذا المجال، وأنه كان ذا عقلية موسوعية مستوعبة فذة، يضع التواريخ العامة الشاملة ثم يلخصها ويوجزها ليسهل للقارىء الذي لا تهمه التفاصيل الوقوف على الحقائق مختصرة قريبة المأخذ ميسرة الفهم.

---

(١) المصدر السابق، ٢/٤١٢ ــ ٤١٩.
(٢) المصدر السابق، ٥/٢٧٥.
(٣) المصدر السابق، ٥/٢٨٠.
(٤) المصدر السابق، ٥/٢٨٠.

(ج) التاريخ العالمي عند المسعودي:

كان تركيز المؤرخين المسلمين في الفترة الأولى من ظهور الكتابة التاريخية منصباً على موضوعات خاصة تتصل بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه ومغازيه، وتتصل كذلك بحياة الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ وأنسابهم، وأخبار فتوحهم للبلدان ونشرهم للإسلام، ولم يحظ تاريخ الأمم غير الإسلامية باهتمام كبير من قبل عامة المؤرخين المسلمين، لأن دراسة تاريخ الإسلام والبلاد الإسلامية، واستنباط العبرة والعظة من هذه الدراسة كانت تشكل المحور الأساسي الذي تعقد من أجله الدراسة وتؤلف له الكتب في التاريخ.

ومع ذلك فإن الباحث المدقق يلاحظ ظهور بدايات أو مقدمات في كتابة التاريخ العالمي لدى بعض الاخباريين المتقدمين وكتاب السير والمغازي، كوهب بن منبه، ومحمد بن إسحاق بن يسار[1]، وتتمثل تلك المقدمات في إدراج شيء من تاريخ المبدأ والخلق، وتاريخ الأنبياء عليهم السلام في كتبهم كمقدمة للدخول في الحديث عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخبار المغازي والفتوح الإسلامية.

ولما جاء ابن قتيبة الدينوري تحدث في كتابه المعارف عن قصة الخلق وتاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام[2] ولم يضف موضوعات جديدة تتصل بالتاريخ العالمي، لكن أبا حنيفة الدينوري قد خطا خطوات أوسع نحو الولوج في أبواب الكتابة العالمية؛ فبالإضافة إلى احتواء كتابه الأخبار الطوال على تاريخ آدم عليه السلام ثم الأنبياء من بعده، احتوى كذلك على التاريخ الفارسي وتاريخ الاسكندر المقدوني، وأخبار ملوك اليمن في الجاهلية[3].

ثم بدأ الاهتمام بالتاريخ العالمي يأخذ مكانه ويبرز بشكل واضح،

---

(١) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٢٦، ٢٨.

(٢) انظر: المعارف، ص ٢٩٦.

(٣) انظر: الأخبار الطوال، ص ٤١٠ ـ ٤١١.

وخاصة عندما ألّف اليعقوبي تاريخه وأدخل فيه زيادة على تاريخ المبدأ والخلق وتاريخ الأنبياء عليهم السلام تاريخ الأمم القديمة كالآشورية والبابلية والهندية واليونانية والرومانية والفارسية والصينية والمصرية والبربرية والحبشية والزنجية وتاريخ العرب في الجاهلية[1]، وبذلك اتسعت دائرة النظر لدى المؤرخين المسلمين وشملت دراساتهم موضوعات جديدة لم تكن مألوفة من قبل، وأصبح اليعقوبي من أوائل المؤرخين الذين التفتوا إلى أهمية تاريخ الأمم القديمة.

ولما جاء ابن جرير الطبري ألف على نحو ما ألف اليعقوبي، لكنه ركز على تاريخ بعض الأمم، ونظر من زاوية تختلف عن الزاوية التي نظر منها اليعقوبي[2].

ويعتبر تاريخا اليعقوبي والطبري مع تاريخ المسعودي الذي سنتحدث عنه بعد قليل أبرز المؤلفات التاريخية الإسلامية التي تناولت التاريخ العالمي بصورة شاملة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ولم تبلغ المؤلفات اللاحقة التي حاول مؤلفوها تطبيق الصورة العالمية مبلغ هذه الكتب لا من حيث التنظيم ولا من حيث غزارة المادة[3].

ونحن إذ نريد أن نتحدث عن كتابة المسعودية في التاريخ العالمي في هذا المقام لا بد لنا من أن نعرف شيئاً عن الخلفيات والأسباب التي دفعت المسعودي إلى الاتجاه بتفكيره نحو هذا الباب من التأليف، والذي يظهر لنا بصورة واضحة هو أن رحلاته المتتابعة ودورانه في أرجاء العالم المعمور المعروف في عهده، وإطلاعه عن كثب على أحوال الأمم والشعوب المختلفة، ووقوفه على حضاراتها وعاداتها وتقاليدها وتراثها، وما قام به من محادثات ومناظرات مع أقطاب المذاهب والديانات والنحل المتباينة، كل هذا وغيره قد ولد لديه نوعاً من وضوح الرؤية وسعة الأفق ورحابة الصدر، واعتقاداً بأهمية تاريخ تلك الأمم، فأدى ذلك بالتالي إلى نظرة عالمية ومعالجة حية لتاريخها وثقافاتها.

---

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي، ١/٧٤ ــ ٢٧٥.

(٢) Khalidi, Islamic Historiography, P. 83.

(٣) انظر: سيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٩٩.

وبهذا خرج المسعودي بتفكيره من النطاق المحلي أو الاقليمي الضيق كما كان شائعاً لدى كثير من المؤرخين المسلمين إلى جعل التاريخ في خدمة الحضارة العالمية والثقافة الإنسانية بشكل عام، مع التركيز على تاريخ وحضارة الإسلام، ولو أردنا أن نكشف مصنفات المسعودي لنقف على حقيقة ما كتبه عن التاريخ العالمي لوجدنا أنه لم يقتصر في ذلك على مصنف واحد من مصنفاته المتعددة كما هو المعتاد عند غيره وكما هو المتوقع، لكنه ألف سلسلة من الكتب في التاريخ تناولت وبحثت كلها في التاريخ العالمي، وهي مرتبة حسب ظهورها الزمني كما أشار إليها المسعودي على النحو الآتي:

١ ــ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة.

٢ ــ الكتاب الأوسط.

٣ ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر.

٤ ــ فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف.

٥ ــ ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور.

٦ ــ كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار.

٧ ــ كتاب التنبيه والإشراف.

ويظهر أن الكتب في هذه السلسلة مكونة من مجموعتين يقوم بعضها على بعض ويختصر بعضها بعضاً، فالكتب الثلاثة الأولى مع كتاب التنبيه تكون مجموعة واحدة، والكتب الباقية تؤلف مجموعة أخرى، فكتاب فنون المعارف صنو لأخبار الزمان، وكتاب ذخائر العلوم يعدل الكتاب الأوسط أو المروج، وكتاب الاستذكار يساوي كتاب التنبيه[1].

والواقع أن العناوين التي أطلقها المسعودي على مصنفاته التاريخية هذه لتؤكد لنا عمق فكره التاريخي، وتفصح لنا عن نظرته العالمية الواسعة الأفق التي لم تحجبها المؤثرات الكثيرة، فاختياره لألفاظ «.. ومن أباده الحدثان من الأمم

(١) انظر: التنبيه، ص ٨٤، ٩٤؛ وانظر: شاكر مصطفى، التاريخ العربي، ١/٤٠٣.

الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة» أي الأمم التي ضربت في القدم وتعاقبت عليها الأزمان والقرون ثم انقرضت أو اندثرت في تلك الأزمان، وكذلك ألفاظ «. . . وما جرى في الدهور السوالف» و «. . . وما كان في سالف الدهور» و «. . وما جرى في سالف الأعصار» كل هذه العناوين تنبه إلى ما كان يوليه المسعودي من أهمية لتاريخ الأمم والشعوب التي وإن كان قد انتهى وانقرض معظمها إلا أن في تراثها وفكرها ما هو جدير بالتدوين والتسجيل.

هذا وكنا قد تحدثنا بالتفصيل عن أغلب محتويات تلك المؤلفات التاريخية في الفصل الثاني من هذه الرسالة المخصص لدراسة مصنفات المسعودي، ونريد هنا أن نعرض محتويات كتاب مروج الذهب ــ وهو من كتب المسعودي الباقية ــ لنأخذه كمثال على كتابته في التاريخ العالمي.

وعند فحص هذا الكتاب نجد أن المسعودي قد خصص أكثر من ثلثه بقليل لبحث تاريخ الأمم الماضية والشعوب غير المسلمة، والباقي للتاريخ الإسلامي.

وقد ابتدأ فيه بقصة المبدأ والخلق من آدم إلى إبراهيم عليهما السلام، ثم من تلاه من الأنبياء والملوك من بني إسرائيل إلى ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ثم ذكر جملاً من أخبار الهند وآرائها وممالكها، وانتقل من هنا إلى وصف الأرض والبحار والأنهار وما يتصل بذلك من الظواهر الجغرافية، ثم عاد إلى ذكر ملوك الصين والترك، وأخبار الأمم التي تقطن حول جبل القبخ (القوقاز) من اللان والسرير والخزر وأنواع الترك والبرغر (البلغر)، ثم تحدث عن ملوك السريانيين والآشوريين، والكلدانيين، ثم عن ملوك الفرس الأولى، وملوك الطوائف، والساسانية وهم ملوك الفرس الثانية، ثم تناول تاريخ اليونانيين والاسكندر المقدوني، وتاريخ الروم، فالروم المتنصِّرة، ثم انتقل إلى مصر فتحدث عن نيلها وعجائبها وأخبار ملوكها، والاسكندرية وأخبارها، ثم ذكر السودان وأجناسهم، ثم الصقالبة وملوكهم، ثم الافرنجة والجلالقة وملوكها وأخبارها، ثم النوكبرد (اللمبارديون) (Lombards) وملوكها،

وملوك الشام من الغساسنة وغيرهم، ثم تناول تاريخ العرب في الجاهلية، وتاريخ الأكراد في الجبال، وما كان شائعاً لدى العرب من القيافة والكهانة والاعتقادات المتباينة، ثم تأمل المسعودي بعد ذلك في أسس التاريخ والتقاويم لدى الأمم المختلفة، ودياناتها وأماكنها المعظمة المشرفة[1].

هذا مجمل موجز لرؤوس الموضوعات والأبواب التي تناول فيها المسعودي تاريخ الأمم الماضية قبل أن يصل إلى التاريخ الإسلامي الذي تحدث فيه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بإيجاز، ثم انتقل إلى عصر الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين، ثم العباسيين إلى سنة ٣٣٦هـ من خلافة المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ).

ويلاحظ الدارس لكتاب المروج أن المسعودي قد استوفى بشموليته في أبحاثه المتقدمة ذكر الأمم المختلفة، وركز في ملاحظاته على إبراز العناصر الفكرية والحضارية في تاريخ تلك الأمم، مما يدفعنا إلى القول: أن كتاب المروج يعتبر من كبرى المحاولات في تثبيت دعائم فن الكتابة في التاريخ العالمي المتصل بصلب الأمم وجوهر الشعوب قديمة كانت أو حديثة.

ومما يلاحظ أنه نتيجة لغزارة مادة المسعودي واتساع الثقافات العالمية التي حازها أو اطلع عليها قام بعقد دراسات مقارنة في كتبه وهو منهج لم يكن معروفاً لكثير من معاصريه، فنجده يقارن بين أفكار الاغريق القدماء والهنود والفلاسفة من الصابئة وغيرهم حول أصل الأرض وصفات العالم وما إلى ذلك[2]، فيعرض الآراء ويوازن بينها ويفحصها فحصاً دقيقاً[3]، ولا شك ان عمل المسعودي هذا يعتبر نوعاً من الابتكار والتجديد في مجال البحث التاريخي.

---

(١) انظر: المروج، ١/٢٠ ـ ٢٥.

(٢) د. الخربوطلي: الاتجاهات العالمية والإنسانية، ص ٢٣ ـ ٢٤.

وانظر: S. M. ALI, Some Geographical Idias of Al-Masudi, (MMCV), p. 85

(٣) المروج ٢/٤١٣.

وقد أشاد ابن خلدون[1] بدور المسعودي في الكتابة التاريخية وبين مكانته فيها، وأثنى على منهجه الذي استحدثه في دراسة التاريخ متمثلاً بنظرته العالمية، وتطويره لفكرة التاريخ عند المسلمين[2]. وقد حاول ابن خلدون أن يكتب التاريخ سائراً على أثر المسعودي لكنه اعترف منذ البداية انه لن يبلغ مبلغه، لأن المسعودي يتفوق عليه بكثرة الترحال والتقلب في البلاد[3].

وقد كان المستشرق روزنثال (Rosenthal) يرى أن كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي «يُعبِّر عن نظرة تاريخية عالمية حقة»[4]، وأن «المسعودي أدق من اليعقوبي تمثيلاً للتفسير العالمي الحضاري للتاريخ»[5].

وعلى أي حال فإنه بتدبر ما سبق نرى أن المسعودي بكتابته للمجموعتين السابقتين من المؤلفات التاريخية اللتين تناول فيهما التاريخ العالمي يعتبر نموذجاً فريداً في التاريخ الإسلامي كله، إذ لم نجد أحداً قبله أو بعده من المؤرخين قد حاول أن يصدر سلسلتين من الكتب في التاريخ، ولا من جعل لتاريخه الأكبر مختصراً أولاً ثم مختصراً ثانياً ثم موجزاً ثالثاً صغيراً، وعمله هذا يعبر أيضاً عن إدراكه الواضح للروح العالمية في التاريخ، وترابط الأفكار والثقافات على الرغم من تنوعها، واتجاه الإنسانية نحو مصير واحد على الرغم من تعدد الشعوب

---

(١) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، أبو زيد، مؤرخ وفيلسوف مشهور، ولد ونشأ بتونس ثم رحل إلى الأندلس، وانتقل أخيراً إلى مصر وفيها توفي، له من المصنفات: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وقد اشتهر ابن خلدون بمقدمة هذا الكتاب التي عالج فيها فلسفة التاريخ وأصول الاجتماع والعمران البشري، وله أيضاً لباب المحصل في أصول الدين، شرح البردة، وغير ذلك. انظر عنه: الترجمة التي كتبها لنفسه في نهاية كتاب العبر بعنوان: التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته شرقاً وغرباً، ج ٧ ص ٣٧٩ ــ ٤٦٢، وانظر أيضاً: ابن العماد: شذرات الذهب ٧/٧٦ ــ ٧٧، وللوقوف على أشهر ما سطر عن ابن خلدون من الكتب والمقالات العلمية انظر عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٥/١٨٩ ــ ١٩١، و١٣/٣٩٦.

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٣٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٤) علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٨٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨٩.

واختلاف الأزمان والملوك، والمسعودي بهذا يمثل أوج ما وصلته الحضارة الإسلامية عبر قرونها المتتالية من إدراك لتلك الروح العالمية[1].

(د) مزج المعلومات التاريخية بالجغرافيا[2] :

يعتبر القرن الرابع الهجري من أخصب القرون التي ازدهر فيها علم الجغرافيا والرحلات عند المسلمين، وذلك لأن أكثر المؤلفات الأساسية فيه انما ظهرت في هذا القرن، كما ان الناس قد استهوتهم السياحة والسفر في البلاد النائية إما بحثاً عن المعاش والتجارة وإما لطلب العلم والاطلاع على أحوال الأمم والشعوب، وقد أثرى ذلك المعرفة الجغرافية وظهرت الكتب في المسالك والممالك وغيرها، وكان لا بد أن يتأثر علم التاريخ بهذا الفيض الوافر من المعلومات الجغرافية لوجود الصلة القوية بين العلمين، فظهر جيل من المؤرخين الجغرافيين الذين أسهموا مساهمات خصبة في التأليف التاريخي والجغرافي[3].

وقد كان المسعودي من أبرز المؤرخين المسلمين الذين جمعوا بين التاريخ والجغرافية بأسلوب علمي جذاب، وخاصة في الأجزاء الأولى من مؤلفيه الباقين المروج والتنبيه، ففي المروج قبل أن يدخل في الكتابة التاريخية حسب المنهج الذي اختطه لنفسه بدأ بمقدمة جغرافية تحدث فيها عن الأرض وشكلها، والبحار والمحيطات ومبادىء الأنهار والجبال والأقاليم السبعة، وكيفية انتقال البحار، وأشهر البحار المعروفة يومئذ كالبحر الحبشي والرومي وبحر بنطس

(١) انظر شاكر مصطفى: التاريخ العربي. . . ١/٤٠٤.

(٢) انظر بحوثاً جيدة عن جهود المسعودي في الجغرافية كتبت من زوايا مختلفة بمناسبة الذكرى الألفية للمسعودي (MMCV) في الندوة التي عقدت عنه سنة ١٩٦٠م في جامعة عليكرة الإسلامية بالهند، لكل من:

1 — S. M. Ali, Some Geographical Ideas of Al-Masudi, pp. 84-92.

2 — M. Shafi, Al-Masudi as Geographer, pp. 72-78.

3 — E. M. Murzaev, The signifeance of Al-Masudi for the works of Russian and Soviet Geographers, pp. 14-17.

(٣) انظر شاكر مصطفى: التاريخ العربي ١/٣٤٤.

ومايطس، كما تحدث عن ظواهر جغرافية بارزة كالمد والجزر، وانتقال الرياح ومواسم هبوبها، وغير ذلك[1].

أما كتاب التنبيه فقد أودعه «لمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها وكيفية أفعالها، والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها، والاستقصات[2]، وغير ذلك، والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها، والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها وغامرها، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها وتأثيراتها في سكانها وما اتصل بذلك، وذكر الأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل في طولها وعرضها، وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة الخمسة والنيرين، ووصف الاقليم الرابع، وتفضيله على سائر الأقاليم وما خص به ساكنوه من الفضائل التي باينوا بها سكان غيره منها، وما اتصل بذلك من الكلام في عروض البلدان وأطوالها والأهوية وتأثيراتها وغير ذلك، وذكر البحار وأعدادها وما قيل في أطوالها وأعراضها واتصالها وانفصالها ومصبات عظام الأنهار إليها وما يحيط بها من الممالك وغير ذلك من أحوالها»[3].

ومما لا يخالج الشك فيه ــ وحسب المعلومات المتوفرة ــ أن الجمع بين المعلومات الجغرافية والتاريخية عند المسلمين بهذا الأسلوب وفي مؤلف واحد هو من مبتكرات المسعودي الفذة[4]، حيث عمق الصلة والرابط بين هذين العلمين ورأى أن كلاً منهما مكمل للآخر، إذ لا يستطيع مثلاً مؤرخ من المؤرخين أن يكتب في تاريخ مدينة أو منطقة ما كتابة علمية جديرة بالتقدير وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعتها الجغرافية وظروفها المناخية أو ما يتصل بذلك من أحوالها، ولهذا فقد جعل المسعودي دراساته الجغرافية والفلكية مقدمة لفهم التاريخ.

---

(١) المروج ١/٢٠ ــ ٢١.

(٢) يقصد بها الأرض والماء والنار والهواء كما صرح المسعودي بذلك.

(٣) التنبيه، ص ٥.

(٤) انظر روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٥١.

هذا وان كان اليعقوبي ـ وهو من المؤرخين السابقين على المسعودي ـ قد ألف في الجغرافيا والتاريخ، إلا أنه ألف على نهج يختلف عن نهج المسعودي إذ فصل بينهما، فجعل الجغرافيا في كتاب سماه البلدان جمع فيه المعلومات بشكل استقرائي تراكمي(١)، وجعل التاريخ في كتاب آخر مستقل.

وإذا تتبعنا بعض كتابات المسعودي الجغرافية نلاحظ مدى استفادته من رحلاته وتجاربه الخاصة في تحري الحقائق الجغرافية ومحاولة المقارنة بين ما هو مسطر في الكتب والمؤلفات الجغرافية وبين ما هو موجود فعلاً على الطبيعة، أو ما أخبر به الرحالة والتجار الذين جابوا البحار والأقطار وشاهدوا بأعينهم ما يتحدثون عنه، كالاختلاف في تقدير المسافات والأبعاد في أطوال الخلجان والبحار أو ما إلى ذلك(٢) ومن أجل هذا نرى أن المسعودي أكثر دقة وتحديداً فيما يختص بالعالم المأهول آنذاك الذي عبر كثيراً من أجزائه(٣).

ولكن يلاحظ على كتابات المسعودي الجغرافية افتقارها إلى حسن التبويب والتنظيم، فقد جاءت بطريقة مبعثرة لا تستند على أساس في تشكيلها، فتجده يتحدث مثلاً عن المد والجزر والبحار وترتيبها ثم ينتقل إلى ذكر ملوك الصين والترك. . . ثم يعود إلى ذكر جمل من الأخبار وما فيها وما حولها من العجائب(٤)، وتجده يتحدث عن الأمم القديمة وملوكها ثم يعود ليتحدث عن الجغرافيا الفلكية وما يتصل بها(٥) ونرى كثيراً من المعلومات الجغرافية منثورة في ثنايا كتابيه، لو استخلصت ونسقت بطريقة علمية منظمة لظهر لنا ملاحظات وأفكار جغرافية صحيحة يسبق بها المسعودي أقرانه في الفكر الجغرافي الحديث، ولاعتبر بكل المقاييس العلمية أحد الجغرافيين البارزين في العصور الإسلامية الأولى(٦).

---

(١) د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي ١/٣٤٥.

(٢) المروج ١/١٢٤.

(٣) S. M. Ali, Op. cit. p. 90.

(٤) المروج ١/٢١.

(٥) المصدر السابق ١/٢٤.

(٦) Shafi, Op. cit. pp. 72-73؛ وانظر التنبيه، ص ٢٦٠.

وهناك نقطة يجب التنبه لها وهي وان كان يقصد بها الرفع من مكانة المسعودي إلا أنها في الواقع محاولة لتجريده من الأصالة والتميز في أبحاثه، وهي ما جرى عليه بعض الباحثين من تشبيهه بهيرودوت[١] (Herodot) من حيث جمعه بين التاريخ والجغرافيا[٢]: وهؤلاء مقلدون لبعض المستشرقين الذين يحاولون في كثير من الأحيان أن ينسبوا كل منهج من مناهج العلم الأصيلة إلى بني جلدتهم أو بني دينهم، وذلك في أثناء بحوثهم في التاريخ أو الفكر الإسلامي بوجه عام.

ولم يقتصر على تشبيه المسعودي بهيرودوت بل تعدى ذلك إلى أن أكد بعضهم ـ أي المستشرقون ـ على أن لمؤلفات النصارى السابقين أو المعاصرين للمسعودي دوراً كبيراً في التأثير على فكره التاريخي، إضافة إلى أنها أيضاً «ساهمت كثيراً في تطور الوضع العلمي في الإسلام»[٣]. ونحن نتساءل هنا ما هي تلك المؤلفات النصرانية التي استحوذت على فكر المسعودي ثم آلت به إلى تقليدها والسير على خطاها؟.

إننا لو نظرنا إلى تلك المؤلفات المقصودة والتي أشار إليها المسعودي في معرض حديثه عن ملوك الروم المتنصرة لوجدنا أنه أورد اسماء مؤلفات لا تكاد تذكر أو تقارن بمؤلفات المسعودي نفسه لا من حيث الذيوع والشهرة، ولا من حيث قوة المادة والبناء العلمي، مثل كتاب قيس الماروني، ومحبوب بن قسطنطين المنبجي، وسعيد بن البطريق، وغيرهم[٤]. والمسعودي حينما ذكر هذه الكتب

(١) أحد المؤرخين الاغريق البارزين، ويعتبرونه أبا التاريخ، وكان رحالة كثير الأسفار، وكتب كتابه في التاريخ متأثراً برحلاته ومشاهداته الجغرافية. انظر علي أدهم: بعض مؤرخي الإسلام، ص ٥١؛ ود. نبيه عاقل؛ المسعودي: المؤرخ العربي صاحب مروج الذهب، مقال في مجلة العربي التي تصدر في الكويت العدد (٤٨)، المجلد الثامن سنة ١٣٨٢هـ، ص ١١٣.

(٢) انظر د. نورالدين حاطوم وزملاءه: المدخل إلى التاريخ (دمشق: منشورات مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م)، ص ٢٩٥، وعلي أدهم: بعض مؤرخي الإسلام، ص ٥١ ــ ٥٢؛ وزكي حسن: الرحالة المسلمون (القاهرة: دار المعارف ١٩٤٥م)، ص ٣٩.

(٣) روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٥٢.

(٤) التنبيه، ص ١٥٤ ــ ١٥٥.

إنما يؤكد على حرصه واهتمامه بتتبع كل ما يتعلق بتاريخ وديانات وتراث الأمم المختلفة التي يتحدث عنها.

وعلى أي حال فإننا نلحظ في كثير من كتابات المستشرقين الذين انخدع بهم بعض المسلمين في العصر الحاضر محاولات لتجريد المؤلفين المسلمين الأوائل من الأصالة في بحوثهم العلمية، واظهار أنهم كانوا عالة على علماء الاغريق والسريان وانهم ليسوا سوى مرددين لأفكار من سبقهم.

ومهما يكن من أمر فإن نشاط المسعودي وجهده في الجغرافيا واضح كل الوضوح، وتصل آراؤه الجديدة في بعض الأحيان إلى درجة عالية من الدقة والصحة، فهو الجغرافي الأول الذي أعطى وصفاً صحيحاً لشكل بحر الآرال، والموقع التقريبي لبحر البلطيق[1]، ورسم صورة صادقة لمنطقة كشمير على الرغم من أنه لم يصل إليها في أثناء زيارته للهند، فوصف جبالها وأوديتها وغاباتها وقراها وأثبت إحصائيات جديدة عنها[2]، كما قام المسعودي بتصحيح عدد من الآراء والمفاهيم الجغرافية الصادرة من بعض الكتّاب السابقين أو المعاصرين، مثل تصحيحه لاعتقاد الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر، واستدلاله على ذلك باتفاق زيادتها ووجود التماسيح فيهما، وذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، فأبان المسعودي سبب الخطأ الذي وقع فيه الجاحظ على الرغم من جودة وحسن كتابه هذا، وهو أنه اعتمد فيه على كتب الوارقين ولم يتخذ الرحلات، والأسفار وزيارة البلاد النائية سبيلاً للوقوف على الحقيقة، ثم ذكر المسعودي منابع هذا النهر وتتبع مجراه حتى مصبه في بحر الهند قرب بلاد الدَّيْبُل[3].

ومن الأخطاء الجغرافية الشائعة لدى كثير ممن عرض لوصف البحار من الاغريق أو العرب اعتقادهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من بحر مايطس

---

(١) S. M. Ali, Op. cit. p. 89, وانظر المروج ١/١١٥

(٢) Mohibbul Hassan, Al-Masudi on Kashmir (MMCV), pp. 25-27. وانظر المروج ١/١٩٨.

(٣) المروج ١/١١٣؛ والتنبيه، ص ٥٥.

أو بنطس متصل ببحر الخزر، لكن المسعودي استغرب هذا الرأي واستنكره، وأورد الأدلة القطعية الكثيرة على أنه لا صلة بين هذين البحرين؛ من تلك الأدلة ما أثبته بجهوده الشخصية أثناء رحلاته في منطقة بحر الخزر، كركوبه فيه من ساحله الشرقي إلى الغربي، واستقصائه بالبحث والسؤال للذين وقفوا على كل من هذين البحرين وركبوهما من التجار وأرباب المراكب من ذوي الأدب والفهم وغيرهم، وكانوا متفقين جميعاً على أنه لا وجود لأي صلة بينهما[1]، ومن الأدلة أيضاً ذكره لقصة إغارة الروس القاطنين قرب بحر بنطس على المناطق الواقعة حول بحر الخزر، وكيف انهم لما أرادوا هذا الغزو استأذنوا ملك الخزر «في أن يجتازوا ببلاده وينحدروا في نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر. . . على أن يعطوه النصف مما يغنمون»[2] ووجه استدلال المسعودي من هذه الحادثة أنه لو كان البحران المذكوران متصلين لما كان لاستئذان الروس لملك الخزر وجه، ولما أعطوه نصف غنائمهم لأن بحر بنطس أو مايطس هو بحرهم لا يسلكه أحد غيرهم[3].

وعلل المسعودي بعض المظاهر الجغرافية الطبيعية تعليلاً منطقياً، من ذلك قوله: إن بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند متصلة مياهها غير منفصلة إلا أنها مع ذلك تختلف في وقت هيجانها وركودها، وحدوث المد والجزر فيها، وعلل المسعودي ذلك باختلاف مهاب رياحها وإبّان ثوراتها وغير ذلك، فمثلاً «بحر فارس تكثر أمواجه ويصعب ركوبه عند لين بحر الهند واستقامة الركوب فيه وقلة أمواجه، ويلين بحر فارس وتقل أمواجه ويسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة ركوبه»[4].

---

(١) المروج ١/١٤٦ ــ ١٤٨.

(٢) المصدر السابق ١/٢١٨ ــ ٢١٩.

(٣) المصدر السابق ١/٢١٦.

(٤) المصدر السابق ١/١٧٤.

وقد عارض المسعودي الاعتقاد الذي كان سائداً بين الجغرافيين الأول أمثال عبيدالله بن خرداذبة، وهو أن نهر جيحون (أموداريا) يصب في نهر مهران السند[1] (الأندس) ثم في البحر الحبشي، فقال: إن نهر جيحون يصب في البحيرة التي عليها القرية المعروفة بالجرجانية أسفل خوارزم[2]، ويقصد بها بحر آرال، والظاهر أن هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها المسعودي بحر آرال[3].

ويجب أن يكون واضحاً في الذهن أنه لا يمكن أن نستقصي في هذا المجال المحدود كل مساهمات المسعودي في علم الجغرافيا، إذ هي أكثر من أن نحصرها في مقام كهذا، فتحتاج إلى دراسة مستقلة، لكن هدفنا هو إبراز بعض النقاط التي تساعد على تحديد منهجه وتوضيحه.

وسنشير هنا بإيجاز إلى شيء من دراساته لبعض الظواهر الطبيعية أو البشرية أو الفلكية حتى تتضح الصورة وتكتمل.

ففيما يختص بشكل الأرض نرى أن المسعودي كان مؤمناً بكرويتها، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا العصور الوسطى ترمي بالكفر والإلحاد كل من قال بذلك[4]، ومن أدلة المسعودي على كروية الأرض تقوس سطح البحر بدليل أنه عندما تقترب السفينة من الساحل يبدأ الراكب فيها يرى الأشياء المرتفعة والعالية ثم الأقل ارتفاعاً حتى يصل الساحل فيرى كل شيء، ولو لم تكن الأرض مقوسة لرأى الأشياء كلها دفعة واحدة[5]، ومنها أنها لو كانت مسطحة لغمر الماء جميع أجزائها[6].

وفي علم المحيطات يبدو المسعودي على دراية بالمسائل والنظريات المختلفة

---

(١) المصدر السابق ١/١١٦.
(٢) المصدر السابق ١/١١٥.
(٣) Shafi, Op. cit. p. 75.
(٤) Ibid, p. 75.
(٥) المروج ١/١٠٦ ـ ١٠٧.
(٦) التنبيه، ص ٢٧.

التي كانت متداولة في عصره، علمية كانت أم رائجة، وذلك فيما يختص بأحجام وأشكال وحدود البحار، فأوضح أنه ذكر أصح ما نقل في ذلك وأشهره، وأبان عن عنايته واهتمامه بهذه المسائل بقوله: «إذ كنا عنينا بذلك برهة من دهرنا وصرفنا إليه همنا مشاهدة وخبراً، حتى وقفنا منه على ما نظن أنه استغلق على غيرنا علمه وغرب عليهم فهمه»[1]، ففي خريطة العالم أوضح المسعودي أن هناك اتصالاً بين البحر الحبشي والمحيط الدائري من جهتي الشرق والجنوب الشرقي، وكذلك يتصل -مع بحر أوقيانس (الأطلسي) بقنال ضيق يقع في جنوب قارة افريقيا[2].

وكان المسعودي أفضل من سابقيه في توضيح شكل المحيط الهندي، وتحدث عن ساحله الشرقي، وجزر جنوب شرق آسيا بصورة واضحة[3].

ولعل هذا يعود إلى استفادته من الحقائق التي كانت متوفرة لدى التجار والبحارة في هذا المحيط[4].

وقد كان المسعودي مدركاً لطبيعة الأمواج الضخمة وحركاتها العاتية في هذه المحيطات، ومفرقاً بينها وبين الأمواج الصغيرة التي تكون في الخُلجان والبحار الداخلية[5].

وكان المسعودي يبدي اهتماماً وتركيزاً في وصف الأنهار، من حيث تتبع منابعها ومبادئها وأماكن جريانها وما تجتازه في طريقها من الأماكن المشهورة والمحلات المعروفة، وما تقدمه هذه الأنهار للسكان المقيمين على ضفافها، وأماكن التقاء أو تفرق بعض فروعها، ثم ما تنتهي إليه من خليج أو بحر[6].

---

(١) التنبيه، ص ٥٠.
(٢) المروج ١/١٩٤؛ والتنبيه، ص ٦٨.
(٣) المروج ١/١٨٥.
(٤) Shaft, op. cit. p. 74-75.
(٥) المروج ١/١٢٤ ــ ١٢٥؛ والتنبيه، ص ٧٠.
(٦) انظر المروج ١/١١١ ــ ١٢٣؛ والتنبيه، ص ٥١ ــ ٥٦.

ومما يلفت النظر أن المسعودي كان مدركاً لدورة التعرية النهرية، وتعديل الأنهار لمجاريها حتى تسير في مجرى منتظم، لاحظ قوله: «وإن لمواضع الأنهار شباباً وهرماً وحياة وموتاً ونشأً ونشوراً كما يكون ذلك في الحيوان والنبات»[١].

وتحدث المسعودي عن عدد من البراكين الموجودة في عصره، كيف كانت تضيء ما حولها فتقذف بحممها وتحدث أصواتاً كالرعد يسمع من أميال كثيرة، وقد بين علة تكون البراكين في كتابه المفقود أخبار الزمان[٢].

وكان المسعودي يهتم بوصف المدن[٣]، والطرق البرية والبحرية[٤]، ويناقش مسائل كثيرة تتصل بالجغرافيا الفلكية[٥].

وهكذا نرى المسعودي قد شق طريقه بين المؤرخين والجغرافيين العرب بإصراره على أهمية النظرة الشاملة للأحوال العامة التي يعتمد عليها انتشار الإنسان على الأرض، ومحاولته دمج العنصر الإنساني في علم الجغرافيا، مما أعطى الجغرافيا اتجاهاً وحافزاً جديداً[٦] وأعطاها منعطفاً علمياً، وذلك بحقنها بروح الاستقصاء والبحث، ولا نكون مبالغين لو قلنا: إن المسعودي من أبرز الرواد في علم الجغرافية الإنسانية الحديث[٧].

ومن هنا نرى أن ملاحظات المسعودي ومناقشاته لكثير من المسائل الجغرافية ودراساته العميقة الجادة لها في كثير من الأحيان تشكل جزءاً هاماً من منهجه التاريخي الأصيل المنبثق من واقع الرؤية الصحيحة المتكاملة للمكان الذي هو في الواقع المسرح الحقيقي للأحداث التاريخية.

---

(١) المروج ١/١١١.

(٢) المصدر السابق ١/٢٢٢، وانظر، ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٥؛ والتنبيه، ص ١٣٩.

(٤) المروج ١/١٨٥ ــ ١٨٦.

(٥) المصدر السابق ١/١٠٢ ــ ١٠٥؛ وانظر: التنبيه، ص ٧ ــ ١٤.

(٦) S. M. Ali: Op. cit., p. 9

(٧) Shafi: Op. cit., p. 76.

(هـ) تأثير البيئة والفلك على الإنسان وغيره:

مع أن هذا الموضوع ذو صلة وارتباط بالموضوع السابق أي الدراسات الجغرافية لدى المسعودي، إلا أن إفراده بالدراسة ــ نظراً لأهميته وحيويته ــ قد يضفي عليه نوعاً من الوضوح والتركيز ولا سيما أنه من منجزات المسعودي المهمة.

ومع أن هذا الموضوع أيضاً قد تناوله بعض المؤلفين السابقين للمسعودي كأبقراط (Hippocrates) اليوناني، وابن رستة الجغرافي المسلم[1]، إلا أنهما قد طرقاه بصورة جزئية، ولم يحيطا بتفاصيله كما هو واضح عند المسعودي، فأبقراط تحدث عن تغير حالات الهواء وأنه «هو الذي يغير حالات الناس مرة إلى الغضب ومرة إلى السكون وإلى الهم والسرور وغير ذلك، وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم»[2] وعن التأثير على الحيوان والأشياء ذكر «أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها وإذا تغير الهواء تغير بتغيره كل شيء»[3].

وابن رسته عزا الذكاء والخلق القويم وجمال الأجسام وبياض السحنة عند البابليين إلى المناخ المعتدل في بلادهم، وبنفس الطريقة فسَّر حمرة السحنة وضمور الأجسام وغزارة الشعر لدى الأتراك إلى كثرة البرد في بلادهم[4].

أما المسعودي فقد تصور هذا الموضوع من خلال نطاقين:

* **الأول**: التصور الفلكي المناخي الذي يعتبر الإنسان جزءاً من

---

(١) أحمد بن عمر بن رسته، أبو علي، جغرافي مسلم، لا يعرف عنه سوى القليل أصله من أصفهان، وزار الحجاز، وكانت وفاته في حدود سنة ٢٩٠هـ له مصنف مشهور في تقويم البلدان يعرف بـ الأعلاق النفيسة، لم يطبع منه إلا جزء يسير في الفلك والجغرافية. انظر عنه: كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٦٤؛ وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٢/٣١.

(٢) المروج ٢/٣٧٤.

(٣) المصدر السابق ٢/٣٧٥.

(٤) الأعلاق النفيسة (ليدن: مطابع بريل ١٨٩١م)، ص ١٠١ ــ ١٠٣.

الكون، وبذا فإن شخصيته وشكله وأفعاله تتأثر بالنجوم التي تتحكم في بيئته وبالأهوية التي تهب عليها[1].

* **الثاني**: التصور الجغرافي الطبيعي، حيث العناصر الجغرافية تتحكم في رد الفعل البشري[2].

ومن هنا فإن التأثير الفلكي أو المناخي على الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد قد يكون مميزاً واضحاً في بعض الأحيان، بينما يكون تأثير الموقع الجغرافي أظهر في الوضوح في أحيان أخرى، لكن التأثير المشترك لهذين العنصرين معاً مرتبط كل الارتباط في جميع الحالات.

وإذا نحن تتبعنا بعض النماذج من دراسات المسعودي في هذا الخصوص نجد أنه قد أبدى ملاحظات قيمة عن تأثير كل من القمر والشمس والهواء في هذا العالم السفلي، ففي حديثه عن القمر ذكر تأثيره في المد والجزر، وفي أبدان الناس والحيوان وغيرهم من القوة وغلبة السخونة والرطوبة، والأخلاط التي تكون في أبدان الناس، وأثره في إنتاج سائر الحيوان من الزيادة أو النقصان في شعره وأدمغته وألبانه، وكذا في «البيض وحيض النساء وكثرة السمك في البحار والأنهار وغيرها، ونمو الأشجار والبقول والفواكه والرياحين وسائر النبات وغير ذلك مما يعلمه أصحاب الفلاحة»[3]، وكذا له تأثير على المعادن في جواهرها وصفائها، وعلى حشرات الأرض من الحيات والعقارب في لسعها وعلى سائر السباع في أفعالها، وغير ذلك[4].

وعن القمر أيضاً قال: إن «الشهور به تكون وعلى حسب حركته يجري

---

(١) المروج ٢/٣٦٠؛ والتنبيه، ص ٢٩.

(٢) Alavi, S.M. Ziauddin: «Al-Masudi conception of the relationship between man and environment», (MMCV) p. 93.

(٣) التنبيه، ص ٧٢.

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٧١ ــ ٧٢، هذا ويجب الالتفات إلى أنه قد يظهر في كلام المسعودي أحياناً نوع من المبالغات أو التفصيلات غير الدقيقة، لكن هذا لا يمنع أن تكون أكثر ملاحظاته على درجة من الصحة.

أمرها، وأفعاله ترى أعظم وأبين في حيوان البحر خاصة، وهو ينمي النبات، ويعظم الثمار ويسمن الحيوان، ويلزم النساء الطمث أزماناً محدودة»[1].

وقد أدرك المسعودي قلة تأثير الشمس على المناطق الواقعة في الشمال بعيداً عن سمتها، وتأثيرها الشديد على المناطق الواقعة على خط الاستواء فقال: «وأما أهل الربع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم الواغلين في الشمال كالصقالبة والافرنجة ومن جاورهم من الأمم فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد، فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم.. وآبيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة، ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وآزرقت عيونهم أيضاً فلم تخرج من طبع ألوانهم، وسبطت شعورهم وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب... وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحابش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامته الشمس فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة فاسودت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم، وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الأرحام في نضجهم.. حتى احترقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس، وكذلك الشعور السبطة إذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها وبعدها عنها»[2].

وهكذا يقرر المسعودي أثر الشمس على المناطق حسب قربها أو بعدها عن خط الاستواء «لأن البعد والقرب موجبات متنافية متغايرة»[3] من حيث التأثير على ألوان الأجسام من البياض أو السواد أو غيرهما، ومن حيث الطبائع والأمزجة[4]، وكلما أفرط البعد نحو الشمال أو الجنوب أثرت شدة البرودة أو الحرارة في حياة الحيوان والنبات أيضاً[5].

---

(١) المروج ٢/٣٥٤.
(٢) التنبيه، ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) المروج ٢/٣٦١.
(٤) المصدر السابق ٢/٣٦٣ ـ ٣٦٤. وانظر أيضاً ٢٧٤.
(٥) المصدر السابق ٢/٣٦٢.

وإضافة إلى التأثير الفلكي أو المناخي تحدث المسعودي أيضاً عن التأثير البيئي على حياة البشر، فقد وصف أثر البيئة الجغرافية وفعلها في الأبدان، وذكر أنه يختلف لثلاثة أسباب: كمية المياه، وكمية الأشجار، ومقدار ارتفاعها أو انخفاضها، فالأرض كثيرة المياه ترطب الأبدان، والعادمة للمياه تجففها، والأرض كثيفة الأشجار تكون حارة وساخنة بعكس الأرض الجرداء، وكذلك الأرض العالية المشرفة تكون فسيحة باردة، والمنخفضة تكون حارة، ولكل أرض من هذه الأرضين أثر خاص في أمزجة وأبدان ساكنيها[1].

ولم يغفل المسعودي عن الانتباه إلى تأثير البيئة المحيطة أو المجاورة، فذكر أثر البحر أو الجبل إذا كان قريباً من المدينة بحسب موقعه منها، وتأثيره في هبوب الرياح، ولا ينسى أخيراً أن يذكر أثر طبيعة التربة في امتصاص الحرارة أو البرودة، فمن تربة صخرية إلى تربة جصية إلى تربة طينية وهكذا[2].

ومن ملاحظات المسعودي في تأثير البيئة الطبيعية في أخلاق سكانها ما ذكره عن الأكراد وغيرهم من سكان الجبال من الأجيال الجافية في طبائعها «وذلك أن هذه الأمة الساكنة في هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها في انخفاضها وارتفاعها، لعدم استقامة الاعتدال في أرضها، فلذلك أخلاق قطانها على ما هي عليه من الجفا والغلظ»[3].

وقد تحدث المسعودي عن التأثير المشترك لهذين العنصرين الهامين ــ وهما المناخ وطبيعة الأرض ــ في شكل الإنسان وحياته، وسنشير فيما يأتي إلى نماذج من ذلك، ففي كتابه المفقود المترجم بكتاب القضايا والتجارب، ذكر ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وما يؤثره هواؤها في حيوانها من الناطقين وغيرهم، مثل تأثيرهما في وجوه الأتراك وأعينهم، وفي جِمالهم أيضاً حيث صارت قصيرة القوائم غليظة الرقاب مبيضة الوبر وفي كل ما على سطح الأرض من نبات أو جماد[4].

---

(١) التنبيه، ص ٢٨. وانظر أيضاً المروج ٢/١٠٩.
(٢) التنبيه، ص ٢٩.
(٣) المروج ٢/٢٣٨.
(٤) المصدر السابق ١/١٨٠.

وفي مجال التأثير المشترك للمناخ والبيئة الطبيعية تحدث المسعودي عن خاصيات البلدان على لسان أحد الحكماء حينما سأله عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى عنه ــ أن يصف له «المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره الترب والأهوية في سكانها»[1]، فذكر الشام ومصر واليمن والحجاز وبلاد المغرب والعراق والجبال وخراسان وخوزستان، وأرض الجزيرة، وذكر ما تورثه كل منطقة أو أقليم منها في أجسام ساكنيها من حرارة أو برودة أو رطوبة أو يبوسة، وأثرها في صفاء الأجسام وألوانها، وفي الطباع والأمزجة والقرائح، وفي الهمم والفطن والألباب وما تجبل عليه من الفضائل والصفات الحميدة أو عكس ذلك من الطبائع والخلائق المذمومة[2].

ووصف المسعودي الأثر النفسي الذي تحدثه طبيعة بعض البلاد في أمزجة سكانها، فبلد التبت مثلاً له خصائص عجيبة «في هوائه ومائه وأرضه وسهله وجبله، ولا يزال الإنسان به ضاحكاً أبداً فرحاً مسروراً، ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار. . . ولا تكاد ترى في هذه البلاد شيخاً حزيناً ولا عجوزاً بل الطرب في الشيوخ والكهول والشبان والأحداث عام، وفي أهله رقة طبع وبشاشة، وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي والمعاقرة وأنواع إيقاع الرقص»[3] وكذلك الحال في جزائر بلاد السيلى [اليابان] فلم يصل إليها أحد من الغرباء من البلاد الإسلامية أو غيرها وخرج منها إلا النادر من الناس، وذلك «لصحة هوائها ورقة مائها وجودة تربتها وكثرة خيرها»[4].

وعلى أي حال فإن المسعودي على الرغم من كثرة ما شاهده من البلدان بنفسه، أو سمعه من غيره، أو قرأه في الكتب، عن خاصيات البلدان وتأثيرات أهويتها وتربها في سلوك وأجسام ساكنيها لم ير مثل بلد العراق في جمعه لفضائل البلدان، فهو «فنار المشرق وسرة الأرض وقلبها إليه تطاردت المياه وبه اتصلت

---

(١) المصدر السابق ٢/١٧٩.

(٢) المصدر السابق ٢/١٨٠ ــ ١٨٣.

(٣) المصدر السابق ١/١٨٧.

(٤) المصدر السابق ١/١٨٥.

النضارة وعنده وقف الاعتدال فصفت أمزجة أهله ولطفت أذهانهم واحتدت خواطرهم وتصلبت مرائرهم، فظهر منهم الدهاء وقويت عقولهم وثبتت بصائرهم... ولأهله أعدل الألوان وأنقى الروائح وأفضل الأمزجة وأطوع القرائح... وفضائله كثيرة لصفاء جوه وطيب نسيمه واعتدال تربته وإغداق المياه إليه ورفاهة العيش به»[1].

ويحسن الالتفات في هذه المناسبة إلى أن حنين المسعودي وشوقه إلى بلده الأول وهو العراق والذي سطره في مناسبات عديدة وأطنب فيه إنما هو في الواقع أثر من آثار البيئة ــ التي صارت فيها النشأة الأولى ــ على النفوس حتى أن المسعودي ليعزو ذكره لكثير من التفصيلات في هذه المعاني إلى هذا السبب نفسه[2].

ويتجلى إدراك المسعودي لأثر المناخ والبيئة على الإنسان في حديثه عن البدو والأعراب الذين يتنقلون في البوادي من مكان إلى آخر بحسب الأحوال التي تكون عليها في الصيف والشتاء، من حرارة أو برودة ومن جدب أو إخصاب، والأهم من ذلك أنهم إنما سكنوا البر الأفيح من أجل أنهم «لا يخافون فيه من حصر ولا منازلة ضر، هذا مع ارتفاع الأقذاء وسماحة الهواء وعدم الوباء، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن ونقاء القرائح في التنقل في المساكن مع صحة الأمزجة وقوة الفطن وصفاء الألوان ومتانة الأجسام، فإن العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء وطبع الفضاء وفي هذا الأمن من العاهات والأسقام والعلل والآلام، فآثرت العرب السكنى في البوادي والحلول بالبيداء: فهم أقوى الناس هماً وأشدهم أحلاماً وأصحهم أجساماً، وأعزهم جاراً وأحماهم ذماراً وأفضلهم جوداً وأجودهم فطناً لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء، لأن المدن يحتوي هواؤها على متكاثف الأكدار وغثاء الأقذاء لما يرتفع إليه ويتلاطم في عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات والمستنقعات من

---

(١) المصدر السابق ٢/١٨١، ١٨٤ ــ ١٨٥؛ وانظر: التنبيه، ص ٣٥.

(٢) المروج ٢/١٨٤ ــ ١٨٦؛ والتنبيه، ص ٤٢ ــ ٤٣.

المياه، ففي أكنافه جميع ما يتصعد إليه، ولذلك تراكبت الأقذاء والأدواء والعاهات في أهل المدن وتركبت في أجسامهم وتضاعفت في أشعارهم وأبشارهم»[١].

وهكذا من خلال هذا التحليل الجيد من المسعودي نقف على أثر واضح ومعلوم من آثار البيئة في حياة وأخلاق وأجسام طائفة من الناس، مع ذكر مقارنة بسيطة توضح شيئاً من الفروق بين هذه الطائفة وبين غيرها ممن لم يحذ حذوها. وقد أخذ ابن خلدون نظرية المسعودي في البداوة وسكنى العرب البوادي، وجعل منها العامل المحرك في تاريخ العرب، وعلى أساسها فسَّر تاريخ المغرب الإسلامي بصفة خاصة من حيث أنه صراع بين ممالك الغرب ودوله وبين قبائل البدو فيه من العرب والبربر[٢].

ومن الموضوعات المتعلقة بهذا الباب قضية التأقلم على البيئة التي نجد لها صدى واضحاً في مؤلفات المسعودي، حيث يمكننا أن نستشف وميضاً من تصوره لتأقلم كل من الإنسان والحيوان والنبات للعيش في البيئة التي وجد بها، أو البيئة الجديدة التي ينتقل إليها[٣]، فمن حيث تأثير البيئة الأصلية وتأقلم الحيوانات والحشرات عليها، واكتسابها ألواناً من اللون الطبيعي للبيئة نجده يقول: «فغلب طبع كل أرض على ساكنها كما نشاهد الحرار السود والأغوار وحشها إلى السواد، ووحش الرمال البيض على ذلك اللون، فإن كانت الرمال أحمر فوحشها عفر وهو لون التراب، وكذلك وحش الجبال من الأراوي وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال إن حمراً وإن بيضاً وإن سوداً، وعلى هذا السبيل تكون القملة في الشعر الأسود سوداء وفي الشعر الأبيض بيضاء وفي المشيب شهباء وفي الأحمر حمراء[٤]».

---

(١) المروج ٢/٢٤٧.

(٢) د. سعد زغلول عبدالحميد: ابن خلدون مؤرخاً (مجلة عالم الفكر المجلد الرابع عشر، العدد الثاني. الكويت: وزارة الأعلام ١٩٨٣م)، ص ٣١.

(٣) See Alavi: S. M. Ziauddin, op. cit., p. 95.

(٤) التنبيه، ص ٢٩.

أما من حيث التأقلم على البيئة الجديدة، ففي حديثه عن الأتراك الذين هاجروا إلى الهند واستقروا بها أشار إلى فقدانهم لملامحهم وألوانهم الأصلية واكتسابهم ألواناً جديدة تتناسب مع البيئة التي حلوا بها[١]، وكذلك النباتات إذا نقلت من مكانها الأول في البيئة التي ظهرت بها إلى مكان جديد فقد يتغير لونها أو طعمها أو حتى يتغير شكل ثمارها[٢].

وبهذا تتضح لنا الآثار القوية الخاصة لكل بيئة من البيئات على الحياة التي تكون فيها وعلى مظاهرها أيضاً، فالأمم القديمة المتحضرة التي كان لها باع طويل في تقدم العلوم والفنون لم يكن ليتيسر لها ذلك لو لم تسكن في مناطق معتدلة مناسبة في خصائصها وتأثيراتها. وحتى النبوات والشرائع كانت تتنزل على كل أمة مراعى فيها البعد المكاني الذي تعيش فيه[٣] «وكانت شرائع كل أمة بحسب مناسكهم وحسب الجهات التي فيها معايشهم. وشيمهم الطبيعية التي فطروا عليها ومن يجاورهم من سائر الأمم»[٤].

ومن الغريب بعد ملاحظة ما تقدم أن نجد من يقول: إن المسعودي لم يع وعياً واضحاً قضية التفاعل بين الأمة وبيئتها الجغرافية[٥]، فإذا كان المسعودي بملاحظاته السديدة ودراساته القيمة في هذا الموضوع لم يدرك التفاعل بين الإنسان والبيئة، فمتى سيكون الإدراك؟ وإن استقراء ما تقدم من ملاحظات المسعودي في تأثير العناصر الجغرافية الممثلة في المناخ والسطح وغيرهما في تحديد مناقب الإنسان الطبيعية والسلوكية والعقلية والثقافية، وإدراكه لأثرها الفعال في مستواه الحضاري، وإدراكه أيضاً لتأثيرها في سائر الحيوان والنبات والجماد

---

(١) المروج ١/١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ١/١٨٠.

(٣) Khalidi: Islamic Historiography, p. 72.

(٤) المروج ٢/٢٤٧.

(٥) انظر ناصيف نصار: مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، ص ٨٣، ومن الغريب أنه هو نفسه كان يقول قبل ذلك بقليل وفي الصفحة نفسها:
«فالعلاقة بين الأرض والأمة في نظرته الاجتماعية الجغرافية علاقة أكيدة».

وتكراره المستمر لبيان هذه الآثار، ليؤكد لنا بحق عمق نظرته وصدق إدراكه لهذه القضية.

(و) الجوانب الحضارية في تاريخ المسعودي :

لم يقتصر تاريخ المسعودي على السرد الروائي لأحداث التاريخ بطريقة جافة مملة تعتمد على إيراد سير الملوك والخلفاء وجعلها محوراً تدور حوله الدراسة التاريخية، كما كان شائعاً ومتبعاً لدى عامة المؤرخين، بل سلك نهجاً مستقلاً مميزاً عمد فيه إلى تسجيل كل ما يتعلق بالإنسان ــ مناط التاريخ ــ فنظر إليه نظرة شاملة من غير فصل بين ما يتعلق بشؤونه الحربية أو السياسية وبين ما يتعلق بحياته الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية أو ما يمس أخلاقه ونظمه في الحياة، أو ما يؤثر فيه من الأشياء في محيط بيئته الجغرافية، وكيفية تغلبه على الظروف والعوامل التي وقفت في سبيله حائلة بينه وبين تحقيق أهدافه والوصول إلى مراميه في هذه الحياة... فقد أتى المسعودي في كتبه على ذكر «كثير من أخبار العالم وخواص بقاعه وأبنيته وجباله وبدائع ما فيه من الخلق من الحيوان وغيره.. وكذلك ذكرنا ما خص به كل بلد من أنواع الفواكه دون غيره من البلدان في الإسلام وغيره من الممالك، وما بان به أهل كل بلد من اللباس والأخلاق دون غيرهم، وما تفردوا به من أنواع الأغذية والمآكل والمشارب والشيم، وعجائب كل بلد»[1].

وكان من أبرز الجوانب التي اهتم المسعودي بمعالجتها وتحليلها القيم الدينية والمبادىء العقائدية لكل أمة من الأمم التي تناولها في كتبه[2]، والدليل على ذلك أننا نجد لديه كتباً متخصصة في بحث العقائد والأديان مثل كتابي المقالات في أصول الديانات، ونظم الأدلة في أصول الملة وغيرهما.

وفي كتاب مروج الذهب نجد فصولاً متعددة خاصة ببحث وتفسير كثير

---

(١) المروج ٢/٤١٠.

(٢) انظر الرسالة المخصصة لبحث هذا الموضوع بعنوان: «منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية» بقلم الباحث هادي حسين حمود.

من القضايا المتعلقة بهذا الجانب، فقد تحدث عن ديانات العرب وآرائها في الجاهلية[1] وما ذهبوا إليه في النفوس والهام والصفر[2]، وأقاويلهم في الغيلان والتغول وما لحق بها[3]، وفي الهواتف والجان[4]، وما ذهبوا إليه من القيافة والزجر والعيافة والسانح والبارح[5]، والكهانة[6]، وغير ذلك. كما تحدث عن البيوت المعظمة والهياكل المشرفة وبيوت النيران والأصنام وعبادة الكواكب وغيرها[7]، فذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين[8]، وعند أوائل الروم[9]، وعند الصقالبة، ثم ذكر البيوت المعظمة والهياكل المشرفة لدى الصائبة وغيرها[11]، ثم فصل القول عن أخبار بيوت النيران المنتشرة في بلاد فارس ومن رسمها من ملوك الفرس الأولى والثانية[12].

وإلى جانب هذه الفصول المخصصة لبحث الديانات والعقائد وما يتصل بها من بيوت معظمة وهياكل مشرفة، نجد في ثنايا الفصول التاريخية سواء في كتاب المروج أو التنبيه لمعاً منبهة على بعض المعتقدات الدينية وغيرها من الأفكار المتأصلة والمتوارثة لدى الأمم المختلفة، مثل تعذيب الهنود لأنفسهم بأنواع العذاب واعتقادهم أن ما ينالونه من النعيم في المستقبل مؤجلاً مرهون بما أسلفوه من تعذيب أنفسهم في الدنيا [13]، ولذلك كانوا يلجأون إلى إحراق أنفسهم

---

(١) المروج ٢/٢٥٣.
(٢) المصدر السابق ٢/٢٨٦.
(٣) المصدر السابق ٢/٢٨٩.
(٤) المصدر السابق ٢/٢٩٥.
(٥) المصدر السابق ٢/٣٠١.
(٦) المصدر السابق ٢/٣٠٨.
(٧) المروج ٢/٣٧٩.
(٨) المصدر السابق ٢/٣٨٦.
(٩) المصدر السابق ٢/٣٨٨.
(١٠) المصدر السابق ٢/٣٨٩.
(١١) المصدر السابق ٢/٣٩١.
(١٢) المصدر السابق ٢/٣٩٧.
(١٣) المصدر السابق ١/٢٤٧.

بالنيران[1]، وإلى أنواع أخرى من العذاب[2].

وما نلحظه أيضاً من وصفه لبعض شرائع الصين التي رسمها ملوكهم العظام[3]، وما أحدثوه من الديانات المنحرفة وعبادة الأصنام والتماثيل والصور[4]، وغير ذلك من الآراء والنحل.

وكذلك وصفه لديانات وعقائد الأمم الكثيرة القاطنة حول جبل القبخ (القوقاز) مثل ممالك شروان والسرير وطبرستان المسلمة[5]، ومملكة الخزر التي اعتنق ملكها اليهودية[6]، وممالك غميق[7]، والابخاز والجزرية[8]، والصمصخا[9]، النصرانية، ومملكة كشك المجوسية[10]، إلى غير ذلك من الأمم والممالك الكافرة أو الجاهلية التي لا تنقاد إلى دين[11]، ومما يوضح حرص المسعودي على معرفة وتتبع أديان تلك الأمم والممالك أنه إذا لم يجد ما يذكره في هذا الجانب قال: «لا أعلم ملتها ولا نمي إليّ خبرها في دينها»[12].

---

(١) المصدر السابق ١/٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) من ذلك مثلاً اجتماعهم حول النهر المعروف بالهرمند «وهناك جبال عالية وأشجار عادية ورجال جلوس وحداتق وسيوف منصوبة على تلك الأشجار وقطع من الخشب، فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولونه من تزهيدهم في هذا العالم والترغيب فيما سواه، فيطرحون أنفسهم من أعالي تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة فيتقطعون قطعاً ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء»، المروج ١/٢٤٦.

(٣) المروج، ١/١٥٩ ـ ١٦٠.

(٤) المصدر السابق، ١/١٦١ ـ ١٦٢.

(٥) المصدر السابق، ١/٢١٠ ـ ٢١١.

(٦) المصدر السابق، ١/٢١٢.

(٧) المصدر السابق، ١/٢٢٧.

(٨) المصدر السابق، ١/٢٣٨.

(٩) المصدر السابق، ١/٢٣٩.

(١٠) المصدر السابق، ١/٢١٢.

(١١) المصدر السابق، ١/٢١١ ـ ٢٣٩.

(١٢) المروج، ١/٢٣١.

وبما يلحظه الدارس بصورة واضحة حديث المسعودي عن الديانة النصرانية في مواضع كثيرة من كتبه، وعن كنائس النصارى وأديرتهم وسنهودساتهم، وفرقهم، وغير ذلك مما يتعلق بمعتقداتهم[1].

ومن الجوانب الهامة التي كان لها صدى في تاريخ المسعودي وتطرق لها بوضوح حديثه عن النواحي الاجتماعية، وهو بذلك يبزُّ سلفه اليعقوبي الذي لم يهتم كثيراً بإبرازها خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي والأحداث التي عاصرها، وتكاد كتاباته تخلو خلواً تاماً منها[2].

وقد كان تركيز المسعودي على بيان النواحي الاجتماعية في سائر تاريخه للأمم القديمة والحديثة ملحوظاً وواضحاً، فنجده يلتفت إلى كل أمر غريب من العادات والتقاليد والطبائع ويصفه وصفاً بديعاً شيقاً، يتحدث عن كيفية تنصيب وتتويج الملوك، وعن الآثار والقبور، والأهرامات والبرابي[3]، والمغامرات التي قام بها سراق ونباشوا القبور لاستخراج ما فيها من نفائس وكنوز[4]. ووصف الأعياد والاحتفالات التي كانت تقام في المناسات المختلفة[5].

ونجد في أخباره عن الهند وممالكها كثيراً من الإشارات المنبهة إلى الصور والقضايا الاجتماعية، كتقسيماتهم الطبقية من البراهمة وغيرهم، وما يتخذونه من العلامات المميزة لهم عن سائر أجناس الهند[6]، وعاداتهم في دفن موتاهم[7]، إلى غير ذلك من أخلاقهم وشيمهم في المآكل والمشارب والمناكح

---

(١) انظر مثلاً: المروج، ٤٢/٢ وما بعدها؛ والتنبيه، ص١٣٨ وما بعدها إلى ص١٧٦.

(٢) انظر: علي محسن مال الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق، (رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٣م) ص٢٦١.

(٣) أي مقابر قدماء المصريين.

(٤) انظر جواد علي، موارد تاريخ المسعودي، ص٢.

(٥) المروج، ١٦٠/١، ٧٠/٢.

(٦) المصدر السابق، ٨٦/١ ــ ٨٧.

(٧) المصدر السابق، ٩٣/١.

والملابس والعلاج والأدوية، كالكي بالنار وغيره، وعدم احتشامهم في إخراج الريح من أجوافهم في مجالسهم[1].

ومن النماذج التي يلحظها الناظر في مؤلفات المسعودي وتتعلق بالجوانب الاجتماعية ما ذكره عن الزنج من طرقهم في الوعظ والإرشاد، ومأكولاتهم والأنـواع المنتشـرة بينهم من الأقـوات والأرزاق، وطـرائقهم في اختيـار معبوداتهم[2].

وفي العصر الإسلامي تحدث المسعودي عن بعض العادات والتقاليد الشائعة بين الناس في اللباس[3]، والشراب والطعام[4]، كما تحدث عن وجود بعض العادات السيئة المنتشرة بين الناس في عصره مثل تفشي ظاهرة الحسد[5]، وانعدام الصديق الوفي الذي يتعامل بصدق وإخلاص[6]. ونلاحظ في تاريخ المسعودي أنه عند ذكر كل خليفة أو ملك من الملوك يصف أحواله الاجتماعية وصفاً دقيقاً، فيذكر طرفاً من أخباره الخاصة، وأخلاقه، وملامحه وتقاطيع وجهه، وعدد أولاده وبناته وغير ذلك مما يبين عن كثير من جوانب حياته الاجتماعية[7].

وقد حظيت الجوانب الاقتصادية من أحوال الأمم التي تناولها المسعودي باهتمام واضح، فمن الأمثلة التي تدل على ذلك أنه في تاريخه لبلاد الصين مثلاً ذكر أنواع العملات الموجودة، وبين الفئات الأكثر تداولاً منها، وأشار إلى المواد التي تصنع منها[8]، وما كان يقوم به الصينيون من العمليات الإحصائية للسكان

---

(١) المصدر السابق، ١/٢٠٧.
(٢) المروج، ٢/١٢٥ ــ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق، ٥/١٤٣.
(٤) المصدر السابق، ٥/١٨٨ ــ ١٩١.
(٥) التنبيه، ص٧٧.
(٦) المروج، ٤/١٧٧ ــ ١٧٨.
(٧) المصدر السابق، انظر مثلاً، ٣/٧٥ ــ ٧٦، ٢٢٠ وما بعدها، ٢٦٠، ٤/١٦٦، ١٦٧.
(٨) المروج، ١/١٦٠.

وغيرهم[1]، وما في بلادهم من المهن والصنائع والحرف اليدوية، فهم «من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة، وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة: فإن لم يخرج فيه أحد عيباً أجازه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج فيه عيب إطَّرحه ولم يجزه عليه»[2].

وتحدث المسعودي عن جزائر كثيرة تعرف بجزائر الدِّيبَجات[3]، وذكر ما فيها من الموارد الاقتصادية الثمينة كالعنبر ومعادن الذهب ونخل النارجيل، وما فيها من الصناعات اللطيفة و«سائر المهن والصنائع في الثياب والآلات وغير ذلك»[4]، وتحدث أيضاً عن بعض الممالك الصغيرة وما تشتهر به من المعادن النفيسة كالودع والذهب والفضة[5]. وما يحمل منها من أنواع البضائع والصادرات النادرة، غالية الأثمان كجلود الثعالب[6]، وأنواع الثياب الكتانية الرقيقة[7] وغير ذلك من الأصناف[8].

وأشار إلى ما كان يقوم به ملوك الفرس من الإصلاحات الزراعية، كاحتفار الأنهار، وتعمير البلدان والضياع[9]، وما سنوه في ممالكهم من نظم الخراج الدقيقة[10]، وما أحدثوه من الصنائع والمهن والأبنية في بلادهم.

---

(١) المصدر السابق، ١/١٦٤.
(٢) المصدر السابق، ١/١٧٢ ــ ١٧٣.
(٣) هذه الجزر هي جزر المالديف الواقعة قرب السواحل الغربية للهند.
(٤) المروج، ١/١٧٩ ــ ١٨٠.
(٥) المصدر السابق، ١/٢٠٤.
(٦) المصدر السابق، ١/٢١٥.
(٧) المصدر السابق، ١/٢٣٠.
(٨) المصدر السابق، انظر مثلاً، ١/٢٠٤.
(٩) المصدر السابق، ١/٢٧٣.
(١٠) المصدر السابق، ١/٣٠٩ ــ ٣١٠.

ونجد إشارات المسعودي إلى دور صناعة المراكب والسفن[1]، وما كانت تطلى أو تشحم به هذه المراكب من أنواع الشحوم والنورة[2].

وقد ذكر ما تشتهر به بلاد الأندلس من معادن الفضة والزئبق، وما يصدر منها إلى بلاد الإسلام وبلاد الكفر من الزعفران وعروق الزنجبيل وغيرهما[3].

وتحدث المسعودي حديث خبير عن أصول الطيب وأصنافه ومصادره والبلاد المشهورة بإنتاجه، وعن أنواع الأفاويه الكثيرة، وأوضح أنه قد أتى على وصف جميع المعادن من الذهب والفضة والزئبق وعلى سائر أنـواع الطيب والأفاويه في كتبه المتقدمة في تصنيفها[4].

ومن الأمور الملفتة للنظر اهتمام المسعودي وحرصه على التعليل لبعض المظاهر الاقتصادية، مثل بحثه عن الأسباب التي كانت وراء ندرة وغلاء العاج الافريقي في البلاد الإسلامية على الرغم من وجوده بكثرة في افريقية، وقد لاحظ المسعودي أن استيراد الصينيين والهنود لهذه الثروة النفيسة وإقبالهم الشديد عليها كان من العوامل الرئيسة التي جعلته نادراً وغالي الثمن وباهظ التكاليف في البلاد الإسلامية[5].

ونجد لدى المسعودي كثيراً من التحليلات والإشارات القيمة لبعض المظاهر والآثار التي تخلفها الحروب الأهلية، وما تجره على البلاد من الويلات والنكبات في تدمير اقتصادها، من هدم المنازل وإحراق الديار وانتهاب الأموال وغلاء الأسعار وتدمير الآثار[6]، ونسمع صدى قوياً لهذه الأمور في تاريخ

(١) المصدر السابق، ٢/١٤٦.
(٢) المصدر السابق، ٥/١٤٣.
(٣) المصدر السابق، ١/١٩٤.
(٤) المصدر السابق، ١/١٩٥.
(٥) المروج، ٢/١١٣.
(٦) المصدر السابق، ٤/٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٥؛ وانظر قصيدة الشاعر الأعمى التي أوردها المسعودي مصوراً بها ما آل إليه حال بغداد من جراء الحروب التي دارت فيها بين جيوش المأمون والأمين، ٤/٢٧٦ ــ ٢٧٨.

المسعودي للحروب التي جرت بين جيوش الأمين وجيوش المأمون في بغداد وما أصابها من الأهوال والأمور المنكرة التي لم تر لها مثيلاً منذ أن ابتناها أبو جعفر المنصور[1].

وعن الجوانب الثقافية يكفينا دليلاً على اهتمام المسعودي بها من نظرة فاحصة نلقيها على جملة المؤلفات التي ذكرها سواء أكانت من ضمن مصادره أم لا، ونظراته التحليلية وأحكامه النقدية على محتوياتها أو على مؤلفيها، فكل ذلك يوضح لنا جانباً كبيراً من اهتمام المسعودي ووعيه بالحركة الثقافية الجارية في عصره.

وعدا عن ذلك لو تلمسنا بعض الإشارات المتناثرة في مؤلفيه والتي يمكن أن تعطي وميضاً يشعر باهتمامه في هذا الجانب، فمثلاً يلاحظ تركيزه على إيراد الحكم والأقوال المشهورة ذات المعاني السامية الصادرة عن الأنبياء أو الملوك أو العقلاء أو الحكماء منذ أقدم العصور حتى عصره، فيضع المسعودي بذلك بين يدي قارىء كتبه تجارب الأمم السالفة وخلاصة عصارة أفكارها التي لم تصدر إلا عن روية وفطنة ودراسة، فيأخذ الإنسان العاقل العبرة، ويبدأ من حيث انتهى من قبله[2].

ونجد لدى المسعودي أحياناً تعليقات كيسة في بعض المناسبات يمكن أن تعد رصيداً ثقافياً جيداً، مثل تعليقه بعد أن ذكر طرفاً من تفاخر بعض الأمم بأنسابها بقوله: «فالواجب على ذي النسب الشريف والمجد الرفيع أن لا يجعل ذلك سلماً إلى التراخي عن الأعمال الموافقة لنسبه والاتكال على آبائه، فإن شرف الأنساب يحض على شرف الأعمال، والشريف بهذا أولى إذ كان الشرف يدعو إلى الشرف ولا يثبط عنه كما إن الحسن يدعو إلى الحسن ويحرك عليه، وأكثر الممدوحين إنما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم»[3]، ثم أورد نماذج من أعمال الرجال الذين حازوا شرف الأعمال إلى جانب شرف الأنساب.

---

(١) المصدر السابق، ٤/٢٨١.

(٢) المصدر السابق، انظر مثلاً، ٢/١٠ ـ ١٢، ٣/٣٣ ـ ٣٨.

(٣) المروج، ٢/١٧٢.

ومن ولع المسعودي بالحديث عن الحياة الثقافية أخباره الكثيرة عن العلماء، وأقطاب الحركات الفكرية والثقافية عبر العصور المختلفة، كحديثه عن اجتماع حكماء الهند وعلمائها للنظر في قصة العالم وأسراره[١]، وحديثه عن الفلاسفة اليونانيين وأقوالهم وآرائهم، وانصراف هممهم إلى تقييد عُلوم الأشياء الطبيعية والنفسية وغير ذلك من علوم الفلسفة[٢]، وإشاراته إلى الاجتماعات السبعة المشهورة لحكماء الأمم السبع في سالف الدهر، حيث «اجتمع في كل مجمع منها سبعة حكماء في أعصار مختلفة وأوقات متباينة عند حوادث وأحوال أوجبت اجتماعهم، فجرى لهم فنون من البحث والنظر وضروب من الحكم والعبر بما يحدث في الدهر من الغير بتنقل الدول وتغير الملل، والكلام في العالم ما هو وكيف هو ولما هو وما علته ومعلوله وظاهره وباطنه وحقائقه واختراع الأجسام وإنشائها وإلى ماذا يؤول هو بعد فنائها، وغير ذلك من فنون الفحص وضروب البحث»[٣]، وأخباره كذلك عن المؤلفات والكتب العلمية الهندية[٤]، والفارسية[٥]، واليونانية[٦]، والإسلامية[٧] وغيرها، وتتبعه كذلك لأخبار العلماء المسلمين وذكر وفياتهم وما أضافوه إلى العلم من جلائل الأعمال[٨].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أيضاً ما يلحظ من شغف المسعودي وقيامه بإجراء المناظرات والمحاورات مع علماء آخرين من ديانات مناهضة للإسلام

---

(١) المصدر السابق، ١/٨٧.
(٢) المصدر السابق، ٢/٩؛ والتنبيه، ص١١٦، ١٢١.
(٣) التنبيه، ص ٨٤ ــ ٨٥.
(٤) المروج، ١/٨٩.
(٥) المصدر السابق، ١/٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨٩، ٣١٨.
(٦) المصدر السابق، ١/١٠١، ١١١، ٢/٤٥؛ والتنبيه، ص١٦٢ ــ ١٦٣.
(٧) يمكن فهم المزيد حول هذا الموضوع بإلقاء نظرة على الفصل المخصص لدراسة مصادر المسعودي.
(٨) المروج، انظر مثلاً: ٤/٣٧، ٣٩، ١٥٩، ١٩٩، ٢٠٣، ٣١٠، ٣٢٠، ٥/٢٠ ــ ٢٣، ٤٤ ــ ٤٥، ٧٩ ــ ٨٠، ١١٨، ١٦٣، ٢٠٧.

كاليهودية[١]، والنصرانية[٢]، أو من فرق ضالة منحرفة[٣]، وإيراده كذلك لأخبار الندوات والمناظرات والمفاخرات التي كانت تعقد في مجالس الخلفاء والملوك والأمراء[٤].

وهكذا نرى من خلال إشاراتنا الموجزة لبعض النماذج من اهتمامات المسعودي الحضارية أن مؤلفاته يمكن أن تكون مرآة لأعظم جوانب النهضة الإسلامية في العصر العباسي[٥].

وأن كتاب المروج بصفة خاصة يحتوي من بين المؤلفات الإسلامية على أفضل تصوير لجوانب الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر الخلافة الإسلامية[٦].

(ز) التمهيد لبعض العلوم الاجتماعية :

في عصر متأخر عن العصر الذي ظهر فيه المسعودي استنبطت وظهرت علوم جديدة لم تكن معروفة بأسمائها من قبل مثل علم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما، ولكن مع ذلك كانت جذور هذه العلوم قد ترسخت في العصور الإسلامية، الأولى على أيدي بعض البارزين من العلماء المسلمين، ونوقشت بعض القضايا الهامة والأساسية فيها من قبل أولئك العلماء، ومع ذلك لم تتبلور تلك العلوم وتتحدد سماتها الأساسية إلا في عصور متأخرة.

وقد كان المسعودي من أولئك العلماء الذين قدموا دراسات سابقة في مجال تلك العلوم، وخاصة في علمي الاجتماع والنفس، وكانت دراساته أساساً ومنطلقاً لبعض المفكرين المسلمين الذين قطعوا شوطاً كبيراً في تطوير علم

---

(١) التنبيه، ص١١٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٥.

(٣) المصدر السابق، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٤) المروج، ٣٠٣/٤ ـ ٣٠٤، ٣٠٩ ـ ٣١٠، ٣١٤ ـ ٣١٦، ٣١٩.

(٥) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص٢٦٧.

(٦) فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١٨١/١.

الاجتماع مثلاً كابن حزم[1] (ت ٤٥٦هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ).

هذا وكنا قد أشرنا في معرض حديثنا عن الجوانب الحضارية في تاريخ المسعودي إلى تركيزه على بيان النواحي الاجتماعية للأمم القديمة والحديثة التي تعرض لبحث تاريخها، وقدمنا أمثلة ونماذج على ذلك، ويكفينا هنا للتدليل على إثبات أن المسعودي كان من الرواد الأوائل الذين لفتوا الأنظار إلى علم الاجتماع وطرقوا أبوابه قبل ابن خلدون وغيره من العلماء أن نثبت النص الآتي الذي أورده المسعودي وهو يسرد مجمل الموضوعات والأبواب التي طرقها في سلسلة كتبه التاريخية السابق تأليفها، فمن ضمن أبحاثه في تلك الكتب الإخبار عن «آداب الرئاسة وضروب أقسام السياسة المدنية، الملوكية منها والعامية، مما يلزم الملك في سياسة نفسه ورعيته، ووجوه أقسام السياسة الديانية، وعدد أجزائها، ولأية علة لا بد للملك من دين، كما لا بد للدين من ملك، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، ولم وجب ذلك، وما سببه؟ وكيف تدخل الآفات على الملك، وتزول الدول، وتبيد الشرائع والملل؟ والآفات التي تحدث في نفس الملك والدين، والآفات الخارجة المعترضة لذلك وتحصين الدين والملك، وكيف يعالج كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتل من نفسه أو من عارض يعرض له، وماهية ذلك العلاج، وكيفيته، وأمارات إقبال الدول، وسياسة البلدان والأديان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكايد في الحروب ظاهراً وباطناً وغير ذلك»[2].

---

(١) عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، أحد أئمة الأندلس الأعلام محدث فقيه حافظ مستنبط للأحكام من الكتاب والسنة، بعيد عن المصانعة والمداهنة ولهذا ضايقه كثير من العلماء في عصره وسعوا به إلى الملوك، فهجر المدن وتوفي في البادية، له مصنفات غزيرة جداً في الفقه والملل والنحل والأخلاق والآداب وغير ذلك مثل كتاب المحلى، الفصل في الملل والأهواء والنحل، جمهرة الأنساب وغيرها. انظر عنه: محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م)، ص٣٠٨ ــ ٣١١؛ والضبي: بُغية المُلْتَمِس، ص٤١٥ ــ ٤١٨.

(٢) التنبيه، ص٣ ــ ٤.

ومن هذا النص وغيره مما كتبه المسعودي يفهم أنه كان مدركاً لعلاقة الدعم المتبادل بين الدين والدولة، ولأهمية الدين في بناء وقيام الدول، وكيف تدب الآفات إليها ويطرأ الهرم عليها، وأن لها أعماراً كأعمار البشر من الطفولة حتى الشيخوخة كما هو الحال في بعض المظاهر الطبيعية كالأنهار، وأنها إذا لم تحصن من الآفات وتعالج من العلل العارضة يسرع إليها الخراب والفساد ثم تؤول إلى الزوال.

ومما يؤسف له أن كتب المسعودي المطولة ككتاب أخبار الزمان والأوسط التي يظهر أنه تطرق فيها لبحث هذه الموضوعات بالتفصيل غير موجودة الآن، ولكن هذا النص على أي حال يعطينا صورة مجملة عن نوعية بعض الموضوعات الاجتماعية التي تناولها المسعودي، والتي نجد لها صدى قوياً وواضحاً في مقدمة ابن خلدون التي أعلن فيها عن استنباط هذا العلم، وشرح كثيراً من مسائله، ومهد الطريق لمن يأتي بعده لاستكمال أبوابه وفصوله[1].

ومن هنا نرى أن الفكر الاجتماعي الذي تنطوي عليه كتابات المسعودي التاريخية ليس عملاً ثانوياً لا يؤبه له، وإنما هو عمل على جانب من الأهمية، فمفهوم (الأمة)[2] مثلاً أحد المفاهيم الاجتماعية الرئيسة في كتابة المسعودي التاريخية إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وقد تناوله بالشرح والتحليل، فذكر كثيراً من الأمم البائدة في أكناف الزمان وتحدث عن مقوماتها وقوانينها ونظمها من اللسان، والشريعة، والاقتصاد، والشيم الطبيعية وغيرها[3]، ثم ذكر ما عرض لها من صروف الدهر بسبب اختلال مقوماتها وانهيار نظمها وفساد شرائعها.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٥٨٨؛ وانظر أيضاً ١٥٧، ١٧٠ ـ ١٧١، ٢٩٢ ـ ٢٩٧ من المقدمة نفسها.

(٢) كتب د. ناصيف نصار، فصلاً عن (مفهوم الأمة في نظرة المسعودي إلى التاريخ) ذكر فيه معنى الأمة ومقوماتها في نظر المسعودي، وقارن فيه بين المسعودي والفيلسوف الفارابي حول نظرة كل منهما إلى الأمة. انظر: مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، ص٥٥ ـ ٨٦، وانظر أيضاً:
S. M. Stern, «Al-Masudi and the philosopher Al-Farabi», (MMCV) pp. 28-41.

(٣) التنبيه، ص٨٤.

وهكذا يمكننا أن نضع المسعودي بدون شك أو تردد في عداد منشئي ذلك النوع من التحليل التاريخي الاجتماعي الذي بلغ ذروته في مقدمة ابن خلدون(١)، وأن نعتبره من ممهدي علم الاجتماع القانوني(٢) وغيره من فروع علم الاجتماع، وذلك قبل أن يظهر ابن خلدون بحوالي خمسة قرون.

* * *

أما في مجال علم النفس فقد قدم المسعودي دراسات نفسية مهمة في كتاب مروج الذهب وما سبقه من الكتب ككتاب سر الحياة وكتاب الزلف، فتحدث عن طبقات النفوس وأن «منها الصافي وهي النفس الناطقة، ومنها الكدر وهي النفس الحسية والنفس النزاعية والنفس المتخيلة، ومنها ما قوته أزيد في الإنسان من قوة الجسم، ومنها ما قوة الجسم أزيد منه»(٣)، كما ذكر أنه تناول في الكتابين الأخيرين مباحث عن «النفس الناطقة والنفس الغضبية والنفس الحسية والنفس الشهوانية، وما قال الناس في ذلك ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم»(٤). وتناول المسعودي في مؤلفاته الرؤيا والأحلام وما يعرض للنائم في نومه من المشاهد المختلفة، فذكر أسبابها الموقعة لها وماهيتها وكيفية وقوعها وذكر آراء العلماء فيها(٥)، وكان قد فصل القول فيها من قبل في كتابين سابقين من كتبه هما كتاب النهى والكمال وكتاب طب النفوس(٦)، ولا بد أن هذه الكتب قد احتوت على مباحث كثيرة عن النفس وما يعرض لها.

وفي حديث المسعودي عن الكهانة والتكهن عند الأمم يقرر أن أصلها نفسي لأنها لطيفة ثاقبة(٧)، وترجع بعض الآراء التي قيلت فيها إلى أنها من علل

---

(١) G. E. Von Grunebaum, «Statement», (MMCV) p. 138.

(٢) نصار، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، ص٧٩.

(٣) المروج، ٢/٣١٠.

(٤) المصدر السابق، ١/٢٦٢.

(٥) المصدر السابق، ٢/٣١٢ ـ ٣١٦.

(٦) المصدر السابق، ٢/٣١٦.

(٧) المصدر السابق، ٢/٣١١.

نفسية[1]، وأن التكهن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس[2]، ولا يغفل المسعودي الآراء التي تقول: إن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه، وأن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويلقونه على ألسنة الكهان[3].

وقد ساق المسعودي آراء الفلاسفة اليونانيين والهنود عن تحديد النفس وطبيعتها، فذكر ما قاله أفلاطون في عدد من كتبه، وما قاله صاحب المنطق وهو أرسطاطاليس، وفيثاغورس وغيرهم من الفلاسفة ممن تقدم وتأخر[4]، ولم يفته ما «تلكم به الناس في طبقات النفوس وصفاتها من أصحاب الاثنين وغيرهم من الفلاسفة. ثم تنازع أهل الإسلام في ماهية الإنسان الحساس الدراك المأمور المنهي، وما قالته المتصوفة وأصحاب المعارف والدعاوى في طبقات النفوس من النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء، وغير ذلك مما ذهب إليه اليهود والنصارى والمجوس والصابئة»[5]. مما أوضحه المسعودي في كتاب سر الحياة.

وذكر ما تحدث به بعض ملوك الفرس الأول من آثار الغذاء والحالة التي يكون عليها الشخص عند تناوله إياه على النفس والبدن[6].

وقدم المسعودي حديثاً طويلاً عن الموسيقى والغناء والرقص والطرب والإيقاع وما تحدثه هذه الأمور في النفس الإنسانية من السرور والفرح وإزالة

---

(١) المصدر السابق، ٢/٣١٠.
(٢) المصدر السابق، ٢/٣٠٩.
(٣) المروج، ٢/٣٠٩.
(٤) المصدر السابق، ٢/٣١٢، ٣١٦ ـ ٣١٧، ٣٩٣ ـ ٣٩٤.
(٥) المصدر السابق، ٢/٣١٧.
(٦) المصدر السابق، ١/٢٦٢.

الغم والحزن وما تدخله على القلب من الخفة والأريحية والطراوة[1] فحكي عن ابن خرداذبة أن «الغناء يرق الذهن ويلين العريكة ويهيج النفس ويسرها ويشجع القلب ويسخي البخيل. . . وقد كانت الملوك تنام على الغناء ليسري في عروقها السرور، وكانت ملوك الأعاجم لا تنام إلا على غناء مطرب أو سهر لذيذ، والعربية لا تنوم ولدها وهو يبكي خوف أن يسري الهم في جسده ويدب في عروقه، ولكنها تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فرح مسرور، فينمو جسده ويصفو لونه ودمه ويشف عقله»[2].

وهكذا يتحدث المسعودي عن اللهو والملاهي ويسوق أطراف الحديث عن الموسيقى والطرب والآثار التي تحدثها، ويعقب على ذلك بقوله: «وقد أشبعنا القول في الموسيقا [هكذا] وأصناف الملاهي والإيقاع وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسبة النغم، وما استعملته كل أمة من الأمم من أصناف الملاهي من اليونانيين والروم السريانيين والنبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الأمم، وقد ذكرنا مناسبة النغم للأوتار وممازجة ما بين النفس والألحان وكيفية تولد الطرب وإيقاع السرور وذهاب الغم وزوال الحزن وعلل ذلك الطبيعية والنفسية، وما أحاط بذلك من جميع الوجوه في كتابنا المترجم بكتاب الزلف»[3].

ومن ذلك القبيل أيضاً ما يورده المسعودي من أقوال ومناظرات تدور حول

---

(١) بغض النظر عن مدى صدق أو واقعية ما ذكره المسعودي في هذا الشأن، فإنه لم يشر مجرد إشارة إلى حكم الإسلام الجازم في تحريم الغناء، من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، انظر في ذلك كتاب أبي بكر الآجري (ت ٣٦٠هـ): تحريم النرد والشطرنج والملاهي، طبع رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤٠٢هـ. ويبدو أن المسعودي كان متأثراً بآراء الفلاسفة والحكماء السابقين وخاصة الهنود واليونانيين. انظر: المروج، ١/٩٤، ٢/٤٥ ــ ٤٦.

(٢) المروج، ٥/١٢٩ ــ ١٣٠.

(٣) المروج ٢/٤٦.

العشق والهيام وما يصاحب الجسد والنفس منهما من تأثيرات وأحوال من ضعف وقوة وغير ذلك[1].

وعلى أي حال فإنه يلاحظ أن المسعودي قد قدم في كتبه كثيراً من الصور للنفس البشرية، وأوضح تأثرها بالعوامل المختلفة، وساق ما قاله العلماء فيها، فهو لذلك يعتبر من المفكرين القلائل الذين اهتموا بعلم النفس[2]، وكانت دراساته وآراؤه النفسية والاجتماعية نبعاً قوياً استقى منه كثير من الباحثين والرواد الذين واصلوا البحث والتنقيب حتى قامت هذه العلوم على سوقها واتضحت معالمها.

* * *

(١) المصدر السابق، ٤/٢٣٦ ـ ٣٤٥.

(٢) د. الخربوطلي: الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي، ص ٢٩.

ثالثاً:

المسعودي والشعر[1]

لا نريد أن نستقصي تحت هذا العنوان كل ما يتعلق بالشعر لدى المسعودي، لأن ذلك أكثر وأدق من أن نأتي عليه في مثل هذا المقام، ولكن قصدنا هنا هو إبراز أن المسعودي كان يعتمد في بعض الأحيان على إيراد الأشعار وذلك لأهداف مختلفة سنبينها، ولكن يبدو أن ولعه بالشعر يعود لثلاثة أمور:

١ ــ نزعته الشعرية وذوقه الأدبي الرفيع، حيث نلحظ منه ميلاً واضحاً إلى التنبيه إلى الأساليب الأدبية القوية والمعاني السامية من كلام العرب وغيرهم من الأمم القديمة التي كان لها نصيب من الحكمة وحازت فنوناً من المعرفة، ومما يوضح هذا الاتجاه لدى المسعودي حسن اختياره للأبيات الشعرية ذات المعاني البليغة المؤثرة وذات الألفاظ السهلة الجميلة[2].

٢ ــ موسوعيته، حيث لم يترك فناً من الفنون إلا وقد خاض فيه، وكان الشعر منها الأقرب إلى قلبه، يحفظ منه عيونه وشواهده[3].

٣ ــ إن المؤرخ ــ في ذلك العصر ــ كان أديباً بطبيعة الحال، ولا يمكن أن يعرف التاريخ جيداً إلا بعد أن يأخذ قسطاً وافراً من الأدب وفنونه،

---

(١) انظر بحثاً عن دور الشعر في مؤلفات المسعودي:

H. Gulam Mustafa, «Use of Poetry by Al-Masudi in his works», (MMCV) pp. 77-83.

(٢) المروج، انظر مثلاً: ٥/١٩٤ ــ ١٩٥.

(٣) المقصود بالشواهد الأشعار التي تقال في مناسبات مهمة تاريخية أو غيرها. انظر: المروج، ٣/٣٤٤.

ولا سيما أن التاريخ في نظر المسعودي يحتاج إلى أن يطعَّم بالأدب لإضفاء المتعة وطرد الملل والسأم عن القارىء.

ومن المعروف أن الشعر العربي القديم يعتبر مصدراً قيماً من المصادر التي تكشف كثيراً من الجوانب التاريخية والاجتماعية والدينية وحتى الاقتصادية في العصر الجاهلي، وذلك لأنه السجل المحفوظ المتداول بين الناس ولكن المسعودي ـ كمؤرخ ـ استخدم الشعر بصفة عامة وهو يرمي إلى تحقيق عدد من الأهداف منها:

ـ تدعيم مصادره، وتوضيح بعض الحقائق التاريخية بإدراج الشواهد من الشعر عليها، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً[1]، ويكفي أن نورد منها مثلاً واحداً للإيضاح، قال المسعودي: «والفيل يهرب من السنانير وهي القطاط ولا يقف لها البتَّة إذا أبصر بها، وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقي الفيلة المقاتلة بالرجالة حولها ومراعاة خيل الأعداء عند الحرب بتخلية السنانير عليها، وكذلك أفعال ملوك السند والهند إلى هذه الغاية.. وقد كان رجلٌ بالمولتان من أرض السند يدعى هارون بن موسى مولى للأزد وكان شاعراً شجاعاً ذا رئاسة في قومه، ومنعة بأرض السند مما يلي بلاد المولتان، وكان في حصن له، فالتقى مع بعض ملوك الهند، وقد قدمت الهند أمامها الفيلة، فبرز هارون بن موسى أمام الصف وقصد لعظيم من الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سِنَّوْراً، فلما دنا من حملته من الفيل خلى القط عليه، فولى الفيل منهزماً لما أبصر ذلك الهر، فكان ذلك سبب هزيمة الجيش وقتل الملك وغلبة المسلمين عليهم»[2]، ثم أورد المسعودي قصيدة طويلة لهارون بن موسى مطلعها:

ألـيسَ عَـجـيـبـاً بـأَنْ خَـلْقُـه لـهُ فِطَنُ الإنسِ في جُـرْمِ فِيلِ

(1) المروج، انظر مثلاً: 1/56، 190، 2/55 ـ 56، 166 ـ 167، 219، 237، 265 ـ 268، 321 ـ 323، 383، 404، 3/16 ـ 17، 78، 121 ـ 122، 149 ـ 150، 286 ـ 287، 4/66 ـ 70؛ والتنبيه، ص 205 ـ 211.

(2) المروج، 2/116 ـ 117.

تحدث فيها عن هذه الحقيقة متعجباً من ضخامة الفيل وشدته في المعارك وهيبته في النفوس ومع ذلك يهرب من هذا المخلوق الضعيف، ثم وصف ما فعله به من إعداد الهرة، وما تم بعد ذلك[1].

ـ دعم وإثبات الآراء التي يميل إليها، أو آرائه الخاصة، مثل ما ذكره من أن الفرس يعودون بنسبهم إلى إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام فأورد ما قاله بعض شعراء العرب والعجم من الأشعار التي تؤيد هذا الرأي[2]، مثل قول جرير بن عطية الخطفي التميمي يفخر على قحطان:

ويجمعُنا والعزُّ أبناءَ فارس ... أبٌ لا نُبالي بَعده من تأخرا

أبونا خليلُ اللّهِ واللّهُ ربُنا ... رضينا بما أعطى الإله وقدَّرا

وما ذهب إليه المسعودي من أن النسب الشريف لا يرقى بصاحبه إلى المجد الرفيع ما لم يقترن بالعمل، ويؤيد ذلك قول الشاعر في هاشم بن عبد مناف[3]:

عَمْرُو العُلا هَشَمَ الثَّريدَ لقومِهِ ... ورجالُ مكةَ مُسْنِتونَ عِجَافُ

وقول عامر بن الطفيل[4]:

فإني وإن كنتُ ابنَ فارس عامرٍ ... وفي السِّرِّ منها والصريح المهذَّبِ

فما سوَّدتْني عامرٌ عن وِراثةٍ ... أبى اللّهُ أن أسمو بأم ولا أبِ

ولكنَّني أحمي حِماها وأتّقي ... أذاها وأرمي مَنْ رماها بمقنبِ

ـ إيضاح بعض المعتقدات الخرافية أو تفنيدها، ومثال ذلك ما ذكر من «أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا هو مات أو قتل لم يزل مطيفاً به

(١) المصدر السابق، ٢/١١٧ ـ ١١٨.

(٢) المصدر السابق، ١/٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٣) المصدر السابق، ٢/١٧٢.

(٤) المصدر السابق، ٢/١٧٢؛ وانظر أيضاً: ٢/٢٦١، ٢٨٩، ٣/٢٧٧.

متصوراً له في صورة طائر يصدح على قبره مستوحشاً له»، وأن هذا الطائر المسمى هاماً يخبر الميت بما يحدث بعده، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه[1]:

هَامِي تُخَبِّرُنِي بما تَسْتَشْعِروا فتجنَّبوا الشَّنْعَاءَ والمكروهَا

وكتفنيد المسعودي للزعم القائل: إن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس: ناس ونسناس ونسانس بقوله: إن هذا محال لأن هذا الاسم (نسناس) إنما وقع على السفلة من الناس والأرذال، ويستشهد بقول الشاعر[2]:

ذهب الناسُ فاستقلُّوا وصرنَا خَلَفَاً في أراذلِ النسناسِ

وإلى غير ذلك من الأهداف التي قصد بها المسعودي ــ زيادة على الارتقاء بمنهجه التاريخي إلى الاستفادة من كل ما هو متوفر من المصادر والمناهج ــ التعبير عن العواطف الجياشة العميقة، أو التحدث عن أخلاق الناس وعاداتهم وخرافاتهم، أو إعطاء النكهة الأدبية للعمل التاريخي المحض.

ومما يلحظه الدارس لمؤلفي المسعودي وخاصة المروج أن الشعر لا يكاد يختفي في أثناء عرض المادة التاريخية في جميع أجزائه، لكنه يلاحظ أنه يطغى إيراده في الفصول التي تحدث فيها عن شخصيات الخلفاء وأخلاقهم في الأجزاء المخصصة لبحث التاريخ الإسلامي، وفي هذه الأجزاء يبرز الطابع الأدبي لدى المسعودي بصورة قوية.

كما يلاحظ أنه يميل في استشهاداته إلى أغراض معينة من الشعر كالرثاء والزهد وما يتصل بذلك من الأشعار التي تحمل طابع التعبير عن ما يحدث في هذا العالم من تقلبات الدهر وفناء المباهج الدنيوية وحدوث المآسي البشرية، والثورات والدمار الذي تخلفه الحروب، نجد لديه قصائد كثيرة قيلت في رثاء الخلفاء والعلماء والوجهاء[3]، وقصائد في الحث على الزهد وعدم التعلق بهذه

(١) المروج، ٢/٢٨٧ ــ ٢٨٨.

(٢) المصدر السابق، ٢/٣٦٤.

(٣) المصدر السابق، ٣/١٦٩، ١٨٨ ــ ١٨٩، ٢١١، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٩٦، ٤/٢٩، ٥/٨٩؛ والتنبيه، ص ١٨٧، ويلاحظ أن قصائد الرثاء في آل أبي طالب كثيرة جداً لدى المسعودي.

الدنيا الفانية[1]، والتنبيه إلى تقلبات الدهر كما حدث للبرامكة بعد أن كانوا سادة سلاطيناً أصبحوا أذلاء فقراء[2]، وما قيل من الأشعار في بيان الحال التي أصبح عليها الناس في أثناء وأعقاب الحروب التي جرت بين جيوش الأمين والمأمون[3].

ويلاحظ تفضيل المسعودي لبعض الشعراء واستحسانه لأشعارهم كأبي تمام وأبي العتاهية، وابن الرومي، ويمكن أن يعزى ذلك إلى أن المسعودي كان يفضل الأشعار التي تتناول الحقائق وتتسم بالواقعية كما يلاحظ من الطابع العام لأشعار انتقاها لهؤلاء الثلاثة[4]

وأخيراً فإن الباحث يلاحظ أن المسعودي لم يكن مجرد ناقل هاو للشعر فحسب بل هو بالإضافة إلى ذلك ناقد متبصر يميز الغث من السمين، ويعرف مواطن الضعف والقوة في الأبيات أو القصائد التي يتحدث عنها، ولذلك فهو يصدر الأحكام بموضوعية، ويقارن بين الشعراء عن معرفة ودراية، وذلك كحكمه على الأبيات المذكورة في آخر قصة الأعرابي وأبي تمام منسوبة إليه[5]، وتعليقه على تمزيق إبراهيم بن المدبر ــ الذي كان على منزلة من العلم والأدب والمعرفة ــ صحيفةً كتبها له ولدُه بأمره وذلك لما علم أن القصيدة التي كتبها من نظم أبي تمام، لأنه كان يسيء الرأي فيه[6]، وكبيانه لأمر خفي على أبي عبيدة معمر بن المثنى العالم اللغوي المعروف في أبيات قالها عُبَيْد الراعي حينما كان سائراً «مع ركب في فيفاءَ قفرٍ يريدون استقصاد رئيس من بني تميم إذ سنحت لهم ظباءٌ سنوحاً منكراً ثم اعترضت الركب مُقَصِّرةً في حُضُرها واقفة على شأوها، فأنكر ذلك عبيد ولم يأبه له أصحابه، فقال عبيد:

---

(١) المروج، ٤/٢٢٠ ــ ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق، ٤/٢٥٢ ــ ٢٥٦.
(٣) المروج، ٤/٢٧٥ ــ ٢٩١.
(٤) المصدر السابق، ٤/٣٣٣ ــ ٣٣٦، ٣٦٤ ــ ٣٧٤، ٥/٨٤ ــ ١٨٥.
(٥) المصدر السابق، ٤/٣٦٦.
(٦) المصدر السابق، ٤/٣٧٣.

أَلَمْ تَدْرِ ما قالَ الظباءُ السوانحُ عَطَفْنَ أمامَ الرَّكْبِ والركبُ رائحُ
فَكَرَّ الذي لم يَعْرِفِ الزجرَ مِنْهُمُ وأيقنَ قلبي أنهنَّ نوائحُ

ولما شارفوا مقصدهم وجدوا الرئيس قد نهشته أفعى فقضت عليه، يقول أبو عبيدة وهذا من غريب الزجر، وذلك أن السانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف، لكن المسعودي يوضح أن عبيداً إنما زجر الظباء في حال رجوعها ووصف الحال الأول في شعره، ثم يعلق أنه يجب على الشاعر أن يذكر وصف الحدث متكاملاً[1]. وهكذا نرى المسعودي مستفيداً من الشعر في منهجه التاريخي مستخدماً إياه في مواطن كثيرة، حيث يؤكد حقيقة، أو يوضح مسألة، أو يكشف عن غامض، وكل ذلك عن معرفة ودراية وتبصر في هذا الشعر.

* * *

(١) المصدر السابق، ٢/٣٠٥، وانظر: H. Gulam Mustafa, Op.cit., p. 80.

رابعاً:

أسلوب المسعودي

من أجل استكمال هذا الفصل المخصص لدراسة خصائص منهج المسعودي التاريخي لا بد أن نلقي بعض الأضواء على أسلوبه وطريقته في الكتابة وأن نرى أياً من الأساليب الأدبية أقرب إلى نفسه، وأيها كان يحظى بالقبول والتأييد من جانبه، فمن خلال استقرائنا لكتب المسعودي لاحظنا أن هناك بعض السمات الأساسية التي تميز منهجه وأسلوبه في الكتابة، وأهم تلك السمات هي الوضوح والإيجاز مع البساطة وحسن العرض وعدم التكلف، فالبلاغة عنده إذاً «إيضاح بإيجاز»[1] ولو تتبعنا أسلوب المسعودي لرأيناه في جملته لم يخرج عن هذا الإطار، ولرأينا أيضاً أن أحكامه النقدية على أساليب بعض الأدباء أو الشعراء كانت مبنية على هذا الأساس نفسه، وقد كانت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم القصيرة المعجزة والتي جرت مجرى الأمثال والحكم بقلة ألفاظها وكثرة معانيها غاية في الفصاحة ونهاية في البلاغة، ولذلك فقد أفرد المسعودي لها باباً خاصاً جمع فيه كثيراً منها[2].

وقال عن صعصعة بن صوحان[3]: إن له أخباراً حساناً وكلاماً في نهاية

---

(١) المروج، ٢/١٣٥.

(٢) المصدر السابق، ٣/٣٣ ــ ٣٨.

(٣) صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي من أشراف عبد القيس من أهل الكوفة، كان من خاصة أنصار علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقاتل معه في الجمل وصفين، وكان مشهوراً ببلاغته وفصاحته وخطابته وقوة حجته، له مواقف مع معاوية، وأورد المسعودي نماذج =

البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعاني على إيجاز واختصار[1].

وعن قدامة بن جعفر[2] قال: «كان حسن التأليف بارع التصنيف موجز الألفاظ مقرباً للمعاني، وإذا أردت علم ذلك فانظر إلى كتابه في الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع وأشرف على كتابه المترجم بكتاب الخراج، فإنك تشاهد بهما حقيقة ما ذكرنا وصدق ما وصفنا»[3].

ويلاحظ أن المسعودي كان يفضل الأساليب السلسة الأصيلة الخالية من السجع والتكلف، ذات الألفاظ الجزلة والمعاني والبراهين الواضحة، ولذلك كان معجباً بأصالة الجاحظ وطريقته في تصنيفه، ويعتبر «كتبه في نهاية الكمال مما لم يقصد منها إلى نصب ولا إلى دفع حق»[4].

ومما يلاحظ كذلك في تأليف المسعودي أنه كان يستخدم الأساليب المشوقة الجذابة؛ فتراه ينثر الملح والغرائب والنوادر في ثنايا كتابته[5]، لكي يستحوذ على ذهن القارىء فيملكه لئلا ينصرف إلى غيره، ولئلا يدب الملل والسأم إلى نفسه.

= كثيرة من أقواله المأثورة وبخاصة خبره مع عبدالله بن عباس، المروج، ٢٣٦/٣ ـ ٢٣٩، توفي في حدود سنة ٦٠ من الهجرة في الكوفة أو البحرين. انظر عنه: ابن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١٩٦/٢ ـ ١٩٧؛ وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ترجمة رقم ٤٠٦٩.

(١) المروج، ٢٣٥/٣.

(٢) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، الكاتب، أبو الفرج كان نصرانياً فأسلم على يد الخليفة المكتفي بالله العباسي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء، له مصنفات، منها: نقد الشعر، نقد النثر سماه كتاب البيان، نزهة القلوب، صناعة الكتابة، البلدان، ت سنة ٣٣٧هـ.
انظر عنه: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٢/١٧ ـ ١٥؛ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٩٧/٣ ـ ٢٩٨.

(٣) المروج، ١٦/١. وانظر في هذا الصدد أيضاً ـ وهو نظرة المسعودي إلى أساليب بعض الأدباء أو الشعراء: المروج، ١٧٥/٤، ٣١٠، ١٩٤/٥.

(٤) المروج، ١٠٤/٥ ـ ١٠٥.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٥٦٩/١٥.

ومن واقع حرص المسعودي على أن يبقى أسلوبه سهلاً واضحاً نلاحظه يلجأ دوماً إلى تفسير المصطلحات الغريبة أو الألفاظ الصعبة أو المصطلحات الفنية التي لا يدركها عامة القراء، ويستخدم التعابير الخاصة في لغة كل قوم أثناء حديثه عنهم أو عن منطقتهم[1].

ومن هنا نرى المسعودي مع غزارة علمه وكثرة مشاهداته خفيف الظل، جذاب الأسلوب، ممتعاً مبدعاً حسن السرد واضح الحجة مشرق العبارة ليس في أسلوبه السهل الممتنع المتدفق الجاري غموض ولا خفاء ولا إملال، بل فيه لمعان وإشراق وسلاسة وبلاغة لم يشنها تكلف ولم يفسدها ادعاء ولا تصنع[2].

وهكذا نرى المسعودي مبدعاً في منهجه، مطوراً لأساليب من قبله من المؤرخين، مقدماً على وضع تاريخ متكامل يعالج فيه شؤون الحياة والناس، ومنطلقاً فيه إلى آفاق رحبة واسعة غير محصورة أو مقيدة بزمان أو مكان.



---

(١) المروج، ١/١٧٧ ـ ١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ٢٩٢، ٢/٧٢، ١٧٧، ٢٩٧؛ والتنبيه، ص ١٠٣ ـ ١٠٤، ١١٦، ١٣٨ ـ ١٣٩، ١٥٩، ١٦٨.

(٢) انظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص ٥٧.

الفصل الخامس

المَسْعُودِي مُؤرِّخاً

أولاً: المسعودي وتاريخ ما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة:

(أ) تاريخ الخليقة والأنبياء.

(ب) تاريخ الهند.

(ج) تاريخ الصين.

(د) الكلدانيون.

(هـ) الفرس.

(و) اليونانيون والبيزنطيون والأمم الأوروبية الأخرى.

(ز) شعوب جبل القبخ (القوقاز).

(ح) مصر والشعوب الافريقية.

(ط) العرب قبل الإسلام.

ثانياً: التاريخ الإسلامي لدى المسعودي:

(أ) السيرة النبوية.

(ب) عصر الراشدين.

(ج) العصر الأموي.

(د) العصر العباسي.

(هـ) تاريخ الأندلس.

ثالثاً: الأقليات في تاريخ المسعودي:

(أ) الأقليات المسلمة خارج العالم الإسلامي.

(ب) الأقليات غير المسلمة في الوطن الإسلامي.

المسعودي مؤرخاً

التاريخ في نظر المسعودي علم جامع دقيق شامل، وهو السجل الحاوي لكل فروع المعرفة الإنسانية ولتجارب الأمم والأجيال عبر القرون، فمنه تستنبط الحكمة، ويستثار الفقه، وتستفاد الفصاحة، وعليه يبني أصحاب القياس، وبه يحتج أهل المقالات، ومنه تؤخذ المعرفة، وتقتبس مكارم الأخلاق ومعاليها، وتلتمس آداب سياسة الملك والحروب، وفيه كل ما يستطرف من العجائب والغرائب.

ولذلك فهو علم يختلف عن سائر العلوم لأن الناس على مختلف طبقاتهم وأصنافهم سيجد كل منهم فيه طلبته وسيحصل منه على مراده، ولكن ليس معنى هذا أن كل إنسان قادر على فهم هذا العلم والوقوف على كنهه واستجلاء أسراره والتأمل فيه، بل إنه لا يستطيع ذلك إلا إنسان «تجرد للعلم وفهم معناه وذاق ثمرته واستشعر من عزه ونال من سروره»[1].

وفي هذه المناسبة يحسن استذكار ما سبق وأن ذكر في الفصل الثاني من هذه الكتاب[2] من أن المسعودي لم يشتغل بدراسة التاريخ والتصنيف فيه إلا بعد أن فرغ من دراسة العلوم الأخرى التي تبحث في الأديان والملل، والإمامة

(١) المروج ٢/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) انظر ص ٨٢ ـ ٨٣.

والرئاسة، والفلسفة والنفس والأخلاق، وأسرار الطبيعة، والفقه، وعلم الكلام. . . وغير ذلك من العلوم التي سبقت الإشارة إلى مصنفاته فيها.

والمسعودي يرى أن دراسة تلك العلوم تعتبر تمهيداً لدراسة التاريخ ويعتبرها ضرورية لمن أراد الاشتغال به، ولذلك يلحظ الدارس أثر هذه العلوم في مؤلفات المسعودي التاريخية، ويحس بقدرته على التحليل والتفسير والاستنباط، وتمكنه من كل علم أو فن يجره الاستطراد إليه.

وقد وجه المسعودي كل همته ونشاطه في آخر حياته للبحث في شؤون التاريخ ودراسة أحوال الأمم الغابرة والدائرة التي طواها التاريخ في أكنافه، والأمم التي ما زالت حية باقية محافظة على تراثها وأمجادها حتى ظهور الإسلام. ودراسة التاريخ الإسلامي حتى عصره، وقد قدم المسعودي في دراساته تلك إسهامات قيمة وبحوثاً على درجة عالية من الأصالة والعمق، كان وما زال أكثرها موضع دراسة واهتمام من قبل العلماء في العصور السابقة وفي عصرنا الحاضر.

* * *

أولاً:

المسعودي وتاريخ ما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة

في بداية الحديث عن هذا الموضوع يجب أن يكون واضحاً في الذهن أن الهدف هنا ليس تتبع ودراسة كل ما كتبه المسعودي عن تاريخ الأمم القديمة التي سبقت ظهور الإسلام أو عن تاريخ الأمم غير المسلمة، وذلك لعدة أسباب منها:

١ ـ أن القصد من هذه الدراسة أصلاً هو الكشف عن منهج المسعودي في الكتابة التاريخية، ولهذا فإن الاهتمام هنا سيتركز على هذا الجانب من تاريخ المسعودي لتلك الأمم.

٢ ـ تعدد وتنوع الأمم التي تحدث المسعودي عن تاريخها، فمنها القديم البائد الضارب في القدم، ومنها القديم الممتد تاريخها عبر العصور حتى ظهور الإسلام أو حتى عصر المؤلف نفسه، ومنها الأمم الكبيرة ومنها الصغيرة... إلخ.

٣ ـ أن تاريخ المسعودي لأكثر تلك الأمم تاريخ عام شامل موسع، بحيث لا يمكن الإحاطة بتفاصيله وإلقاء الأضواء الكافية عليه في مثل دراسة كهذه.

٤ ـ أن هناك دراسات حديثة عالجت هذا الموضوع بتوسع، مثل الدراسة التي قام بها أحمد شبول (Ahmad M. H. Shboul) بعنوان:

المسعودي وعالمه (Al-Masudi and his world)

فيمكن الرجوع إليها لمن أراد الاستقصاء في هذه الجوانب، ولا داعي هنا لإعادة أو تكرار ما سبق البحث فيه.

(أ) تاريخ الخليقة والأنبياء:

تحدث المسعودي عن بدء الخلق وذرء البرية وظهور الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام حتى عصر المسيح في ثلاثة أبواب من كتاب المروج[(١)]، ثم ألحق ذلك بباب ذكر فيه أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام[(٢)]، وقد أورد المسعودي في قصة بدء الخلق الرواية المعروفة بين المؤرخين[(٣)] عن ابن عباس، رضي الله عنه، وهي أن الله تعالى خلق الماء فجعل منه السماء والأرض، وخلق الله الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على الصفاء، والصفاء على ظهر ملك، والملك على صخرة والصخرة على الريح، ثم أرسى الله الأرض بالجبال، وخلق الجن فأسكنهم ظهر الأرض ثم خلق آدم، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس أبى وتكبر، فغضب عليه ربه وأحق عليه اللعنة إلى يوم الدين[(٤)]. وختم المسعودي روايته بالإشارة إلى منهجه في بحث قصة الخليقة قائلاً: «وما ذكرنا من الأخبار عن بدء الخليقة هو ما جاءت به الشريعة ورواه الخلف عن السلف والباقي عن الماضي فعبرنا عنهم على حسب ما نقل إلينا من ألفاظهم ووجدناه في كتبهم»[(٥)].

وأورد المسعودي رواية أخرى مناقضة لهذه الرواية، وهي رواية قصة الخلق في نظر الشيعة المبنية على رواية الإمام جعفر الصادق عن علي بن

---

(١) وهي الأبواب الثالث والرابع والخامس ١/٣١ ــ ٧١.

(٢) الباب السادس، ويبدو أن المسعودي قد اعتبر هذه الفترة امتداداً لتاريخ الأنبياء وهو يشير صراحة إلى أن من الناس من يرى أن بعض أولئك الصالحين من أهل الفترة كانوا أنبياء، ومنهم من يرى غير ذلك، المروج ١/٧٢، ومما يؤيد هذا إشارة المسعودي نفسه في نهاية الباب قائلاً: «فهذه جمل مبدأ الخلق إلى حيث انتهينا...»، المروج ١/٨٣.

(٣) انظر مثلاً: الطبري: تاريخ الرسل ١/٣٣ وما بعدها.

(٤) المروج ١/٣١ ــ ٣٥.

(٥) المصدر السابق ١/٣٥.

أبـي طالب، وملخصها: أن الله سبحانه وتعالى حين شاء تقدير الخليقة نَصَبَ الخلق في صور كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء، ثم أساح نوراً من نوره وقبساً من ضيائه فسطع ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية. فوافق ذلك صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل: أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطح البطحاء وأمرج الماء وأرفع السماء وأجعل الثواب والعذاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يخفى عليهم دقيق ولا يغيب عنهم خفي، وأجعلهم حجتي على بريتي والمنتهين على قدرتي ووحدانيتي، ثم شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله وأراهم أن الهداية معه والنور له والإمامة في أهله، ثم خلق الله السماوات والأرض، وخلق آدم ونبهه على ما استودعه وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه، وظل النور ينتقل في القنوات الطاهرة حتى ولد النبـي صلى الله عليه وسلم[1]، ثم انتقل النور ـ كما يقول الراوي ـ «إلى عزائزنا ولمع من أئمتنا فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فبنا النجاة ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور[2] وبمهدينا تنقطع الحجج خاتم الأئمة ومنقذ الأمة»[3].

والغريب أن المسعودي وهو يقدم هذه الرواية الشيعية إلى جانب الرواية السابقة لم يذكر حولها أي تعليق ولم يناقشها، بل اكتفى بالاعتذار عن حذف سلسلة أسانيد رواتها[4]، وذكر فقط أن هذا الأمر موضع تنازع بين المسلمين ممن قال بالنص أو من قال بالاختيار في مسألة الإمامة[5].

---

(١) المصدر السابق ١/٤١.

(٢) تعالى الله الملك الجبار عما يقول الظالمون علواً كبيراً الذي قال في محكم التنزيل: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ (الشورى: آية ٥٣). ومن الواضح الجلي أن المتأمل في هذه القصة يدرك بسهولة ما تحمله في طياتها من تزوير وتلفيق، ويدرك المغزى الذي من أجله تم حبكها.

(٣) المروج ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) المصدر السابق ١/٣٦.

(٥) المصدر السابق ١/٤١.

وقد سار بعد ذلك في ذكر هبوط آدم وزوجه إلى الأرض وبداية ظهور النسل على حسب ما ورد في التوراة وما جاء عن أهل الكتاب[1]، وأحياناً أخرى مستعيناً ببعض الآيات القرآنية[2]، ولم ينس قضية انتقال (النور الإلٓهي) في حديثه عن الأنبياء المتعاقبين منذ آدم عليه السلام[3]، مما يؤكد قوة ميوله الشيعية.

ثم تحدث عن نوح عليه السلام وقصة الطوفان[4]، ثم تفرق النسل في الأرض ومساكنهم فيها[5]، وتفرق الألسن وتشعب اللغات[6].

ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الأنبياء والملوك والصالحين من بني إسرائيل وغيرهم[7].

والملاحظة المنهجية المهمة التي يمكن أن تقال في صدد معالجة المسعودي لتاريخ الخليقة والأنبياء عليهم السلام هي أن أسلوبه أو طريقته تختلف عن طريقة المؤرخين المسلمين السابقين كالطبري مثلاً من زاوية مهمة وهي أن الطبري باعتباره مفسراً للقرآن الكريم نجد أنه يكتب هذا التاريخ في إطار التفسير القرآني[8]، بينما المسعودي على الرغم من اعترافه بأهمية الإشارات القرآنية في هذا الصدد وقصه لبعض الأحداث على حسب ما وردت في

---

(١) المروج ١/٣٦ ــ ٣٨.

(٢) المصدر السابق ١/٣٨.

(٣) المصدر السابق ١/٤٠ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق ١/٤٣ ــ ٤٤، ولمعرفة رأي المسعودي مفصلاً حول عالمية الطوفان يمكن مراجعة التحليل الجيد الذي كتبه حول إشارات المسعودي المختلفة في هذا الشأن:
Khalidi: Islamic Historiography, pp. 85-88.

(٥) المروج ١/٤٥.

(٦) المصدر السابق ١/٤٦.

(٧) المصدر السابق ١/٤٩ وما بعدها.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١/٨٩ وما بعدها، ويلاحظ في هذه الصفحة إحالته إلى كتابه في التفسير «جامع البيان عن تأويل القرآن».

التنزيل[1] إلا أنه يلاحظ بوجه عام أن الترتيب التاريخي البحت هو الذي يشكل الإطار الخارجي لروايته، ونجد الآيات القرآنية أو تفسيرها هي التي تأتي مندمجة في هذا الإطار[2].

(ب) تاريخ الهند:

حظي التاريخ الهندي باهتمام وتقصٍّ ملحوظ من قبل المسعودي، ولا شك أن ذلك يرجع إلى عدة أسباب يأتي في مقدمتها تلك الزيارة التي قام بها إلى كثير من مدنها وممالكها في سنتي ٣٠٣ ــ ٣٠٤هـ، حيث وقف عن كثب على أحوال الأمم التي كانت تعيش في تلك الأصقاع، واطلع على مصادر ومعلومات جديدة استفاد منها في كتابته لتاريخ الهند.

وقد استغرق تاريخه للهند الباب السابع[3] وجزءاً من الباب السادس عشر[4] من كتاب مروج الذهب. وكان أول ما بدأ به ذكر ملوك الهند الأقدمين وما أحدثوه من الآراء والديانات[5]، ثم تحدث عن انقسام مملكة الهند إلى أجزاء وولايات صغيرة، وظهور حكام مستقلين على رؤوس هذه الولايات لا يخضعون لحاكم أو نظام معين[6]. ثم تناول بالشرح المفصل الممالك التي زارها مثل بلاد المولتان والمنصورة[7]، وغير ذلك من الممالك التي عاصر ملوكها في رحلته إلى الهند مثل ممالك المَانكير، وقَنُّوج، وقَشْمير، والطَّاقَى، ودَهْرَم وغيرها[8]

---

(١) المروج، انظر مثلاً: ٤٣/١ ــ ٤٤، ٥٢ ــ ٥٤، ٦١، ٦٣.

(٢) Shboul: Al-Masudi and his world, p. 100.

(٣) المعنون بـ: ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها. المروج ٨٤/١ ــ ٩٨.

(٤) وتحدث فيه المسعودي بصفة عامة عن البحار وما حولها من الأمم والممالك، وتناول تاريخ الهند وما حولها في هذا الباب من ١٩٧/١ ــ ٢٠٦.

(٥) انظر: المروج ٨٤/١ ــ ٩٠.

(٦) المصدر السابق ٩٠/١ ــ ٩١.

(٧) المصدر السابق ١٩٩/١ ــ ٢٠٠.

(٨) المصدر السابق ٩٧/١، ١٩٧ وما بعدها.

مما لا حاجة إلى التفصيل فيه[1].

ولا شك أن المسعودي كان من أوائل الكتّاب المسلمين الذي عَرَّفوا العالم الناطق بالعربية بالهند، وذلك من خلال مؤلفاته في وقت لم يكن فيه الهند معروفاً جيداً، بل كان يعتبر من قبل كثير من الناس أرض الغرائب والأسرار[2] وقد قال المسعودي: إن الهند بيت الصلاح والحكمة والعلم والفضيلة، وأنها كانت فيهم من قديم الزمان[3].

ويلاحظ الباحث الناظر في تاريخ المسعودي للهند أنه ركز في منهجه ودراساته على تقصي مختلف شؤون الحياة هناك، ولم يهمل جانباً على حساب الاهتمام بجانب آخر، فمثلاً تجده يتحدث عن نظام الهند في سياسة الملك، وأنه «مقصور في أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا يتغير ولا يتبدل»[4]، وأن الهند لا تملك الملك عليها حتى يبلغ من العمر أربعين سنة، ولا تكاد تظهر الملوك لعامة الناس إلا في أوقات محددة قصيرة للنظر في أمور الرعية، وذلك لأن نظر العوام دائماً إلى الملوك فيه إسقاط من هيبتهم واستخفاف بحقهم، والرئاسات عند الهنود «لا تجوز إلا بالتخير ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة»[5].

وإلى جانب هذا يوجد لديه معلومات غزيرة عن الحياة الاقتصادية وممارسات السكان التجارية، وأنواع العملات المتداولة بينهم[6]، ومعلومات عن

---

(١) حديث المسعودي عن الهند وممالكها قام بتحليله ودراسته دراسة علمية مقبول أحمد (Maqbul Ahmad) في بحثه: (Al-Masudi on the kings of India)، ضمن البحوث التي قدمت بمناسبة الذكرى الألفية للمسعودي (MMCV) p. 97-112.

وانظر أيضاً: Mohibbul Hasan: Al-Masudi on Kashmir (MMCV) pp. 25-27.

(٢) (MMCV) p. 121, and p. 133.

(٣) المروج ١/٨٤، ٨٧، ١٨٩.

(٤) المروج ١/٩٣.

(٥) المصدر السابق ١/٩٢ ـ ٩٣.

(٦) المصدر السابق ١/٢٠٢.

الثروة الحيوانية في أنحاء الممالك الهندية[1]، وكذلك يلاحظ أن من سيماء منهجه في تاريخه للهند إبراز النواحي الاجتماعية والعادات والتقاليد المتأصلة في تلك البلاد واتسام وصفه لها بطابع المعرفة الشخصية القريبة والمشاهدة الحسية[2].

وأشار إلى الإنجازات الفكرية والثقافية للهنود، حيث برعوا في علم الفلك[3] والطب[4] والحكمة[5]؛ ومن حكمة الهنود أنهم شرعوا بعض القوانين التي تحرم شرب الخمر، وليس ذلك تديناً وإنما تنزيهاً للعقول أن يصيبها ما يؤذيها أو يغشاها ما يضرها، وإذا ثبت لديهم أن أحد ملوكهم تعاطاه استحق الخلع عن ملكه؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط[6]، وحرموا كذلك ارتكاب فاحشة الزنا، وكثيراً من المضار والعادات السيئة[7]، وكل ذلك عن طريق عقلي بحت لا عن طريق اتباعهم الشريعة منزلة.

ومن مظاهر اهتمام المسعودي بالشؤون الثقافية في الهند بوجه عام حديثه عن اللغات واللهجات المنتشرة بينهم، وأن الناس في كل جهة من القارة الهندية يتكلمون بلسان يختلف عن من عداهم[8].

وما كتبه المسعودي عن الأديان في الهند ـ على الرغم من إيجازه ـ على جانب كبير من الأهمية لأمرين:

الأول: بسبب الندرة في العناية بالديانة الهندية من قبل الكتاب المسلمين الذين جاؤوا قبل المسعودي، والمسعودي ـ كما يبدو ـ هو المؤلف المسلم الوحيد

---

(١) المصدر السابق ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٢) المصدر السابق ١/٨٧، ٩٣.
(٣) المصدر السابق ١/٨٥ ـ ٨٦.
(٤) المصدر السابق ١/٢٠٧.
(٥) المصدر السابق ١/٨٧.
(٦) المصدر السابق ١/٩٤.
(٧) المصدر السابق ١/٩٤.
(٨) المصدر السابق ١/٢٠٢.

الذي سبق البيروني (ت.٤٤٠هـ)[١]، في الحديث عن الأديان في الهند، على الرغم من أن ما ذكره لا يعدل في تفاصيله أو في دقته ما ذكره البيروني عن تلك الأديان.

الثاني: أن ما ذكره المسعودي يعتمد في كثير منه على ملاحظاته الشخصية[٢]. وعلى أي حال فإنه يبرز بشكل واضح جلي في معالجة المسعودي لجغرافية[٣] وتاريخ الهند، وحديثه عن أحوالها المختلفة مثل قواها العسكرية[٤]، وطرقها الحربية[٥] وسياساتها[٦]، وشؤونها الاجتماعية والدينية والثقافية وغيرها، يبرز مدى اهتمامه وتركيزه في منهجه على إجلاء هذه الجوانب الحضارية، كما يلاحظ أن مشاهداته وملاحظاته الشخصية قد أضفت على كتاباته مسحة وطابعاً مميزاً يتسم بالحيوية والدقة والوضوح، وجاء وصفه في كل ذلك قوياً نابضاً مؤكداً.

(ج) تاريخ الصين:

حسب رواية المسعودي ينحدر الصينيون من ذرية عامور بن توبيل بن يافث بن نوح، ويعتبرون هم وسائر الأجناس التركيه أبنا عمومة[٧]. وقد كانت عاصمة ملكهم القديمة تسمى مدينة يانصو[٨].

---

(١) محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي، مؤرخ وفيلسوف ورياضي وطبيب، كان له اطلاع واسع على مصنفات اليونان والهند في الفلسفة، وقد زار الهند وأقام فيها عدداً من السنين، وكان له حظوة وجاه عند ملوك عصره، ومن أشهر مصنفاته المطبوعة الآثار الباقية عن القرون الخالية، تاريخ الهند، الجماهر في معرفة الجواهر، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، وغير ذلك. انظر عنه: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٧/١٨٠ ــ ١٩٠؛ وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٥٩.

(٢) See Shboul: op.cit., p. 160.

(٣) المروج ١/٩١.

(٤) المصدر السابق ١/١٩٨، ٢٠٠ ــ ٢٠١.

(٥) المصدر السابق ١/٢٠٤.

(٦) المصدر السابق ١/٩٤.

(٧) المروج ١/١٥٤ ــ ١٥٥.

(٨) المصدر السابق ١/١٥٦.

تحدث المسعودي عن ملوك الصينيين القدماء وسياساتهم في ضبط أمور دولتهم وتجاه رعاياهم بإيجاز[1]، ثم عرض لوصف ما أحدثه الملك الصيني توتال من شرائع وما سنه من قوانين ونظم، حيث أدرك أن الملك لا يثبت إلا بالعدل، وأن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل، وبنى هيكلاً للعبادة، وجمع خواص مملكته فرتب للناس سياسة شرعية وفرائض عقلية يستندون عليها في عباداتهم ومعاملاتهم، لأنه إذا عدمت الشريعة واستواء النظام استشرى الخلل والفساد، ولذلك «ثبّت لهم قصاصاً في النفوس والأعضاء، ومستحلات النكاح يستباح بها النسوان وتصح بها الأنساب»[2] وفرض عليهم صلوات لخالقهم في أوقات من الليل والنهار معلومة، «وأوجب على الزناة منهم حدوداً وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة، وألا يستبحن بالنكاح في وقت من الأوقات، وإن أقلعن عما كن عليه أن تكف الجزية عنهن»[3]، إلى غير ذلك من القوانين التي تنظم نسل البغايا فمنهم من يلحق بقصر الملك للخدمة، ومنهم من يلحق بأمهاتهم.

وأشار إلى نظام الصينيين الطبقي وانقسامهم إلى شعوب وقبائل ذات أفخاذ وبطون تتشعب في أنسابها وتحرص على حفظها، كما أشار إلى طرقهم في اختيار الزوجات[4].

ووصف المسعودي الصينيين بأنهم في عباداتهم يشبهون ــ إلى حد قريب ــ قريشاً قبل الإسلام، حيث يعبدون الأصنام ويتوجهون نحوها بالصلوات، فبعضهم يتخذها قرباناً إلى الله تعالى، وبعضهم يشركها معه في الألوهية[5].

---

(١) المصدر السابق ١/١٥٦ ــ ١٥٨.
(٢) المصدر السابق ١/١٥٩.
(٣) المصدر السابق ١/١٦٠.
(٤) المصدر السابق ١/١٦٢ ــ ١٦٣.
(٥) المصدر السابق ١/١٦١.

وملتهم التي دانوا بها منذ القدم تدعى السُّمَّنِيَّة، ثم «ظهرت في أهل الصين آراء ونحل حدثت من مذاهب الثنوية وأهل الدهر»[1].

وقد اندلعت ثورة عارمة في أرجاء الصين سنة ٢٦٤هـ بزعامة ثائر صيني يدعى يانشو (هوانج شاو) تناولها المسعودي بالشرح والتفصيل، ومن ملاحظاته الهامة حولها أنها جزأت مملكة الصين القوية إلى إمارات صغيرة متحاربة، وأصبحت الأوضاع هناك تشبه ما كانت عليه إيران في عهد ملوك الطوائف بعد قتل الاسكندر دارا بن دارا ملك الفرس، وتشبه حالة المسلمين في عصر المسعودي[2].

ومن الأشياء المميزة للصينيين في نظر المسعودي اتقانهم للصناعة ومهاراتهم فيها إلى حد يثير الإعجاب، حيث يتسابق الرسامون وأصحاب المهن المختلفة في إبراز مواهبهم ويجدون التشجيع والتقدير لأعمالهم من قبل ملوكهم[3].

وهكذا يلاحظ الدارس المتمعن في منهج المسعودي لتاريخه لبلاد الصين وأهلها بعض السمات ومن أهمها:

ـ تركيزه على ما يتمتع به ملوك الصين من عقل وحكمة وسياسة للملك وانقياد إلى العدل بين الرعية على حسب ما توجبه قضية العقل واتباع سنن العدل والمساواة[4].

ـ إشاراته الكثيرة إلى وصف الحالة الدينية، والحياة الاجتماعية، وما تميز به الصينيون في حياتهم الاقتصادية من دقة ومهارة في الصناعة.

ـ يلاحظ أنه في حديثه ورواياته عن الصين لا يبدو طابع الألفة والمعرفة الشخصية القريبة كما هو واضح في حديثه عن الهند، لأنه لم يزر الصين،

(١) المروج ١٦١/١.
(٢) انظر وصف المسعودي لهذه الثورة في المصدر السابق ١٦٣/١ ـ ١٦٦.
(٣) المصدر السابق ١٧٢/١ ـ ١٧٣.
(٤) المصدر السابق ١٦٢/١، ١٦٦.

ولذلك نجد أن ما كتبه عنها من معلومات يبدو أقل حيوية وأقل تفصيلاً مما كتبه عن الهند.

(د) الكلــدانيــون:

يرى المسعودي أن اسم الكلدانيين اسم جامع لأمم وقبائل وشعوب عديدة منها: النُونَويُّون، والآشوريون، والأرمان (الآراميون)، والأردوان، والجرامقة، وأنباط العراق، وأهل السواد[1]، ويرى أن هذا الاسم أي الكلدانيين مطابق أو مرادف للسريان[2] أو النبط[3].

وكانت مساكنهم في بلاد العراق وديار ربيعة وديار مضر والشام وشبه الجزيرة العربية، وكانت في يوم من الأيام مملكة واحدة يملكها ملك واحد ولسانها واحد هو اللسان السرياني[4].

وقد أشار المسعودي إلى النزاع الدائر حول الترتيب التاريخي لهذه الأمم، وحول التداخل بينهم وبين الفرس[5]، وإزاء ذلك يقرر أن الله سبحانه وتعالى وحده هو المطلع والعالم بأحوال الأمم السالفة والقرون الخالية التي بعدت أعصارها وتقطعت أخبارها وتقادم زمانها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ قومِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ والذينَ مِنْ بَعْدِهِم لا يَعْلَمُهُم إلاَّ الله﴾[6].

---

(١) التنبيه، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٧، ٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤؛ والمروج ١/٢٥٩، والواقع أن رواية المسعودي في كتاب المروج حول تاريخ وتقسيم هذه الأمم تختلف عن رواية التنبيه المذكورة، فقد تناول هذا الموضوع في ثلاثة أبواب قصيرة، أحدها في ذكر ملوك السريانيين ١/٢٤٥ ــ ٢٥١، والثاني في ذكر ملوك الموصل ونينوا [هكذا] وهم الأثوريون ١/٢٥٢ ــ ٢٥٣، والثالث في ذكر ملوك بابل وهم النبط وغيرهم المعروفين بالكدانيين ١/٢٥٤ ــ ٢٥٩.

(٤) التنبيه، ص ٧٩، ويشير المسعودي هنا إلى أن العبرانية والعربية من السريانية وأنها أقرب اللغات إليها.

(٥) التنبيه، ص ٣٧ ــ ٣٨، ٩٤، ١٠٥ ــ ١٠٦.

(٦) سورة التوبة: آية ٧٠.

وبغض النظر عن ما واجهه المسعودي من صعوبات في تحديد كيان تلك الأمم وما وقع فيه من اضطراب حين سرد قوائم ملوكهم[١] فإنه يلاحظ ما يتسم به منهجه التاريخي من تركيز على الجوانب الإبداعية والحضارية في تاريخ تلك المجموعات البشرية، فقد ذكر أنهم أول من أقام حكماً ملكياً بعد حدوث الطوفان[٢]. «وهم الذين شيدوا البنيان، ومدنوا المدن وكوروا الكور، وحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، واستنبطوا المياه، وأثاروا الأرضين، واستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك من المعادن، وطبعوا السيوف، واتخذوا عدة الحرب وغير ذلك من الحيل والمكايد، ونصبوا قوانين الحرب بالقلب والميمنة والميسرة والأجنحة. . .»[٣].

كما تحدثوا عن خواص الألوان، ومراتب الأنوار ودلالاتها وغير ذلك[٤].

(هـ) الفـــــرس:

استغرق حديث المسعودي عن الفرس في كتاب مروج الذهب المطبوع أربعة أبواب، الأول منها عن ملوك الفرس الأولى[٥]؛ والثاني عن ملوك الطوائف[٦]، والثالث عن أنساب الفرس[٧]؛ والرابع عن ملوك الساسانية وهم الفرس الثانية[٨].

---

(١) ذكر المسعودي في كتاب المروج ثلاث قوائم للوكهم، لكنها تبدو مشوشة، وفيها أسماء لملوك لا ينتمون إلى تلك الأمم، انظر: Shboul: Al-Masudi and his world, p. 120.

والقوائم المذكورة تتشابه إلى حد ما مع القوائم التي أوردها اليعقوبي لهؤلاء الملوك. انظر: تاريخ اليعقوبي ١/٨١ ـ ٨٣، إلا أن المسعودي يذكر تفصيلات واستطرادات لا توجد لدى اليعقوبي، وقد يوحي هذا التشابه بنقل المسعودي من اليعقوبي، أو أنهما نقلا من مصدر واحد يحتوي على هذه القوائم.

(٢) المروج ١/٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٣) المروج ١/٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ وانظر أيضاً ١/٤٨؛ والتنبيه، ص ٣١، ٧٨.

(٤) المروج ١/٢٥٨.

(٥) المروج ١/٢٦٠ ـ ٢٧٤.

(٦) المصدر السابق ١/٢٧٥ ـ ٢٧٧.

(٧) المصدر السابق ١/٢٧٨ ـ ٢٨٤.

(٨) المصدر السابق ١/٢٨٥ ـ ٣٢٧.

أما في كتاب التنبيه فقد قسمهم إلى خمس طبقات ولكن ضمن مفهوم التقسيم المشار إليه في كتاب المروج، فجعل الفرس الأولى ثلاث طبقات[1]، واعتبر ملوك الطوائف الطبقة الرابعة[2]، والساسانية الطبقة الخامسة[3].

وقد تحدث المسعودي عن حدود مملكة الفرس والأقاليم الداخلة في حوزتها[4]، وأشار إلى أنها كانت في يوم من الأيام مملكة واحدة، ملكها واحد، ولسانها واحد، إلا أنهم كانوا يتباينون في شيء يسير من اللهجات كالفهلوية والدرية والأذرية وغيرها[5]. وفصل المسعودي القول عن أنساب الفرس وأورد روايات كثيرة مختلفة عن الأصول القديمة التي يرجعون إليها[6] ومن الجدير ذكره في هذا المقام هو أن المسعودي كان يعي ويدرك الأسباب الحقيقية الكامنة وراء وقوع التنازع الكبير حول نسب وأصل الفرس، هذه الأسباب ـ في نظره ـ ناتجة عن تلك العلاقة غير الودية بين الفرس والعرب بعد ظهور الإسلام، والتي تمخض عنها قيام حركة الشعوبية[7]، والتي كذلك اتضحت بعض أبعادها من خلال المنافسات القبلية بين بطون بعض القبائل العربية كالنزارية والقحطانية[8].

وقد اهتم المسعودي بالتاريخ الفارسي لاعتبارات عديدة، تاريخية وجغرافية وثقافية وسياسية، منها «عظم ملك ملوك الفرس، وتقادم أمرهم واتصال ملكهم، وما كانوا عليه من حسن السياسة وانتظام التدبير وعمارة البلاد والرأفة بالعباد، وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم وحملهم إليهم الأتاوة

---

(١) التنبيه، ص ٨٥ ـ ٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٥ ـ ٩٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩ ـ ١١١.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٨.

(٦) المروج ١/٢٧٨ وما بعدها.

(٧) ذكر المسعودي مثلاً أنه ظهر شعراء من الفرس يفتخرون على العرب بآبائهم؛ المروج ١/٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٨) المروج ١/٢٨٠ ـ ٢٨١؛ والتنبيه، ص ٨٧ ـ ٨٨، ١٠٨ ـ ١٠٩.

والخراج،! وأنهم ملكوا الإقليم الرابع وهو إقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم»[1] ولأنهم أيضاً «كانوا أهل العز الشامخ والشرف الباذخ والرئاسة والسياسة، فرساناً في الوغى صبراً عند اللقاء، أدت إليهم الأمم الأتاوات وانقادت إلى طاعتهم خشية صولتهم وكثرة جنودهم»[2]. ومما يوضح شدة إعجاب المسعودي بالتاريخ الفارسي أنه تناوله بشيء من التفصيل في كتاب التنبيه ـ كما مر ـ على الرغم من اختصار هذا الكتاب وإيجازه وأنه أفرد له جزءاً خاصاً في كتاب مروج الذهب في النسخة الأخيرة التي أخرجها للناس سنة ٣٤٥هـ، والتي لا نعرف عنها شيئاً اليوم[3]، ويكفي للدلالة هنا على مدى أهمية ذلك التاريخ بالنسبة للمسعودي، وللوقوف على أهم الموضوعات التي تناولها في ذلك الجزء أن نستعرض أبرز ما أورده عن محتوياته، قال المسعودي: «وقد أتينا على جمل من ذلك في الجزء السابع من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر الحاوي لأخبار الفرس الأولى وهم الكيانيون والطوائف من الأشغان والأردوان وغيرهم، والساسانية وطبقاتهم وأنسابهم وملوكهم إلى يزدجرد بن شهريار آخرهم، ومن أعقب منهم ومن لم يعقب وسيرهم وحروبهم وحيلهم ومكايدهم فيها، وكيفية غلبتهم على العراق وزوال ملك النبط الأردوان منهم والأرمان، وضروب سياساتهم الديانية والملوكية الخاصة منها والعامة وعهودهم وخطبهم ورسائلهم، ومبلغ سني ملكهم وشعارهم، وما كان من الكوائن والأحداث في أعصارهم، ومبدأ دين المجوسية وظهورها وخبر زرادشت نبيهم وما جاء به، وخطوطهم السبعة التي كانوا يكتبون بها وأحرف كل خط منها ولما أفرد، وأعيادهم من النواريز والمهرجان وعلة كل نوروز منها وغير ذلك من الأعياد، والعلة في إيقادهم النيران وصبهم المياه وشدهم الكساتيج في أوساطهم كشد النصارى الزنانير، وأسباب الملك وحاجة الناس إلى الملوك والتدبير والحوادث المنذرات بزوال الملك من فارس إلى العرب، وما كانوا يروونه عن

---

(١) التنبيه، ص ٦.

(٢) التنبيه، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٤، ٩٧، ١٠٧.

أسلافهم ويتوقعونه من الدلائل والعلامات في ذلك، واحتراس ملوكهم عن وقوعه، وضروب آنيتهم من المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن وغيرها، وأحكامهم في خواصهم وعوامهم، وما بنوا من المدن وكوروا من الكور وحفروا من الأنهار وأثروا في الأرض من عجيب البنيان وبيوت النيران، والعلة في عبادتهم إياها وما قالوه في مراتب الأنوار والفرق بين النار والنور وأضداد الأنوار ومراتبها ومراتب ذوي الرئاسات الملوكية والديانية من المرازبة والأصبهبذين والهرابذة والموابذة ومن دونهم ورايات الفرس وأعلامهم وتشعب أنسابهم وما قال الناس في ذلك، والبيوت المشرفة فيهم من أبناء الملوك وغيرهم والشهارجة والدهاقين، والفرق بينهم وبين من سكن في السواد وغيره من البلاد قبل ظهور الإسلام وبعده إلى هذا الوقت المؤرخ، وما تذكره الفرس في المستقبل من الزمان، وينتظرونه في الآتي من الأيام من عود الملك إليهم ورجوعه فيهم وظهوره عليهم وما يذكرون من دلائل ذلك ونذاراته بتأثيرات النجوم وغيرها من الأمارات والعلامات. . . وقول من قال منهم بعد ظهور الإسلام إن الفرس من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل، وما استشهدوا به على ذلك من أشعار ولد معد بن عدنان في افتخارهم بالفرس على اليمانية وأنهم من ولد أبيهم إبراهيم. . . وأن الفرس قد كانت في سالف الدهر تقصد البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ بابنه، وأنه عندهم أجل الهياكل السبعة المعظمة والبيوت المشرفة في العالم. . . »[1].

هذا النص يوضح بإجمال أهم المباحث التي تناولها المسعودي في الكتاب المذكور ولولا مخافة التطويل والخروج عن الغرض لقمنا بتحليله ودراسة محتوياته ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أبرز سمات منهج المسعودي في بحثه التاريخي عن الفرس من هذا النص ومن سائر ما كتبه عنهم بإجمال، وقبل ذلك يجدر التنبيه إلى ملاحظة قيمة أثارها المسعودي وهي صعوبة البحث في التاريخ الفارسي وخاصة في العصر السابق للعصر الساساني، وذلك بسبب اضطرابه وكثرة التنازع فيه

---

(١) التنبيه، ص ١٠٧ ــ ١٠٩.

والآراء حوله[1]، وبسبب تدخل بعض الحكام في تغيير مجرى أحداثه وإخفاء أجزاء منه[2]، وذلك كما فعل أردشير بن بابك حين عمد إلى طمس فترة كبيرة من عصر ملوك الطوائف، وذلك كي يؤخر السنة التي أشار فيها زرادشت في كتابه الأبستا ــ وهو الكتاب المنزل عليه عندهم ــ إلى أنه يذهب فيها دين وملك الفرس[3]، ولكن المسعودي كان مدركاً لهذا الأمر فقدر فترة حكم ملوك الطوائف تقديراً سليماً[4]، وذلك لأنه بنى تقديره لمدة حكمهم على تواريخ أخرى غير التاريخ الفارسي المحرف، مثل تاريخ الاسكندر المقدوني فاستطاع بعملية حسابية مبسطة من واقع حكم الاسكندر أن يظهر التاريخ الصحيح لمدة حكم ملوك الطوائف[5].

وعلى أي حال فإن الباحث في تاريخ المسعودي عن الفرس يلاحظ أن من أبرز سمات منهجه في معالجة ذلك التاريخ ما يأتي:

ــ إنه تناول الوجوه المختلفة لماضي الفرس السياسي والديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وتتضح هذه الحقيقة من قراءة النص آنف الذكر ومن مواضع أخرى من كتبه[6].

ــ قدم المسعودي كثيراً من الحكم والأقوال المأثورة عن الحكام الفرس، وقصده

---

(١) المروج ١/٢٦٠، ٢٧٤ ــ ٢٧٥؛ والتنبيه، ص ٩٤، ١٠٥، ١٣٧.

(٢) التنبيه، ص ٩٦.

(٣) أشار المسعودي إلى أن هذا الموضوع سِرُّدياني وملوكي من أسرار الفرس لا يكاد يعرفه إلا الموابذة والهرابذة وغيرهم من ذوي التحصيل. انظر التنبيه، ص ٩٧ ــ ٩٨.

(٤) التنبيه، ص ٩٦.

(٥) راجع التنبيه، ص ٩٦ ــ ٩٧، وسنلقي المزيد من الضوء على هذه الجزئية في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

(٦) انظر مثلاً: المروج ١/٢٧٠ ــ ٢٧٢؛ والتنبيه، ص ٩٠ ــ ٩٤، ١٠١ ــ ١٠٣ وذلك فيما يتعلق بديانة الفرس؛ والمروج ١/٢٨٩ ــ ٢٩٠؛ والتنبيه، ص ٩٨ ــ ١٠٠ عن الجوانب الثقافية للفرس؛ والمروج ١/٢٨٦ ــ ٢٨٧؛ والتنبيه، ص ٨٦ ــ ١٠٣ ــ ١٠٤ عن النواحي الاجتماعية؛ والمروج ١/٣٠٩ ــ ٣١٠؛ والتنبيه، ص ٣٩ ــ ٤٠ عن الاقتصادية.

من ذلك إلى جانب أخذ العظة والعبرة، الدلالة على نبوغ أولئك الحكام في مجال الإدارة والسياسة وحسن التقدير[1].

- أخذ المسعودي بعين الاعتبار وجهة النظر الفارسية في تسطير كثير من الأحداث المتعلقة بهم، ولم يورد آراء غيرهم إلا لمجرد العلم والمعرفة، قال مثلاً عن أنساب الفرس: «ولم نذكر من ذلك إلا ما ذكرته الفرس دون غيرهم من الأمم كالإسرائيليين واليونانيين والروم، إذ كان ما يذهبون إليه في ذلك خلاف ما حكته الفرس، وكانت الفرس أحق أن يؤخذ عنها»[2].
- وفي مجال المصادر استخدم المسعودي المصادر الفارسية المعتمدة لدى الفرس أنفسهم، فأخذ من علمائهم، ونقل من الكتب الصحيحة المشهورة عندهم[3].
- يلاحظ أيضاً أثر رحلات المسعودي في المناطق الفارسية المختلفة، في أسلوبه ووصفه الصادق الحي لبعض المعالم الآثارية والمعابد والبلدان وغير ذلك.

وأخيراً فإنه على الرغم من وجود بعض الأخطاء والهفوات لدى المسعودي إلا أن العلماء المتخصصين قد أدركوا أن معلوماته عن التاريخ الفارسي، وخاصة المتعلقة بالعصر الساساني تمثل مصدراً قيماً من حيث التفصيلات وتصحيح بعض المعلومات الخاطئة، ومن حيث تلك النظرات البعيدة الثاقبة في فهم وعرض ذلك التاريخ[4].

---

(١) انظر المروج ١/٢٨٥ ـ ٢٨٦، ٢٩٠ ـ ٢٩١، ٣٠٤، ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) التنبيه، ص ١٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٠؛ والمروج ١/٢٧٧.

(٤) G. Morrisson: «The Sassanian Genelogy in Masudi» (MMCV) p. 42., and Shboul, AL-Masudi and his world, p. 112.

(و) اليونانيون والبيزنطيون والأمم الأوروبية الأخرى :

لا يهمنا هنا ــ وكما أشرنا سابقاً ــ أن نتتبع بالتفصيل والإيضاح كل ما كتبه المسعودي عن الأمم والشعوب غير المسلمة بقدر ما يهمنا أن نتعرف على المنهج العام الذي سار عليه في تاريخه لهم، وأن نقف على بعض الخصائص البارزة في ذلك التاريخ.

وسنتناول هنا تاريخ المسعودي لبعض الأمم الأوروبية التي عرفها، وخاصة تلك التي أدرك أهمية تاريخها وامتدادها الحضاري، ورأى آثارها الباقية سواء في مجالات العلم والمعرفة أم في مجالات البناء والتشييد المعماري كالأمة اليونانية والأمة البيزنطية.

فالتاريخ اليوناني تناوله المسعودي من وجوه مختلفة في كثير من مؤلفاته، وفيما يلي نقدم وصفاً موجزاً لفحوى معالجته لذلك التاريخ من خلال إشاراته إلى ما حواه كتابه «فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف» عنهم، فقد أتى فيه على أخبار اليونانيين وأنسابهم، وتنازع الناس فيها، وآرائهم، وديارهم، وكيفية غلبة الروم عليهم، وسير ملوكهم، وحروبهم، «وأخبار الاسكندر[1] وسيره ومسيره في مشارق الأرض ومغاربها وما وطىء من الممالك ولقي من الملوك وبنى من المدن ورأى من العجائب، وأخبار الردم وهو سد يأجوج ومأجوج، وما كان بينه وبين معلمه أرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق. . . من الرسائل والمكاتبات في ضروب السياسات الملوكية والديانية وغير ذلك، وتنازع الناس في الاسكندر أهو ذو القرنين أم غيره» وما كان من أخبار خلفائه من بعده. وأخبار الفلاسفة

---

(١) خص المسعودي الاسكندر بن فلبس المقدوني بصفحات كثيرة من كتابه المروج، وفي تحليله لشخصيته أورد الآراء المختلفة حوله، وتحدث عن حملاته العسكرية في فارس، والهند، وخصص باباً لذكر (جوامع من أخبار جرت للاسكندر بأرض الهند) وأشار إلى عبوره إلى بلاد الصين وإخضاعه بلاد الأتراك وإدخالها تحت سيطرته، وتحدث عن وفاته، وما تلفظ به العلماء والحكماء المرافقون له أمام جنازته من كلمات معزية واعظة.
والملاحظ أن ما سطره المسعودي عن الاسكندر في كتبه يعتبر من أوسع وأشمل ما كتب عنه في المصادر العربية الإسلامية والنصرانية، انظر المروج ٢/٧ ــ ٢٣؛ والتنبيه، ص ١١٢، ١١٦.

وآرائهم الإلهيين منهم والطبيعيين، ومن قتل منهم، وما كانوا عليه من الآراء القديمة وما أحدثوه فيها، وتنازع الناس فيهم أهم من اليونانيين أم من الروم، وترجيح المسعودي أنهم يونانيون من خلال مؤلفاتهم، وغير ذلك من أخبارهم[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معلومات المسعودي عن تاريخ الفلسفة اليونانية والفكر الإغريقي بصفة عامة كانت غزيرة جداً أثارت انتباه العلماء والباحثين وكان يقدر بموضوعية إسهاماتهم العلمية والفلسفية، ويلاحظ امتداد تراثهم واستمرار تأثيره في العالم الإسلامي.

* * *

أما تاريخ البيزنطيين فقد قدم المسعودي عنه دراسة شاملة موسعة وحظي باهتمام بالغ وعناية غير مألوفة في تفصيله ومتابعة أحداثه حتى سنة **٣٤٥هـ** وهي سنة انتهائه من وضع كتابه الأخير «التنبيه».

فتحدث عن أنسابهم وسبب تسميتهم بالروم[٢]، وعن تغلبهم على ملك اليونانيين[٣]، وتناول تاريخ الأباطرة الأقدمين وأشار إلى أنه يعتريه كثير من الغموض والاضطراب، وشبهه بتاريخ الفرس في إيران قبل ظهور الساسانيين[٤].

ثم تحدث عن ظهور المسيح عليه السلام[٥]، وعن تلاميذه من بعده[٦]،

---

(١) التنبيه، ص ١١٥ وما بعدها، ويلاحظ الباحث في كتب المسعودي عن اليونانيين أن معلوماته عنهم في كتاب التنبيه تحمل طابعاً تاريخياً صحيحاً أكثر منه في المروج، وأنه قد صحح فيه بعض الأخطاء التي فاتت عليه في نسخة المروج الموجودة، مثل اعتباره ابطليموس القلوذي صاحب كتاب المجسطي من البطالسة الملوك؛ المروج ٢/٢٧، ونفيه لذلك في كتاب التنبيه، ص ١١٥.

(٢) المروج ٢/٣٢.

(٣) المصدر السابق ٢/٣٣.

(٤) التنبيه، ص ١٣٧.

(٥) المروج، ٢/٣٤.

(٦) المصدر السابق، ٢/٣٦ وما بعدها.

وبشكل عام فقد تناول تاريخ الامبراطورية البيزنطية وأحوالها المعاصرة في كلا كتابيه المروج[1]، والتنبيه[2]، إلا أنه في كتاب التنبيه يبدي اهتماماً أكثر من ذي قبل، فيعطي معلومات واسعة عن الامبراطورية المسيحية في القسطنطينية، وعن علاقاتها مع الخلافة الإسلامية، وهناك دليل بارز يوضح مدى اهتمام المسعودي بهذه الدولة، وهو أن ما كتبه عنها في كتاب التنبيه يبلغ في حجمه ثلاثة أمثال ما ورد عنها في كتاب المروج على الرغم من أن الكتاب الأول لا يزيد بصفة عامة عن خمس الكتاب الثاني[3].

والواقع أن معالجة المسعودي للتاريخ البيزنطي المبكر تتميز بثلاث سمات هي[4]:

١ ـ تركيزه على بعض الأحداث أو المنجزات الهامة، مثل بناء قسطنطين الأكبر[5] لمدينة القسطنطينية[6] واعتناقه لدين النصرانية[7].

٢ ـ اهتمامه بالديانة النصرانية بشكل عام، ووقوفه على كل ما يتعلق بها من

---

(١) تناول المسعودي تاريخ الروم في كتاب المروج في ثلاثة أبواب:
الأول: عن تاريخ الروم وما قاله الناس في أنسابهم وعن ملوكهم وعن تاريخ سنيهم، ٣٢/٢ ـ ٤٠.
الثاني: عن ملوك الروم المتنصرة وهم ملوك القسطنطينية، ٤١/٢ ـ ٥٢.
الثالث: عن ملوك الروم بعد ظهور الإسلام، ٥٣/٢ ـ ٦٤.

(٢) وفي التنبيه، صار على نحو هذا التقسيم، فالطبقة الأولى سماهم الصابئين تحدث عنهم ص ١٢٣ ـ ١٣٧، والطبقة الثانية وهم المتنصرة ص ١٣٧ ـ ١٥٦، والطبقة الثالثة وهم ملوك الروم من الهجرة حتى سنة ٣٤٥هـ ص ١٥٦ ـ ١٧٦.. وقد ألحق بذلك فصلين آخرين: الأول ذكر فيه بنود مقاطعات الروم، ص ١٧٦ ـ ١٨٢، والثاني عن الأفدية بين المسلمين والروم، ص ١٨٩ ـ ١٩٦.

(٣) Shboul, Al-Masudi and his world p. 230.

(٤) Ibid, p. 240.

(٥) انظر عنه: التنبيه، ص ١٤٤.

(٦) التنبيه، ص ١٣٨؛ والمروج، ٤١/٢.

(٧) المروج، ٤١/٢؛ التنبيه، ص ١٣٧.

أخبار وأحداث، مثل تقديمه روايات مفصلة عن المجامع الكنسية العامة (السنهودسات)(١).

٣ ــ معرفته التامة بالمصادر والروايات غير الإسلامية، وقدرته على دمج وتنسيق الروايات والآراء المتباينة(٢).

ومما يلاحظ أن المسعودي هو المؤرخ المسلم والعربـي الوحيد الذي أورد رواية منظمة مستقلة عن التاريخ البيزنطي بعد ظهور الإسلام(٣)، وأنه انفرد بذكر تفصيلات لبعض الأحداث الهامة في تاريخ العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين(٤).

ومما يلفت الانتباه حقاً في معالجة المسعودي لتاريخ الامبراطورية البيزنطية هو نظرته الخاصة لهذه الامبراطورية بتتبع الأحداث المتعلقة بها وذكر تفصيلاتها ومحاولة تقريب تاريخها إلى الأذهان، وذلك بمزامنة أو مقابلة عهود الأباطرة البيزنطيين الذين حكموا بعد ظهور الإسلام بعهود معاصـريهم من الخلفاء المسلمين(٥)، ويبدو أن هذه سمة أو خاصية لم يشارك المسعودي فيها أحد من المؤرخين، وهو منهج يوضح مدى اهتمامه وتقديره الحقيقي لهذا التاريخ ومدى مسايرته للأحداث وربطه بينها وإدراكه لها.

---

(١) المروج، ٤٢/٢؛ والتنبيه، ص ١٤٢ ــ ١٤٣، ١٥٩، وقد تحدث المسعودي بالتفصيل عن هذه المجامع، وذكر أن عدد ما عقد منها حتى وقت تأليفه لكتاب التنبيه سنة ٣٤٥هـ ستة مجامع فحسب.

(٢) مثلاً انظر الآراء حول سبب تنصر الامبراطور قسطنطين، التنبيه، ص ١٣٧ ــ ١٣٨؛ والمروج، ٤٣/٢، والآراء حول ارتداد الامبراطور يوليانوس (جوليان) عن دين النصرانية، التنبيه، ص ١٤٥ ــ ١٤٦؛ والمروج، ٤٧/٢.

(٣) Shboul, op.cit., pp. 245, 247.

(٤) مثل ما ذكره عن محاصرة الروم لمدينة الرها في سنة ٣٣٢هـ، وحصولهم على المنديل الذي تنشف به المسيح بعد تعميده المروج، ٥١/٢، ومثل معرفته بالحملات البحرية الموفقة التي قام بها غلام زرافة (ليو الطرابلسي)، لفتح مقاطعة سالونيكة (تسالونيكا)، التنبيه، ص ١٨٠؛ والمروج، ٤٥/٢.

(٥) انظر: التنبيه، ص ١٥٦ وما بعدها.

وعلى أي حال، فإن المسعودي يختلف كثيراً عن كل من تناول التاريخ البيزنطي من المؤرخين والجغرافيين والأدباء المسلمين[١]؛ وذلك بمنهجه الواعي الذي ألمحنا إلى بعض خصائصه، وبالمجال الواسع لمعلوماته التاريخية والجغرافية والدينية والحضارية، واعتماده على المصادر النصرانية[٢]، واستقصاءاته عن مختلف الشؤون البيزنطية، خاصة في مجال العلاقات؛ علاقاتهم الخارجية مع المسلمين في الميادين العسكرية[٣]، وفي تبادل الأسرى[٤]، واستقبال المبعوثين وغير ذلك، وعلاقاتهم مع جيرانهم من غير المسلمين كالروس[٥]، والبلغار والخزر[٦] وغيرهم، واهتمامه غير المحصور بالنواحي الحضارية والإدارية والمشكلات الرئيسة في الشؤون الداخلية السياسية والدينية، وفوق ذلك كله في ذلك الفكر العادل المنصف الذي لم تؤثر عليه تلك العلاقات العدائية المستمرة بين الدولة البيزنطية والخلافة الإسلامية، وكل هذا في الواقع يعكس سمات وخصائص منهج المسعودي في معالجة ذلك التاريخ.

* * *

وأرّخ المسعودي للصقالبة[٧] (السلاف)، وكعادته في حديثه عن الأمم غير الإسلامية وصفهم بأنهم يتألفون من أجناس كثيرة وأنواع واسعة، وأنهم كانوا

---

(١) مقارنة لما ذكره المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن البيزنطيين بما أورده المسعودي عنهم لدى:
Shboul, op.cit., pp. 227-229.

(٢) انظر مثلاً: التنبيه، ص ١٥٤ ـ ١٥٥، ١٦٠، ولمعرفة مصادر المسعودي عن البيزنطيين بالتفصيل، راجع: Shboul, op.cit., pp. 230-238.

(٣) انظر مثلاً: المروج، ٢/٥٥ ـ ٦٢.

(٤) التنبيه، ص ١٨٩ ـ ١٩٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٦) المروج، ١/٢١٦ ـ ٢١٧؛ والتنبيه، ص ١٦٨، ١٨٠، ١٨٣.

(٧) لمعرفة المزيد من التفصيل والتحليل لمعلومات المسعودي عن الصقالبة، راجع:
T. Lewicki, «AL-Masudi on the Slavs» (MMCV) pp. 11-13, and E. M. Murzaev, «The Signifcance of Al-Masudi for the works of Russian and Soviet Geographers» (MMCV) p. 17, and Shboul, op.cit., pp. 178-189.
هذا مع ملاحظة أن بلاد الصقالبة هي ما تعرف اليوم باسم يوغسلافيا.

من قبل متحدي الكلمة ينقادون إلى ملك، ثم اختلفت كلمتهم فزال نظامهم وتحزبت أجناسهم وصار كل جنس عليه ملك[1].

وتحدث المسعودي عن ممالكهم، ووصف شيئاً من أحوالهم السياسية والداخلية والاقتصادية، وذكر طرفاً من صلاتهم التجارية مع المسلمين واحتكاكاتهم الحربية مع الروم والفرنج وبعض الأمم الأخرى[2].

والملاحظ أن المسعودي لم يقتصر في كتابته عن الشعوب السلافية على ترديد ما قاله عنهم من سبقه من المؤرخين، بل جاء بمعلومات جديدة موثوق بها[3]، ولا سيما فيما ذكره عن البيوت المعظمة لدى الصقالبة[4]، وكل ذلك بسبب تحرياته الدقيقة واستقصاءاته الخاصة.

* * *

وتحدث المسعودي عن بعض الممالك في أوروبا الغربية كالفرنجة[5] (الفرنك) والجلالقة (الغاليسيين) والنوكبرد (اللمبارديون) حديثاً واقعياً كشف فيه عن موقع بلادهم وعلاقاتهم مع المسلمين وأسماء بعض مدنهم وملوكهم المعاصرين.

فأعطانا أول إشارة عن عاصمة الفرنجة، وقال: إن اسمها بريزة[6] (باريس)، وأورد قائمة بأسماء ملوك الفرنجة[7] مع الإشارة إلى المصدر الذي

---

(١) المروج، ٢/١٤٤.
(٢) المصدر السابق، ٢/١٤٤.
(٣) T. Lewichi, op.cit., p. 11.
(٤) المروج، ٢/٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٥) للمزيد من التفصيل عن ما كتبه المسعودي عن الفرنجة، راجع:
B. Lewis, «Masudi of the Kings of the Franks», (MMCV) pp. 7-10, and Shboul, op.cit., pp. 189-192.
(٦) المروج، ٢/١٤٥.
(٧) المصدر السابق، ٢/١٤٧ ـ ١٤٨.

استقاها منه[١]، وقد علق على هذه القائمة عدد من الباحثين والمهتمين بتاريخ الفرنجة، منهم: برنارد لويس (B. Lewis) وأحمد شبول (A. Shboul)[٢]، وقد قال عنها لويس: إن هذه القائمة مع إيجازها تشكل البيان المسلم الوحيد عن تاريخ أوروبا حتى عصر رشيد الدين[٣].

وأما الجلالقة في شمال غرب إسبانيا فقد تحدث المسعودي عن علاقاتهم الحربية مع المسلمين[٤]، وذكر عدداً من ملوكهم العظام السابقين[٥] ونوه بقوتهم وشدة بأسهم[٦].

وكذلك اللمبارديون في إيطاليا تناول بإيجاز ما عرفه عنهم وأشار إلى استيلاء المسلمين على بعض مدنهم، مثل مدينة باري وطارنتو وجزيرة سردانية ردحاً من الزمن ثم إخراجهم منها[٧].

---

(١) المصدر السابق، ٢/١٤٧، وهو كتاب عثر عليه في الفسطاط سنة ٣٣٦هـ أهداه غدمار الأسقف بمدينة جَرُندَة من مدن الفرنجة إلى الحكم بن عبدالرحمن بن محمد الأموي ولي عهد أبيه في الأندلس.

(٢) راجع، ص ٣٣٠ حاشية رقم ٧ من هذا البحث.

(٣) B. Lewis, op.cit., p. 10.

ورشيد الدين هذا هو فضل الله الهمذاني الطبيب، صاحب كتاب جامع التواريخ، وهو تاريخ للمغول بدأ كتابته بتكليف من غازان خان المغولي، ثم جعله تاريخاً عالمياً، وكان من ضمن أبحاثه بحث عن الفرنجة، أباطرتهم وباباواتهم، وهو الذي أشار إليه لويس في العبارة السابقة. انظر عنه: برثلز (Berthels) مادة (رشيد الدين) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ١١٦/١٠ وما بعدها.

(٤) المروج، ٢/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٥) المصدر السابق، ٢/١٥٠.

(٦) المصدر السابق، ٢/١٤٥.

(٧) المصدر السابق، ٢/١٥١.

(ز) شعوب جبل القبخ (القوقاز) والأمم المجاورة:

يمتد هذا الجبل حسب وصف المسعودي من بحر الخزر (قزوين) إلى بحر مايطس (الأسود)[1]، وهو صقع عظيم يتخلله سلاسل جبلية عالية وأودية وشعاب وهضاب وغياض وأشجار ومياه[2].

وقد اشتمل على عدد كبير من الممالك والأمم، حتى أنه لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً، ويقطن فيه حوالي اثنتين وسبعين أمة، ومن مدنه المشهورة مدينة الباب والأبواب (دربند) التي بناها كسرى أنو شروان[3].

هذا وسنشير بإيجاز إلى أهم وأشهر الأمم التي تقطن في هذا النطاق الجبلي أو قريب منه كما وصفها المسعودي، وأغلبها كما يفهم من حديثه تنتمي إلى أصول تركية.

ـ الشعوب التركية:

استعمل المسعودي تعبير أجناس الترك في وصف قبائلهم ومختلف مجموعاتهم[4]، وفي هذا دلالة على إدراكه لتنوعهم وكثرة طوائفهم. وبعد ذلك تحدث المسعودي عن القبائل التركية القاطنة في نطاق القوقاز إلى الشرق والشمال الشرقي من البلاد البيزنطية وذكر أسماءها، وما كان بينها من خلافات داخلية، ثم ما وقع بينها وبين البيزنطيين من حروب مدمِّرة كان الانتصار حليفهم فيها أخيراً[5].

وعلى أي حال، فإن وصف المسعودي للشعوب والقبائل التركية لم يكن منظماً وشاملاً لجميع عناصرهم، على الرغم من إدراكه أنهم أمة قوية تتميز

---

(١) المروج، ١/٢١٠.
(٢) المصدر السابق، ١/٢٠٩، ٢١١.
(٣) المصدر السابق، ١/٢٠٩.
(٤) التنبيه، ص ٨٣.
(٥) المروج، ١/٢٣٦ ــ ٢٣٨؛ والتنبيه، ص ١٨٠ ــ ١٨١.

بصلابتها وشدة بأسها وقوة شوكتها في الحروب، وأنهم كانوا أيضاً إحدى الأمم السبع القديمة المعروفة في سالف الزمان[1].

ـ الخـزر:

في إحدى إشارات المسعودي ما يدل على أن الخزر ينتمون إلى الشعوب التركية[2]، وأنهم يشكلون إحدى فصائلهم القوية، حتى أن الصورة التي رسمها عنهم لتوحي بأنهم كانوا قوة حربية وسياسية هامة في القوقاز على حدود العالم الإسلامي.

ونظرة عامة إلى منهج المسعودي الذي اتبعه في وصف الخزر يلاحظ أنه بين موقعهم الجغرافي، ودار مملكتهم في عصره وهي مدينة أتل، وكيف انتقل الملك إليها من مدن أخرى[3]، ووصف أحوالهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، فمنهم مسلمون ونصارى ويهود وجاهلية (وثنيون)، ولهم مجلس قضائي مميز يشترك فيه ممثلون عن كل طائفة من هذه الطوائف، «اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصارى يحكمان بحكم الإنجيل، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بحكم الجاهلية وهي قضايا عقلية، فإذا ورد ما لا علم لهم به من

---

(١) التنبيه، ص ٨٣؛ والأمم السبع القديمة كما ذكرها المسعودي مرتبة على النحو التالي:
ـ الأمة الأولى: الفرس.
ـ الأمة الثانية: الكلدانيون وهم السريانيون.
ـ الأمة الثالثة: اليونانيون والروم والصقالبة والافرنجة ومن اتصل بهم من الأمم في الشمال.
ـ الأمة الرابعة: لوبية منها مصر وما اتصل بها من الجنوب وأرض المغرب إلى بحر أوقيانوس.
ـ الأمة الخامسة: أجناس الترك.
ـ الأمة السادسة: أجناس الهند والسند وما اتصل بذلك.
ـ الأمة السابعة: الصين والسيلى وما اتصل بذلك.
راجع: التنبيه، ص ٧٧ ـ ٨٣.

(٢) المروج، ١/٢١٥؛ والتنبيه، ص ٦٢، ٨٣.

(٣) المروج، ١/٢١٢؛ والتنبيه، ص ٦٢.

النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام»[١].

وحديث المسعودي عن تحول ملك الخزر إلى اليهودية في عهد هارون الرشيد[٢] وسببه على درجة كبيرة من الأهمية، وذلك لأنه أمر لم يسبقه إليه أحد سواء في المصادر العربية أو البيزنطية[٣].

وقد أدرك المسعودي أنه يوجد لدى الخزر خاقان صوري وهو غير الملك الذي بيده تصريف الأمور والحل والعقد، ولكن مصير هذا الخاقان مظلم، فقد يكون جزاؤه الموت حينما ينزل بالبلاد جدب أو تحل بها كارثة أو نائبة من نوائب الزمان من حرب أو غيرها[٤].

ويلاحظ في مجمل حديث المسعودي عن الخزر تركيزه على وصف النواحي الحضارية، وبيان الاصطدامات الحربية والعلاقات السلمية التجارية بين الخزر وبين جيرانهم من الفرس والروس والمسلمين والبيزنطيين[٥].

ـ **البلغـــر**:

جنس من الأتراك أيضاً[٦]، وهم أمة عظيمة منيعة الجانب شديدة البأس ينقاد إليها كثير من الأمم المجاورة[٧].

ومن أهم ما لاحظه المسعودي عن البلغر في الفلجا تحول ملكهم إلى الإسلام وذلك في أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله، وحمله الهدايا إليه[٨]،

---

(١) المروج، ١/٢١٤.
(٢) المصدر السابق، ١/٢١٢.
(٣) Shboul, Op. cit., p. 169.
(٤) المروج، ١/٢١٤ ـ ٢١٥.
(٥) المصدر السابق، ١/٢١٣ ـ ٢١٥، ٢١٨، ٣١٢، ٤/١١١؛ والتنبيه، ص ٦٢ ـ ٦٣.
(٦) المروج، ١/٢١٦.
(٧) المصدر السابق، ١/٢١٧.
(٨) المصدر السابق، ١/٢١٦.

وتحول طائفة أخرى من البلغر إلى النصرانية[1]، وأنه كانت لهم غارات حربية وسرايا تهاجم سواحل الروم ومدينة القسطنطينية[2]، وأنهم كانوا يشتركون مع الروم في بعض الأحيان في مهاجمة الثغور الإسلامية[3]. وأخيراً ذكر أنه كانت لهم علاقات تجارية وطرق برية وقوافل تتجه من بلادهم إلى بلاد خوارزم وسائر أرض خراسان[4].

ـ الـروس[5]:

الروس أمم كثيرة ذات أنواع شتى، ومنهم مجموعة قوية تؤلف الغالبية العظمى تسمى اللوذعانة أو الكوذكانة[6]، وهي ذات الحركة والنشاط الملموس، ومن أبرز سمات منهج المسعودي في معالجة تاريخ الروس إيضاحه لنشاطهم الحربي ضد المسلمين في المناطق الغربية من بحر قزوين؛ حيث أن وصفه للحملة الروسية التي توجهت إلى هذه المناطق بعد اتفاق الروس مع ملك الخزر على اجتياز بلاده وإشراكه في الغنيمة يعتبر وصفاً دقيقاً مفصلاً لم يشاركه فيه أحد قبله من المؤرخين السابقين، فهو أول مؤرخ مسلم يكتب عن هذه الحملة[7]، وبطريقة تحليلية مفصلة[8].

وكـذلك جهـودهم الحربيـة ضد البيـزنطيـين وإغاراتهم عـلى مـدينـة القسطنطينية وغيرها من المدن[9]، ودخول بعض عناصرهم في خدمة الجيش

---

(١) التنبيه، ص ٦٧.

(٢) المروج، ١/٢١٦ ـ ٢١٧؛ والتنبيه، ص ١٨٠، ١٨٣، ١٩٦.

(٣) المروج، ٤/٣٥٧؛ والتنبيه، ص ١٤١.

(٤) المروج، ١/٢١٦.

(٥) معالجة موسعة عن تاريخ المسعودي للروس، لدى:
Shboul, op.cit., pp. 172-178, and E. M. Murzaev, op.cit., pp. 14-17.

(٦) المروج، ١/٢١٨؛ والتنبيه، ص ١٤١.

(٧) Shboul, op.cit., p. 176.

(٨) راجع تفاصيل هذه الحملة في: المروج، ١/٢١٨ ـ ٢٢١.

(٩) المروج، ٢/٤٤؛ والتنبيه، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

البيزنطي وحشدهم في الثغور المواجهة للمسلمين[1]، ووصفه لتبادلهم التجاري مع البلغر[2]، والبيزنطيين[3]، والخزر[4]، وامتداد نشاطهم إلى إيطاليا وغرب أوروبا[5]، وإشاراته إلى شيء من ممارساتهم الدينية وعاداتهم في حرق الموتى، وأنهم كانوا وثنيين لا دين لهم وقت كتابته عنهم[6]، ويلاحظ أخيراً أن مادة المسعودي التي حصل عليها عن طريق استفساراته واستقصاءاته أثناء رحلاته وتجواله في منطقة بحر قزوين قد أضفت على كتابته عن الروس أهمية فريدة لاحتوائها على معلومات قيمة جديدة لا نظير لها في المصادر الإسلامية.



ومما يلاحظ بصفة عامة على معالجة المسعودي لأمم جبل القوقاز ما يأتي:

- أنه اهتم بتاريخ الأمم الصغيرة فلم يسقطها من حسابه حينما عالج بتوسع تاريخ الأمم الكبيرة.
- أنه كان يركز على وصف الأوضاع السياسية المعاصرة والأحوال السائدة في عصره، مما يدل على متابعته للأحداث.
- اهتمامه بشكل عام بإيضاح الجوانب الحضارية في تاريخ تلك الأمم، ولا سيما فيما يتعلق بوصف المعتقدات والأحوال الدينية.
- إن ما كتبه المسعودي عنها يعتبر أوضح وأكمل ما دوّن عن تلك الأمم من قبل واحد من المؤرخين المسلمين.

---

(١) التنبيه، ص ١٤١.
(٢) المروج، ١/٢١٦.
(٣) المصدر السابق، ١/٢١٨.
(٤) المصدر السابق، ١/٢١٨.
(٥) المصدر السابق، ١/٢١٨.
(٦) المصدر السابق، ١/٢١٣، ٢١٦.

(ح) مصر والشعوب الافريقية :

- مصر :

حديث المسعودي عن مصر يتميز بلون خاص عن أحاديثه الأخرى، وذلك نظراً لاستقراره بها في المرحلة الأخيرة من حياته، وهي المرحلة التي تفرغ فيها للعلم والتأليف، وسطر فيها ثمار جهوده ورحلاته، ووضع كتابيه المشهورين الباقيين مروج الذهب والتنبيه والإشراف.

وكانت أخبار المسعودي عن مصر حتى عن تاريخها القديم حية نابضة يحس فيها القارىء بأثر مشاهداته وانطباعاته الشخصية عن المعالم الآثارية والحياة الاجتماعية وما فيها من المواسم والأعياد التي تعم فيها البهجة ويظهر السرور.

وجاء حديثه عن البرابي والصور والظواهر السحرية والطلاسم وأسرار الطبيعة والنجوم والقوى المغناطيسية والأهرامات واعتبارها كظاهرة مميزة في بناء التاريخ المصري القديم[1]، وما تبع ذلك من المحاولات عن كشف أسرار هذه القوى الخفية والعثور على نفائس وكنوز من تلك المخلفات الأثرية، ومصير تلك المحاولات[2]، جاء كل ذلك بأسلوب سهل مفصل وبطريقة ممتعة شيقة نظراً لإقامته بها وقربه من معالمها.

وقد وصف المسعودي مصر وفضائلها وطبيعتها ونيلها وأثره في حياة سكانها وما عليه من الترع وما يحدث فيه من الزيادة والنقصان[3].

وأورد قائمة بأسماء ملوك مصر القدامى من أبناء بيصر بن حام واقتسامهم الأرض[4]، وأسماء ملوك العماليق الذين غلبوا عليها[5] ثم ملوك مصر من

---

(١) المروج، ٢/٨٧ ـ ٩٠.

(٢) المصدر السابق، ٢/٩٥ ـ ٩٨.

(٣) المصدر السابق، ٢/٦٥ ـ ٧٣.

(٤) المصدر السابق، ٢/٨٥ ـ ٨٦.

(٥) المصدر السابق، ٢/٨٦ ـ ٨٧.

الفرس والروم واليونانيين[١]، ثم الملوك والفراعنة الأقباط الذين تولوا مصر واحداً بعد واحد إلى آخر من تولى منهم وهو المقوقس[٢].

وخصص باباً كاملاً للحديث عن مدينة الاسكندرية وتأسيس الاسكندر إياها، وكيف اجتاز الصعوبات التي واجهته أثناء بنائها حتى تم له ما أراد[٣]، ومنارة الاسكندرية والهدف من بنائها وكيف تهدمت بعض أجزائها[٤].

ـ السودان وأجناسهم:

يطلق المسعودي لفظ السودان كاصطلاح شامل لجميع عناصر السود الافريقيين، وكذلك يستخدم لفظ الأحابيش أو الأحابش للمعنى السابق نفسه[٥] وقد كانت لهم ممالك واسعة وملوك عديدون[٦].

وفيما يلي نستعرض ـ بإيجاز ـ أهم الممالك الأفريقية التي ظهرت في حوض النيل أو في السواحل الشرقية من القارة والتي تناول المسعودي تاريخها:

ـ الـزنـج:

تحدث المسعودي عن موقع بلاد الزنج وحدودها وكيف وصلوا إليها واستقروا بها[٧]، ونظراً لوصول المسعودي إلى بلاد الزنج وخاصة جزيرة قنبلو[٨] نرى حديثه عنهم يتسم بالوضوح والتفصيلات القيمة، عن ملكهم الذي يسمى وفليمي ونظرتهم التقديسية له وكيفية معاملتهم إياه إذا حاد عن الحق[٩]، وعن

---

(١) المصدر السابق، ٢/٧٨ ـ ٩٥.

(٢) مخطوطة بدايع الزهور نقلاً عن أخبار الزمان، ورقة (١٥٨أ) ـ (١٥٩أ).

(٣) المروج، ٢/٩٩ ـ ١٠٤.

(٤) المصدر السابق، ٢/١٠٤ ـ ١٠٦.

(٥) المصدر السابق، ٢/١٢٩.

(٦) المصدر السابق، ٢/٧٦ ـ ٧٧.

(٧) المصدر السابق، ١/١٧٨، ٢/١١٢، ١١٣.

(٨) المصدر السابق، ١/١٢٥.

(٩) المصدر السابق، ١/١٩٧، ٢/١١٢ ـ ١١٣.

شريعتهم ومعبوداتهم[١]، وعن غـذائهم وأقواتهم ولبـاسهم[٢]، ومنتوجـات أرضهم[٣] وعن الحيوانات المشهورة ببلادهم خاصة الفيلة التي توجد بأعداد كبيرة جداً، وكيف يصطادونها ويتاجرون بأنيابها[٤]، وعن وجود بعض الأجناس المتوحشة بينهم من العراة وأكلة لحوم البشر[٥]، وعن المراكب التجارية التي تصلهم من جنوب شرق الجزيرة العربية[٦].

ـ النــوبــة:

وتناول المسعودي تاريخ النوبة وممالكهم، فذكر بلادهم، وأنهم كانوا فرقتين: مَا قُرَّه، وعاصمتهم دُنْقُلَة، وعَلْوَة وعاصمتهم سُوبَة[٧]. وقد حدث اتحاد بين الطائفتين فكان الملك عليهما والمسعودي يكتب مروج الذهب في ربيع الآخر سنة ٣٣٢هـ (كبرى بن سرور) في مدينة دنقلة[٨].

ووصف المسعودي أحد ملوك النوبة السابقين بالحكمة وحسن التدبير والتفكير في العواقب، وقد اتضح ذلك من خلال مناقشة جرت بين ذلك الملك وبين عبدالله بن مروان الأموي الهارب من جيوش العباسيين إلى بلاد النوبة، حول أسباب زوال الملك عن بني أمية وتشتتهم في البلاد[٩]، ويبدو أن ذلك

---

(١) المصدر السابق، ١/١٢٤، ٢/١٢٥.
(٢) المصدر السابق، ٢/١١٠، ١٢٥.
(٣) المصدر السابق، ١/١٩٤.
(٤) المصدر السابق، ١/٢٠١، ٣٢١، ٢/٧٩، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١٢٣.
(٥) المصدر السابق، ٢/٧٩، ١١٣.
(٦) المصدر السابق، ١/١٢٥، ٢/١١٢.
(٧) المروج، ٢/١٢٦.
(٨) المصدر السابق، ٢/٧٩، ١٢٦.
(٩) يحسن هنا أن نورد وصف تلك المقابلة التي تمت بين الملك النوبـي وبين عبدالله بن مروان بن محمد على لسان عبدالله نفسه، وقد رواها في مجلس أبـي جعفر المنصور، قال: «يا أمير المؤمنين قدمت إلى النوبة فأقمت بها ثلاثاً فأتاني ملكها فقعد على الأرض وقد بسط له فراش له قيمة، فقلت له: «ما منعك من القعود على فراشنا؟» قال: «لأني ملك وحق للملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله»، ثم قال لي: «لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟» فقلت: «اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا»، قال: «فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في=

الملك والنوبيين عامة كان أكثرهم على دين النصرانية على مذهب اليعاقبة[1].

والواقع أن المسعودي قد انفرد بذكر تفصيلات على درجة عالية من الأهمية عن علاقات المسلمين الحربية مع النوبيين الذين لقبهم المسلمون برماة الحدق[2] نظراً لمهارتهم الفائقة في رمي النبال، وكذلك عن عقد الصلح بينهم وبين المسلمين في زمن ولاية عبدالله بن سعد بن أبـي السرح على مصر وابرام معاهدة البقط سنة ٢٧هـ[3]. وابتياع عدد من المسلمين المقيمين في أسوان لبعض الضياع الزراعية في بلاد النوبة المجاورة لهم يؤدون خراجها لملكهم، والطريقة الذكية التي تم بها إنفاذ ذلك الابتياع[4]، ويشير إلى صلات النوبة التجارية مع المسلمين في أسوان[5].

ويلاحظ اهتمام المسعودي بالحديث عن حيواناتهم المستخدمة في قضاء

= كتابكم؟» فقلت: «فعل ذلك أتباعنا وعبيدنا لجهلهم»، قال: «فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟» فقلت: «ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا»، فأطرق إلى الأرض يقلب يده مرة وينكت في الأرض أخرى ويقول: «عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا» ثم رفع رأسه وقال: «ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله وركبتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله تعالى العز وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي، فينالني معكم، وإنما حق الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي»؛ ففعلت»، المروج، ٤/١٣١ ـ ١٣٢.

(١) المروج، ٢/٥٠.

(٢) المصدر السابق، ٢/٧٩، ١٢٩.

(٣) أهم شروط هذه المعاهدة أن يؤدي ملك النوبة للمسلمين رؤوساً من السبـي معلومة مما يسبـي من الأمم المجاورة، وعدد هذه الرؤوس ثلاثمائة وخمسة وستون رأساً في السنة، المروج، ٢/١٣٠، وعلى الرغم من أن اليعقوبـي في تاريخه ٢/١٦٦؛ وكذلك الطبري، ٤/١١١، يشيران باختصار إلى معاهدة البقط إلا أن المسعودي كان حديثه عنها أكثر تفصيلاً ويبدي تعليلاً وتفسيراً لشروطها.

(٤) المروج، ٢/١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) المصدر السابق، ٢/١٣٦.

حاجاتهم[1]، والحيوانات المتوحشة ببلادهم كالنمورة والقردة وغيرها[2]، وعن منتوجاتهم الزراعية[3]، إلى غير ذلك من المعلومات التي توضح جوانب حياتهم.

ـ البُـجَـة:

من أهم ما ذكره المسعودي عن قبائل البجة موقع بلادهم بين النيل وبحر القلزم (الأحمر)[4]، وغاراتهم الحربية المتواصلة على بلاد النوبة وخاصة بعد أن قويت شوكتهم بدخول بعض القبائل العربية في بلادهم واختلاطهم بهم[5]، وإسلام بعضهم وبقاء أكثرهم على وثنيته يعبد الأصنام[6]، ولم يذكر المسعودي شيئاً عن نقض البجة للمعاهدة المبرمة بينهم وبين المسلمين والحروب التي ترتبت على ذلك[7]، لكنه تحدث بالتفصيل عن المعادن النفيسة الموجودة بأراضيهم كالذهب والزمرد، وحمايتهم لها وأخذهم الخفارة على من جاء يطلبها[8].



وتابع المسعودي حديثه عن الممالك الافريقية في شرق القارة، فذكر منها الحبشة، حيث وصف دار ملكهم وأشهر مدنهم المطلة على ساحل البحر الأحمر[9]، وعلاقاتهم التجارية مع اليمن عبر مضيق باب المندب[10].

وتحدث أيضاً عن بلاد الواحات، فوصف موقعها وخواصها وعجائبها

(١) المصدر السابق، ٢/٧٩.

(٢) المصدر السابق، ١/٢٣٢، ٢/١١١.

(٣) المصدر السابق، ٢/٧٩.

(٤) المصدر السابق، ١/١٢٧، ٢/١٢٧.

(٥) للتوسع في معرفة تاريخ قبائل البجة واتصالاتها بالعرب راجع مقالة الدكتور مصطفى سعد، «البجة والعرب في العصور الوسطى» مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، مجلد ٢١، العدد الثاني، ديسمبر ١٩٥٩م.

(٦) المروج، ٢/١٢٧.

(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٩/٢٠٣ ــ ٢٠٦.

(٨) المروج، ٢/١٢٧، ١٣٢ ــ ١٣٥.

(٩) المروج، ٢/١٢٧.

(١٠) المصدر السابق، ٢/١٢٨.

ومنتجاتها الزراعية، مع الإشارة إلى اسم حاكمها، والمصدر الذي استقى منه معلوماته عنها[1].

أما الممالك والقبائل الافريقية في غرب القارة، فذكر المسعودي عدداً منها مثل: زَغَاوَة والكَوْكَوْ والقَراقِر وَمَدَيْدَة (مَرَنْدَة) ومَرِيس والمبرس[2]، والمَلاَنَة والقُوْمَاطي وزَوِيْلَة والقِرْمَة وغيرها[3]، «ولكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابيش ملك ودار مملكة»[4]، ومعلومات المسعودي عن هذه الجهات تبدو شحيحة، ولعل ذلك بسبب صعوبة الاتصال بينها وبين البلاد المصرية مقر إقامته.

* * *

وعلى أي حال فإن مما يلاحظ بشكل عام على معالجة المسعودي لتاريخ مصر والشعوب الافريقية ما يأتي:

- أنه وصف مصر بإسهاب، وظهر في ثنايا وصفه كثير من المعلومات التاريخية والجغرافية وغيرها محصلة عن طريق الملاحظة الشخصية والبحث الذاتي.

- معلومات المسعودي عن سائر الشعوب الافريقية تتسم بالأصالة والجدة، فهو يعد من بين المؤرخين المسلمين القلائل الذين اهتموا بتدوين تاريخ الشعوب الافريقية وقبائلها وانتشارها في البلدان وخاصة في حوض النيل والسواحل الشرقية من القارة الافريقية قبل ظهور الإسلام، ثم بعد ظهوره وتغلغله في بعض الأوساط القبلية، ولعل قرب المسعودي من البلاد والقبائل التي تحدث عنها أثناء إقامته في مصر كان من الأسباب القوية في تلك الأصالة والجدة.

---

(١) المصدر السابق، ٢/١٣٦.

(٢) لم أجد في المصادر ما يساعد على ضبطها بالشكل.

(٣) المروج، ٢/١١٠، ١٢٩.

(٤) المصدر السابق، ٢/١٢٩.

ـ يلاحظ بصفة عامة في حديث المسعودي عن افريقيا اهتمامه بذكر ما تشتهر به من الحيوانات والنباتات والمعادن، وقد طغى ذلك في كثير من الأحيان على اهتمامه المعهود بالجوانب الاجتماعية والظروف السياسية.

(ط) العرب قبل الإسلام:

ناقش المسعودي تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام مناقشة طويلة اتضح من خلالها أنه كان يملك رصيداً وافراً من المعلومات الدقيقة المفصلة عن تاريخهم مع قلة المصادر ومع ما كان يكتنف بعض فصوله من غموض.

وقد ميز المسعودي في تاريخه بين القبائل العربية العاربة التي بادت وانقرضت، فانمحت أنسابها وانقطع نسلها مثل عاد وعَبيل وثمود وجديس وطسم والعماليق ووبار وجرهم، وبين العرب الباقية وهم العدنانيون والقحطانيون[١].

وتحدث المسعودي عن تشتت العرب ونزوحهم التاريخي عقب انهيار صرح النمرود ببابل[٢]، واستقرار الغالبية العظمى في شبه الجزيرة العربية، فمثلاً اتجه يعرب بن قحطان وولده إلى اليمن[٣]، واتجه عاد بن عوص بولده فحل بالاحقاف[٤]، وسار ثمود بن غاثر بولده فنزلوا الحجر بوادي القرى بين الحجاز والشام[٥]، وسار جديس بن غاثر وأتباعه فنزلوا اليمامة[٦]، ثم رحل عملاق بن لاود بولده ومن تبعه فنزلوا أكناف الحرم والتهائم ومنهم من سار إلى مصر

---

(١) المروج ٢/١٦٧ ـ ١٦٨؛ وعن أنساب العرب البائدة، انظر: المروج ٢/١٦٩؛ وعن أنساب العدنانيين: المروج ٢/٢٣٨؛ وعن أنساب القحطانيين: المروج ٢/١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) المروج ٢/٢٦٠.

(٣) المصدر السابق ٢/٢٦١.

(٤) المصدر السابق ٢/٢٦١.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٦٢.

(٦) المصدر السابق ١/٤٥، ٢/٢٦٢.

والمغرب والشام[1]، ثم اتجه طسم بن لاود بولده ومن تبعه إلى البحرين[2] ثم سار وبار بن أميم بولده ومن تبعه من قومه فنزلوا بالأرض المعروفة برمل عالج[3]، وسار عبد ضخم بن أرم بولده وأتباعه فنزلوا الطائف[4]، ثم انتقل جرهم بن قحطان بولده ومن تبعه فطافوا البلاد حتى أتوا مكة فنزلوها[5]، ونزل الأغلب من ولد كنعان بن حام بلاد الشام[6].

وذكر المسعودي أنه بعد تفرق العرب في البلاد واستيطانهم أماكن جديدة انهم كانوا مؤمنين بالله تعالى موحدين للصانع عز وجل ويعلمون أن نوحاً عليه السلام كان نبياً وأنه وفى لقومه بما وعدهم من العذاب لما لم يؤمنوا بالله تعالى، إلا أن الشبه بدأت تدخل عليهم بعد ذلك «لتركهم البحث واستعمال النظر ومالت نفوسهم إلى الدعة وما تدعو إليه الطبائع من الملاذ والتقليد»[7]، فعند ذلك عاقب الله تعالى كل أمة منهم بما تستحقه من العذاب، فباد أكثرهم، ولم تبق إلا شواهد ضئيلة تحكي بعض ما كانوا عليه في ماضيهم من قوة وتمكين[8].

وتحدث المسعودي عن سكنى هاجر وابنها إسماعيل مكة ونزول بعض القبائل العربية من العمالقة والجراهمة عليها، بعد أن أجدبت أرضهم وساءت

---

(١) المصدر السابق ١/٤٥، ٢/٢٦٢.
(٢) المصدر السابق ١/٤٥، ٢/٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٣) لم يفصح المسعودي عن موقع هذا المكان، وكان مدركاً للغموض الذي يحيط به، وأورد ما قاله إخباريو العرب من المعلومات الغامضة حوله وأن الجن سكنوا به وكان ممرعاً خصيباً ومنعوا كل من حاول الوصول إليه من الانس، المروج ٢/٢٧٢ ـ ٢٧٤.
(٤) المروج ٢/٢٧٥.
(٥) المصدر السابق ٢/٢٧٥.
(٦) المصدر السابق ٢/٢٧٦.
(٧) المروج ٢/٢٧٧.
(٨) انظر حديثه عن عاد وملوكها وكيفية هلاكها، المروج ٢/١٥٣ ـ ١٥٥، ٢٧٧ ـ ٢٨٠؛ وحديثه عن ثمود وهلاكها؛ المروج ٢/١٥٦ ـ ١٦٠؛ وعن وبار كيف أصابتهم نقمة من الله تعالى فهلكوا لما كان من بغيهم في الأرض. المروج ٢/٢٧٢؛ وطسم وجديس وغيرهم: المروج ٢/٢٧٣.

حالهم، ثم غلبة هذه القبائل على مكة، وحدوث الحروب والمنازعات بينهم حتى انتهت ولاية البيت الحرام أخيراً إلى أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[1].

ثم ذكر كيفية انتقال ولاية أمر البيت إلى قبيلة خزاعة أثر النزاع الذي نشب بين إياد ومضر ابني نزار[2]، ثم تبديل عمرو بن لحي الخزاعي دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ بإدخال التماثيل وعبادة الأصنام في الكعبة[3]، ثم انتقال ولاية البيت أخيراً إلى قريش على يد قصي بن كلاب بن مرة[4]، وما قام به قصي من إصلاحات كبناء الكعبة وترتيب قريش على منازلها بمكة، وتنظيم أمورها وتقرير الأمن في ربوعها، وانتظام رحلاتها إلى الشام صيفاً وإلى اليمن شتاء، حتى ظهر الإسلام وعم نوره الأرجاء وهم على تلك الحال[5].

وعقد المسعودي أبواباً خاصة لبحث تاريخ اليمن ومن تداول ملكها من التبابعة والقحطانيين العرب والأحباش والفرس، «ومن طاف الأرض من ملوكهم مثل التبابعة والأذواء، ومن شيد البنيان في الشرق والغرب ومصر الأمصار وبنى المدن الكبار»[6]، وكور الكور واتخذ العمائر. وأورد قوائم بأسماء جميع الملوك، وما كان من الأحداث الهامة في أيامهم حتى بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وعلى اليمن عمال كسرى[7].

وتاريخ الحيرة وملوكها النصريين أبناء عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وقبل ذلك تاريخ خالهم جذيمة الوضاح وما جرى له مع الزباء[8]، تناول كل

---

(١) المروج ٢/١٦١ ـ ١٦٧.

(٢) المصدر السابق ٢/١٧٣.

(٣) المصدر السابق ٢/١٧٣ ـ ١٧٤.

(٤) المصدر السابق ٢/١٧٥.

(٥) المصدر السابق ٢/١٧٦ ـ ١٧٧.

(٦) المصدر السابق ٢/٢٣٦.

(٧) المصدر السابق ٢/١٩٢ ـ ٢١٢.

(٨) المروج ٢/٢١٣ ـ ٢٢٢.

ذلك بالتفصيل وبين ما آل إليه حالهم، وكيف انتهت دولتهم قبيل ظهور الإسلام بفترة وجيزة[١].

وتاريخ ملوك العرب بالشام من تنوخ وسليح وغسان، فأورد قوائم بأسمائهم وعدة ما ملكوا من السنين، وما كان بينهم وبين الشعراء في الجاهلية من مدائح وصلات، وذكر منازلهم ودياراتهم ونهاية دولتهم[٢].

ولم يذكر المسعودي شيئاً عن تاريخ ملوك كندة وغيرهم من ملوك العرب من قحطان ومعد، وهم ملوك كثيرون، وكانت حجة في ذلك أنه لم يكن لهم سمة تعمهم أو تشهرهم مثل خليفة وكسرى وقيصر والنجاشي، ولئلا يطول الكتاب بذكرهم[٣]، إضافة إلى أنه سبق وأن تحدث عنهم فيما سلف من كتبه المتقدم تصنيفها[٤].

وبسط المسعودي الأسباب التي من أجلها سكن العرب في البوادي، وأوضح أن سكناهم إياها إنما جاء بعد اختيار وتفكير وموازنة بين منافع ومضار البادية والمدن وتأثيرها على النفوس والأبدان[٥].

وأما أيام العرب ووقائعهم في الجاهلية وفي السنوات الأولى من ظهور الإسلام «كيوم الهباءة وحروب ذبيان وغطفان، وما كان بين عبس وسائر العرب من نزار واليمن، وحرب داحس والغبراء، وحروب بكر وتغلب وهي حرب البسوس، ويوم الكلاب، ويوم خزازا، ومقتل شاس بن زهير، ويوم ذي قار، ويوم شعب جبلة، وما كان بين عامر وغيرهم، وحرب الأوس والخزرج وما كان

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٢٣ ـ ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٣١ ـ ٢٣٤.

(٣) يبدو أن هذه التبريرات التي ذكرها المسعودي لاغفاله تاريخ كندة غير مقنعة لأنها تنطبق أيضاً على الدويلات العربية الأخرى التي ساق تاريخها ولكن يظهر أن شح معلوماته عنها كان له دور كبير في ذلك الاغفال.

(٤) المروج ٢/٢٣٥.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٤٦ ـ ٢٤٩.

بين غسان وعك»[1] فقد اكتفى المسعودي بالإحالة إلى ما سلف من كتبه التي ذكر فيها كل ما تقدم مشروحاً ومفصلاً.

وأما ما يتعلق بديانات العرب وآرائها في الجاهلية فقد كانت معلومات المسعودي عنها وافرة غزيرة، فذكر أنهم كانوا في اعتقاداتهم على فرق وطوائف؛ فمنهم «الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور موقناً ان الله تعالى يثيب المطيع ويعاقب العاصي»؛ ومنهم «من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأيقن بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام»، ومنهم «من أقر بالخالق وكذب بالرسل والبعث ومال إلى قول أهل الدهر»؛ ومنهم «من مال إلى اليهودية والنصرانية»؛ ومنهم «صنف يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله تعالى وتقدس فكانوا يعبدونها لتشفع بهم إلى الله»[2].

وركز المسعودي كثيراً على نبوغ العرب في الجوانب الروحانية مثل الكهانة وما يتصل بها[3]، وما ذهبوا إليه في النفوس والهام والصفر[4]، وأقاويلهم في الغيلان والتغول[5]، وفي الهواتف والجان[6]، وما ذهبوا إليه من القيامة والزجر والعيافة والسانح والبارح وغير ذلك[7]، «وهذه المعاني من خواص ما للعرب وما تفردت به دون سائر الأمم في الأغلب منها، وإن كانت الكهانة قد وجدت في غيرها فإن العيافة والزجر والتفؤل والتطير ليس لغيرها في الأغلب من الأمور، وليس هذا بموجود في سائر العرب وإنما هو للخاص منها الفطن والمتدرب الظنن»[8] وإن وجد شيء في بعض الأمم من هذا القبيل فيمكن أن يكون

(١) المصدر السابق ٢/٢٥١ ــ ٢٥٢.
(٢) المروج ٢/٢٥٣ ــ ٢٥٤.
(٣) المصدر السابق ٢/٣٠٨ ــ ٣٣٣.
(٤) المصدر السابق ٢/٢٨٦ ــ ٢٨٨.
(٥) المصدر السابق ٢/٢٨٩ ــ ٢٩٤.
(٦) المصدر السابق ٢/٢٩٥ ــ ٣٠٠.
(٧) المصدر السابق ٢/٣٠١ ــ ٣٠٧.
(٨) المصدر السابق ٢/٣٠١.

موثوقاً عن العرب في سالف الدهر أو يكون مأخوذاً عنهم بعد ظهور الإسلام[1].

وبعد هذا العرض الموجز لمجمل معالجة المسعودي لتاريخ العرب يمكن أن ندون الملاحظات الآتية:

- يبدو من خلال استقراء ما كتبه المسعودي في هذا المجال أنه ركز على سرد الأحداث السياسية وسير الملوك، وغض الطرف قليلاً عن دراسة أحوال الشعوب وخاصة في الأبواب التي عقدها عن تاريخ اليمن والحيرة والشام، وهذا الأمر يبدو غريباً من المسعودي الذي كان يلاحق باستمرار تطور الأحداث التي تهم الشعوب وتمس أحوال الناس وشؤونهم العامة.

- يلاحظ مدى اهتمام المسعودي بإبراز أوجه الحياة الدينية والروحية عند العرب، وما تميزوا به عن سائر الأمم الأخرى، وذلك بوجود بعض السمات الخاصة التي تبرز سموهم الفكري مثل القيافة.

- يلاحظ أن المسعودي كان يعتبر تاريخ العرب قبل الإسلام كتمهيد أو كعملية إعداد ديني لظهور الإسلام[2]، ولا سيما أنه عقد باباً خاصاً لأهل الفترة[3] الموحدين والمنكرين للواقع السيىء الذي كانت تعيشه مجتمعاتهم[4].

- ومما يلفت النظر اعتماد المسعودي في تحليله لبعض القضايا المتصلة بالأمم العربية القديمة على مخلفاتهم الآثارية واستعماله القياس والمقارنة من واقع تلك المخلفات لإثبات الحقائق التي توصل إليها[5].

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٠٢.

(٢) راجع في هذا الموضوع: Khalidi, Islamic Historiography, p. 116

(٣) أهل الفترة هم جماعة جاءوا في الفترة الواقعة بين عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ كانوا من أهل التوحيد ويقرون بالبعث، وكان أكثرهم من العرب.

(٤) طالع المروج ١/٧٢ ـ ٧٣.

(٥) انظر مثلاً مناقشة لقضية طول أجسام عاد، وقصر أجسام ثمود، المروج ٢/١٥٣، ١٥٦.

- في معالجة المسعودي لتاريخ الأمم العربية البائدة التي حادت عن الحق وخالفت الرسل فحق عليها العذاب، أكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية التي نزلت تحكي قصصهم وتكشف واقعهم.
- استخدم المسعودي الشعر كثيراً القديم منه والحديث مستشهداً وموضحاً ومفسراً ومؤكداً، وقد كان لذلك وقع ملموس لمناسبته للواقع ومطابقته للأحداث.
- يلاحظ أن المسعودي في كتابته عن التاريخ العربي كثيراً ما كان يحيل إلى كتابيه المفقودين أخبار الزمان والكتاب الأوسط، مما يوحي بأنه قد تناول فيهما تاريخ العرب قبل الإسلام على سبيل البسط والإيضاح[1].
- مع أهمية ما كتبه المسعودي حول تاريخ العرب قبل الإسلام إلا أنه كان يدرك صعوبة الخوض فيه، لعدة عوامل منها: قدم الزمان[2]، ومبالغات الاخباريين والقصاص، ووجود العصبيات والتحزبات القبلية التي تجر إلى الاختلاف في الآراء وتكييف الأحداث والوقائع لكي تتمشى مع الأهواء[3].

وهكذا فقد حاولنا ــ قدر الإمكان ــ من خلال دراستنا لما سطره المسعودي عن تاريخ ما قبل الإسلام وتاريخ الأمم غير المسلمة أن نتعرف على المنهج العام الذي سار عليه، وأن نجلو بعض السمات والخصائص التي تميزت بها معالجته لذلك التاريخ.

ومن أبرز ما يمكن ملاحظته والتركيز عليه في هذا المجال هو معرفة أن المسعودي كان يملك رصيداً وافراً من المعلومات عن كل شعب أو أمة تعرض لتاريخها، وذلك من أوثق المصادر وأثبتها، وأن أهمية ما كان يكتبه لا تكمن في

---

(١) انظر مثلاً المروج ٢/١٥٥، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٥١.

(٢) التنبيه، ص ٨٢.

(٣) على سبيل المثال انظر النزاع الدائر بين القحطانية والنزارية حول أول من تكلم باللسان العربي، وحول نسب قحطان نفسه، المروج ٢/١٩٢ ــ ١٩٥؛ والتنبيه، ص ٧٩ ــ ٨٣.

مجرد التفاصيل التي أوردها، ولكن أيضاً في إبدائه لوجهة نظره الخاصة وفي طريقته وأسلوب معالجته، وأنه كان شغوفاً بإبراز الأحوال الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية إلى جانب دراسة الحالة السياسية لأي أمة من الأمم، وأنه كان مدركاً لتعدد العناصر القبلية والعرقية في أي مجموعة من البشر، ومن الخصائص الهامة المميزة لمعالجة المسعودي لتاريخ الأمم غير المسلمة إدراكه بأن تاريخها متصل الحلقات[1].

وملاحظة أخيرة وهي أن معلومات المسعودي عن كثير من الأمم التي عالج تاريخها يتميز أكثرها بالأصالة والجدة والسبق والتحليل ومتابعة الأحداث المعاصرة حتى وقت تأليفه لآخر مصنفاته التاريخية وهو وقت قريب جداً من تاريخ وفاته.

* * *

(١) Shboul, Al-Masudi and his world, p. 156.

ثـانيـــاً :

التاريخ الإسلامي لدى المسعودي

عالج المسعودي التاريخ الإسلامي منذ فجر الرسالة المحمدية حتى قبيل وفاته سنة ٣٤٦هـ، ويمكن أن نعتبر ما كتبه عن تاريخ العرب وأحوالهم قبل ظهور الإسلام، وعن أهل الفترة[1] تمهيداً للدخول في كتابة التاريخ الإسلامي، وقد كان بحث المسعودي في التاريخ الإسلامي متوائماً ــ إلى حد ما ــ مع بحثه في تاريخ الأمم غير الإسلامية ودياناتها المختلفة، وبمعنى آخر كان هناك نوع من التوازن الكمي بحيث لم تطغ الكتابة في الجانب الإسلامي على حساب الجانب الآخر أو العكس كما هو الحاصل لدى كثير من المؤرخين المسلمين كالطبري وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين.

هذا ومن خلال استعراضنا التالي لبحث المسعودي في فترات التاريخ الإسلامي وحكوماته ستتضح لنا ــ بإذن الله ــ أهمّ مميزات وخصائص كتابته ومناهجه التي سار عليها في كتابته لهذا التاريخ.

(أ) السيرة النبوية :

لم يعتمد المسعودي في تقديمه للسيرة النبوية في كتابي مروج الذهب والتنبيه والإشراف على السرد الروائي المتصل أو المفصل، بل كانت خطته فيهما

(١) على الرغم من أن المسعودي تحدث عن أهل الفترة عقب حديثه عن الخلق والأنبياء مباشرة واعتبرها امتداداً لتاريخهم إلا أن الواقع الفعلي لتاريخ أولئك الناس وبشاراتهم الكثيرة المتتالية بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم وظهور الإسلام يجعلنا أيضاً نعتبر تاريخ هذه الفترة مقدمة للتاريخ الإسلامي.

أن يشير إلى الأحداث الرئيسة بصورة دقيقة وموجزة على شكل جوامع، وهدف المسعودي من ذلك معلن وواضح وهو أن يكتفي بها العالم المستبصر ويتنبه بها الطالب المسترشد، ولتكون قريبة إلى الأذهان سهلة المأخذ[1].

ففي كتاب المروج سلك المسعودي في تاريخ السيرة النبوية منهجين:

الأول: اعتمد فيه على العرض الموضوعي لأحداث حياة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجعل ذلك في ثلاثة أبواب على النحو التالي:

- مولده ونسبه حتى مبعثه[2].
- مبعثه حتى هجرته[3].
- هجرته إلى وفاته[4].

وفي تضاعيف هذا العرض ذكر المسعودي «جملاً من الكوائن والأحداث»[5] التي كانت في أيامه صلى الله عليه وسلم.

أما المنهج الثاني: فقد عرض فيه المسعودي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بطريقة الحوليات، أي حسب ترتيب السنين، منذ السنة الأولى التي ولد فيها وحتى سنة وفاته، وذكر في كل سنة أهم ما وقع فيها من الأحداث والكوائن، وذلك ببسط وإحصاء يكاد يكون شاملاً لأهم أحداث السيرة النبوية، وإن كان في الواقع لا يعدو في معظمه أن يكون تكراراً لما ذكره من قبل[6] مما يدعو إلى القول إن ذلك التكرار يعتبر نقطة ضعف في منهج المسعودي التاريخي لأنه كان بإمكانه أن يجمع بين المنهجين من غير حاجة إلى التكرار.

وفي كتاب التنبيه أرخ المسعودي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى

---

(١) المروج ٣/٢٥.
(٢) المصدر السابق ٣/٥ ــ ١٤.
(٣) المصدر السابق ٣/١٤ ــ ١٧.
(٤) المصدر السابق ٣/١٨ ــ ٢٤.
(٥) المصدر السابق ٣/٢٥.
(٦) المروج ٣/٢٥ ــ ٣٣.

الرغم من صغر حجم الكتاب وشدة تركيزه إلا أن المسعودي قد تناول فيه السيرة النبوية بصورة أكثر شمولاً من المروج، فنجده قد ذكر فيه جميع السرايا والسوارب والبعوث والغزوات التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم أو قادها، وكان في كل ذلك يستخدم طريقة الحوليات في سرد أحداث السيرة[1].

هذا وقد بحث المسعودي السيرة النبوية بشيء من التفصيل في بعض كتبه المفقودة مثل أخبار الزمان[2]، والكتاب الأوسط[3]، وفنون المعارف[4]، والاستذكار[5]، وأشار إلى كتب أخرى له تناول فيها السيرة بصورة مجملة من غير تخصيص لكتاب معين[6]، وعلى الرغم من كثرة مصنفاته واهتمامه الواضح باستقصاء كل ما يتعلق بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت إلا أنه لا يوجد ما يوحي بإفراده كتاباً خاصاً للبحث فيها.

على أي حال فإن من أبرز ما يلاحظ في معالجة المسعودي للسيرة النبوية ما يأتي:

- التركيز والاختصار وتقديم المعلومات على شكل حقائق في الكثير الغالب.
- الاهتمام بذكر التواريخ المؤرخ بها في ذلك الوقت وموافقاتها في كل حدث من أحداث السيرة النبوية الهامة مثل مولد النبي صلى الله عليه وسلم[7]، ووضعه الحجر الأسود عند بناء الكعبة[8]، ومبعثه[9]، وهجرته[10]، وسنة وفاته[11].

---

(١) التنبيه، ص ٢٢٧ ـ ٢٨٤.

(٢) انظر: المروج ٣/١٤، ٣٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ٣/١٠، ١٤، ١٨، ٢٣، ٣٢.

(٤) انظر: التنبيه، ص ٢٧٩.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢٨، ٢٧١ ـ ٢٧٢، ٢٧٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ والمروج ٣/٥، ٧، ٣٨.

(٧) المروج ٣/٧؛ والتنبيه، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٨) المروج ٣/١٢.

(٩) المروج ٣/١٥؛ والتنبيه، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(١٠) المروج ٣/١٨؛ والتنبيه، ص ٢٣٣.

(١١) التنبيه، ص ٢٨١.

ـ حرص المسعودي على إيراد المعلومات الإحصائية وبيان التنازع والاختلاف الذي دار حولها، مثل الاختلاف في عدد غزواته صلى الله عليه وسلم بصفة عامة أو إجمالاً[١]، وفي عدد الغزوات التي قاتل فيها حقيقة[٢]، وفي عدد سراياه وبعوثه منذ أن قدم المدينة حتى قبضه الله تعالى[٣].

ـ أن المسعودي قد أفصح عن بعض آرائه الخاصة في مسائل من السيرة دار حولها تنازع واختلاف في الآراء، ولكنه سطر ذلك ـ مع الأسف ـ في بعض مصنفاته المفقودة التي أرخ فيها للسيرة النبوية[٤].

(ب) عصر الراشدين:

تحدث المسعودي عن خلافة أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ بإيجاز شديد[٥]، فذكر زهده وتواضعه ونسكه ووقاره وهيبته[٦]، وأشار إلى أولاده وعقبه[٧]، وشيء من أخباره، وأخبار بعض المرتدين في عهده وحروبهم[٨]، وتوجيهه الجيوش الإسلامية في عهده للفتوح في ممالك الفرس والروم[٩].

ثم تناول خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ بتفصيل أكثر مما كتبه عن خلافة أبي بكر[١٠]، لكن ما كتبه ـ مع ذلك ـ لم يكن شاملاً لكل الأحداث التي تمت في عصره، بل اقتصر على بعضها، فتحدث أولاً عن اتصافه

---

(١) المروج ٣/٢٠.
(٢) المصدر السابق ٣/٢٣.
(٣) المصدر السابق ٣/٢٢؛ والتنبيه، ص ٢٧٨.
(٤) المروج ٣/١٧.
(٥) المروج ٣/٣٩ ـ ٤٦؛ والتنبيه، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨.
(٦) المروج ٣/٤٠.
(٧) المروج ٣/٤١؛ والتنبيه، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٨) المروج ٣/٤٥؛ والتنبيه، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٩) المروج ٣/٤٤؛ والتنبيه، ص ٢٨٦.
(١٠) المروج ٣/٤٧ ـ ٧٤؛ والتنبيه، ص ٢٨٨ ـ ٢٩١.

بالتواضع والحزم والخوف الشديد من الله تعالى، واقتداء عماله به في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه[1]، ثم أشار إلى بعض أعماله مثل تجنيد الأجناد، وتمصير الأمصار، وتدوين الدواوين، وفرض العطاء وكتابة التاريخ، وسن صلاة التراويح في شهر رمضان[2]. ثم تحدث عن أشهر الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس التي تمت في عهده[3]، ولم يذكر شيئاً عن الفتوح في الشام ومصر وغيرهما من الأمصار، ولا عن أخبار عمر الكثيرة وأسفاره في الجاهلية إلى الشام والعراق ومحادثاته مع بعض ملوك العرب والعجم، وغير ذلك من أخباره وسياساته، وما كان في أيامه من الكوائن والأحداث، وذلك لأن المسعودي قد أتى على جميع ما ذكر في كتبه السالفة التي ألفها قبل كتاب مروج الذهب[4].

وعالج خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ بشيء من البسط[5]، مع التركيز على بيان أخلاقه واتصافه بالجود والسماحة والكرم والبذل في القريب والبعيد ـ وحسب روايته ـ على اقتناء الدور والبساتين واقتناء الضياع والأموال[6]، ثم تحدث عن ولاة الأمصار في عهده وظلمهم للناس، وشكوى الناس منهم[7]، وعن معاملة عثمان القاسية لبعض الصحابة[8]، ثم فصل القول في الحصار الذي ضرب عليه في داره، وموقف الصحابة منه، وكيفية قتله[9]، وأشار أخيراً إلى أن لعثمان أخباراً ومناقب حساناً قد أتى على ذكرها في كتابيه أخبار الزمان والأوسط، وكذلك ذكر فيهما ما كان في أيامه من الكوائن والأحداث والفتوح والحروب مع الروم وغيرهم[10].

---

(١) المروج ٣/٤٨ ـ ٤٩.
(٢) التنبيه، ص ٢٨٨.
(٣) المروج ٣/٥٠ ـ ٦٤، ٦٦ وما بعدها.
(٤) المروج ٣/٧٤.
(٥) المروج ٣/٧٥ ـ ٩٢؛ والتنبيه، ص ٢٩١ ـ ٢٩٤.
(٦) المروج ٣/٧٦ ـ ٧٧.
(٧) المصدر السابق ٣/٧٨ ـ ٨٢.
(٨) المصدر السابق ٣/٨٣ ـ ٨٦.
(٩) المصدر السابق ٣/٨٧ ـ ٩٠.
(١٠) المصدر السابق ٣/٩٢.

أما خلافة علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقد تحدث عنها بتفصيل وإسهاب فاق كل ما سبق وأن كتبه عن الخلفاء الثلاثة الأول[1]، فذكر نسبه وأولاده وعقبه[2]، ثم أشار بإجمال وإيجاز إلى أشهر الحوادث في عصره[3]، وإلى من بايعه ومن تخلف عن بيعته من المهاجرين والأنصار[4]، ثم بدأ بالتفصيل، فتحدث عن موقعة الجمل مع التركيز على إيضاح الجهود التي بذلها علي للحيلولة دون نشوب الحرب فيها، وتقديمه الأوامر لجيشه أن لا يكون هو البادىء بالقتال وإشعال فتيل الحرب[5]، ثم عن معركة صفين وجوامع مما كان فيها بين أهل العراق وأهل الشام، وقد أطال في وصف أيامها وأحداثها ومشاهدها واستشراء القتال بها، ومن اصطلم بها وذاقها من القواد ومشاهير الرجال[6]، ثم أفرد باباً خاصاً لعرض قضية التحكيم في أعقاب معركة صفين، واستعرض بعض الآراء التي قيلت فيه والكيفية التي تم بها[7]، كما خصص ثلاثة أبواب لحروبه مع الخوارج في النهروان بعد انخزالهم عنه، وقضائه على الغالبية العظمى منهم[8]، ولقصة مقتله وأيامه الأخيرة[9]، ثم أنهى الحديث عنه في ثالث هذه الأبواب بذكر لمع من كلامه وزهده وأخباره وفضائله[10].

* * *

وهكذا بعد أن أوضحنا طبيعة المعلومات التي أوردها المسعودي في معالجته لتاريخ الخلفاء الراشدين نذكر أهم ما تميزت به هذه المعالجة من خصائص وما اصطبغت به من مظهر فنقول:

---

(١) المصدر السابق ٣/٩٣ ـ ١٨٠؛ والتنبيه، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠.
(٢) المروج ٣/٩٣ ـ ٩٤، ٢٦٠ ـ ٢٦١؛ والتنبيه، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩.
(٣) المروج ٣/٩٥ ـ ٩٧.
(٤) المروج ٣/٩٧ ـ ٩٨.
(٥) المصدر السابق ٣/١٠٦ ـ ١٠٩.
(٦) المصدر السابق ٣/١٢٠ ـ ١٤٠.
(٧) المصدر السابق ٣/١٤١ ـ ١٥٤.
(٨) المصدر السابق ٣/١٥٥ ـ ١٦٣.
(٩) المروج ٣/١٦٤ ـ ١٧١.
(١٠) المصدر السابق ٣/١٧٢ ـ ١٨٠.

يتضح للناظر المتمعن فيما سطره المسعودي عن الخلفاء الراشدين بعض ما كان يكنه أو يحاول إخفاءه في بعض الأحيان من ميول شيعية وتعاطفات علوية، فقد ظهر هنا على حقيقته وعجز عن كبح جماح ميوله حين دخل في عرض مواقف علي بن أبـي طالب تجاه الخلفاء الثلاثة السابقين له، وتجاه بعض الصحابة الآخرين حين تحدث عن الصراع الذي دار بين علي وبين معاوية بن أبـي سفيان في معركة صفين، وحين الموازنة بينه وبينهم، فذكر أن فضائله «ومناقبه ومقاماته ووصف زهده ونسكه أكثر من أن يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب أو يبلغه إسهاب مسهب أو إطناب مطنب»[1]، بل إن له النصيب الأوفر والحظ الأكبر من كل الصفات التي استحق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل والسبق على غيرهم، وله زيادة على ذلك مواقف أخرى خصه الرسول صلى الله عليه وسلم بها دون غيره[2]، ويفهم مما كتبه المسعودي هنا ــ والله أعلم ــ أنه يفضل علياً على سائر الصحابة، وهذا القول مردود بإجماع علماء السلف من ترتيب أفضليتهم حسب توليهم الخلافة وما «تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب ــ رضي الله عنه ــ وعن غيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي، رضي الله عنهم...»[3]. والله تعالى أعلم بالصواب، ومما يزيد موقف المسعودي هذا وضوحاً ما يأتي:

ــ ملاحظة أن روايته عن خلافة أبـي بكر الصديق ــ مع إيجازها ــ تدور في معظمها على التشكيك في أحقيته بالخلافة، فيصفه بالمتردد النادم على قبوله

(١) المصدر السابق ٣/١٧٩.

(٢) المصدر السابق ٣/١٨٠.

(٣) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، الطبعة الثانية (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٣٩٨هـ)، ج ٣ ص ١٥٣؛ وانظر أيضاً: أبا بكر بن العربي: العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ص ١٤٠ وما بعدها.

الخلافة[1]، وأنه لم يقبلها إلا خشية الفتنة[2]، ويشير إلى المعارضة التي وقفت في وجهه من قبل الأنصار[3]، ومن قبل بني هاشم[4]، ويبدو أن هدف المسعودي من ذلك ــ والله أعلم ــ الإيحاء بأن علياً كانت له الأفضلية في تولي الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ومما يؤكد ذلك مناقشته لقضية إمامة المفضول مع وجود الفاضل في هذا المقام[5] وسياقه لاعتراف أبي بكر ــ حسب روايته ــ بأحقية علي في الخلافة وأنه لم يتولها إلا خوفاً من وقوع الفتنة[6].

ــ فيما كتبه المسعودي عن عثمان بن عفان يلمح الدارس كثيراً من الإشارات والتنبيهات إلى ما وقع من ظلم وإجحاف بحق آل البيت، وتصريح عدد من الصحابة بهذا الأمر، وذلك بسبب صرف الخلافة عنهم إلى غيرهم[7].

ــ وظهرت ميول المسعودي العلوية بوضوح في وصفه لنهاية كل من عمر وعثمان بالقتل[8] ونهاية علي بالاستشهاد[9]، مع أن القتل وقع على الثلاثة جميعاً ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ ظلماً وعدواناً، وهذا التفريق لا مبرر له ولا حجة تدعمه.

ــ وصف المسعودي جماعة من كبار الصحابة بالعثمانية ــ أي موالاة عثمان ومناصبة علي ــ وهم الذين توقفوا عن الدخول في الصراع الدامي الذي

---

(١) المروج ٣/٤٣.

(٢) المروج ٣/٤٢، وأكثر من هذا يوصف بأنه أول من ابتز علياً حقه ولم يشركه في أمره؛ المروج ٣/٢٠٠ ــ ٢٠١.

(٣) المروج ٣/٤٤ ــ ٤٥.

(٤) المصدر السابق ٣/٤٣، ٤٥، لبيان حقيقة موقف علي من أبي بكر ــ رضي الله عنهما ــ موثقة بالأسانيد الصحيحة. راجع: ابن كثير: البداية والنهاية ٥/٢٤٩ وما بعدها.

(٥) المروج ٣/٤٥ ــ ٤٦.

(٦) المصدر السابق ٣/٤٢.

(٧) المصدر السابق ٣/٨٦ ــ ٨٧.

(٨) المصدر السابق ٣/٤٧، ٧٥؛ والتنبيه، ص ٢٨٨، ٢٩٢.

(٩) المروج ٣/٩٣؛ والتنبيه، ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

جرى بين المسلمين في معركتي الجمل وصفين، ومن هؤلاء سعد بن أبـي وقاص وعبدالله بن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وغيرهما من كبار الصحابة[1]

ـ وفي كتابة المسعودي عن خلافة علي بن أبـي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ ظهرت ميوله واتجاهاته بوضوح شديد، والغريب أنه بسبب هذه الميول يظهر عدداً من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنهم ذوو أطماع دنيوية بحتة لا يبالون في سبيل تحقيقها بدين ولا مبدأ، فيلاحظ ـ حسب روايته ـ أن طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وهما من السابقين الأولين في دخول الإسلام، وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهما راض مبشراً إياهما بالجنة، لم يتورعا أن يخدعا علياً حين استأذناه في العمرة[2]، ولم يتورعا أيضاً أن يحلفا لعائشة أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ حين نبحتها كلاب الحوأب[3] يميناً غموساً أن ذلك المكان لا يعرف بهذا الاسم، وأن يشهدا أول شهادة زور في الإسلام[4].

هذا غير ما ظهر به عمرو بن العاص ـ رضي الله تعالى عنه ـ بالرجل الذي تستولي الامارة على لبه، فلا يبالي أن يبيع دينه بعرض من الدنيا[5]، وما ظهر به معاوية بن أبـي سفيان ـ رضي الله تعالى عنه ـ وبعض أتباعه من أنهم ـ على حد قول علي بن أبـي طالب كما يروي المسعودي ـ «ليسوا بأصحاب

---

(١) المروج ٩٧/٣؛ وانظر: أبا بكر بـن العربـي: العواصم من القواصم، ص ١٠٩.

(٢) المروج ١٠٢/٣.

(٣) الحوأب: ماء لبني كلاب يعرف بهذا الاسم في طريق البصرة. انظر: ياقوت: معجم البلدان ٣١٤/٢.

(٤) المروج ١٠٣/٣؛ وانظر في تحقيق هذا الموضوع: أبا بكر بـن العربـي: العواصم من القواصم، ص ١٠٩ ـ ١١٨؛ وابن كثير: البداية والنهاية ٢١٢/٦.

(٥) المروج ٩٨/٣، ٢٠٩، انظر في مناقب عمرو بن العاص، رضي الله عنه: العواصم من القواصم، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

دين ولا قرآن. . . صحبتهم أطفالاً ورجالاً فهم شر أطفال ورجال»[1].

- ويعتبر وصف المسعودي لمعركة صفين ـ بغض النظر عن مدى صدقه وواقعيته ـ أطول وصف قدمه لمعركة في جاهلية أو إسلام في كتابيه الباقيين، وظهر في ذلك الوصف مدى تفاعله واستجابته لذكر التفصيلات والأحداث المتعلقة بهذه المعركة، وخاصة ما هو في صالح علي وجماعته، وهذا من غير شك يضيف دلالة على اتجاهات المسعودي نحو علي وانحرافه عن معاوية ومن سار في فلكه.

- يلاحظ في كتابة المسعودي عن الخلفاء الراشدين اهتمامه وحرصه على تسجيل الإحصائيات ومقدار الفترات الزمنية التي تفصل بين الأحداث الهامة، وتحقيقها وإيراد الأقوال والآراء المختلفة حولها ولا سيما ما يمس جانب اهتمامه الشخصي[2].

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى مقارنة أجراها طريف الخالدي[3] بين معالجة المسعودي لتاريخ الخلفاء الراشدين وبين معالجة كل من المؤرخين أبي حنيفة الدينوري واليعقوبي لهذه الفترة نفسها. ويكفي هنا أن نسجل النتيجة التي توصل إليها الباحث بعد المقارنة فهو يقول: «إن المسعودي اختلف عن هذين المؤرخين المناصرين للعلويين في نقاط أساسية عديدة منها:

* طبيعة الجو الذي يحيط به المسعودي شخصية علي.
* النص الواضح من النبي صلى الله عليه وسلم (بشأن تولي علي الخلافة).
* الاقتراح القوي بعصمة علي.
* إرجاع فشل علي إلى تمرد أتباعه وتكالب أعدائه.

---

(١) المروج ٣/١٣٩، ٢٢٩، انظر أقوال العلماء المنصفين في معاوية وفضائله في العواصم من القواصم، ص ٦٧ ــ ٦٨، ١٥١ وما بعدها؛ وانظر أيضاً: البداية والنهاية، ٨/٢٠، ١١٧ وما بعدها.

(٢) المروج ٣/٩٦؛ والتنبيه، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٧.

(٣) Khalidi: Islamic Historiography, pp. 126-128.

وكل هذا يبرهن على أن المسعودي كان يحاول تقديم رأي شيعي في التاريخ الإسلامي المبكر»[1].

(ج) العصر الأموي:

كتابة المسعودي عن تاريخ الدولة الأموية والعصر الإسلامي بصفة عامة منظمة في عرض المعلومات أكثر من ذي قبل أي في العصر السابق للإسلام وتاريخ الأمم غير الإسلامية، فطريقته هنا تقوم على ذكر المعلومات الشخصية الخاصة بالخليفة، اسمه، ونسبه، وصفاته الجسمانية، وسنة توليه الخلافة أو مبايعته، وسنة وفاته، ومقدار الفترة الزمنية التي قضاها في الحكم، وعمره حين تولى الخلافة، وعمره عند موته، وموضع قبره، وذكر أيامه ولمع من أخباره وسيره ونوادره وأفعاله وأخلاقه وسياساته في الحكم، وكتابه، وقضاته، وحجابه، ونقش خاتمه... الخ.

وتأتي أخبار الدولة والأحداث الهامة والشخصيات البارزة في نطاق الترجمة الشخصية للحاكم.

وسنشير هنا بإيجاز إلى أبرز ملامح كتابة المسعودي عن بعض الخلفاء الأمويين فنقول: إن من أهم ما دونه عن معاوية بن أبي سفيان إيضاحه لبرنامجه اليومي، كيف كان يقضي وقته، ومتى يلتقي برجال دولته وخاصته، ومتى ينظر في مطالب أهل الحوائج والظلامات، ومتى تقرأ عليه كتب التاريخ والسير وأخبار الملوك..[2] وعلى الرغم من موقف المسعودي المتحيز ضد معاوية في صراعه مع علي بن أبي طالب إلا أنه أشاد بحنكته السياسية وحكمته وأورد روايات كثيرة تبين ما كان عليه من حلم وتجلد وضبط للنفس، وبر وإحسان بأهله وبني قومه،

---

(١) هذا وإن كانت في الواقع قد ظهرت آراء وأفكار شيعية على الساحة الإسلامية في وقت مبكر قبل هذا الوقت لدى بعض مؤرخي الشيعة المتعصبين أمثال سيف بن عمر التميمي في كتابه وقعة الجمل، واليعقوبي الذي أشرنا إلى بعض آرائه في الخلفاء الراشدين، انظر: ص ٢٣٩ من هذه الكتاب.

(٢) المروج ٣/٢٢٠ ــ ٢٢٢.

وعفو عند المقدرة، وبعد نظر، ومقدرة على كسب ود الخصوم، واجتذاب قلوب الأتباع[1].

وعند تدبر ما كتبه المسعودي عن يزيد بن معاوية يظهر اضطراب ما يرويه عنه، فحيناً يبدو يزيد رجل سياسة يجازي الناس على قدر منازلهم ويدني الأشراف ويمنح الهبات العظام لذوي الأرحام[2]. وأحياناً أخرى يبدو صاحب طرد وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب[3]، قد شمل الناس جوره. «وعمهم ظلمه وما ظهر من فسقه ومن قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره وما أظهر من شراب الخمور وسار سيرة فرعونية بل كان فرعون أعدل منه في رعيته وأنصف منه لخاصته وعامته»[4]. ولا شك أن إطلاق هذه الأحكام على يزيد من قبل المسعودي ناتج من واقع المصير المؤلم الذي آل إليه أمر الحسين بن علي وبعض أهل بيته في كربلاء في عهد يزيد بن معاوية[5].

أما عبدالله بن الزبير الخليفة الذي تمت له بيعة الناس في أغلب الأقطار الإسلامية بعد وفاة يزيد وابنه معاوية فإن آراء المسعودي فيه لا تنم عن الرضا والقبول، بل على العكس من ذلك بدا ابن الزبير ذلك الرجل الشحيح على الدنيا المقتر على الناس المؤذي لبني هاشم بمكة المكرمة تارة بالحبس وتارة أخرى بحصرهم في الشعب وتهديدهم بالقتل والإحراق بالنار[6]، والذي لم يبال أيضاً أن يقيم أخاه عمروا ـ المناوىء له ـ على باب المسجد الحرام مجرداً أمام الناس، ويضربه بالسياط حتى الموت[7]، والأغرب من ذلك أنه ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً، وقال: «لا يمنعني أن أصلي عليه إلا أن تشمخ

---

(١) المصدر السابق ١٩٠/٣ ـ ١٩١، ١٩٦، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق ٢٦٢/٣ ـ ٢٦٤.

(٣) المصدر السابق ٢٦٤/٣ ـ ٢٦٥.

(٤) المصدر السابق ٢٦٧/٣.

(٥) انظر ما سجله بعض العلماء المحققين عن يزيد بن معاوية رحمه الله تعالى لدى ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ١٦٠، وما بعدها؛ وابن كثير: البداية والنهاية ٢٢٦/٨ ـ ٢٣٦.

(٦) المروج ٢٧٣/٣ ـ ٢٧٦.

(٧) المصدر السابق ٢٧٤/٣.

رجال بآنافها»[1]، ولا يستغرب عندئذ أن يروى عنه أنه قال لابن عباس: «أني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة»[2]، هذا مع إظهار الزهد في الدنيا والعبادة وفي الوقت نفسه الحرص على الخلافة[3].

وليس من تعليق على هذه الأقوال والأفعال إلا التساؤل كيف تجتمع هذه الخصال كلها في شخص خليفة صحابي كابن الزبير رحمه الله تعالى.

وأما ما سجله المسعودي عن عبدالملك بن مروان من ملاحظات وانطباعات خاصة، مثل قوله: أنه كان يحب الفخر والتقريظ والمدح، وإنه كان الغالب عليه البخل، والإقدام على سفك الدماء[4]، فإنه نقض ذلك بنفسه حينما تحدث عن سيرته وأورد أقواله ومواقفه مع أتباعه ومع أعدائه، فمثلاً حينما اختار عبدالملك عامر بن شراحيل الشعبي[5] نديماً له كان من ضمن الوصايا التي أملاها عليه: أن لا يساعده على القبيح.. وأن يجعل بدل المدح له صواب الاستماع منه.. وأن لا يجهد نفسه في تطرية جوابه واستدعاء الزيادة من كلامه..[6].

وأورد المسعودي قول عبدالملك لبعض جلسائه وقد أراد الخلوة به: «لا تطر نفسي عندي فأنا أعلم بها منك»[7]، وكيف يكون بخيلاً محباً لسفك

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٧٨.

(٢) المصدر السابق ٣/٢٧٨.

(٣) المصدر السابق ٣/٢٧٣.

(٤) المصدر السابق ٣/٢٩١.

(٥) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، أبو عمر، حافظ تابعي مشهور، ولد ونشأ بالكوفة ومات بها، اتصل بعبدالملك بن مروان فكان له نديماً وسميراً ورسولاً إلى ملك الروم، وهو من رجال الحديث الثقات والفقهاء المبرزين، تولى القضاء لعمر بن عبدالعزيز، وكانت وفاته في حدود سنة ١٠٣هـ على أرجح الأقوال.

انظر عنه: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/٢٤٦ ـ ٢٥٦؛ والبسوي: المعرفة والتاريخ ٢/٥٩٢ ـ ٦٠٤؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/٢٩٤ ـ ٣١٩.

(٦) المروج ٣/٢٩٢.

(٧) المروج ٣/٣٢١.

الدماء!! وهو الذي كان يؤمِّن أعداءه في الحروب ثم يفي لهم بما يعد، ويمنح الخلع والإجازات والإقطاعات[1]، وهو الخليفة الحازم الذي كان يخاف الله تعالى ويرجو الخير لأمة الإسلام، انظر قوله متوجهاً إلى الله تعالى بالدعاء قبل لقائه مع مصعب بن الزبير: «اللهم فانصر خيرنا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم»[2]، وقوله يوم أن خلع عبدالرحمن بن الأشعث طاعته: «اللهم لا تسلطنا على من هو خير منا ولا تسلط علينا من نحن خير منه، اللهم سلط سيف أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغوا رضاك فإذا بلغوه لم يجاوزوا إلى سخطك»[3] وكيف يكون محباً لسفك الدماء وهو الذي كتب إلى الحجاج بن يوسف عامله على العراق بعد هزيمة ابن الأشعث: «أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء: في الخطأ الدية، وفي العمد القود، وفي الأموال: ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق أو إعطاء باطل. . . وإذا أعطاك الله الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً»[4]، وإضافة إلى ذلك فقد روى المسعودي قصة محاسبة عبدالملك بن مروان لأحد عماله الذين دارت حولهم بعض الشبه[5].

وعلى أي حال فإن عبدالملك بن مروان يعتبر أحد ثلاثة من خلفاء بني أمية يشهد لهم بالتبريز في مجال السياسة والحكم، والاثنان الآخران هما معاوية بن أبي سفيان وهشام بن عبدالملك[6].

وقد أفرد المسعودي في المروج باباً تناول فيه جملاً من أخبار الحجاج بن

(١) المصدر السابق ٣/٣١٢ ــ ٣١٣.
(٢) المصدر السابق ٣/٣٠٨.
(٣) المصدر السابق ٣/٣٢٣.
(٤) المصدر السابق ٣/٣٤١؛ وانظر أيضاً، ص ٣٦٩، ٣٧٤.
(٥) المصدر السابق ٣/٣٢١.
(٦) المصدر السابق ٤/٤٧، ولمعرفة المزيد عن حقيقة عبدالملك بن مروان راجع ابن كثير: البداية والنهاية ٩/٦١ وما بعدها.

يوسف وخطبه وما كان منه في بعض أفعاله[1]، وتحدث عنه أيضاً في مواضع غير هذا وذلك أثناء تاريخه لحكم عبدالملك بن مروان وابنه الوليد.

ويلاحظ بوجه عام على ما سطره المسعودي عن الحجاج أنه قد بالغ وأجحف في وصف ظلمه وقتله للناس، حيث أنه من غير المعقول أن يكون عدد من قتله الحجاج صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه مائة ألف وعشرين ألفاً، وأن يموت وفي حبسه ثمانون ألفاً، خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، وأكثر من هذا أن عدداً غير يسير من تلك النساء المحبوسات وهو ستة عشر ألفاً قد جردن من اللباس، وشراب هؤلاء المحبوسين جميعاً هو الماء مشوباً بالرماد، والغريب أن الحبس الذي كان يضم تلك المجموع المختلطة لم يكن مسقوفاً، وذلك من أجل زيادة الحر في الصيف والبرد في الشتاء[2].

فأي حبوس تتسع لمثل تلك الألوف المؤلفة!! وأي طعام يفي بحاجاتهم!! وأي أمة ترضى بذلك الذل والهوان!!!.

إن هذه الأخبار المكتوبة لا يمكن أن يصدقها امرؤ ذو بصيرة ونظر، وذلك لمجافاتها للعقل والواقع، ولأن لكل قول حدوداً إذا جاوزها خرج عن حد القبول.

وهذا دليل من الأدلة على أن المسعودي لم يتجرد من الهوى ولم يملك زمام قلمه عن الجموح في بعض الأحيان لما أرخ لحكام بني أمية وولاتهم المخلصين لهم.

وأحب أن ألفت الانتباه إلى أنني لست هنا في مقام الدفاع عن بني أمية وولاتهم، ولكني لاحظت من خلال قراءاتي المتعددة لما كتبه المسعودي أنه من واقع مغالاته في حب وإطراء الطالبيين والدفاع عن تصرفاتهم وأفعالهم حتى ولو كانت بعيدة عن جادة الحق والصواب ذهب إلى تجريح أعدائهم وإطلاق

---

(١) المروج ٣/٣٢٩ ــ ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق ٣/٣٧٥؛ والتنبيه، ص ٣١٨.

الأحكام غير الموزونة عليهم، ومع ذلك يذكر شيئاً من تاريخهم وسياساتهم التي تكشف عن عدم دقته وعدم التزامه بالصدق في بعض تاريخه.

وتحدث المسعودي عن سقوط دولة بني أمية وذكر بعض الأسباب التي أدت إلى زوالها، فمنها النزاع والتعصب القبلي الذي بلغ ذروته في عهود الخلفاء المتأخرين من بني أمية بين البطون العربية من نزار وقحطان، وقد أفرد لذلك باباً خاصاً بين فيه أسباب ظهور هذا النزاع وبداياته[1]، ولكن إلى جانب ذلك أشار المسعودي إلى بعض الأسباب الكامنة وراء الانهيار الحقيقي لدولة بني أمية، مثل ظلمهم للناس وجورهم على الرعية، وإهمالهم لشؤون دولتهم حتى انقطع خراجهم، وآثر وزراؤهم مصالحهم الخاصة، ومال الجند عنهم إلى أعدائهم وقد لخص المسعودي هذه الأسباب على لسان أحد شيوخ بني أمية الناجين من الهلاك عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس، حيث قال عندما سئل عن أسباب زوال الملك عنهم: «إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فخلَّوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عداتنا فتضافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»[2].

* * *

هذا ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها عن كتابة المسعودي حول التاريخ الأموي ما يأتي:

ـ يلاحظ أنه استخدم التاريخ الحولي في إطار التاريخ الموضوعي لأشخاص الخلفاء الأمويين[3].

---

(١) المروج ٤/٦٦ ـ ٧٠ وانظر أيضاً ٤/٨٦.

(٢) المروج ٤/٦٤ ـ ٦٥؛ وانظر أيضاً، ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٣) انظر على سبيل المثال المروج ٣/٢١٢ ـ ٢١٧.

ـ يلاحظ أنه أطلق لفظ «أيام» على فترة حكم كل خليفة أموي ولم يصفها بالخلافة، ما عدا فترة حكم عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله تعالى عنه ـ ولعل السبب في ذلك واضح معروف وهو إجماع الأمة على صلاحه وتقواه، ولا سيما بالنسبة للمسعودي عزله الولاة الأمويين السابقين، وإبطاله سب علي بن أبي طالب من على المنابر، وبره في ولد علي بن أبي طالب من فاطمة الذين كانوا يسكنون في المدينة[1].

ـ ومن اهتمامات المسعودي المألوفة تسجيلاته الإحصائية، فقد كرس باباً مفرداً لبيان فترات الحكم التي قضاها كل خليفة أموي تفصيلاً، ومقدار المدة التي ملك فيها بنو أمية إجمالاً[2].

ـ كتب المسعودي عن التاريخ الأموي ضمن كتابته عن التاريخ الإسلامي العام منذ فجر الإسلام وحتى سنة ٣٣٢هـ في خلافة المتقي لله العباسي، كتابة واسعة مسهبة احتوت على تفصيلات دقيقة، وذلك في مؤلفيه الكبيرين أخبار الزمان والكتاب الأوسط[3].

ـ ويلاحظ على أي حال أن نزعة المسعودي الشيعية قد أثرت على كتابته في تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين، ولم يستطع أن يكتب تاريخاً مجرداً من الهوى وخاصة للخلفاء الذين كانت لهم صلات أو احتكاكات أو ظهر في عصورهم أحد أفراد البيت العلوي بفتنة أو ثورة.

ـ ويلاحظ أن المسعودي في كتاب التنبيه قد تحدث عن حكام بني أمية[4] بتركيز تناول فيه أهم الأحداث والأعمال التي تمت في عهودهم، ولم يرد في حديثه

---

(١) المصدر السابق ٤/١٦ ـ ١٨.

(٢) المصدر السابق ٤/٧٤ ـ ٧٥.

(٣) فيما يخص العصر الأموي راجع المروج ٣/٢١٤، ٢٤٣، ٢٦٤، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٦، ٣١٢، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٦٤، ٣٧٦، ٣٨٠، ٤/١٥، ٤٠، ٤٨ ـ ٤٩، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٥، ٩١، ٩٣.

(٤) التنبيه، ص ٣٠١ ـ ٣٣١.

عنهم استطرادات أو خروج عن الموضوع كما كان يفعل من قبل في كتاب المروج، وقد ركز هنا بصفة أساسية على ذكر الصفات الجسمانية لكل حاكم، وذكر أخلاقه وسجاياه ومدى قدرته على التدبير وتصريف شؤون الحكم، ولكن أهم ما يلاحظ في هذا الكتاب أن المسعودي كان أقرب إلى الاتزان والواقعية والتسامي عن إطلاق الألفاظ النابية على الخلفاء الأمويين كما فعل من قبل في كتاب المروج؛ حيث صدرت من قِبَلِه أحكام قاسية، ورمى أكثرهم بأوصاف لا تليق بمقام الخلافة، من ارتكاب للموبقات وجري وراء الشهوات من المآكل والمشارب وغير ذلك من سائر الملذات. ولعل المسعودي في هذا الكتاب رجع عن آرائه الأولى وأدرك أنه في هذه المرحلة الأخيرة من حياته يتوجب عليه قول الصدق وترك ما عداه، والله تعالى أعلم بالصواب، ونسأله المغفرة والرضوان للجميع.

(د) العصر العباسي :

سار المسعودي في عرضه التاريخي لعهود الخلفاء العباسيين على النظام نفسه الذي أتبعه في تاريخه للعصر الأموي، من ذكر المعلومات الخاصة بشخص الخليفة وصفاته ومكانته وما يدخل في نطاق ذلك من سرد الروايات والأحداث التي دارت في عصره، غير أنه يزيد هنا ذكر الوزراء الذين تولوا منصب الوزارة لكل خليفة عباسي.

ويلاحظ الدارس لتاريخ المسعودي للدولة العباسية إبداءه لبعض التحفظات حيال الشرعية التامة في الحكم، وذلك من خلال نظرته إلى حزب الراوندية[1] الذين يرون أن أحق الناس بالإمامة بعد الرسول صلى الله عليه

---

(١) الرواندية، في الأصل هم شيعة ولد العباس بن عبدالمطلب، من أهل خراسان وغيرهم (المروج ٧٦/٤) ولكن بعد مقتل أبي مسلم الخراساني ثاروا ضد الدولة العباسية، وأظهروا القول بتناسخ الأرواح، وقالوا إن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. انظر عنهم: الطبري: تاريخ الرسل ٥٠٥/٧؛ والغزالي: فضائح الباطنية، ص ١٧٤ ــ ١٧٥؛ وابن العماد: شذرات الذهب ٢٠٩/١.

وسلم هو العباس بن عبدالمطلب لأنه عمه ووارثه وعصبته، ولكنه اغتصب حقه وظلم، فيشير المسعودي إلى بعض المصنفات المؤلفة في هذا الاتجاه وفي ذلك المعنى الذي آدعوه، مثل كتاب إمامة ولد العباس الذي صنفه عمرو بن بحر الجاحظ يحتج فيه لهذا المذهب، ويرى المسعودي أن الجاحظ فعل ذلك تماجناً وتطرباً لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده[1].

ومما يوضح اتجاه المسعودي السابق أنه سجل كيفية انتقال الوصية من أبـي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى علي بن عبدالله بن عباس وأثبتها على أنها مجرد ادعاء مذهبـي للراوندية لا على أنها حقيقة تاريخية[2]، مما يدل على عدم تعاطفه مع العباسيين إلى حد بعيد، إلا أنه مع ذلك كان يطلق عليهم ألفاظ (خلفاء) تمييزاً لهم عن (ملوك) بني أمية المغتصبين الحقيقيين للسلطة. وحين النظر في كتابة المسعودي التفصيلية عن أحوال الخلفاء العباسيين وأحكامه الخاصة عليهم يظهر مدى ارتباط تلك الأحكام وتأثرها بمعاملة هؤلاء الخلفاء للعلويين الذين كانوا يظهرون بين الفينة والأخرى على الساحة والذين امتدت ثوراتهم حتى شملت مناطق متعددة في أنحاء الدولة العباسية[3]، وكانت أحكامه على أولئك الخلفاء من ذلك المنطلق غير دقيقة في كثير من الأحيان، فقد يوجه إلى بعضهم أحكاماً قاسية على الرغم مما كانوا يتميزون به من صفات نبيلة وأخلاق عالية ومقدرة على تصريف شؤون الدولة، بينما حظي خلفاء آخرون لم تتوفر فيهم تلك الصفات بالمدح والإطراء، وما ذلك إلا لسبب موقف كل من تلك الفئتين من الطائفة العلوية.

فما ذكره المسعودي عن الخلفاء العباسيين الأوائل كأبـي العباس السفاح، الذي قال عنه: إنه كان يحتجب عن ندمائه ومجالسيه ويقعد لهم من وراء الستارة، وإنه كان يطرب ويصيح بالمطرب من المغنـين «أحسنت والله! أعد هذا

---

(١) المروج ٤/٧٦ ــ ٧٧.

(٢) المصدر السابق ٤/٧٧ ــ ٧٨.

(٣) المصدر السابق. انظر مثلاً ٤/١٤٥ ــ ١٥٦، ٣٢٢ ــ ٣٢٤، ٥/٢٥٩ ــ ٢٦١.

الصوت» وإنه كان لا ينصرف أحد من ندمائه ولا من مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة[1]، وكذلك ما ذكره عن الخليفة هارون الرشيد من أنه صاحب شراب وغناء وجوار ونساء ولعب بالشطرنج[2]، وأنه نكب البرامكة بسبب قصة أخته العباسة مع جعفر بن يحيى البرمكي[3]، قد يكون متأثراً فيه بسبب ذلك الاتجاه، وأحب أن أؤكد هنا أن تلك الروايات والأقوال الواردة في ذلك المعنى مشكوك فيها وتحتاج إلى ما يدعمها ويثبت صحتها، إذ أن من الأشياء المستبعد وقوعها أن يركن الرجال ذوو الهمم الكبار مؤسسو الممالك والدول إلى اللهو والطرب والاحتجاب عن رجالهم وقوادهم وهم لمّا يزالوا بعد في العصور الأولى من أيام دولهم ناهيك عما كان يتمتع به أولئك الخلفاء البارزون من دين وعلم وخلق وتسام وترفع عن كل ما يثلم الشرف والمروءة أو يهدم الدين، فهذا أبو العباس السفاح يروي المسعودي نفسه عنه أنه لم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثله، وأنه كان كثيراً ما يردد: «إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً» فسأله أحد رجاله عن تأويل ذلك، فقال: «يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل إلى امرأة وجارية فلا يزال يسمع سخفاً ويرى نقصاً» فقال له الرجل: «لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين»[4].

أما هارون الرشيد الخليفة الزاهد الذي شوه تاريخه ولطخ بكثير من التهم الباطلة فقد ثبت أنه كان تقياً ورعاً، كان «يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة، وكان يقتفي آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه

(١) المروج ٤/١٠٩.
(٢) المروج ٤/٢٢٢ ــ ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٥.
(٣) راجع القصة كاملة في المروج ٤/٢٤٦ وما بعدها.
(٤) المروج ٤/١٠٧ ــ ١٠٨.

للمال ثم المأمون من بعده، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه، وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين»[1].

وكانت أيامه كلها ما بين غزو في سبيل الله تعالى أوحج إلى بيته الحرام[2]، وقد روى المسعودي نفسه عن الرشيد أنه «كان مواظباً على الحج متابعاً للغزو، واتخذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة، وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فعم الناس إحسانه مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور ومدن المدن وحصن فيها الحصون، مثل طرسوس وأدنة، وعمر المصيصة ومرعش، وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين واتبعته عماله وسلكوا طريقته وقفته رعيته مقتدية بعمله مستنة بإمامته، فقمع الباطل وأظهر الحق وأنار الإسلام وبرز على سائر الأمم..»[3].

ومع حزم الرشيد وشدته على العابثين[4]، فإنه كان رقيق القلب لين الطبع عندما يسمع المواعظ والعبر فيخشع قلبه وتنهمر الدموع على خديه[5]. وكان يجالس العلماء والفقهاء وأهل الرأي[6]، فأين هذه الصفات من شخص استولى على قلبه حب الشراب والغناء وكانت همته التكالب على الملذات[7]؟

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨/٣٤٧.

(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط ٢/٤٨٠ ـ ٤٩٤ تلاحظ أن خلافة هارون الرشيد كلها أيام جد وعمل لا مكان فيها لعبث أو مجون، ولم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى وقوع أي شيء من ذلك، وتلاحظ أيضاً أنه تولى الحج بالناس في عهده تسع مرات. وانظر أيضاً: المروج ٥/٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٣) المروج ٥/٢١٢. وانظر: التنبيه، ص ٣٤٦.

(٤) لما سمع الرشيد أبياتاً لأبي العتاهية يتغزل فيها بإحدى جواريه غضب وحبسه، المروج ٤/٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٥) المروج ٤/٢٣١ ـ ٢٣٢، ٢٣٤.

(٦) المصدر السابق ٤/٢٢٩.

(٧) انظر ماذا فعل الرشيد في إحدى المناسبات يوم أن رأى تكلفاً في صنع الطعام، المروج ٤/٢٢٧.

أما قصة العباسة فإن المسعودي نفسه قد أشار في أول حديثه عن البرامكة إلى أن الناس مختلفون في سبب إيقاع الرشيد بهم، وقال: إن الظاهر من ذلك هو احتجانهم الأموال وأنهم أطلقوا رجلاً من آل أبـي طالب كان في أيديهم، وأما الباطن فلا يعلم[1]، إلا أنه أورد تلك القصة على أنها السبب المباشر في النكبة ويكفي للرد عليها ونسفها مراجعة ما سطره عنها العلامة عبدالرحمن بـن خلدون في مقدمة تاريخه[2].

وآخر ما نود الإشارة إليه في هذا المقام هو إيراد فقرة كتبها المسعودي عن الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ) وهو يتحدث عن صفاته وبيان ما ظهر واستجد في أيامه على بساط الخلافة، حيث قال المسعودي: «ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه العبث والهزل والمضاحك وغير ذلك مما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له، وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا فاتبعه فيها الأغلب من خواصه والأكثر من رعيته»[3]، فهذا النص يؤكد لنا بوضوح نظافة صفحة الخليفة هارون الرشيد وغيره من الخلفاء العباسيين السابقين للمتوكل، ولكن بعض فئات الشيعة والباطنية الحاقدة هي التي شوهت تاريخ وسمعة أولئك الخلفاء المسلمين.

* * *

تحدث المسعودي عن ثورات الطالبيين في عهد أبـي جعفر المنصور وتفرقهم في البلاد، وموقف أبـي جعفر الحازم تجاههم، وأوضح ما نالهم من عناء وضنك وضيق في الحبوس[4]، ومع هذا لم نلاحظ أي وصف يمس أو يحط

(١) المروج ٤/٢٣٣.

(٢) المقدمة، ص ١٥؛ وراجع أيضاً، ص ١٧ ــ ١٩ التي ناقش فيها ابن خلدون التهم الأخرى الموجهة للرشيد.

(٣) المروج، ٥/٦.

(٤) المصدر السابق، ٤/١٤٥ ــ ١٥٢، هذا وقد أبان أبو جعفر المنصور عن أسباب فشل الطالبيين عبر التاريخ الإسلامي حتى عهده في إقامة دولة لهم تحت حكمهم على الرغم من محاولاتهم المتكررة التي كان مصيرها المثل والتقتيل الجماعي لهم ولأنصارهم، وذلك في خطبته في أهل خراسان عقب إخماد ثورة النفس الزكية في المدينة المنورة، انظر: نص الخطبة في المروج، ٤/١٥٢ ــ ١٥٣.

من قدر أبي جعفر المنصور بطريق مباشر، ولكن قد يفهم من إسباغ المسعودي الثناء على الخليفة المهدي بن المنصور (١٥٨ ــ ١٦٥هـ) بقوله: «إنه كان محبباً إلى الخاص والعام لأنه افتتح أمره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في إعطاء الأموال فأذهب جميع ما خلفه المنصور»[1] أقول: قد يفهم من هذا الإيحاء بأن عهد المنصور كان عهد ظلم وقتل وخوف وتقتير، ولكن المسعودي في موضع آخر أورد ما ينقض هذا المفهوم حيث روى عنه أنه كان «محنك السن حازم الرأي قد عركته الدهور وحلت الأيام سطوته، وروى العلم وعرف الحلال والحرام، لا يدخله فتور عند حادثة ولا تعرض له ونية عند مخوفة، يجود بالأموال حتى يقال هو أسمح الناس ويمنع في الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس، ويسوس سياسة الملوك ويثب وثوب الأسد العادي. . .»[2].

أثنى المسعودي على الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ ــ ٢٢٧هـ) لعدالته وحبه للعمارة[3]، وعلى المتوكل على الله بسبب أيامه السعيدة النضرة التي استقام فيها الملك وشمل الناس الأمن والعدل والرخاء[4]، ومدح المسعودي أيضاً الخليفة المنتصر (٢٤٧ ــ ٢٤٨هـ) على الرغم من اشتراكه ــ كما يقال ــ في مؤامرة اغتيال والده المتوكل[5]، وإذا بحثنا عن أسباب ذلك التقريظ لا نجد سوى تلك المعاملة الكريمة التي حظي بها العلويون في عهده بالكف عنهم ورد مظالمهم وترك التعرض لشيعتهم والبحث عن أخبارهم، ودفع سائر الأذى عنهم[6].

ووصف المسعودي القائد التركي بغا الكبير بأنه كان ديناً من بين الأتراك وشجاعاً يشهد الحروب العظام ويباشرها بنفسه ولا يلبس على بدنه شيئاً من

---

(١) المروج، ١٦٩/٤.

(٢) التنبيه، ص ٣٤١ ــ ٣٤٢، وانظر أيضاً: رأي ابن خلدون في أبي جعفر ومكانته من العلم والدين في المقدمة، ص ١٧ ــ ١٨.

(٣) المروج، ٣٤٤/٤ ــ ٣٤٥، ٣٥٢.

(٤) المصدر السابق، ٥/٥ ــ ٦، ٣٩.

(٥) انظر: التنبيه، ص ٣٦٢؛ وتاريخ اليعقوبي، ٤٩٢/٢.

(٦) المروج، ٥٠/٥ ــ ٥١.

الحديد، وسرعان ما كشف المسعودي السر في ذلك فذكر أنه كان كثير التعطف والبر بالطالبيين، ثم أورد قصصه ومواقفه معهم[1] مع أن بغا هذا كان من القواد الأتراك الذين ساهموا في هدم سلطان الخلافة العباسية.

والخليفة المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ) كان من الصلاح والتقى بمنزلة عظيمة[2] إلا أنه لم يستطع البقاء في الخلافة ولم يتأت له إصلاح ما أفسده من قبله، وتآمر عليه الأتراك حتى قتلوه لحمله إياهم على الطريق الواضحة[3].

وكانت خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) حروباً واضطراباً وفتناً وذلك لشغفه بالطرب وانكبابه على اللهو والمعاقرة والملاهي وترك تدبير أمور الخلافة إلى غيره[4].

أما المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) فقد كان للمسعودي فيه رأي حسن[5]، مع الإشارة إلى ما كان يتصف به من قسوة وبطش شديدين[6]، وقد يكون ذلك الرأي الحسن نابع من واقع معاملة المعتضد للعلويين في عهده بالرأفة والشفقة على الرغم من عنفه وقسوته[7].

وبصفة عامة يرى المسعودي أن الخلفاء الأخيرين من بني العباس القريبين من عهده مثل المتقي لله (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ) والمستكفي بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ) والمطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ) لم يكن لهم حول ولا طول ولم يعد لهم أمر ولا نهي ولا تدبير، فقد سلبت السلطة الحقيقية من أيديهم وأصبحوا مقهورين خائفين[8].

(١) المصدر السابق، ٥/٧٢ ـ ٧٣.
(٢) المصدر السابق، ٥/٩٢، ٩٨ ـ ٩٩.
(٣) المصدر السابق، ٥/٩٢، ٩٥.
(٤) المصدر السابق، ٥/١١٩، ١٢٦.
(٥) المصدر السابق، ٥/١٣٧ ـ ١٣٨، ١٧٥.
(٦) المصدر السابق، ٥/١٣٨.
(٧) المصدر السابق، ٥/١٧٢.
(٨) التنبيه، ص ٤٠٠.

ومن هنا نلاحظ أن المسعودي كان شاهد عيان حقيقي على أحداث عصره على الرغم من أن أحوال العالم الإسلامي التي عايشها لم تكن سارة تشجع على التسجيل، فقد كان ضعف المسلمين واضحاً أمام أعدائهم وتكالبت القوى المعادية عليهم وأصبحوا عرضة للغزو والغارات من بلاد الروم ومحاصرة المدن الإسلامية[١] إلا أن المسعودي مع ذلك رأى أنه لا بد من تسجيلها ومقارنتها بالأحوال المشابهة التي صارت إليها بعض الأمم الغابرة[٢].

وكان المسعودي يدون أخبار الأحداث التي عاصرها بالتفصيل[٣] وحتى بعد أن انتقل إلى مصر وأصبح بعيداً عن مركز الخلافة ظل يدون ما ينمى إليه من الأخبار حتى وافته منيته[٤]، وهو في هذه الناحية يختلف عن المؤرخين المعروفين الذين سبقوه والذين لم يظهر لأحداث عصورهم التي عاشوا بها صدى واضحاً في كتاباتهم، فهذا أبو حنيفة الدينوري الذي انتهى تاريخه بسنة **٢٢٧**هـ لم يتوفَّ إلا سنة **٢٨٢**هـ، واليعقوبي الذي وقف في تاريخه عند سنة **٢٥٩**هـ كانت وفاته في حدود سنة **٢٩٢**هـ، والطبري على الرغم من أنه امتد في تاريخه إلى قبيل وفاته بسنين إلا أن رسمه للتاريخ الذي عاصر الفترة الأخيرة من حياته جاء موجزاً مختصراً باهت الظلال، ومرَّ مروراً سريعاً مع أهمية الأحداث وكثرتها.

* * *

ومما يلاحظ في كتابة المسعودي عن التاريخ العباسي ما يأتي:

ـ استخدام طريقة الحوليات في تاريخ بعض الأحداث وفي إثبات وفيات مشاهير العلماء والمحدثين والأعلام[٥].

---

(١) المروج، ١/٢٤٢، ٢/٤٤، ٥١.
(٢) المروج، ١/٢٤٢؛ والتنبيه، ص ٤٠٠.
(٣) انظر: التنبيه مثلاً، ص ٣٨٠ ـ ٣٩٦.
(٤) المروج، ٥/٢٥٨.
(٥) المروج. انظر على سبيل المثال: ٥/١٣ ـ ١٥، ٢٠ ـ ٢٣، ٢٨، ٣١، ٤٤ ـ ٤٥، ٨٧ ـ ٨٨، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٨ ـ ١٥١، ١٥٧، ١٦٠ ـ ١٧٤.

ـ اهتمام المسعودي بتسجيل بعض الأحوال التي تتصل بتاريخ وحضارة الدولة العباسية، وذلك مثل رصده الدقيق للحالة التي آلت إليها بغداد من البؤس والشقاء والخراب وانتهاب الأموال وضيق العيش وغلاء الأسعار وإحراق الديار وتعطيل المساجد والصلوات وغير ذلك[1]، وذلك في فترة الصراع بين الأمين وجيوش المأمون فيها، وهذا يدل على متابعة المسعودي واهتمامه بذكر آثار الحروب وبيان أحوال الناس المعاشية والاجتماعية في المناطق التي يتحدث عنها.

ـ يلاحظ عدم التزام المسعودي في بعض الأحيان بتدوين الأخبار في مواضعها وحسب العناوين المدرجة لها، ومن ذلك مثلاً حديثه عن الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ) عن بعض أخباره ومن مات في أيامه وذلك في الباب الذي خصصه للخليفة المعتز بالله (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ)[2]، ومثل ذلك أيضاً حديثه عن كيفية قتل المعتز وتنازع الناس في ذلك تفصيلاً في الباب الذي عقده للخليفة المهتدي بالله[3] (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ).

ـ يلاحظ أن المسعودي في بعض المناسبات يحاول استنباط العبرة من أحداث التاريخ، ويسجل عن قرب كيف تتغير الأحوال وتتبدل الأمور في فترات وجيزة جداً، وكيف تنقلب الأفراح إلى أتراح، والسرور إلى حزن، وكيف تغدر الدنيا بأهلها وتنقلب عليهم، فالملوك الذين تتحرك لهم الدنيا بإشارة أو لمحة بصر لا تلبث أن تجند لهم صرعى كأن لم يكن لهم أثر[4].

ـ يلاحظ أحياناً أن المسعودي لا يتحقق ولا يثبت فيما ينسب إلى الخلفاء والعلماء من تهم ودسائس، فيورد أشياء كثيرة من هذا القبيل على أنها حقائق ثابتة،

---

(١) المروج، ٢٧٦/٤ وما بعدها.
(٢) المروج، ٧٨/٥ ـ ٨٠.
(٣) المصدر السابق، ٩٣/٥.
(٤) المصدر السابق، ٣٨/٥ ـ ٣٩.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما أورده عن يحيى بن أكثم التميمي[1] قاضي القضاة في عهد المأمون من اقترافه لجريمة اللواط وهو على قضاء البصرة وحتى بعد ذلك حينما أصبح في معية المأمون وإيراد الشواهد من الشعر على ذلك[2].

ومع أن هذا القول لم يتفرد به المسعودي إلا أن العلماء المحققين والمحدثين المشهورين قد أثبتوا أن هذا القاضي كان من علية أصحاب الحديث، وقد نقل عنه جماعة من أئمتهم، فالقدح فيه قدح فيهم جميعاً، وإنما رمي بما رمي به بغياً وحسداً لكماله وخلته للسلطان[3].

ويستغرب المرء كيف يولي المأمون أو يصاحب رجلاً تحوم حوله الشكوك والريب!! وكيف يكون ذلك الأمر من أحد أئمة الاجتهاد والفقه!!، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى لما ذكر له شيء من ذلك: «سبحان الله! سبحان الله! من يقول هذا، وأنكر أحمد ذلك إنكاراً شديداً»[4]. وقال الحافظ ابن كثير، رحمه الله تعالى: «كان يحيى بن أكثم هذا من أئمة السنة وعلماء الناس، ومن المعظمين للفقه والحديث وأتباع الأثر»[5].

- يلاحظ أن حديث المسعودي عن الخلفاء العباسيين المتأخرين قد ركز فيه على ذكر الحكايات والملح والنوادر والمسامرات والأخبار التي ترد في مجالس أولئك

---

(1) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي، أبو محمد، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي الحكيم المشهور، ولد بمرو، وكان قاضياً فقيهاً أديباً حسن المعاشرة حلو الحديث، اتصل بالمأمون فولاه قضاء البصرة، ثم جعله قاضي القضاة في بغداد، وأعجب به المأمون إعجاباً شديداً فأصبح له خليلاً في الدين وأمر أن لا يحجب عنه ليلاً ولا نهاراً، فكان يبيت عنده في بعض الليالي ويشهدان الفجر جميعاً، وقد توفي في عهد المتوكل سنة ٢٤٢هـ بالربذة قرب المدينة حال منصرفه من الحج، وله كتب في الفقه والأصول منها كتاب التنبيه. انظر عنه: وكيع: أخبار القضاة، ١٦١/٢ ـ ١٦٧؛ والبغدادي: تاريخ بغداد، ١٩١/١٤ ـ ٢٠٤؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٥/١٢ ـ ١٦.

(2) المروج، ٣١٦/٤ ـ ٣١٩.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٦/١٢؛ وابن خلدون: المقدمة، ص ١٩ ـ ٢٠.

(4) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، ٣١٦/١.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ٣١٦/١٠.

الخلفاء عن طريق ندمائهم ومسامريهم، وهو هنا يتطرق إلى موضوعات شتى لا صلة لها بالعهد الذي يؤرخ له، وذلك بسبب ضعف الخلفاء وعدم قدرتهم على صنع الأحداث[1]، وكان إذا كتب شيئاً عن الأحوال السياسية في هذه الفترة، فإنه يتحدث بإيجاز ويحيل إلى بعض مصنفاته القديمة مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط[2].

- يلاحظ فيما دونه المسعودي عن الخلفاء العباسيين وكذا الأمويين في كتاب التنبيه أنه يضع مفاتيح هامة لشخصيات أولئك الخلفاء، من ذكر صفاتهم الجسمانية، وأخلاقهم وميولهم وسياساتهم في الحكم..[3]، وغير ذلك من الوسائل التي قد تعين الباحث المحقق وتكشف له عن شيء من الأسباب الموصلة إلى بعض النتائج.

(هـ) تاريخ الأندلس:

سبق وأن أشرنا فيما مضى من حديثنا إلى بعض الأمم القديمة التي عالج المسعودي تاريخها وكانت تسكن الأندلس أو المناطق المجاورة لها، وسنستعرض هنا بعض إشاراته عن تاريخ الأندلس الإسلامية وبعض النقاط البارزة في عرضه الموجز لتاريخها، إذ أنه في كتابيه الموجودين الآن لم يعمد إلى التفصيل لأنه سبق وأن تعرض لذلك مفصلاً في بعض كتبه السالفة، ففي كتابه المعروف بالمسعوديات وفي كتابه الآخر الموسوم بوصل المجالس ذكر جملاً من أخبار من سمي من ولاة الأندلس وسياساتهم وحروبهم مع من جاورهم من الجلالقة والافرنجة براً وبحراً، وما كان بالأندلس من الحروب والفتن منذ افتتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير في سنة ٩٢هـ في أيام الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) إلى سنة ٣٤٥هـ[4].

---

(١) انظر مثلاً: المروج، ٥/١٢٦ ـ ١٣٣، ٢٣٤ ـ ٢٤١؛ وانظر التنبيه: ص ٤٠٠.

(٢) انظر: المروج، ٥/١٣٦، ١٩٢، ٢١٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٣، ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٣) التنبيه، ص ٣٣٩، ٣٤١ ـ ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٦٩ ـ ٣٧١، ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ٣٨٨ ـ ٣٨٩، ٣٩٧، ٣٩٩.

(٤) التنبيه، ص ٣٣٣.

ومن الخصائص الواضحة في معالجة المسعودي المختصرة لتاريخ الأندلس يمكن ملاحظة بما يلي:

ـ تحدث المسعودي عن بعض معالمها الجغرافية، بحارها وخلجانها وأنهارها الكبيرة ومدنها المشهورة وأين تقع هذه المدن ومقدار المسافات التي تفصل بينها[1].

ـ اهتم بتاريخ بعض الحكام الأمويين للأندلس المعاصرين له، وخاصة ذوي القوة والنفوذ مثل عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ)، وأشار إلى شيء من جهودهم ونشاطهم الحربي ضد الأمم النصرانية المجاورة[2].

ـ من اهتمامات المسعودي الحضارية غالباً التنبيه على طبيعة الموارد الاقتصادية الموجودة في المنطقة التي يتحدث عن تاريخها، وهو هنا يشير إلى أهم المناجم والمعادن النفيسة وكذا النباتات والتوابل المشهورة التي تصدر من بلاد الأندلس إلى سائر الأقطار الإسلامية الأخرى وإلى البلاد الكافرة[3].

ـ وأشار إلى تأثيرات العرب والمسلمين الحضارية في بعض الأمم الافرنجية المجاورة لبلاد الأندلس الإسلامية حتى في بعض الخصائص المميزة التي كانت للعرب دون سائر الأمم كالقيافة والعيافة والزجر[4].

* * *

وهكذا يبدو لنا المسعودي بمعالجته لتاريخ الأمم الإسلامية مسهباً أو مختصراً حسب رؤيته وتقديره لمقتضيات الظروف والأحوال، وجاءت روايته للتاريخ الإسلامي قائمة على التاريخ للسلالات الحاكمة في أغلب الأحوال ومدونة على شكل حولي في بعض الأحيان، بخلاف روايته عن تاريخ الأمم القديمة وغير المسلمة فقد كانت ثقافية في أغلب مظاهرها.

وعلى أي حال فإنا ندين له بمجموعة من الأخبار القيمة حول البلاد الإسلامية وبمعلومات مهمة من مصادر مفقودة لا نجدها إلا عنده[5].

---

(١) المروج، ١/١٩١ ـ ١٩٢؛ والتنبيه، ص ٥٧.

(٢) المروج، ١/١٩١ ـ ١٩٣، ٢/١٤٩ ـ ١٥٢.

(٣) المصدر السابق، ١/١٩٤ ـ ٢/١٥٥.

(٤) المروج، ٢/٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٥) انظر سزكين: تاريخ التراث العربي، ١/٥٣٤.

ثالثاً:

الأقليات في تاريخ المسعودي

اهتمام المسعودي بتاريخ الأقليات والمجموعات والأمم الصغيرة اهتمام فريد من نوعه لا نكاد نجد له نظيراً لدى المؤرخين المسلمين الآخرين باستثناء بعض الرحالة المسلمين المتأخرين. وقد كان من فوائد رحلات المسعودي المتعددة وقوفه على أحوال الأقليات المسلمة التي كانت تعيش في بلاد بعيدة عن بيضة الإسلام، والتقاؤه برجال الأقليات غير المسلمة التي اتخذت من بلاد الإسلام موطناً لها فوقف عن كثب على أفكارهم وعقائدهم وأحوالهم المختلفة.

وسنحاول في السطور التالية أن نقف على بعض الملامح البارزة في رؤية المسعودي لتلك الأقليات والطوائف التي تعيش داخل العالم الإسلامي أو خارجه.

(أ) الأقليات المسلمة خارج العالم الإسلامي:

لقد انتشر المسلمون خارج حدود العالم الإسلامي لأسباب منها مصاحبة الجيوش الإسلامية التي خرجت لنشر الإسلام في أرجاء المعمورة، ومنها السعي في طلب الرزق والعمل بالتجارة، وقد كان يطيب لبعض أولئك المسلمين المقام في أحد البلاد البعيدة غير المسلمة فتتكون هناك مجموعات صغيرة تعمل على نشر الإسلام بين السكان الأصليين حسب ظروفها وأحوالها، فتكبر قاعدتها وتصبح أقليات مسلمة تعيش بين الكفار، أو غير ذلك من الظروف والأسباب القاضية بوجود جماعات مسلمة خارج العالم الإسلامي.

ـ الأقليات المسلمة في بلاد الهند:

شاهد المسعودي في أثناء رحلاته الأقليات المسلمة التي كانت تعيش في بلاد السند والهند واستقصى عن أحوال المسلمين الآخرين الذين لم يتمكن من الوصول إلى بلادهم، فحدثنا عن المسلمين في بلاد المولتان (Multan) التي كان الحكم فيها لولد أسامة بن لؤي بن غالب وما زال حتى وقت وصوله إليها، وفي هذه البلاد أصنام معظمة يقصدها أهل السند والهند من أقصى بلادهم بالنذور والأموال والجواهر وأنواع الطيب ويحج إليه الألوف من الناس، وإذا تكاثر الكفار على المسلمين في هذا البلد وعجزوا عنهم هددوهم بتكسير أصنامهم، وتعتبر المولتان ثغراً من ثغور المسلمين الكبار، وحوله آلاف مؤلفة من الضياع والقرى يمتلكها الكفار[١].

وأورد المسعودي معلومات عن المسلمين في بلاد المنصورة الهندية التي زارها أيضاً، وكان الملك عليها وقت زيارته لها عمر بن عبدالله من ولد هبار بن الأسود القرشي، وقد رأى المسعودي هناك عدداً من سادات العرب من قريش وغيرهم من المسلمين[٢].

أما أحوال المسلمين في مملكة البَلْهَرى (Al-Balharay) الهندية[٣] فقد قال عنها المسعودي: «وليس في ملوك السند والهند من يعز المسلمين في ملكه مثل البلهرى، فالإسلام في ملكه عزيز مصون، ولهم مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعداً، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين، وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم»[٤].

---

(١) المروج، ١/١١٣، ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) المروج، ١/١١٣، ٢٠٠.

(٣) وهي مملكة الراشطراكوطا (Rashtrakuta) وعاصمتها مانكير (ملخيد) (Malkhed) انظر: S. M. Ahmad, (MMCV) p. 97, 105.

(٤) المروج، ١/٢٠٢.

وتوجد أعداد متفرقة من المسلمين في ممالك هندية أخرى مثل مملكة الجُزْر (Juzr) وملكهم مبغض للمسلمين[1] وفي مملكة الطاقى (Tafan) [2]، وملكهم موادع لمن حوله من الملوك مكرم للمسلمين[3]، وكذلك توجد أقليات مسلمة في مملكة دَهْرَم (Rahma) الواسعة القوية، وقد أشار المسعودي إلى المسلمين في هذه المملكة بمناسبة حديثه عن بعض الحيوانات التي يشترك المسلمون مع الهنود في الانتفاع بها[4].

وكان حديث المسعودي عن المسلمين في الهند حديث مطلع خبير، فالمعلومات التي أوردها عن مسلمي بلاد صَيْمور (Chaul) الهندية التي زارها سنة ٣٠٤هـ معلومات دقيقة وافية، فذكر أنه كان يسكنها آنذاك «نحو من عشرة آلاف قاطنين بَيَاسِرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك الديار»[5]، وذكر أن فيها أيضاً عدداً من وجوه التجار المسلمين المعروفين، وأن الملك الهندي يملِّك على المسلمين رجلاً من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه.

ـ **الأقليات المسلمة في جبال القبخ (القوقاز):**

تحتوي الممالك الواقعة في جبال (القوقاز) على عدد كبير من الجاليات والأقليات المسلمة، وذلك لأن الجيوش الإسلامية الفاتحة في صدر الإسلام ــ وخاصة الجيوش التي قادها مسلمة بن عبدالملك في العصر الأموي ــ قد دخلت كثيراً من أجزاء تلك الممالك فاستقر عدد من المسلمين هنالك[6]، وانتشر الإسلام بين السكان، ولكن نظراً لظروف المنطقة الجبلية الوعرة وطبيعة البداوة المتأصلة في القبائل القاطنة في تلك الأصقاع لم ينتشر الإسلام هناك

---

(١) المصدر السابق، ٢٠٣/١.

(٢) انظر في التحديد التقريبي لهذه المملكة: S. M. Ahmad, (MMCV) p. 110.

(٣) المروج، ٢٠٣/١.

(٤) المصدر السابق، ٢٠٤/٩.

(٥) المصدر السابق، ٢٤٨/١.

(٦) المروج، ٢١١/١ ــ ٢١٢، ٢٢٩.

انتشاراً واسعاً على الرغم مـن أن بعض المسلمين قد وصلوا إلى الحكم في بعض تلك البلدان وأصبح الملك وراثياً فيهم[1].

وقد اهتم المسعودي بتتبع أخبار المسلمين اهتماماً ملحوظاً في أثناء كتابته عن تلك المناطق، فذكر معلومات مفصلة عن المسلمين في مملكة الخزر، وأشار إلى وجودهم في عاصمة المملكة ـ وتسمى مدينة إتل ـ بجانب الأقليـات الأخرى غير المسلمة[2]، وأكد على نفوذهم في هذا البلد وحظوتهم عند الملك، وذلك لأنهم هم جنده الذين يعتمد ويعول عليهم عند الشدائد في الحروب، وأشار المسعودي إلى أنهم يعرفون بالأرسية، وبين سبب مجيئهم إلى هذا البلد وانتقالهم من خوارزم لما وقع فيها من جدب ووباء، فجاؤوا إلى ملك الخزر وأقاموا في بلده على شروط بينهم، منها: إظهار الدين والمساجد والأذان وأن تكون وزارة الملك فيهم[3]، وأنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في معسكر منفردين لا يحاربون أهل ملتهم، لكنهم يحاربون معه سائر الناس من الكفار[4]، وإلى جانب ذلك أيضاً لهم قضاة مسلمون معترف بهم من قبل الدولة يحلون المنازعات بين المسلمين، ومـا يستعصى حله من قضايـا غير المسلمين[5]. وفي بلاد الخزر أيضاً مسلمون غير الأرسيـة يزاولـون التجارة والصناعة، لهم مسجد جامع تشرف منارته على قصر الملك، ولهم أيضاً «مساجد أخرى فيها المكاتب يعلم فيها الصبيان القرآن»[6].

وقد كان للمسلمين في بلاد الخزر فضل كبير بعد الله تعالى في قتال الروس الذين أغاروا على بلاد المسلمين الواقعة إلى الجنوب والشرق من بحر الخزر، حيث سفك هؤلاء الدماء واستباحوا النسوان والولدان واغتصبوا الأموال

---

(١) المصدر السـابق، ١/٢١٠.

(٢) المصدر السـابق، ١/٢١٢.

(٣) ذكر المسعودي أن الوزير في وقت تأليفه لكتاب المروج منهم يسمى أحمد بن كويه، وقال: إنهم يركبون مع الملك في السلاح والآلة، المروج، ١/٢١٣.

(٤) المروج، ١/٢١٣.

(٥) المصدر السـابق، ١/٢١٤.

(٦) المصدر السـابق، ١/٢١٤.

وخربوا وأحرقوا، فلما كانوا في حال رجوعهم إلى بلادهم التقى بهم المسلمون الخزريون فأوقعوا بهم هزيمة نكراء لم يستطع الروس بعدها أن يعاودوا الإغارة على أي من تلك البلاد[1].

وتحدث المسعودي عن إسلام ملك البلغر في أيام الخليفة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ ــ ٣٢٠هـ) وأن أحد أولاد ذلك الملك حج في بعض السنين وزار بغداد حاملاً معه أموالاً وهدايا للخليفة[2]. وأشار المسعودي إلى ما يتميز به المسلمون الذين انقادوا لملك البلغر من قوة وشجاعة في مواجهة الكفار حتى إن الفارس منهم ليستطيع أن يقاتل المائة والمائتين من فرسانهم[3].

وأشار المسعودي إلى وجود جماعة من المسلمين العرب في منطقة وعرة بين آجام وغياض وأودية وأنهار كبار في قرى قد سكنوها منذ الفتح الإسلامي لتلك القرى[4]، وذكر أنهم ممتنعون من الأمم المعادية لهم بتلك الأشجار والأودية؛ وأنهم لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية[5].

وذكر المسعودي أن صاحب مملكة خيذان (خيذاق) مسلم يزعم أنه رجل من العرب من قحطان وليس في مملكته مسلم غيره وولده وأهله[6].

كما ذكر أنه يجاورهم ملك مسلم أيضاً سمته بَرْزَبَان ويعرف بلده باسم الكرج[7].

ولم يغفل المسعودي الإشارة إلى أقلية مسلمة صغيرة تعيش بين أقليات

---

(١) المروج، ٢١٩/١ ــ ٢٢١.
(٢) المصدر السابق، ٢١٦/١.
(٣) المصدر السابق، ٢١٧/١.
(٤) فاتح هذه القرى هو مسلمة بن عبدالملك ــ رحمه الله تعالى ــ انظر: المروج، ٢١١/١.
(٥) المروج، ٢٢٧/١.
(٦) المصدر السابق، ٢٢٧/١.
(٧) المصدر السابق، ٢٢٧/١.

نصرانية ويهودية في مملكة يقال لها زِرِيْكَران مشهورة بصناعة الآلات الحربية من الحديد[1].

وكذلك أقلية أخرى تزاول التجارة وبعض المهن في مملكة شَكِّي النصرانية[2].

وتوجد بعض الأقليات المسلمة في صفوف الأمم التركية الأربع المجاورة لبلاد الخزر واللان من جهة الغرب فيما بينهم وبين بحر بنطس (الأسود)[3] وقد كان هؤلاء المسلمون غير مخالطين لبني قومهم إلا عند حرب الكفار[4].

ـ الأقليات المسلمة في أفريقية:

يوجد في جزيرة قَنْبَلو خلائق من المسلمين النازحين من جنوب وشرق الجزيرة العربية، وقد تحولت لغتهم فصاروا يتكلمون بالزنجية، وهم يعيشون بين الكفار من الزنوج، واستطاع بعضهم أن يصل إلى الحكم ويتغلب على من كان فيها من السكان الأصليين، فأصبح الملك فيهم وراثياً[5].

وتوجد جماعة من المسلمين في بلاد البجة سكنوا معدن الذهب وبلاد العلاّقي والعيذاب، واختلطوا بالبُجة وتزوجوا منهم وأصبحت لهم قوة على من نأواهم، والمسلمون من البجه يعرفون بالحداربة «وهم المسلمون من بين سائر البجة، وباقي البجة كفار يعبدون صنماً لهم»[6].

---

(١) المصدر السابق، ١/٢٢٨.

(٢) المصدر السابق، ١/٢٣٩ ــ ٢٤٠.

(٣) المصدر السابق، ١/٢٣٦.

(٤) المصدر السابق، ١/٢٣٧.

(٥) المروج، ١/١١٢، ١٢٤، ١٢٦.

(٦) المصدر السابق، ٢/١٢٧، ويلاحظ أن البجة كانوا قد وقعوا معاهدة صلح مع المسلمين عقب الحملة التي جردها عليهم الخليفة المأمون في سنة ٢١٦هـ. وصار يرسل إليهم عمالاً لقبض الخراج والصدقات، لكنهم لم يستقروا مع ذلك ونقضوا العهد في عصر الخليفة المتوكل على الله وظل المسلمون بينهم أقلية، انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار ١/١٩٥ ــ ١٩٦، وللتفصيل عنهم راجع د. مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م) ص١١٦ ــ ١١٩.

وكذلك في بلاد النوبة توجد أعداد من المسلمين كثيرة، وخاصة في مدينة بلاق وهي مدينة كبيرة تقع في جزيرة تحمل هذا الاسم نفسه ويحيط بها ماء النيل من جميع جهاتها في الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار[1]، ومدينة أسوان التي فيها خلائق كثيرة من المسلمين «العرب من قحطان ونزار من ربيعة ومضر وخلق من قريش وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره»[2] قد نزح منها جماعة إلى بلاد النوبة لاستثمار بعض الضياع التي آلت إليهم بالشراء من النوبيين في صدر الزمان الأول في دولة بني أمية وبني العباس، ويؤدي خراج هذه الضياع لملك النوبة[3].

وفي بلاد الحبشة خلق من المسلمين يقطنون في المدن المطلة على ساحل البحر الأحمر المقابل لبلاد اليمن، مثل الزيلع والدهلك وباضع «وهم في ذمة الحبشة»[4].

وهكذا يلاحظ مدى اهتمام المسعودي بتتبع الأقليات الإسلامية وأماكن وجودها وظروفها وأحوالها المعاشية، وما تزاوله من المهن والصنائع، ومدى حريتها في أداء شعائرها الدينية، ويلاحظ مدى الثقة التي كان يحظى بها المسلمون لدى الرؤساء والملوك في ذلك الزمان حتى وإن كانوا أعداداً قليلة وذلك بسبب استقامتهم وتمسكهم بدينهم.

ويلاحظ كذلك كيف ظلت تلك الأقليات المسلمة مراعية لحقوق الأخوة الإسلامية في كل حروبها، وظلت محافظة على أصالتها متماسكة فيما بينها على الرغم من كثرة الظروف والعوائق التي تحول دون ذلك.

---

(١) المروج، ٢/١٣٠.
(٢) المصدر السابق، ٢/١٣١.
(٣) المصدر السابق، ٢/١٣١.
(٤) المصدر السابق، ٢/١٢٧.

(ب) الأقليات غير المسلمة في الوطن الإسلامي:

أظهر المسعودي اهتماماً علمياً أصيلاً بمعرفة أحوال وديانات الطوائف غير المسلمة التي كانت تعيش في أرجاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ومن أبرز تلك الطوائف والأقليات التي تحدث المسعودي عنها أو ذكر شيئاً عن دياناتها ومعتقداتها وأحوالها المختلفة: اليهود والنصارى والمجوس والصابئة الحرانيون[1].

وقد كان المسعودي حريصاً في أسفاره وتنقلاته على مقابلة ممثلي هذه الطوائف وعقد المناظرات معهم ومعرفة المزيد عن دياناتهم وأسرارهم، وكان يزور أماكن عباداتهم ويطلع على كتبهم الخاصة ـ كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك فيما مضى من هذا البحث ـ[2].

ـ اليهــود:

تحدث المسعودي عن تاريخ اليهود الأول منذ ظهورهم، وفي عهد موسى ـ عليه السلام ـ ومن تلاه من الأنبياء والملوك حتى عهد المسيح ـ عليه السلام ـ[3].

أما تاريخ اليهود وصراعهم مع المسلمين في صدر الإسلام وفي زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتطرق له لأنه مشهور ومبسوط في كتب السيرة النبوية المتعددة[4].

---

(١) لقد تحدث الأستاذ هادي حسين حمود في رسالته المعنونة بـ «منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية» عن معالجة المسعودي لتاريخ هذه الطوائف والفرق مفصلاً، فيمكن الرجوع إليه لمن أراد الاستقصاء والمزيد، وكذلك يراجع:

A. Shoul, Al-Masudi and his world, chapter VII.

(٢) انظر ص ١٥٩ وما بعدها.

(٣) المروج، ١/٥٢، ٧٠.

(٤) انظر على سبيل المثال سيرة ابن هشام، ٢/١٣٠ ـ ٢٣٦، ٤٩٦ ـ ٥١٣، ٣/٢٥٣ ـ ٢٥٥، ٢٨٢ وما بعدها.

وقد كان المسعودي يعرف تفاصيل كثيرة عن ديانتهم وكتبهم المقدسة[1]، كما كان يعرف شخصياً عدداً من علمائهم وأحبارهم المعاصرين له مثل أبي كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني وسعيد بن يعقوب الفيومي، ويهودا بن يوسف المعروف بابن أبي الثناء، وسعيد بن علي المعروف بابن اشليميا، ويعقوب بن مردويه، ويوسف بن قيوما، وإبراهيم اليهودي التستري، وغيرهم[2]، وكذلك كان على علم بطوائفهم وفرقهم واختلافاتهم في مذاهبهم، وكانت طائفة الاشماعث التي تردد ذكرها كثيراً على لسان المسعودي في كتبه تشكل الغالبية العظمى من اليهود المقيمين في العالم الإسلامي[3].

ـ النصارى:

تعتبر كتابة المسعودي عن النصارى والديانة النصرانية بشكل عام كتابة وافية تحتوي على كثير من التفصيلات الدقيقة.

وقد تناول المسعودي تاريخ النصارى منذ ولادة المسيح ـ عليه السلام ـ[4] حتى عصره في ثنايا كتابيه المطبوعين وخاصة التنبيه الذي ينعكس فيه بوضوح مدى اهتمامه ومعرفته بكل ما يتعلق بالنصارى وديانتهم.

ويبدو أن اهتمام المسعودي بهذه الطائفة وتاريخها وديانتها كان مبعثه الارتباط الحاصل بينها وبين الامبراطورية البيزنطية الدولة النصرانية المجاورة للمسلمين والتي كانت على صلة واحتكاك دائم بهم، وأيضاً لوجود أعداد كبيرة منهم منتشرة في أرجاء الوطن الإسلامي ظلت متمسكة بديانتها النصرانية. والمسعودي نفسه ذكر أن بمصر وحدها من الطوائف النصرانية التي تعتقد مذهب

---

(١) التنبيه، ص١١٢ ـ ١١٣، ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) المصدر السابق، ص١١٣ ـ ١١٤.

(٣) المصدر السابق، ص١١٣؛ والمروج، ١/٦٦، ٦٩؛ وانظر أيضاً:
Shboul, op. cit. p. 287 — 288.

(٤) المروج، ١/٧٠ ـ ٧١.

اليعاقبة «ما لا يحيط به الإحصاء كثرة»[1]، وهناك أيضاً نصارى آخرون وبأعداد كبيرة في سوريا والعراق، وهم جماعات إما من الملكية (الارثوذكس) أو من النساطرة أو اليعاقبة أو المارونية[2].

وكان المسعودي يعرف عدداً من علمائهم وقساوستهم واطلع على نسخ كثيرة من مؤلفاتهم في الكنائس والأديرة وغيرها، ومن أبرز العلماء الذين التقى بهم وأجرى معهم مناظرات ومحادثات حول ديانتهم سعيد بن البطريق المعروف بابن الفراش المصري وهو بطريرك كرسي مارقس بالاسكندرية، وقد شاهده المسعودي في مدينة الفسطاط[3]، ويعقوب بن زكريا الكسكرى الكاتب، وقد شاهده بأرض الشام والعراق[4]، وأبو زكريا دِنْخَا النصراني وكان متفلسفاً جدلاً نظاراً جرت بينه وبين المسعودي مناظرات في مدينة بغداد وفي مدينة تكريت[5].

ويلاحظ الباحث في تاريخ المسعودي أن كتابته عن النصارى وديانتهم تعتبر كتابة فريدة من نوعها وتبزُّ كثيراً من الكتابات الأخرى المماثلة، وذلك نظراً لاحتكاكه المباشر بهم، حيث تمكن من الاطلاع على عدد كبير من مؤلفاتهم الخاصة التي كان من الصعب الحصول عليها أو مطالعتها.

ـ المجـــوس:

كتب المسعودي معلومات وافية عن تاريخ الفرس المجوس، ومتى ظهر نبيهم زرادشت وما أتى به لقومه من المعجزات والدلائل، وذكر بالتفصيل لغة كتابهم المقدس (بُسْتَاه) وحروفه وما وضع له من التفاسير والشروح والتعليقات عبر العصور المختلفة[6].

---

(١) التنبيه، ص١٥١.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٤.
(٣) المصدر السابق، ص١٥٤.
(٤) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٥) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٦) المروج، ١/٢٧٠ ـ ٢٧١.

وقد كان المسعودي عارفاً ومطلعاً على ممارسات المجوس الدينية في عصره، وماذا كانوا يقرأون من كتابهم، وكيف يقرأونه على الرغم من أنه في ألوف من المجلدات، وبين طرائقهم المتبعة لتسهيل قراءته وحفظه من الضياع[1].

وقد التقى المسعودي بعدد من علماء المجوس كالموابذة والهرابذة وتناقش معهم في مسائل عن ديانتهم، وقابلهم في أماكن ومدن متعددة في العراق وخوزستان وفارس وكرمان وسجستان والماهات وغير ذلك من أرض الأعاجم[2].

والواقع أن نظرة المسعودي إلى المجوس وديانتهم الزرادشتية كانت نظرة عادلة منصفة ليس فيها تحامل ولا إجحاف ولا تحريف، فقد أورد شيئاً من المعلومات غير المقبولة التي ذكرها بعض المؤرخين المسلمين ممن قصَدوا الرد على المجوس، ولكن المسعودي بين وجهة نظر علماء المجوس أنفسهم تجاه ما ينسب إليهم، وقال: إنهم لا ينقادون إلى ذلك ولا يقرون به، ثم أورد تحليله الخاص فقال: «وأرى أن ذلك كان حكاية عن عوامهم ممن سمع يعتقد ذلك فنسب إلى الجميع»[3].

ـ الصابئة الحرانيون:

أطلق المسعودي لفظ (صابئة) على سلسلة عريضة من المعتقدات القديمة والمعاصرة لكنه في كتبه تحدث بتفصيل عن صابئة حران[4] الوثنيين، فذكر متى ظهر مذهبهم، ومن هو المحدث له، والفرق بين الحرانيين وطائفة أخرى من

---

(١) المصدر السابق، ١/٢٧١.

(٢) التنبيه، ص١١٠.

(٣) المصدر السابق، ص٩٣ ـ ٩٤.

(٤) حران مدينة مشهورة كبيرة هي قصبة بلاد مضر قديماً، تقع بين مدينتي الرها والرقة، فتحت في أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ صلحاً، انظر عنها: ياقوت: معجم البلدان، ٢/٢٣٥ ـ ٢٣٦.

الصابئة يسمون الكيماريين[1] يسكنون بين واسط والبصرة نحو البطائح والآجام[2].

وقد وصف المسعودي مراتب كهنة الصابئة الحرانيين[3]، وتحدث عن بيوتهم المعظمة وهياكلهم المشرفة ومعتقداتهم وقرابينهم وأصنامهم التي جعلت مثالاً للأجسام السماوية[4].

وقد زار مدينة حران والتقى ببعض علمائهم وفلاسفتهم[5]. مثل مالك بن عقبون وغيره، وحادثهم في شأن بعض ما ينسب إليهم من معتقدات «يقبح عند كثير من الناس وصفها»[6]، فمنهم من اعترف ببعض ما ذكر، ومنهم من أنكر بعضاً من القرابين وغيرها من الآراء[7].

وهكذا فالمسعودي يهتم بالدرجة الأولى في شأن ديانات الفرق والأقليات غير المسلمة بما يقولونه هم أنفسهم ويقرون به، ولا يلتفت إلى ما يكتبه أو يقوله عنهم أعداؤهم سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم.

* * *

---

(١) يبدو أن هذه الطائفة تنتسب إلى النصارى، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، مادة (صابئة) ص١١١٢.

(٢) المروج، ١/٢٦٣.

(٣) المروج، ١/١٠٩.

(٤) المصدر السابق، ٢/٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٥) ذكر المسعودي أن لهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين فلاسفة ولكنهم من حشوية الفلاسفة وعوامهم [يقصد اليونانيين] ثم قال: إنما أضفناهم إلى الفلاسفة إضافة نسب لا إضافة حكمة لأنهم يونانيون وليس كل اليونانيين فلاسفة إنما حكماؤهم، المروج، ٢/٣٩٣؛ وانظر: ١/١٠٩.

(٦) المروج، ٢/٣٩٤؛ هذا وكان المسعودي مطلعاً على ما دون عن الصابئة الحرانيين من كتب تخبر عن مذاهبهم وتكشف عن أحوالهم، ومن أهم ما رآه في ذلك كتاب لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف، ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين دون غيرهم من سائر الصابئة، وذكر أشياء كثيرة عن اعتقاداتهم وقرابينهم، وقد تبين للمسعودي عدم دقة بعضها واحتواؤها على أشياء غير مقبولة مما دعاه إلى مساءلة الصابئة أنفسهم.

((٧)) المروج، ٢/٣٩٤ ـ ٣٩٥.

وعلى أي حال فإنه كان في عرضه ومناقشاته وتحليلاته لديانات ومعتقدات الطوائف والأقليات غير المسلمة التي تعيش بين المسلمين موضوعياً إلى حد بعيد، يعرض الأفكار والمبادىء من وجهة نظر أصحابها الخاصة، وينعي على الذين لا يكلفون أنفسهم عناء البحث ومعرفة ما لدى الآخرين، وكانت كتبه بعقليته الواسعة وفكره الناضج المتفتح واحدة من المصادر المهمة في هذا المجال ومجالات أخرى عديدة.

* * *

الفصل السادس

المَسْعُودي في الميزان

أولاً : تأثير النزعة المذهبية على كتابات المسعودي.

ثانياً : حياد المسعودي وموضوعيته.

ثالثاً : المنهج التحليلي وروح النقد.

رابعاً : الحاسة التاريخية وربط الأحداث.

خامساً: التشعب والاستطراد.

سادساً: الخرافات والأساطير وموقف المسعودي منها.

سابعاً : صفات المؤرخ في المسعودي.

ثامناً : المسعودي في نظر بعض العلماء المسلمين.

تاسعاً : أقوال بعض المستشرقين والكتاب الغربيين في المسعودي.

أولاً:

تأثير النزعة المذهبية على كتابات المسعودي

في معالجة المسعودي للتاريخ الإسلامي ظهرت ميوله الشيعية وتعاطفاته العلوية وأثرت على أحكامه على الرغم من محاولته أن يبدو مؤرخاً حيادياً منصفاً يعرض الأقوال منسوبة إلى قائليها، والأفكار معزوة إلى أصحابها، قال في نهاية كتاب المروج: «وليعلم من نظر فيه أني لم أنتصر فيه لمذهب ولا تحيزت إلى قول، ولا حكيت عن الناس إلا محاسن أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك»[1]، وفي عرضه لآراء الفرق في الإمامة مثلاً حاول أن يبدو في تعبيراته وأسلوبه موضوعياً غير مظهر لما يميل إليه أو يرجحه من تلك الآراء[2]، ولكنه بحكم ميوله العاطفية كان ينساق إلى تفضيل رأي الإمامية وشرح مذهبهم وبسط أقوالهم.

وإذا دققنا في مجمل كتاباته للتاريخ الإسلامي نلاحظ أن اختياراته وطرق عرضه وترجيحاته في غالب الأحيان تؤيد تلك الاتجاهات والميول، ففي تاريخه للسيرة النبوية ظلت شخصية علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مذكورة إلى جانب شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم باستمرار، مما جعله يبدو من ألصق المسلمين به، وأما صفاته ومناقبه وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه فتؤيد أحقيته بالخلافة على من سواه من الصحابة[3].

وعند تاريخه للخلفاء الراشدين وبيان مواقف الصحابة ـ رضوان الله

(١) المروج ٥/٢٧٤.

(٢) المصدر السابق ١/٤١، ٤/٦٠، ٦٢.

(٣) T. Khalidi, Islamic Historiography, p. 120.

تعالى عليهم ــ من النزاع الذي دارت رحاه بسبب قتل عثمان بن عفان، وفي معركة الجمل وصفين أوضحنا ــ كما مر ــ في الفصل السابق[1] أن المسعودي لم يستطع السيطرة على مشاعره وعواطفه، فأسبغ على علي بن أبي طالب من صفات المديح والإطراء قدراً كبيراً، وذكر له من المناقب الخاصة ما جعله يبدو أعلى مرتبة من الصحابة السابقين كأبي بكر وعمر وعثمان وقد بينا رأي علماء السلف في تفضيل الصحابة وترتيب الأربعة الأوائل منهم الذين تولوا الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك أشرنا إلى رأيه غير المنصف في عدد من كبار الصحابة الأجلاء أمثال سعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ــ رضي الله عنهم ــ وهؤلاء وغيرهم من الصحابة الأعلام هم قدوة هذه الأمة المسلمة بعد نبيها محمد صلى الله عليه وسلم، وهم حملة دينها المؤتمنون عليه الذين أدوه إلى من بعدهم من الأجيال، فالتشكيك فيهم أو الطعن في أحدهم عمداً وبدون وجه حق طعن في دين الإسلام نفسه[2] ولذلك ينبغي الحذر والانتباه عند قراءة ما كتبه عنهم المسعودي أو من نحا نحوه.

وكذلك الحال عندما كتب المسعودي تاريخ الدولة الأموية لم يستطع أن يتجرد من الهوى ويكتب تاريخ الخلفاء الأمويين كتابة تليق بمقامهم، وخاصة معظم الخلفاء الأوائل منهم حتى عصر هشام بن عبدالملك، الذين يشهد التاريخ الصحيح بعدالتهم وتقواهم أخذهم بمعالي الأمور، وإحيائهم لسنة الجهاد في سبيل الله تعالى[3].

هذا وان كان قد تضافر على تشويه هذا التاريخ ــ مع الأسف الشديد ــ بعض الحاقدين أو المخدوعين أو الجهلة من الأدباء والمؤرخين ممن كانت لهم

---

(١) انظر ص ٣٥٨، وما بعدها.

(٢) أورد الحافظ ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ في معرض بيانه لبعض مناقب معاوية بن أبي سفيان ــ رضي الله عنه ــ قول الإمام أحمد بن حنبل ــ رحمه الله تعالى ــ: «إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام» البداية والنهاية ١٣٩/٨.

(٣) قال الحافظ ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ: «لما مات هشام بن عبدالملك مات ملك بني أمية وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله» البداية والنهاية ٣٥٤/٩.

أهداف خبيثة في طمس هذه الفترة المشرقة من التاريخ الإسلامي وتشويهها في نظر الدارسين والأجيال المسلمة لئلا يقتدى بها، مع أنها كانت امتداداً لعصر الصحابة، ولعصر التابعين وهم خير الأمة وأفضلها بعد الصحابة[1].

وستظهر حقيقة نصاعة هذه الفترة وقوتها وإشراقها حينما يكتب تاريخنا الإسلامي بحيادية مطلقة وموضوعية كاملة.

وفي تدوين المسعودي للتاريخ العباسي على الرغم من أنه أشار إلى كثير من فضائل بعض الخلفاء العباسيين الأقوياء إلا أنه لم يتحر الدقة التامة في كل ما كتبه عنهم، ولم يستطع أن يحجب هواه وميوله فتأثرت أحكامه على الخلفاء[2] من واقع معاملتهم للثوار العلويين الذين ظهروا في أيامهم كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن تاريخ المسعودي للعصر العباسي[3].

---

(١) من التعليقات القيمة لمحب الدين الخطيب ــ رحمه الله تعالى ــ على كتاب العواصم من القواصم لابن العربي ــ رحمه الله تعالى ــ قوله: «إن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا بعد زوال بني أمية وقيام دول لا يسر رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله [لتأكيد ذلك انظر مقابلة تمت بين الخليفة أبي جعفر المنصور وبين أحد صنائع هشام بن عبدالملك في المروج ٤/١٣٣ ــ ١٣٤] فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف: طائفة كانت تنشد العيش والجدة من التقرب إلى مبغضي بني أمية بما تكتبه وتؤلفه، وطائفة ظنت أن التدين لا يتم ولا يكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً، وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين ــ كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير ــ رأت أن من الانصاف أن تجمع أخبار الاخباريين من كل المذاهب والمشارب ــ كلوط بن يحيى الشيعي المحترق، وسيف بن عمر العراقي المعتدل ــ ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك إرضاء لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها، وقد أثبت أكثر هؤلاء أسماء رواة الاخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن رجال راويه وقد وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا...» العواصم من القواصم ١٢٨ ــ ١٢٩.

(٢) يرجع دونلدسن (Donald Son) أن (حرية) روايات المسعودي عن الخلفاء تعود إلى ظهوره وكتابة تاريخه في أيام البويهيين الشيعة، عقيدة الشيعة، ص ٢٧٩، ولكن لا يمكن التسليم بهذا الرأي، لأن المسعودي لم يمكث في العراق موطن النفوذ البويهي إلا في الأيام الأولى من حياته، وهو لم يكتب شيئاً بعد، ثم كانت رحلاته، واستقراره أخيراً بمصر، وفيها دون مؤلفاته التاريخية المشهورة بعيداً عن البويهيين.

(٣) انظر الفصل الخامس من هذا البحث، ص ٣٦٩، وما بعدها.

ومن هنا يمكن القول: إن نزعة المسعودي الشيعية قد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على كتاباته في التاريخ الإسلامي على الرغم من محاولاته أن يبدو حيادياً في بعض الأحيان إلا أنه كان ينساق ــ حتى وإن كان عن غير قصد ــ إلى تدوين ما كان يعتقده ويراه حقاً، أو ترجيح وتقديم الرأي الموافق لطبعه وميوله.

ويرى بعض الباحثين أن المسعودي ــ بما فيه من تشيع ــ لم يرض أهل السنة والجماعة، ولم يرض الشيعة كذلك، فهو إذاً مخالف لكلا الطرفين[1] ولكن الحقيقة تبدو غير هذا، لأنه يظهر أن الشيعة أنفسهم يريدون أن يعرف عنهم هذا الرأي، فحاول جماعة من علمائهم أن يظهروا وكأنهم غير راضين عنه كما سبق وأن ألمحنا إلى بعض هذه الآراء في معرض الحديث عن عقيدة المسعودي[2] ولكن العلماء المحققين منهم يدركون أنه خدم التشيع جيداً، وبطريقة تخفى على كثير من الناس[3].

والنتيجة المهمة التي ينبغي تدوينها والخلوص إليها في هذا المقام هي أنه يجب على من أراد أن يقرأ ما دوّنه المسعودي أو غيره من المؤرخين من ذوي الميول والأهواء عن تاريخ الإسلام، وخاصة الفترات الغامضة منه أو التي حدث فيها اجتهاد واختلاف بين المسلمين، أن يكون على حذر وانتباه وأن لا يسارع إلى تصديق كل ما يراه إلا بعد قيام الدلائل وثبوتها من الأوجه الصحيحة المعتبرة ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ الصحابة والتابعين والأئمة والخلفاء المشهود لهم بالفضل والصلاح، لأنه في حقيقة الأمر لا يؤتمن على كتابة التاريخ الإسلامي إلا إنسان مؤمن تقي متجرد من الأهواء والعصبيات يراقب الله تعالى فيما يكتب ويعتقد أنه سيوقف ويسأل امامه يوم القيامة.

* * *

(١) محمد كرد علي «كنوز الأجداد» مجلة المجمع العلمي العربي، الجزء التاسع والعاشر من المجلد الثاني والعشرين، دمشق ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م، ص ٣٩٦.

(٢) أبو علي: منتهى المقال، ص ٢١٣.

(٣) انظر المامقاني: تنقيح المقال، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣.

ثانياً:

حياد المسعودي وموضوعيته

حين نتنقل إلى ما كتبه المسعودي عن عقائد وملل وأديان الأمم الكافرة أوعن التاريخ غير الإسلامي بصفة عامة نجد صورة من الحكم تختلف عما عهدناه لدى المسعودي في كتابته للتاريخ الإسلامي ولآراء الفرق التي تنتسب إلى الإسلام، فهو في معالجته لمعتقدات الطوائف والأمم غير المسلمة يبدو موضوعياً نزيهاً مسجلاً للحقائق والأفكار بتجرد وحياد بعد أن يبحث ويسأل ويناقش أصحابها ويتوصل إلى ما يراه أو يعتقد صحته؛ ففي رسمه لتاريخ اليهود مثلاً رأيناه مستقصياً حريصاً على تتبع التفصيلات والأسرار المتعلقة بديانتهم[١] شغوفاً بمجالسة علمائهم وأحبارهم، وسجل كل ما عرفه عنهم من معلومات بأمانة ودقة، وكذلك لا يسع الناظر والمتتبع لما كتبه المسعودي عن الديانة النصرانية إلا أن يقر بمقدرته الفائقة في تسطير الكثير من المعلومات الدقيقة، وبالنزاهة الفريدة التي تناول من خلالها تاريخ هذه الديانة وغيرها من الديانات[٢].

وكذا الشأن بالنسبة للديانة المجوسية التي اعتنق أكثر أتباعها الدين الإسلامي بعد الفتوح الإسلامية في فارس، والتي لم يصبح لها شأن يذكر بعد الإسلام، ومع ذلك نجد المسعودي حريصاً على التعرف عليها من غير تشويه

(١) انظر مثلاً المروج ٢/٨٢ ــ ٨٣.

(٢) انظر كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١/١٨٣؛ وانظر جواد علي: «موارد تاريخ المسعودي» مجلة سومر، العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، بغداد ١٩٦٤م، ص ٤٤.

أو تلبيس، فنراه لم يكترث بما سمعه أو قرأه عنها، ولم يرض إلا أن يرجع بنفسه إلى علمائها فيعرف حقيقتها عن طريقهم على الوجه الذي يرضونه أو يعتقدونه بأنفسهم[1].

ومن الأمثلة التي توضح مدى نزاهة المسعودي وتسامحه في عرض أديان وملل الأمم غير المسلمة بروح العالم المتجرد عرضه لمبادىء وأفكار الصابئة الحرانيين من واقع رؤيتهم ونظرتهم الخاصة وعدم التفاته إلى ما كان يكتبه أو يقوله عنهم أعداؤهم[2]، وكذا كتابته بصفة عامة عن البيوت المعظمة والهياكل المشرفة وبيوت النيرات والأصنام والكواكب وغير ذلك مما تعظمه وتعبده الأمم والشعوب الكافرة، واستقصاءاته الفريدة في هذا الميدان[3].

ومن هنا يمكننا أن نقرر ونؤكد ما سبق وأن ألمحنا إليه من قبل من أن المسعودي كان في عرضه ومناقشاته وتحليلاته لديانات ونحل الأمم والأقليات غير المسلمة موضوعياً إلى حد بعيد، لم تؤثر فيه عاطفته الدينية ولم يعمد إلى تشويه أو تأويل أو إساءة، بل كان يعرض الأفكار والمعتقدات من وجهة نظر أصحابها الحقيقيين، ولا يقيم وزناً أو يلقي بالاً لما يكتبه أو يحكيه غيرهم عنهم، وما كتبه المسعودي عن حقائق ووقائع التاريخ غير الإسلامي لا يقل أهمية ووزناً من حيث العرض بروح حيادية متجردة عن ما كتبه عن الأديان والملل، ويمكن للباحث أن يرصد ويلاحظ طريقة المسعودي في جمع معلوماته في هذا المجال، فسيجد أنه أيضاً قد التزم بالأخذ عن المصادر الأصلية للتاريخ الذي يتحدث عنه، ففي تدوينه لكثير من أحداث التاريخ الفارسي مثلاً كان يركز بصفة أساسية على وجهة النظر الفارسية، ويعتمد بالدرجة الأولى على ما أخذه عن علمائهم، وما دونوه في كتبهم الخاصة. . . «غير أن الذي حكيناه هو ما أخذناه عن علماء الفرس أنفسهم، وهم يراعون من تواريخ من سلف ما لا يراعيه غيرهم، لأن

---

(١) التنبيه، ص ٩٣.

(٢) المروج ٢/ ٣٩٢.

(٣) المصدر السابق ٢/٣٧٩ ــ ٤١١.

الفرس تدين بما وصفناه قولاً وعملاً، وغيرهم من الناس يقول ذلك ولا ينقاد إليه عملاً»[1]. وفي حديثه عن أخبارهم والغرر من أيامهم كان اعتماده على ما أخذه «عن علمائهم كالموابذة والهرابذة وغيرهم من ذوي المعرفة بأخبارهم بأرض العراق وخوزستان وفارس وكرمان وسجستان والماهات وغير ذلك من أرض الأعاجم، ونقلناه من الكتب الصحيحة المشهورة عندهم»[2].

وسلوك المسعودي لهذا النهج في استقاء المعلومات يعتبر غاية في الحياد والنزاهة، لأنه يسجل معلومات من مصادر صحيحة في نظر أصحابها على الأقل لم تحكمها الأهواء ولم تشب بأي لون من ألوان العصبية أو التحريف.

وفي عرضه لتاريخ اليونانيين كان مقدراً لإسهاماتهم الفكرية والفلسفية التي قدمها علماؤهم، وكان معجباً ببعض فلاسفتهم، ونقل إلى مصنفاته نماذج كثيرة من آرائهم في الكون والحياة وطبائع النفس البشرية[3].

أما معالجته للتاريخ البيزنطي فكما سبق القول: إنها كانت معالجة فريدة متميزة[4]، فكذلك كانت نظرته نزيهة منصفة عادلة تبدو فيها روح العالم النير المتسامح الذي يهدف إلى إبراز الحقيقة نقية صافية حتى ولو كانت مُرَّة، فعلى الرغم من أن المسعودي كان متأثراً من الحال التي آل إليها أمر المسلمين في عصره من التشتت والضعف والتخاذل أمام أعدائهم البيزنطيين الرابضين على الحدود يتحينون الفرص للانقضاض والقتل والسلب والنهب والسبي، أقول على الرغم من ذلك فقد كان المسعودي في معالجته ونظرته وحكمه على التاريخ البيزنطي منصفاً لم يؤثر فيه هوى أو تحكمه عاطفة.

ومما يلاحظ أن المسعودي في وصفه لمملكة الخزر يمتاز بحيوية العالم واهتمامه وحسن تفهمه واعتداله، فإلى جانب وصفه للمزايا السياسية

---

(١) المروج ١/٢٧٧.

(٢) التنبيه، ص ١١٠.

(٣) انظر على سبيل المثال: المروج ٢/٩، ٣٠٢، ٣١٦ ـ ٣١٧، ٣٦٣.

(٤) راجع الفصل الخامس، ص ٣٢٧، وما بعدها.

والاجتماعية والدينية التي كانت تتمتع بها الأقليات المقيمة في بلاد الخزر ـ بما في ذلك الأقلية المسلمة ـ فإنه أيضاً يشير إلى أن العدل والأمن المتوفرين في هذه البلاد كان من الأسباب المهمة التي شجعت بعض المسلمين على ارتياد تلك البلاد للتجارة أو مزاولة بعض الصنائع والحرف[1] وهذه النظرة إلى التسامح ـ من جانب المسعودي ـ الذي تبديه حكومة الخزر لم يشر إليها أحد من المؤرخين السابقين[2].

وأخيراً هناك تساؤل يدور في النفس حول ذلك التفاوت العجيب في مواقف المسعودي وعدم اطراد أحكامه، حيث نجده موضوعياً ملتزماً بمبدأ الحياد والتجرد في بحث أديان وتاريخ الأمم والشعوب غير المسلمة، وفي المقابل لا نجد التزاماً تاماً بهذا المبدأ في بحث التاريخ الإسلامي، بينما كان المتوقع أن يحدث العكس بحكم أنه مؤرخ مسلم يكتب عن تاريخه وقد توفرت له أسباب المعرفة الصحيحة وعرف المنهج العلمي السليم الذي يستطيع من خلاله أن يستقرىء الأحداث ويبين صحيحها من زائفها، ويستطيع كذلك أن يدرس تاريخ الرجال الذين يؤرخ لهم ويفحص الروايات المذكورة عنهم ويصدر أحكاماً سليمة مجردة من الأهواء والأغراض[3].

وإذا حاولنا أن نقف على تفسير معقول لأسباب ذلك التفاوت الغريب الذي وقع فيه المسعودي لا يمكن أن نجد قولاً أقرب من أن صاحب كل ذي ميل أو هوى أو نحلة لا يمكن أن ينفك عن ما استولى عليه وسيطر على فؤاده ما دام الحديث متعلقاً به أو ذا مساس من قريب أو بعيد بما سيطر عليه، لكن إذا جاوز الأمر ذلك إلى الحديث عن موضوعات بعيدة غير ذات علاقة فلا بأس أن تكون النظرة موضوعية، ولا ضير من التحري والتدقيق.

---

(١) المروج ٢١٤/١.

(٢) A. Shboul, Al-Masudi and his world, p. 171.

(٣) سبقت الإشارة إلى أن المسعودي كان عارفاً بمنهج علماء الحديث في قبول الأخبار وردها، انظر المروج ١٤٥/١، ٦٢/٢، ١٩٥، ٣٦٥، ٣٧١؛ والتنبيه، ص ٢٩٠، ٣٣٦.

والواقع أن الحكم الصحيح على مؤرخ ما يجب أن ينبثق أولاً من خلال النظر إلى مدى تحكم ذلك المؤرخ في ميوله وعواطفه، ومدى سيطرته عليها، لأن من يستطيع أن يكبت مشاعره ويستولي على زمامها يستطيع أيضاً أن يكتب تاريخاً صحيحاً محايداً جديراً بالثقة والاحترام، ومن عجز عن ذلك فلا يمكن الركون إلى ما كتبه أو الاعتماد عليه وحده إلا بتوفر الدلائل والقرائن، وهذا ما يجرنا إلى القول بأن المسعودي ـ مع الأسف ـ لا يمكن أن نأخذ ببعض أحكامه أو تفسيراته للأحداث الإسلامية، لأنه لم يلتزم جانب الحياد التام في جل ما تعرض له أو وقف على دراسته.

* * *

ثالثاً:

المنهج التحليلي وروح النقد

من الخصائص الواضحة التي تميز معالجة المسعودي التاريخية لكثير من القضايا والأحداث، خاصية الاستقصاء والشمول، فالدارس لمصنفاته يلاحظ إيراده لمختلف الآراء والأقوال التي تدور حول مسألة من المسائل، وأنه كذلك لا يقتصر على مجرد العرض وإيراد أقوال الآخرين، بل كان كثيراً ما يشارك بآرائه وتحليلاته ومناقشاته ويدلي بدلوه.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن رحلات المسعودي وسياحته في البلدان البعيدة، وآطلاعه على أمم وشعوب وممالك متباينة في عاداتها وتقاليدها وأحوالها العمرانية والمعاشية ومظاهرها الجغرافية والمناخية وسائر أحوالها قد ساعد كل ذلك على تكوين ملكة النقد والملاحظة والمقارنة والنظرة الشمولية، وساهم في صقل كثير من مواهبه وملكاته الفنية، والإبداعية، ولهذا فإنه يلاحظ أنه عندما يعتمد على أحكامه الخاصة واستنتاجاته واستقراءاته المبنية على ملاحظاته الشخصية يكون على مستوى عال من الدقة والصواب[1]، بينما يلاحظ بوجه عام أنه عندما يلجأ إلى نقل الروايات من بعض المصادر في وصف الأقاليم

(١) انظر مثله بحثه واستقصاءاته عن نهر جيحون (أموداريا) الذي قيل إنه ينتهي إلى آجام وبطائح فيغور فيها، وقيل إنه يصب في بحر الهند مما يلي كرمان، قال المسعودي: «وقد دخلنا بلاد فارس وكرمان وسجستان صرودها وجرومها فلم نجد لذلك حقيقة..». وأكد أنه يصب في البحيرة المنتنة (بحر آرال)، التنبيه، ص٦٦.

البعيدة التي لم يصل إليها في رحلاته مثلاً يكون أقل دقة وعمقاً[٢].

وعلى أي حال، فإن من الصعوبة بمكان أن نحصر كل الأدلة والنماذج التي توضح أخذ المسعودي بمبدأ تحليل الأحداث والروايات وطرحها على بساط البحث والنظر، وإدلائه فيها بآرائه الخاصة مستنداً على ما يراه من علل أو أسباب أو دلائل[٢]. أو ميله إلى بعض الآراء والأقوال الأخرى التي سطرها غيره فيرجحها ويبين وجهة نظره فيها[٣]، أو نقده لبعض الأخبار التي من الممكن والجائز أن يكون قد دخلها «الفساد من جهات في النقل وغيره» أو قد تكون «من صنعة القصاص»[٤]، أو غير ذلك كثيراً مما يصعب في الحقيقة حصره أو دراسته في هذا المقام، ولذلك سنكتفي هنا بإيراد أنموذج واحد لإلقاء بعض الأضواء على

---

(١) يلاحظ مثل ذلك في نقله عن جغرافية بطليموس، المروج، ١/١٠١ وما بعدها.

(٢) من أبرز الأمثلة على ذلك نقض المسعودي للروايات التي تذكر أن الأمويين كانت لهم ألقاب كألقاب الخلفاء العباسيين، مثل تلقيب معاوية بن أبي سفيان بالناصر لحق الله، وتلقيب عبدالملك بن مروان بالمؤثر لأمر الله، والوليد بن عبدالملك بالمنتقم لله، وعمر بن عبدالعزيز بالمعصوم بالله... إلخ، التنبيه، ص٣٣٥.
فقد جمع المسعودي الأدلة والبراهين، وذكر من الأسباب والعلل ما أثبت به عدم صحة تلك الروايات.
ومما قال: «فإن الكافة على خلافه فلو كان الأمر على ما ذكر لظهر واشتهر واستفاض، وجاء في الأخبار المنقولة القاطعة للعذر والأعمال الموروثة، فلما لم يذكره الجمهور من حملة الأخبار ونقلة السير والآثار، ولا دونه مصنفو الكتب في التواريخ والسير ممن ذكر أخبارهم ووصف أيامهم ممن تولاهم وانحرف عنهم علم أن ذلك لا أصل له»، التنبيه، ص٣٣٦، ومن الأدلة التي طرحها المسعودي لتأييد ما ذهب إليه أنه لم يشاهد ما ذكر في كتاب رآه لدى بعض خاصة الأمويين في الشام فيه ذكر لمآثرهم وفضائلهم يسمى بكتاب البراهين في إمامة الأمويين...
التنبيه، ص٣٣٦.

(٣) انظر مثلاً: ما ذهب إليه في نسب قحطان ــ المروج، ٢/١٩٢ ــ ١٩٣. وما يتعلق بنسب الأكراد، المروج، ٢/٢٤٩ ــ ٢٥١.

(٤) المروج، ٢/٤٠٦.

طريقة المسعودي التحليلية ونحيل في الهامش إلى مواضع أخرى للمستزيد[1].

في بحث المسعودي عن تاريخ ملوك الطوائف[2] من الفرس أدرك أن تاريخ سنيهم مضطرب وقصير ولا يمثل الحقيقة، حيث أن المعروفين من ملوكهم أحد عشر ملكاً فحسب، حكموا مائتي سنة وثماني وستين سنة، وقد رأى المسعودي الاختلاف الواقع بين الفرس وبين غيرهم من الأمم في حساب التاريخ فتأكد لديه وجود ذلك الاضطراب، ولذلك أخذ يبحث ويستقصي الأخبار، ويقارن بين التواريخ حتى تبين له أن الواقع يؤكد أن لهم ملوكاً آخرين لم تعرف أسماؤهم ومدة سني ملكهم، ولم يذكروا في شيء من كتب الفرس وغيرها من كتب السير والتواريخ.

وقد كشف المسعودي عن الأسباب الكامنة وراء ذلك فأبان أنه «لاضطراب أمر الملك في تلك الأعصار والتنازع الواقع من اختلاف الكلمة والتحزب وغلبة كل واحد منهم على صقعه»[3]، وكشف أيضاً أنه يتعلق بـ «سر دياني وملوكي من أسرار الفرس لا يكاد يعرفه إلا الموابذة والهرابذة وغيرهم من

---

(١) انظر مثلاً: المروج، ١/٥١، حول الرأي في الذبيح من ولد إبراهيم ــ عليه السلام ــ هل هو اسماعيل أو إسحاق، ١/١١٦، فيما يتصل بموقع البلغر، ١/١١٧، غزو البلغر سواحل الروم، ١/١٩٣ ــ ١٩٤، حول اتصال البحار، ١/٢٢٧، حول سمة ملك خيذاق، ١/٢٣٨، حول نسب صاحب ثغر تفليس، ١/٢٦٩، الاختلاف الدائر حول البخت نصر، ١/٢٧٩، نسب الفرس، ١/٢٨١، مناقشة ما قيل حول نسب ويرك أب الفرس الأول، ١/٢٨٤، الرأي في الأموال المودعة بئر زمزم، ٢/٥ ــ ٦، أصل اليونانيين وأنسابهم، ٢/٣٩ ــ ٤٠، سد ياجوج ومأجوج، ٢/١٥٦، دراسة بعد أجسام ثمود من واقع مساكنهم، ٢/٢٥٠ ــ ٢٥١، فيما يتصل بأنساب الترك، ٣/١٤٣، مناقشات وآراء حول معركة صفين، والتنبيه، ص٣٨٦، إحصاء من قتله القرامطة، ٣/١٥٠، الرأي فيما يتعلق بصفات بعض ملوك الترك، ٥/١٥٢، مسألة الخصيان وطبيعتهم، وانظر التنبيه، ص٢٧٨، حول عدد غزوات وسرايا الرسول صلى الله عليه وسلم، وص٢٩٠ حول بداية التاريخ الهجري.

(٢) انظر عنهم: التنبيه، ص٩٥ وما بعدها.

(٣) التنبيه، ص٩٦.

ذوي التحصيل منهم والدراية على ما شاهدناه بأرض فارس وكرمان وغيرهما من أرض الأعاجم»[١].

وهذا السر هو ما أخبر به زرادشت نبي الفرس في كتاب «الأبستا وهو الكتاب المنزل عليه عندهم ـ أن ملكهم يضطرب بعد ثلاثمائة سنة ويبقى دينهم، فإذا كان على رأس ألف سنة ذهب الدين والملك جميعاً»[٢].

وقد أدرك المسعودي بتفكيره العلمي السليم ومعرفته بفن التاريخ العالمي وبمدارسته ومناقشاته مع خواص علماء الفرس أن أردشير بن بابك قد تدخل في تسلسل الأحداث التاريخية فأنقص من السنوات التي انقضت بينه وبين الاسكندر المقدوني وقت استيلائه على بلاد فارس، وهي حوالي خمسمائة وبضع عشرة سنة، أنقص منها نصفها، وأشاع بين الناس في مملكته أن ظهوره واستيلاءه على ملوك الطوائف كان في سنة مائتين وستين بعد الاسكندر «فأوقع التاريخ بذلك وانتشر في الناس»[٣]، وكان هدف أردشير من ذلك أن يمد الفترة بين حكمه وبين السنة التي أشار إليها زرادشت أنه فيها يذهب الدين والملك جميعاً، واستنتج المسعودي بحساباته أن المدة الصحيحة لحكم ملوك الطوائف هي خمسمائة سنة وثلاث عشرة سنة[٤] أو سبع عشرة[٥]، وأنه يوجد عدد من ملوك الطوائف لم يدركه الإحصاء، ولذلك قال في الباب الذي تحدث فيه عنهم «ذكر من أدركه الإحصاء من ملوك الطوائف»[٦].

وهكذا يتضح من إيراد هذا المثال قدرة المسعودي التحليلية ونظرته الشمولية بعيدة المدى للتواريخ والأحداث، ومقدرته الفائقة على التفسير والمقارنة والاستقراء والاستنتاج وإبداء الرأي.

---

(١) التنبيه، ص٩٧.
(٢) التنبيه، ص٩٨.
(٣) المصدر السابق، ص٩٨.
(٤) المصدر السابق، ص٩٦.
(٥) المروج، ٢٧٦/١.
(٦) التنبيه، ص٩٥.

وتتجلى روح النقد لدى المسعودي في نظراته التقويمية للمؤلفين والعلماء السابقين ولأعمالهم التي خلفوها، فمنهم من نال إعجابه وحظي بتقديره وإسباغ الثناء عليه[1]، ومنهم من وقف معه وناقش أفكاره وأبدى رأيه فيه أو فيما كتبه، والأمثلة التي تجلي هذا الأمر كثيرة ولكننا نكتفي بإيراد مثال واحد لنرى من خلاله كيف كانت نظرة المسعودي إلى المؤلفين السابقين وما هي المعايير التي كان يقوم على أساسها من واقع علمه وخبرته وتجاربه.

قال المسعودي: «ورأيت سنان بن ثابت بن قرة الحراني، حين انتحل ما ليس من صناعته واستنهج ما ليس من طريقته، قد ألف كتاباً جعله رسالة إلى بعض إخوانه من الكتاب واستفتحه بجوامع من الكلام في أخلاق النفوس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية، وذكر لمعاً من السياسات المدنية بما ذكر أفلاطون في كتابه في السياسة المدنية وهو عشر مقالات، ولمعاً مما يجب على الملوك والوزراء، ثم خرج إلى أخبار زعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها، ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله وذكر صحبته إياه وأيامه السالفة معه، ثم ترقى إلى خليفة خليفة في التصنيف مضادة لرسم الأخبار وخروجاً عن جملة أهل التأليف، وهو وإن أحسن فيه ولم يخرجه عن معانيه، فإنه عيب لأنه خرج عن صناعته وتكلف ما ليس من مهنته، ولو أقبل على علمه الذي انفرد به من علم اقليدس والمقطعات والمجسطي والمدورات ولو استفتح آراء سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس فأخبر عن الأشياء الفلكية والآثار العلوية والمزاجات الطبيعية والنسب والتأليفات والنتائج والمقدمات والصنائع المركبات ومعرفة الطبيعيات من الإلهيات والجواهر والهيئات ومقادير الأشكال وغير ذلك من أنواع الفلسفة، لكان قد سلم مما تكلفه وأتى بما هو أليق بصنعته، ولكن العارف بقدره معوز والعالم بمواضع الخلة مفقود، فقد قال عبدالله بن المقفع: «من وضع كتاباً فقد استهدف: فإن أجاد فقد استشرف وإن أساء فقد استقذف»[2].

---

(١) انظر مقدمة المسعودي في كتاب المروج التي سرد فيها مصادره، وبين وجهة نظره الخاصة حول أكثر المؤلفين، المروج، ١/١٢ ـ ١٧.

(٢) المروج، ١/١٦ ـ ١٧.

وهكذا نرى المسعودي ينتقد سنان بن ثابت لخروجه عن دائرة اختصاصه التي يجيد الحديث فيها، وتكلفه ما ليس من طبعه، ولهذا وقع في أخطاء منهجية، وخالف جادة العلماء والمؤلفين قبله، وعرض نفسه للنقد واستهدف للملاحظات.. وعلى هذا المنوال سار المسعودي في انتقاد العلماء الذين يؤلفون كتباً ولا يحسنون تأليفها أو تعوزهم الأصالة والدقة فيها، أو يظهرون فيها بآراء ونظريات غير صائبة أو لا تليق بمقامهم ومنزلتهم العلمية[1].

* * *

(1) انظر مثلاً نقده للشعر الذي دار بين أبي تمام (ت ٢٢٨هـ) وأحد الأعراب في المروج، ٣٦٦/٤؛ ونقده لعبيدالله بن خرداذبة (ت ٢٣٠هـ)؛ وكتابه المسالك والممالك لعدم التزامه الدقة في بعض أجزائه، انظر المروج، ٢٤١/١؛ وكذا نقده للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في مواضع كثيرة من كتبه لعدم التزامه بالحياد في مصنفاته، ولوقوعه في بعض الأخطاء العلمية، انظر المروج، ١١٣/١، ٢٠٥، ١٠٤/٥؛ والتنبيه، ص٥٥، وكذلك نقده لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الذي اتهمه بسلب بعض المعلومات من كتب أبي حنيفة الدينوري؛ المروج، ٣٥٩/٢؛ ونقده أيضاً للذين يقولون: إن بحر الخزر (قزوين) يتصل ببحر مايطس (الأسود)، المروج، ١٤٦/١.

رابعاً:

الحاسة التاريخية وربط الأحداث

إن إلقاء نظرة ـ ولو سريعة ـ على الباب الثاني من كتاب المروج المشتمل على سرد مباحث الكتاب لتبين للناظر فيه أن ترتيب الأبواب لم يكن مبنياً على أساس منطقي أو تاريخي؛ فقد تداخل الحديث بين الموضوعات التاريخية والجغرافية مع إمكانية الفصل بينها بسهولة ويسر[1]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ترتيب الأبواب التاريخية ذاتها التي تحدث فيها عن الأمم السالفة غير منسجم مع الواقع التاريخي والتسلسل الزمني؛ فعلى سبيل المثال جاء حديث المسعودي عن الأمم العربية الهالكة التي قطنت شبه الجزيرة العربية كعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم، جاء حديثه عنها متأخراً جداً في كتاب المروج، هذا مع إدراكه وعلمه أن هذه الأمم جاءت في وقت مبكر، ومعرفته أيضاً بآراء العلماء الذين كانوا يقولون: إن «الملك تأثل[2] بعد نوح في عاد الأولى بدءاً قبل سائر ممالك العرب كلها»[3]، وقوله تعالى مخاطباً لعاد على لسان

---

(١) مثلاً كان بالإمكان ضم الأبواب التي تبحث في الجغرافيا، وهي الأبواب من الثامن حتى السادس عشر ما عدا الباب الخامس عشر الخاص بملوك الصين والترك، وجعل هذه الأبواب مقدمة جغرافية في أول الكتاب، ثم الدخول إلى الكتابة التاريخية بعد ذلك، وهذا أفضل بكثير من ترتيب الأبواب الحالي الذي يبدأ بقصة الخلق والمبدأ وتاريخ الأنبياء حتى الفترة بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم، فأخبار الهند، ثم تأتي أبواب الجغرافيا مفصولاً بينها أيضاً بالباب الخامس عشر عن ملوك الصين والترك.

(٢) تأثل بمعنى تأصل وعظم، انظر الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ٣/٣٢٧.

(٣) المروج، ٢/١٥٣.

نبيه هود، عليه السلام: ﴿واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾[1]، وقوله تعالى مخاطباً لثمود على لسان نبيه صالح، عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾[2]، وهذا يدل بوضوح على معرفة المسعودي بالترتيب التاريخي لتلك الأمم[3]، ولكنه على ما يبدو كان متأثراً بالمصدر الذي استقى منه وعول عليه كثيراً في قصة الخلق والمبدأ والأنبياء، وهو التوراة التي ركزت على ذكر الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، ومن ناحية ثالثة لم يراع المسعودي حتى في حديثه عن أمة واحدة من الأمم الترتيب المنطقي للأبواب الخاصة بمعالجة تاريخ هذه الأمة؛ فمثلاً خصص أربعة أبواب للحديث عن الفرس، الأول عن ملوك الفرس الأولى، والثاني عن ملوك الطوائف، والثالث عن أنساب الفرس، والرابع عن ملوك الساسانية، وفي نظري أنه لو بدأ بالباب الخاص بأنساب فارس لكان أولى وأجدر لأنه بذلك يعطي تصوراً عاماً عن أصل الفرس ومبدئهم قبل تفصيل الحديث عنهم.

وهكذا يلاحظ بصفة عامة ضعف الحاسة الفنية لدى المسعودي، فإضافة إلى انفراط خاصية التناسب الزمني والمنطقي في ترتيب الأبواب، توجد أيضاً بعض التناقضات والاختلافات في التواريخ، وفي بعض أسماء الملوك، ومدد حكمهم، وترتيبهم، ويتضح ذلك من مقارنة الموضوعات المتشابهة في كتابي المروج والتنبيه[4]، وتوجد كذلك بعض مظاهر الضعف في ذاكرة المسعودي وخاصة في مسألة الإحالات؛ فأحياناً يتحدث عن موضوع ثم ينبه إلى أنه سيعود للحديث عنه مرة أخرى ثم لا يعود[5]، وأحياناً يشير إلى شيء أنه قد مضى

---

(١) سورة الأعراف: آية ٦٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ٧٤.

(٣) انظر: المروج، ١/٤٥ ـ ٤٦.

(٤) انظر مثلاً ما كتبه عن ملوك الروم في المروج، ٢/٣٣ وما بعدها، وما كتبه عنهم في التنبيه، ص١٢٣ وما بعدها، ولمعرفة المزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، راجع جواد علي: «موارد تاريخ المسعودي»، مجلة سومر العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، بغداد ١٩٦٤م، ص٢٠.

(٥) انظر: المروج، ١/٥٠، في حديثه عن ابراهيم ـ عليه السلام ـ وأزواجه.

وهو لم يأت بعد[1]، وأحياناً أخرى يذكر أن أشياء قد مرت وهو لم يتطرق لها على الاطلاق[2]، وهذا ما نخرج به من قراءة كتاب المروج المطبوع.

ومع أن كثيراً من الباحثين قد لاحظوا ضعف منهج المسعودي في التبويب وأنه لا يرقى إلى المستوى المطلوب، وعزوا ذلك إلى أنه «كان يزاول عمله بعجلة فائقة بحيث أضحى من العسير عليه أن يكون دائماً في حالة تسمح له بتحليل المواد المتنوعة التي جمعها من مختلف المصادر»[3]، وتنسيقها وتبويبها، وأن يخرج منها «كلا حياً متجاوب الأجزاء متناسق الأوضاع»[4]، إلا أنه على أي حال يلاحظ أن هذه النظرة وهذه الأحكام منبثقة من واقع العصر الحاضر، ولكن القيمة العلمية الكبيرة لمؤلفات المسعودي لا يمكن أن يشوبها أو يعكر صفوها وجود بعض المآخذ والهنات ولا سيما فيما يتعلق بالنواحي الفنية، هذا مع العلم أن المسعودي قد بذل جهداً لا بأس به في محاولة وضع التبويب والتقسيم المناسبين في مؤلفاته[5]، وإن كان لم يوفق كثيراً.

وإذا أردنا أن نفتش عن الجوانب الإيجابية في أعمال المسعودي فيما يتعلق بهذا الموضوع نلاحظ أن من آثار اتجاهاته نحو الآفاق العالمية والإنسانية في رحلاته وكتاباته التاريخية أن تطورت عقليته وتفتحت، وأصبح يهتم بشكل ملحوظ بالربط بين الأحداث التاريخية وعقد الكثير من المقارنات، فهو يشبه مثلاً

---

(١) المصدر السابق، ١/٢١٣، الحديث عن بعض عوائد نساء الهند، ٣/٢٢٤، قصة مروان بن محمد ومقتله، ٣/٣١٦، بعض صفات أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٢٧، قبائل قوم هود، ٢/٢٨١، الحروف الأبجدية ٥/٢٠٣، القبض على الوزير علي بن الفرات وولده.

(٣) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١/١٨٣؛ وانظر أيضاً جواد علي: المرجع السابق، ص٢٠.

(٤) علي أدهم: بعض مؤرخي الإسلام، ص٥٨.

(٥) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ٢/٥٤.

الدولة العباسية في ضعفها وانقسامها بانحلال دولة الاسكندر الأكبر بعد وفاته، كما يقارن أيضاً بين قبائل الصين والقبائل العربية[1].

كما يلاحظ أيضاً ربطه بين الدراسات التاريخية والجغرافية، وكل من الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية[2]، وغير ذلك مما سبق وأن ألمحنا إليه فيما مضى من هذا البحث[3].

ولا شك أن حاسة المسعودي التاريخية كانت تتجلى وتبرز في مواضع كثيرة من كتاباته، وذلك بذكر أوجه الشبه بين الأحداث المتشابهة، وبعقد المقارنات، وبملاحظة التطور الزمني في بعض الأحيان، وبحيوية التعبير، واختيار الألفاظ، والتفاعل مع المشاهدات[4]، ولكن الصورة تتجلى بشكل أوضح في ربط الماضي الذي يؤرخ له بالحاضر الذي يعايشه، وهذه في الواقع ميزة من مزايا المسعودي الخاصة، إذ أنها تضفي قيمة حقيقية لدراسة التاريخ، وذلك عندما تمتد النظرة من دراسة الحدث وتقويمه إلى معرفة آثاره وما يترتب عليه من نتائج في حاضره ومستقبله، وخاصية الوقوف بالحدث عند سنة تأليف المسعودي لكتاب مروج الذهب خاصية فريدة وواضحة يلحظها الدارس في أكثر فقرات الكتاب[5].

ويذكر في هذا المقام ربط المسعودي بين المكان والسكان، وذكر العلاقة بينهما، واستخلاص ما يترتب على ذلك من أحكام[6]، وربطه أيضاً بين العلل

---

(١) الخربوطلي: «الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي»، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد السابع، الرياض ١٤٠٣هـ، ص٢٨.
(٢) انظر الخربوطلي: المرجع السابق، ص٢٩.
(٣) انظر، ص٢٦٢، وما بعدها.
(٤) انظر الخربوطلي: المرجع السابق، ص٢٨.
(٥) انظر، ص٩١ وما بعدها من هذا الكتاب.
(٦) انظر المروج، ١٥٦/٢، حيث ذكر أن أجسام ثمود ليست ذاهبة في الطول كأجسام عاد، بدليل ما هو موجود من آثارهم ومساكنهم.

والأسباب عن طريق استخدام القياس العقلي لبعض الحالات أو الظواهر الموجودة في بعض البقاع[1].

وعلى الرغم من وجود بعض الإحالات غير الدقيقة في كتاب المروج كما سبق وأن أوضحنا، لكنها قليلة وبسيطة إذا ما نظر إليها من خلال إحالاته الكثيرة إلى مواضع مختلفة من كتابه المروج سواء أكانت سابقة[2] أم لاحقة[3]، وإحالاته إلى كتبه الأخرى السالفة[4]، وكل هذا يدل على ارتباط الأحداث بفكره واستحضاره لها وذكره إياها في المواضع المناسبة، ويوحي كذلك بفطنته حيث أنه يعمد إلى ذكر معلومات مختصرة مركزة في أثناء عرضه لمحتويات كتبه السالفة[5].

* * *

(١) انظر: المروج، ١/٥٦، ما ذكره عن خواص البحيرة المنتنة (البحر الميت) وخواص بحيرة كبوذان (أورميا) الواقعة في بلاد آذربيجان، انظر: التنبيه، ص٧٥.

(٢) الأمثلة على ذلك كثيرة، انظر على سبيل المثال، المروج، ١/٤٧.

(٣) انظر: المروج، ١/٤٥ ـ ٤٦.

(٤) انظر مثلاً، المروج، ١/٤٢ ـ ٧٣.

(٥) انظر: التنبيه، ص٢ ـ ٧، ١٠٧ ـ ١١١، ١٨٢ ـ ١٨٨.

خـــامســـاً:

التشعب والاستطراد

من الملامح الواضحة في منهج المسعودي التاريخي والتي تلاحظ بوجه عام في مصنفه مروج الذهب ظاهرة التشعب والاستطراد، فبينما هو يتحدث في موضوع معين تلحظه ينتقل فجأة إلى موضوعات أخرى قد تمس موضوعه الأول من قريب أو بعيد أو قد تكون بعيدة عنه كل البعد، فيفصِّل القول فيها ويبسط الحديث عنها، حتى إذا ما أفرغ معلوماته وتذكر الموضوع الأصلي الذي كان يتحدث فيه عاد فاعتذر عن هذا السانح العارض، مع الإشارة أحياناً إلى أن الحديث يجر بعضه بعضاً، والإحالة لمن يرغب المزيد إلى الرجوع إلى مصنفاته السابقة(١).

وهكذا تجده ينتقل من تجربة شخصية إلى قراءة في كتاب، ويذكر جدلاً دينياً قام به بجانب خبر عن الملوك الأقدمين، ويذكر مصادره في الوقت الذي يقارن فيه بين النجوم، ولا يستغرب أن تظهر مفاجأة بخبر أو نادرة أو مصدر أو جدل في أي جملة أو صفحة من صفحات كتبه وحيث لا يتوقع أن تجد ذلك الخبر أو النادرة أو الجدل(٢).

وإذا ما تلمسنا تعليلاً مقبولاً لهذه الظاهرة فإن من الممكن القول: إن غزارة مادة المسعودي واتساع علمه وموسوعيته قد هيأت له توارد الخواطر

---

(١) انظر المروج ٤/١٩١.

(٢) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٢/٥٢.

والأفكار على ذهنه عند الكتابة من غير استدعاء أو تفكير، ولا سيما أنه على ما يبدو كان يكتب من الذاكرة في كثير من الأحيان. وإن حرصه الشديد على أن يضع بين يدي القارىء جميع ما يعرف من المعلومات جعل ذاكرته الخصبة تلقي إليه بالموضوعات المتباينة المتعددة دفعة واحدة من غير اختيار أو تنسيق[1].

وغني عن البيان أن وجود هذه الظاهرة في منهج المسعودي تدل على ضعف في حاسته الفنية، وأنها قد أفسدت عليه وحدة الموضوع، وعدم القدرة على التركيز وتسطير المعلومات في مواضعها المناسبة لها، وساهمت في تشتيت ذهن القارىء، وفتحت على المسعودي باباً وجه إليه النقد من خلاله حيث رمي «بالتسرع وبقلة الصبر، وبعدم تمكنه من تركيز جهده على موضوع واحد، وباستطراده وبخروجه من موضوعات رئيسية إلى موضوعات ثانوية»[2].

وهناك أمثلة كثيرة من كتابات المسعودي توضح هذا الجانب، ويتميز معظمها بوجود عبارة خاصة يستخدمها المسعودي حينما يفرغ من استطراده ويهم بالرجوع إلى موضوعه الأصلي، وهي قوله: «فلنرجع الآن إلى [كذا]»[3]، ومن

---

(١) المرجع السابق ٢/٥٣.

(٢) جواد علي: «موارد تاريخ المسعودي» مجلة سومر العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، ص ٢١.
وانظر أيضاً:
Ency. of Islam, Vol. 3, p. 403.

(٣) من ذلك مثلاً قوله: (فلنرجع الآن إلى الأخبار عن نيل مصر) المروج ١/١١٤.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى تشعب مياه هذا البحر [الحبشي]) ١/١٢٧.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى ذكر الباب والأبواب..) ١/٢٢٧.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً من ذكر الأمم المحيطة بالباب والأبواب) ١/٢٣٥.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى ذكر جبل القبخ والسور والباب والأبواب) ١/٢٣٨.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى خبر ملك الهند ومسيره إلى بلاد سجستان) ١/٢٤٩.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً من أخبار ملوك مصر) ٢/٩٣.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى ما عنه عدلنا ومن وصفه خرجنا من ذكر سبأ ومأرب) ٢/٣٢٤.
وقوله: (ثم رجع بنا الأخبار عن مذاهب الصابئة من الحرانيين) ٢/٣٩٤.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى الكلام في حصر العالم) ٢/٤١٤.
وقوله: (فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياساته) ٣/٢٢٧.

الأمثلة على استطراد المسعودي حديثه عن الزنج[1]، في الباب، الذي عقد لذكر السودان وأنسابهم وأجناسهم وأنواعهم وتباينهم في ديارهم وأخبار ملوكهم[2]، فقد خرج من ذلك إلى الحديث عن الفيلة حديثاً موسعاً في حدود عشر صفحات، ثم تذكر أنه يتحدث عن الزنج فقال: «فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً في صدر هذا الباب من ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش»[3]. وبعد أسطر قليلة جره الاستطراد إلى الخروج عن موضوع الزنج إلى الحديث عن أنواع من الأبقار والجواميس، ثم تذكر فآب مرة ثانية إلى تدوين أخبار الزنج، «فلنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكهم»[4].

وهكذا نلاحظ أن المسعودي في كتابته لعدد محدود من الصفحات عن الزنج قد خرج إلى موضوعات ثانوية مستطرداً مرتين، وطغت الكتابة في الموضوعات الجانبية التي ترد عرضاً على الكتابة في الموضوع الأصلي الذي عقدت الدراسة من أجله.

ومثال آخر في باب قصير عنوانه «ذكر شهور السريانيين ووصف موافقتها لشهور العرب وعدد أيام السنة ومعرفة الأنواء»[5].

فذكر المسعودي تحت هذا الباب موضوعات لا علاقة لها بشهور السريانيين لكن الاستطراد جره إليها، مثل الحديث عن زمن عيد المهرجان الفارسي وتفسيره، وأعياد النصارى، وبطارقة النصرانية، وكنائس مدينة أنطاكية، ووصف موافقة شهور السريانيين لشهور الروم وليس العرب، وفي غمرة تلك الاستطرادات لا يذكر شيئاً عن الأنواء بل تطالعنا عبارته المألوفة «فلنرجع إلى وصف حساب الشهور»[6].

(١) المروج ٢/١١٢ ـ ١٢٦.
(٢) المصدر السابق ٢/١١٠.
(٣) المصدر السابق ٢/١٢٣.
(٤) المصدر السابق ٢/١١٥.
(٥) المصدر السابق ٢/٣٣٧ ـ ٣٤٢
(٦) المروج ٢/٣٤٠.

وعلى أي حال فلعل من أهداف المسعودي في استطراداته وتنويعه في مواد كتبه حرصه الشديد على أن يزود القارىء بمعلومات مفيدة قد أجهد نفسه في الحصول عليها مـن مظانها الأصيلة، وقد لا تتوفر لمريدها في الوقت الذي يحتاجها فيه، وأنه يريد إشباع فضول القراء على مختلف مشاربهم وتخصصاتهم بتزويدهم بالمعلومات النادرة المتنوعة.

ويظهر لنا من تدبر نص المسعودي الآتي بعض أهدافه الحقيقية من الاستطراد: «ولولا أن الكتاب يرد على أغراض مختلفة من الناس لما هم عليه من اختلاف الطبائع والتباين في المراد لما ذكرنا بعض ما نورده فيه من أنواع العلوم وفنون الأخبار، وقد يلحق الإنسان الملل بقراءة ما لا تهواه نفسه فينتقل منه إلى غيره، فجمعنا فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة إلى علمـه، ولما تغلغل بنا الكلام في نظمه وتشعبه واتصاله بغيره من المعاني مما لم يتقدم ذكره»[1].

* * *

(١) المصدر السابق ٢/٣٧٨.

سـادسـاً:

الخرافات والأساطير
وموقف المسعودي منها

لا يكاد قارىء كتاب مروج الذهب للمسعودي يمضي طويلاً في قراءته حتى تطالعه بين الفينة والأخرى أسطورة أو خرافة أو نادرة عجيبة أو غير ذلك مما يستطرف فتلتذ العين بقراءته وتشنف الأذن عند سماعه، ولكن مما ثبت عند البحث والتحقيق أن المسعودي لم يكن يهدف بالدرجة الأولى من إيراده لتلك الأشياء إثباتها على أنها حقائق مسلم بها، بل إنه في الغالب كان حريصاً على إبداء وجهات النظر حولها، وبيان الآراء التي توضحها وتكشف عن مدى واقعيتها أو عدمها، مع التركيز على بيان وجهة نظره الخاصة في كثير من الأحيان، ولا شك أنه قد فات على المسعودي الكثير من هذا القبيل من غير دراسة أو تمحيص أو إبداء لوجهة النظر مما يوحي بإيمانه وتصديقه بها بأي وجه من الوجوه.

وفيما يلي سنذكر مجملاً لآراء المسعودي في بعض الأحاديث الخرافية التي أوردها حاكياً لها عن رواتها، وخاصة فيما يتعلق بمسألتين أطنب فيهما، وهما:

(أ) الهواتف والجان.

(ب) النسناس وعنقاء مغرب.

هذا مع الإشارة إلى مسائل أخرى توضح هذا الجانب، ثم نذكِّر بطريقته أو منهجه الذي كان يعول عليه في قبول الأخبار أوردِّها، وفي النهاية نشير إلى نماذج من الأساطير والخرافات التي وردت عند المسعودي وفات عليه أن يناقشها

أو يعلق عليها. قال المسعودي: «وللناس كلام كثير في الغيلان والشياطين والمردة والجن والقطرب[1] والعُدار[2].. وهذا العدار يظهر في أكناف اليمن والتهائم وأعلى صعيد مصر، وأنه ربما يلحق الإنسان فينكحه فيتدود دبره فيموت، وربما يتراءى للإنسان فيذعره، فإذا أصاب الإنسان ذلك منه يقول أهل تلك النواحي التي سميناها: «أمنكوح هو أم مذعور؟» فإن كان منكوحاً يئس منه وإن كان مذعوراً سكن روعه وشجع بما ناله، وذلك أن الإنسان إذا عاين ذلك منه سقط مغشياً عليه، ومنهم من يظهر له ذلك فلا يكترث به لشهامة قلبه وشجاعة نفسه، وما ذكر مشهور في البلاد التي سمينا، ويمكن جميع ما قلنا مما حكيناه عمن ذكرنا من أهل هذه البقاع أن يكون ضرباً من السوانح الفاسدة والخواطر الردية أو غير ذلك من الآفات والأدواء المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم، والله أعلم بكيفية ذلك...»[3].

ومضى المسعودي في تشكيكه في حقيقة الهواتف والجان التي تعترض الناس في الصحارى والخلوات[4]، فقال: «ذكر فريق أن ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك إنما يعترض لها من قبل التوحد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامه المغولة والمروريات[5] الموحشة، لأن الإنسان إذا هو صار في مثل هذه الأماكن وتوحد تفكر وإذا هو تفكر وجل وجبن، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية السوداوية والفاسدة، فصورت له الأصوات ومثلت له الأشخاص وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذي الوسواس، وقطب ذلك وأسّه سوء التفكير وخروجه على نظام غير قوي أو طريق سليم، لأن

(١) القطرب، نوع من الجن على شكل هرة، راجع المروج ٢/٢٩٣.

(٢) العُدار، نوع من الأنواع المتشيطنة يعرف بهذا الاسم، المروج ٢/٢٩٣.

(٣) المروج ٢/٢٩٢.

(٤) الحديث هنا عن اعتراض الجان لا عن حقيقة وجودهم، لأن المسعودي بحكم إسلامه كان عارفاً ومؤمناً بالآيات القرآنية الواردة في بيان حقيقة وجودهم وتوضيح بعض تصرفاتهم. انظر مثلاً: المروج ١/٣٢، ٢/١٩٨، ٣٠٠، ٣٠٩.

(٥) جمع مروراه وهي الصحراء.

المتفرد في القفار والمتوحد في المروراة مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف واعتراض الجان له»[1].

ومع إبداء المسعودي لآرائه في هذا الموضوع فقد أشار إلى ما ذكره أهل الشرائع وما نقله أصحاب التواريخ والمصنفون لكتب المبتدأ كوهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما، من خلق الله تعالى للجان، وكيفية تناسلهم وأنواعهم وأنسابهم ومساكنهم من الأرض والبحار، وأبان عن وجهة نظر أهل البحث والنظر المستعملين لقضية العقل والفحص، وأنهم لا يقرون بذلك ويأبونه، وإزاء ما ذكر بين أن موقفه ـ كمصنف يهمه إيراد جميع ما قاله سائر الفرق في هذه المعاني ـ أنه كحاطب الليل الذي يجمع الأشياء ولا يهمه التمييز بينها[2]، وهذا الوصف الغريب وإن تمثل في المسعودي في بعض الأحوال ـ كما سيأتي ـ فإنه لا ينطبق عليه في حالات أخرى عديدة، بل نجده متشككاً في كثير من القضايا والمسائل التي أوردها ورأى فيها نوعاً من المبالغة أو رآها مجافية للعقل والواقع، وحاول أن يبدي فيها وجهة نظره الخاصة ورأيه الذي يميل إليه، ومن ذلك آراؤه الصريحة وتعليقاته المفيدة حول الروايات المتعلقة بالنسناس وعنقاء مغرب، قال: «ولم نعرض لذكر الأخبار عما لم يصح عندنا في العالم وجوده حساً ولا خبراً قاطعاً للعذر ولا دافعاً للريب ومزيلاً للشك كأخبار العامة في كون النسناس وأن وجوههم على نصف وجوه الناس وأنهم ذوو أنياب وأنهم يؤكلون، وأخبارهم عن عنقاء مغرب»[3]، وقال: «وقد غلب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده في الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية، فبعضهم يخبر عن وجودهم [كذا] بالشرق وبعضهم بالغرب، فأهل الشرق يذكرون أنها [كذا] في الغرب وأهل الغرب يذكرون أنها

---

(١) المروج ٢/٢٩٥ ـ ٢٩٦.
(٢) المصدر السابق ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤.
(٣) المروج ٢/٣٦٤.

في الشرق، وكذلك كل صقع من البلاد يشير سكانه إلى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونأى من الديار»[1].

ثم أورد المسعودي نماذج من الرويات والأخبار عن وجود النسناس وصيده في بلاد حضرموت، وعقب على ذلك ذاكراً أنه في أثناء زيارته لبلاد حضرموت وسواحلها واليمن وعمان وغيرها رأى أن أهل تلك الديار «يستطرفون أخبار النسناس إذا ما أخبروا بها ويتعجبون من وصفها ويتوهمون أن ذلك في بعض بقاع الأرض مما قد نأى عنهم وبعد كسماع غيرهم من البلاد بذلك عنهم»[2]، وأورد المسعودي الاستنتاج الذي خلص إليه من ذلك التناقض فقال: «وهذا يدل على عدم كونه في العالم وإنما ذلك من هوس العامة واختلاطها، كما وقع لهم في خبر عنقاء مغرب[3]، فرووا فيه حديثاً عزوه إلى ابن عباس»[4].

ولكن المسعودي تراجع قليلاً عن هذا الرأي الذي توصل إليه، وأفسح المجال للروايات الكثيرة المتداولة في هذا المعنى، مع الإشارة إلى شيء يقوي مركزه في هذا الموقف، وهو بيان منهجه في مثل هذه الأحوال المضطربة، قال:

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٦٥.

(٢) المصدر السابق ٢/٣٦٧.

(٣) خبر عنقاء مغرب رواه ابن عفير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله خلق طائراً في الزمان الأول من أحسن الطير وجعل فيه من كل حسن قسطاً وخلق وجهه على مثال وجوه الناس، وكان في أجنحته من كل لون حسن من الريش، وخلق له أربعة أجنحة من كل جانب منه، وخلق له يدين فيهما مخالب، وله منقار على صفة منقار العقاب غليظ الأصل، وخلق له أنثى على مثاله وسماها بالعنقاء، وأوحى الله إلى موسى بن عمران: إني خلقت طائراً عجيباً خلقته ذكراً وأنثى وجعلت رزقه في وحوش بيت المقدس وآنستك بهما ليكونا مما فضلت به على بني إسرائيل، فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما. . وانتقل ذلك الطائر فوقع بنجد والحجاز في بلاد قيس عيلان فلم يزل هنالك يأكل من الوحوش ويأكل الصبيان وغير ذلك من البهائم إلى أن ظهر نبي من بني عبس بين عيسى ومحمد يقال له خالد بن سنان فشكا إليه الناس ما كانت العنقاء تفعل بالصبيان، فدعا الله عليهما أن يقطع نسلها، فقطع الله نسلها، فبقيت صورتها تحكى في البسط وغيرها. انظر: المروج ٢/٣٦٨ ــ ٣٦٩، ولا شك أن هذا الخبر المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الإسرائيليات التي تتناقلها العامة، كما أوضح المسعودي ذلك.

(٤) المروج ٢/٣٦٧.

«ونحن لم نحل وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل فإن ذلك غير ممتنع في القدرة لكن أحلنا ذلك لأن الخبر القاطع للعذر لم يرد بوجوده في العالم، وهذا باب داخل في حيز الممكن الجائز، خارج عن باب الممتنع والواجب»[1].

وذهب يسرد عدداً من الروايات في هذا الباب متخلياً عن دوره في النقد والتمحيص، ومشيراً إلى أنه ليس له في ذلك إلا النقل وأن يعزوه «إلى راويه وهو المتقلد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه»[2]، ولكن المسعودي في غمار تلك الروايات أشار إلى نقطة هامة في الموضوع، وهي «أن مخرج هذه الأخبار كلها عن ابن عفير»[3]، وذكر بعض الروايات مقرونة بكلمة (زعم)[4]، مما يدل على استمرار تشككه في تلك الروايات.

وفي نهاية حديث المسعودي عن تلك الأخبار والروايات الغريبة المتعلقة بالنسناس والعنقاء عاد إلى التذكير بمنهجه والتأكيد على الاستناد عليه في قبول الأخبار أو ردها، ثم قال: «وهذا النوع من الأخبار قد قدمنا أنها في حيز الجائز

---

(١) المروج ٢/٣٦٧، وقد ذكر المسعودي هنا احتمالاً غريباً في حقيقة النسناس والعنقاء ظهر فيه تأثره الواضح بالفلسفة الإغريقية الكافرة التي تعزو الخلق والإيجاد إلى الطبيعة، وقال المسعودي: «ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النادر ذكرها كالنسناس والعنقاء والعرابد وما اتصل بهذا المعنى أن تكون أنواعاً من الحيوان أخرجتها الطبيعة من القوة إلى الفعل فلم تحكمه ولم يتأت فيه الصنع كتأتيه في غيره من أنواع الحيوان فبقي شاذاً فريداً متوحشاً نادراً في العالم طالباً للبقاع النائية من البر مبايناً لسائر أنواع الحيوان من الناطقين وغيرهم للضدية التي فيه لغيره مما قد أحكمته الطبيعة وعدم المشاكلة والمناسبة التي بينه وبين غيره من أجناس الحيوان وأنواعه» وانظر في هذا الموضوع وهو تأثر المسعودي بالفلسفة الإغريقية، المروج ٢/٢٩٠، ٣٢٣.

(٢) المروج ٢/٣٦٨.

(٣) هو أسد بن سعيد بن كثير بن عفير، أبو الحارث، روى عن أجداده وعن عبدالله بن وهب والشافعي، (ت سنة ٢٦٠هـ) ولم أعثر على ترجمة وافية له فيما راجعت من كتب التراجم والرجال لمعرفة مدى عدالته وصدقه في رواياته، ولكن المسعودي يلقي عليه بعض الأضواء قائلاً إنه قد رويت عنه أخبار كثيرة في هذا المعنى وأشباهه من فنون الأخبار من أخبار بني إسرائيل وغيرها، المروج ٢/٣٧٠؛ وانظر أيضاً ٦/١٤٦.

(٤) المروج ٢/٣٦٤، ٣٦٦.

الممكن الذي ليس بواجب ولا ممتنع، وهي لاحقة بـالإسرائيليات من الأخبار، والأخبار عن عجائب البحار»[1].

ومن نماذج الأخبار الغريبة التي شكك المسعودي في صحتها واستنكرها ما روي عن سبب تسمية ذي الأذعار[2] حيث أنه قد قيل في ذلك «خبر تأباه العقول وتنكر النفوس كون مثله في العالم، ويجوز أن يكون ذلك في المقدور، وأنه إنما سمي ذا الأذعار لأنه وصل إلى قوم في أقاصي مفاوز اليمن وأرض حضرموت مشوهي الخلق عجيبي الصور وجوههم في صدورهم، فلما رأى أهل اليمن ذلك أذعرهم ما شاهدوا وجزعت نفوسهم فسمي ذا الأذعار، وقيل غير ذلك، والله أعلم بكيفيته»[3].

ومنها قـول الفرس في التنين وأن له رؤوساً سبعة، وتضرب به المثل في أخبارها، وعلق المسعودي على ذلك قائلاً: والله أعلم بكيفية ما ذكر، ولكن الأخبار في هذه المعاني تأباها كثير من النفوس ولا تقبلها كثير من العقول[4].

ومنها ما يروى عن عمران بن جابر الذي صعد النيل فأدرك غايته وعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها، وهي دابة البحر التي تحاول ابتلاع قرص الشمس، ورأى ذلك الرجل في رحلته هذه انحدار النيل من قصور الذهب من الجنة، وعلق المسعودي على هذا بقوله: إن هذا من خرافات حشوية أصحاب الحديث[5].

ومنها ما يروى في سبب المد والجزر، وهو أن الملك الموكل بالبحار يضع عقبة في أقصى بحر الصين فيغور البحر فيكون منه المد، ثم يشيل عقبه من

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٧٢.

(٢) هو ياسر ينعم بن يعفر بن عمرو (ذي الأذعار) أحد ملوك اليمن الحميريين.

(٣) المروج ٢/٢٠٩.

(٤) المصدر السابق ١/١٤٤.

(٥) المصدر السابق ١ك١٤٤.

البحر فيرجع الماء إلى مركزه ويطلب قعره وأنه الجزر. . ورأى المسعودي في هذا الخبر وغيره مما سبق أنه تأباه كثير من النفوس ولا تقبله كثير من العقول[1].

كما أبدى المسعودي شكه في كثير من الأخبار المروية عن كعب الأحبار وعبيد بن شرية فقال: «وقد ذهب كثير من الناس ممن له معرفة بأخبارهم إلى أن هذه الأخبار موضوعة مزخرفة مصنوعة نظمها من تقرب إلى الملوك بروايتها وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية وسبيل تأليفها ما ذكرنا، مثل كتاب هزار أفسانه، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية: ألف خرافة»[2].

ومع جرأة المسعودي في إبداء الرأي وإصدار الأحكام نلاحظ دوماً أنه لا يمضي قدماً في ذلك ويجزم به، بل كثيراً ما يشير إلى أن عدم توفر الدلائل على صحة تلك الأخبار من الأسباب الحائلة دون قبولها، وينبه إلى منهجه وعبارته المألوفة في مثل هذه المواقف «وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ولا واجب وهو داخل في حيز الممكن والجائز، لأن طريقه في النقل طريق الأفراد والآحاد ولم يرد مجيء التواتر من المخبرين والاستفاضة من الأخبار الموجبة للعلم والعمل، القاطعة للعذر في النقل، فإن قارنتها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها والانقياد إلى ما أوجب الله علينا من أخبار الشريعة والعمل بها بقوله عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[3]، فإن لم يصح ما ذكرناه فقد وصفنا آنفاً ما ذكره الناس في ذلك، وإنما ذكرنا هذا ليعلم من قرأ هذا الكتاب أنا قد اجتهدنا فيما أوردنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ولم يعزب عنا فهم ما قاله الناس في سائر ما ذكرنا، وبالله التوفيق»[4].

وهكذا يتجلى لنا من آراء المسعودي وانتقاداته السالفة أنه لم يكن يهدف

---

(١) المصدر السابق ١/١٤٥.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٠٦.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) المروج ١/١٤٥.

من إيراده بعض الخرافات والأساطير في كتبه إلى إشباع فضول القارىء وتطرية نفسه بقدر ما يهمه بيان زيف تلك الخرافات وتهافتها، وأن ما أورده لم يكن على غرار ما ورد في بعض مصنفات العجائب والغرائب الموغلة في الأسطورة والخيال التي يهدف منها بدرجة كبيرة إلى إشباع فضول القراء في هذه النواحي، مثل كتاب عجائب المخلوقات للقزويني، وكتاب خريدة العجائب لابن الوردي أو غيرهما.

ومع كل ما ذكر من اهتمام المسعودي بنقد الخرافات والأساطير والتعليق عليها فقد مر على بعضها من غير تعليق، وقص شيئاً منها في كتبه بأسلوب يوحي باعتقاده بها، وأحياناً تستهويه القصص والحكايات الواردة على ألسنة الكهان فيمضي في سردها ويغفل عن إبداء وجهة نظره نحوها، وقد عرضه هذا الإغفال لنقد قاس من بعض العلماء الذين اقتفوا أثره ودرسوا مصنفاته.

ومن نماذج الأخبار الغريبة التي فاتت على المسعودي خبر طريف أورده عن أمة يقال لها إرم في نطاق جبل القوقاز، وهو «أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولاً، وخبر هذه السمكة مستفيض في تلك الديار من الكفار»[1].

وما ذكره عن الغاصة الذين يبحثون عن اللؤلؤ في أعماق البحار من أنهم يشقون أصول آذانهم لخروج النفس من هنالك بدلاً من المنخرين[2]، وما أورده عن البحارة وأرباب المراكب ما يحدث لهم في بحر الصين من ظهور أشباح وأشخاص غريبة تصعد على المراكب، وأن ذلك يكون علامة على نزول الشدائد واشتداد العواصف وكثرة الأمواج، وأنهم يرون شيئاً على صورة الطائر يتوقد ناراً لا يستطيع أحد النظر إليه ولا إدراكه كيف هو، وأنه علامة على الهدوء والسكون[3].

(١) المروج ١/٢٣١.
(٢) المصدر السابق ١/١٧٦.
(٣) المصدر السابق ١/١٨٣ ـ ١٨٤.

هذا وقد دافع عن المسعودي بعض الباحثين المحدثين والتمسوا له العذر في إيراد بعض الخرافات والأخبار الغريبة، ومن هؤلاء الدكتور جواد علي الذي قال: «إننا يجب أن نتذكر أنه كان قد عاش قبلنا بأكثر من ألف عام، وأن الناس في أيامه كانوا يعتقدون بها ولا يرون أنها مجافية للعقل، وأن الإنسان لا يمكن أن يجرد نفسه من معتقدات وآراء محيطه تجرداً تاماً، وأنه لا بد وأن يتأثر بروح زمانه،° وأن غيره مثل الطبري رووا ما رواه وذكروا نوع ما ذكره، فلم يكن هو إذاً بدعاً ووحيد زمانه في هذه الأمور»[1].

وعلى أي حال فإن مجرد مناقشات المسعودي وإظهاره لعدم الرضا والقبول وإثارته للشكوك في كثير من تلك الروايات الغريبة أو الخرافات والأساطير تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنه استطاع الانفكاك من تأثيرها والخروج من دائرتها وفلكها، وأصبح حراً في تفكيره قادراً على الارتقاء بمستوى كتابته إلى المستوى العلمي الصحيح.

* * *

(١) «موارد تاريخ المسعودي» مجلة سومر: العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، بغداد ١٩٦٤م، ص ٨.

سابعاً:

صفات المؤرخ في المسعودي

سبق وأن تعرضنا في فصلٍ سابقٍ لبيان علم التاريخ أو الأخبار وفضله ـ في نظر المسعودي ـ وبيان من هو الإنسان الجدير بحمل هذه الصفة[1]، ومن المناسب في هذا المقام أن نشير إلى بعض الصفات الضرورية للمؤرخ والتي يشترط لمن يتصدى لكتابة التاريخ أن تكون موجودة فيه، ومن أهمها[2]:

- أن يكون محباً للدرس جلداً صبوراً..
- أن يكون أميناً شجاعاً مخلصاً..
- أن تتوفر له ملكة النقد..
- أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور..
- أن يكون ذا عقل واع مرتب منظم..
- عدم التحيز..
- أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال بالقدر المطلوب.

وسنرى فيما يأتي أن كثيراً من هذه الصفات إن لم نقل أجمعها بل وزيادة عليها متمثلة في المسعودي[3].

---

(١) انظر: ص٣٠٧.

(٢) انظر في بيان هذه الصفات وشرحها حسن عثمان منهج البحث التاريخي، ص١٨ وما بعدها.

(٣) قد يكون من الصعب في الحقيقة أن نطبق هذه الصفات على مؤرخ قديم عاش في القرن الرابع الهجري مثلاً، لأنها وضعت كضوابط أو مواصفات لمن يتصدى لكتابة التاريخ في العصر الحديث، ولكن ما دفعنا إلى تطبيقها في جانب المسعودي هو تمثل أكثرها أو جلها فيه.

فمن أولى الصفات التي يلحظها الدارس باستمرار بل في كل جزئية أو فقرة مما كتبه المسعودي صفة الموسوعية، فالمسعودي عالم موسوعي بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أي أنه لم يقصر نفسه على مادة التاريخ فحسب ولم يتعدها إلى غيرها، بل إنه درس وقرأ عن كل ما كان موجوداً في عصره من العلوم، وأخذ من كل فن بطرف، وإن نظرة سريعة إلى أسماء مصنفاته وموضوعاتها أو إلى محتويات بعضها لتبين مدى شمول وتنوع مادته وتبين كذلك تنوع جوانب ثقافته(١)، ومن غير دخول في التفصيلات الدقيقة وإيراد للأمثلة الكثيرة التي توضح هذا الجانب وتؤكده لدى المسعودي نقول: إنه إلى جانب العلم الأول ــ وهو التاريخ ــ الذي أوقف نفسه لدراسته وتحصيله وكرر الكتابة فيه في مختلف مصنفاته حتى تمكن منه وظهرت براعته فيه وأصبحت لديه قدرة فائقة على عرض المعلومات وصياغتها صياغة تناسب المقام الذي يتحدث فيه ــ إلى جانب ذلك يبرز لنا المسعودي النسابة ذو الدراية والمعرفة القوية بأنساب العرب وأصولها وأروماتها الأولى التي منها تتفرع أو إليها تعود، ولم يؤثر في معرفته حدوث بعض التشابه في الأسماء أو التداخل فيها، فكان دقيق الملاحظة(٢). ويبدو أن علم المسعودي بالأنساب العربية جره إلى بحث وتتبع أنساب الأمم الأخرى غير العربية، من الفرس(٣). واليونانيين(٤) والروم(٥)، والسودان(٦)، وغيرهم.

ونرى المسعودي الجغرافي المبرز في أبحاثه الجغرافية(٧). والمسعودي الفقيه

---

(١) انظر مثلاً: التنبيه، ص٢ ــ ٦ وص١٨٢ ــ ١٨٨؛ والفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) التنبيه، ص٢٥٥؛ وانظر أيضاً، ص٢٦٠ ــ ٢٦٤، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٦.
والمروج، ١/٢٣٩، ٢/١٩٢ ــ ١٩٥، ٣/٤٠ ــ ٤٢.

(٣) عقد المسعودي في المروج باباً خاصاً لبحث أنساب فارس وما قاله الناس فيها، المروج، ١/٢٧٨ ــ ٢٨٤.

(٤) المروج، ٢/٥ ــ ٨.

(٥) المصدر السابق، ٢/٣٢ ــ ٣٣.

(٦) المصدر السابق، ٢/١١٠.

(٧) إن مراجعة بسيطة لأبواب المروج والتنبيه لتكشف للناظر فيهما عمق جهود المسعودي في مجال الجغرافيا، وانظر في توضيح ذلك، ص٢٦٢، وما بعدها.

صاحب المصنفات العديدة في الفقه وأصوله[1]. والمسعودي المضطلع بعلم الأديان والعقائد والملل والفرق وما يتعلق بهذه الأمور من مسائل الإمامة وغيرها[2]، وهو ذو الباع الطويلة والعلم الغزير في اللغة العربية وآدابها من شعر ونثر[3]، وفي الكتب وأنواع التصانيف منذ أقدم العصور حتى عصره[4].

وفي علم المنطق والفلسفة ورجالها المبرزين فيها[5]، وفي الفلك والنجوم[6]، وفي الطب[7]، وعلم الكيمياء[8]، والأحجار الكريمة ومعرفة أنواع الجواهر[9].

وكان المسعودي أيضاً عالماً بالحيوان على اختلاف أجناسه وخصائصه[10]، وذا معرفة واطلاع على ما ألف وكتب عن الموسيقى والغناء والعشق وما يتصل بهذه الأمور[11].

وهكذا يلاحظ الباحث في مصنفات المسعودي مدى سعة مداركه واهتماماته المتنوعة، ويلاحظ في أسلوب عرضه لبعض القضايا التي ذكرها بإيجاز

---

(١) يظهر من استعراض مصنفات المسعودي المفقودة أن له أربعة كتب على الأقل كلها تبحث في الفقه والأحكام والأصول، انظر كتبه ذوات الأرقام ١٧ ـ ٢٠، في الفصل الثاني من هذا البحث، والمروج ٢/٣٤٧ ـ ٣٤٩، ٣/١٩.

(٢) راجع مؤلفاته في هذا المجال في الفصل الثاني تحت الأرقام ١٢، ١٦، ٢١ ـ ٢٢.

(٣) انظر: المروج مثلاً: ٢/٧٧؛ وما سبقت الإشارة إليه في الفصل الرابع عن هذا الموضوع، ص٢٥٢ وما يليها.

(٤) راجع جريدة أسماء المؤلفات الواردة في كتاب المروج في ٦/٧٠ ـ ٧٥.

(٥) انظر مثلاً: التنبيه، ص١١٥ ـ ١٢٢.

(٦) انظر، ص٢٢٩ وما يليها.

(٧) المروج، ٢/١٣٧ ـ ١٣٨، ٣٥٤ ـ ٣٥٦، ٣٧٣.

(٨) المصدر السابق، ٢/٩١ ـ ٩٢.

(٩) المصدر السابق، ٢/١٠٧ ـ ١٠٨، ١٣٢ ـ ١٣٥، على أن المسعودي أخبر أنه قد أتى على مبسوط أخبار الجواهر الشفافة وغيرها ووصف معادنها على الشرح والإيضاح في كتاب أخبار الزمان، انظر: المروج، ٢/١٣٤.

(١٠) المروج، ٢/١١٠ وما بعدها، ٣٧٠ ـ ٣٧١، ٤/٥٥ ـ ٥٧، ٥/٢٣٧ ـ ٢٤١.

(١١) المصدر السابق، ٢/٤٦ ـ ٤٧، ٤/٢٣٦ وما بعدها.

أن لديه كثيراً من المعلومات والتفصيلات الدقيقة الإضافية، وأنه لولا ما ألزم به نفسه في مؤلفيه الباقين من الاختصار وعدم التفصيل لأنهما كتابا خبر لا كتابا بحث ونظر تستقصى فيه الأدلة ويستوفى فيه الحجاج لخرج عن حد الإيجاز والاختصار وأورد معلومات كاملة مستوفاة من جميع الجوانب في كل موضوع تناوله.

ومن الصفات المطبوعة في المسعودي صفة حب الاستطلاع والاستفسار، ولإشباع هذه الرغبة كان عليه أن يشد الرحال متيمماً أقطار البلاد الواسعة مردداً مع الشاعر العربي قوله[1]:

تيمَّمَ أقطارَ البلاد فتارةً	لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغربِ
سُرى الشمس لا يَنفكُّ تَقذِفُه النَّوى	إلى أُفُقٍ ناءٍ يُقَصِّر بالركبِ

وخلال ذلك كانت تعقد لقاءات ومناظرات مع علماء، وتتم استفسارات عن بعض الأشياء، وتكون استقراءات لبعض الظواهر والأحداث، وتشاهد معالم على طبيعتها، وتقرأ كتب في أماكن حفظها. وترتب على وجود هذه الصفة وجود صفة أخرى من الصفات المطلوبة في المؤرخ، وهي حب العلم والاتصاف بالتجلد والصبر والأناة، فقد زاد شغفه بالعلم ورجاله منذ أن ترك موطنه الأول بغداد، ورأى أنه في رحلاته يحصل في كل يوم على شيء جديد، وأكسبته هذه الرحلات الجلد والصبر على الأهوال والأخطار التي تحيط به من كل جانب، فكان الصبر والمعاناة سبيلاً للوصول إلى الأهداف المرجوة، واكتسب الأناة وعدم المبادرة في إطلاق الأحكام حتى تتضح الرؤى وتظهر الدلائل والعلامات أو تبرز الحقائق على وجوهها[2].

ومن صفات المؤرخ في المسعودي نجد أنه كان ذا عقلية واعية متفتحة يميز

---

(١) المصدر السابق، ١/١١.

(٢) انظر مثلاً: كيف كان يسأل ويتحقق من بعض المعلومات التي أنكر على الجاحظ إيرادها في بعض كتبه، المروج، ١/٢٠٥، ولم يورد المسعودي رأيه إلا بعد أن سأل أهل الخبرة وظهر له وجه الصواب فيما أراد.

بها بين الحقائق التاريخية وينظر ببصيرة فيها يدور حوله، فقد استطاع أن يستوعب علوم الأمم القديمة من الهنود والاغريق وأن يناقش ما فيها من مسائل وقضايا يرى أنها تستحق المناقشة أو النقد، وقام بعرض كثير من محتوياتها بأسلوبه الخاص الواضح المتميز وأبدى فيها آراءه التي يؤمن بها ويميل إليها(١).

ويلاحظ فيه من الصفات التواضع وعدم ادعاء المعرفة بكل شيء على الرغم من موسوعيته التي أشرنا إليها، فإذا التبس عليه أمر من الأمور لم يجد حرجاً من أن يقول مثلاً ــ وهو يتحدث عن منصب خاقان الخزر ــ: «فلست أدري أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث»(٢)، أو أن يقول ــ وهو يتحدث عن إحدى الأمم الصغيرة ــ: «لا أعلم ملتها ولا نمى إلي خبرها في دينها»(٣). أو أن يقول ــ وهو بصدد الحديث عن تعداد وتقسيم تلاميذ المسيح ،عليه السلام ــ: «ولا أدري ما معناهم في ذلك»(٤)، لأنه مدرك أن الإنسان مهما أوتي من علم فلن يبلغ بعلمه كل شيء لأن ذلك لله وحده، ومدرك أيضاً أن الجهد البشري معرض للنقص والإغفال فلذلك نراه يلتمس العذر في مواطن من كتبه لما قد يعرض له من سهو الإنسانية وعجز البشرية أو غير ذلك(٥).

وتوفر ملكة النقد لدى المؤرخ أمر ضروري للغاية، إذ أنه بدون ذلك لا يستطيع أن يميز بين الصحيح وغيره ولا يستطيع الحكم على ما بين يديه، وقد كان للمسعودي من هذه الصفة حظ كبير. فمع دقة ملاحظته(٦) وحرية فكره

(١) المروج، ١/٨٤ ــ ٨٨، ٢/٣٥٤ ــ ٣٥٩.
(٢) المصدر السابق، ١/٢١٥، وانظر أيضاً، ٢٢١.
(٣) المصدر السابق، ١/٢٣١.
(٤) المصدر السابق، ٢/٣٧.
(٥) المصدر السابق، ٥/٣٠٢.
(٦) من الأمثلة والشواهد على دقة ملاحظة المسعودي وصفه للزلزلة التي حدثت في شهر رمضان سنة ٣٤٤هـ وهو بفسطاط مصر، راجع التنبيه، ص٤٨ ــ ٤٩، ووصفه كذلك للبحيرة المنتنة (البحر الميت) وبيان خصائصها وميزاتها، التنبيه، ص٧٣ ــ ٧٥.

التي استطاع من خلالها أن يتخطى بعض الحواجز ويعالج تاريخ وديانات شعوب وأمم مختلفة أكثرها لا يدين بالإسلام كانت النظرة النقدية والتحليلية متمثلة في كل حين وكان قادراً على الموازنة والمعارضة وإصدار الأحكام.

ومن الصفات الأساسية للمؤرخ والتي تلاحظ بوضوح لدى المسعودي الأمانة العلمية؛ فقد كان أميناً في التنبيه على مصادره التي اطلع عليها في مقدمة كتابه المروج وفي ثناياه، أميناً في عزو الأقوال إلى أصحابها[1]، وفي استخدام التعبيرات والمصطلحات أو المسميات الخاصة بأهل كل قطر أو ناحية في أثناء حديثه عنهم أو عن الأشياء التي تتعلق بهم «وإنما نعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم»[2]، «وإنما نخبر عن عبارة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم»[3]، وفي استخدام الألفاظ نفسها «فعبرنا عنهم على حسب ما نقل إلينا من ألفاظهم ووجدناه في كتبهم»[4]، وفي إشارته إلى ما سبق في الحديث عنه[5]، ومن مظاهر أمانته تبيينه أنه قد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر في فكرة من الفكر ولكن ذلك عن غير قصد أو معرفة سابقة[6].

ولكن الأمانة الحقيقية تتمثل في تسجيل الأحداث كما هي وإبراز الحقائق على وجهها من غير مبالغة أو تزييف أو تحيز[7].

ومن مزايا المسعودي أنه كان ذا حس تاريخي مرهف، وأنه يتمتع بكثير من الصفات التي أضفت على كتابته التاريخية مسحة علمية وأصالة وعمقاً.

* * *

---

(١) المروج، ٢/٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٢) المصدر السابق، ١/١٧٧.
(٣) المصدر السابق، ١/١٨٣، وانظر أيضاً، ١٨٤.
(٤) المصدر السابق، ١/٣٥، وانظر أيضاً، ٢/٣٥٩.
(٥) المصدر السابق، ٤/١٤٤، حيث قال بعد أن أنهى الحديث عن بعض مذاهب وفرق الخرمية «... وإن كان قد سبقنا إلى ذلك مؤلفو الكتب في المقالات».
(٦) التنبيه، ص٧٦.
(٧) راجع الفقرتين: الأولى والثانية من هذا الفصل.

ـ هل كان المسعودي يعرف شيئاً من اللغات غير العربية؟

للإجابة على هذا السؤال قمت بحصر عام لأكثر ما ورد في كتابـي المروج والتنبيه من إشارات وتفسيرات وشروح من اللغات الأخرى غير العربية إليها في محاولة للوصول إلى بعض الدلائل الموضحة لهذا الأمر. وكان مما أثار انتباهي لهذا الموضوع ما وجدته لدى بعض الباحثين من إشارات تدل على أن المسعودي قد تعلم كثيراً من اللغات العالمية المعروفة في عصره، مثل الفارسية والهندية واليونانية والرومية والسريانية[1].

ويبدو لي أن مفهوم المعرفة اللغوية مفهوم نسبـي يختلف من شخص لآخر ومن حالة لأخرى، فقد تكون المعرفة بحدود عدد معين من الكلمات أو بعض المبادىء الأولية، وقد تكون معرفة عامة باللغة قراءة وكتابة وتحدثاً، وبهذا المفهوم الأخير لا نستطيع أن نجزم بمعرفة المسعودي لأي من اللغات المذكورة سابقاً، لكن من المرجح أن معرفته ببعضها كالفارسية كان قوياً، وذلك بدليل كثرة ترجمته للألفاظ الفارسية إلى العربية[2]، وتفسيره لبعض المصطلحات أو القواعد اللغوية الفارسية وما يناظرها في اللغة العربية[3]، وقد يكون غرامه بتتبع التاريخ الفارسي وتوسعه في دراسته قد أثرى مادته اللغوية، كما يلاحظ أن اختلاط المسلمين من العرب والفرس قد أوجد تلاقحاً لفظياً بين اللغتين ودخلت مواد كثيرة ومؤثرات مشتركة جديدة في مواد وتركيب كل منهما، وهذا من غير شك مما ساعد على سهولة تعلم اللغة الفارسية ولا سيما لشخص كالمسعودي.

---

(١) انظر مقدمة الأستاذ الصاوي لكتاب التنبيه والإشراف بتحقيقه، الطبعة الأولى، سنة ١٩٣٨م، صفحة ج، والأستاذ د. الخربوطلي في كتابه (المسعودي) ص٢٤، وفي بحثه (الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي)، مجلة كلية العلوم الاجتماعية الرياض، العدد السابع، ص١٩، وذهب إلى ذلك أيضاً الأستاذ هادي حمود في رسالته (منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية) ص١٥.

(٢) انظر على سبيل المثال المروج، ١/٢٣١، ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ٢٨٧ ـ ٢٨٨، ٢٩٢، ٣٠٥، ٣١٥، ٢/١١١، ٢٥٠، ٣٤٣، ٥/٢٦٢؛ والتنبيه، ص٣٣ ـ ٤٠، ٨٥ ـ ٨٦، ٩١ ـ ٩٥.

(٣) المروج، ١/٢٤٣، ٢/٣٣٨، ٣٩٩، ٤٠٦؛ والتنبيه، ص٩١، ١٠٣ ـ ١٠٤.

أما اللغة اليونانية القديمة فمن المؤكد أنه كان لا يعرفها، وذلك من خلال إشارة له أوردها وهو يتحدث عن خريطة جغرافية البحار المصورة في كتاب جغرافيا لبطليموس قال فيها: «إلا أن أسماءها في هذا الكتاب باليونانية يتعذر فهمها»[1].

وكذا الحال بالنسبة للغة السريانية، فقد لجأ المسعودي إلى شخص يدعى مالك بن عقبون ليترجم له سطوراً مكتوبة بهذه اللغة رآها حينما كان زائراً لمدينة حران[2]، مما يؤكد لنا عدم معرفته بها.

ويبدو أن معرفته بإحدى اللغات المستخدمة في الهند كان ضئيلاً على الرغم من زيارته التي قام بها للهند واستمرت وقتاً غير قصير، إلا أنه يظهر أن احتكاكه بالطوائف الإسلامية التي تتحدث العربية هناك جعل بضاعته من هذه اللغة تبدو هزيلة لا تتعدى المعرفة البسيطة ببعض الكلمات[3].

أما حصيلته من اللغة الرومية التي أشار إلى أنها امتداد للغة اليونانية[4]، فيبدو أنها كانت حصيلة طيبة، وذلك بدليل تفسيراته العديدة وترجماته لكثير من الأسماء والمصطلحات الرومية[5]، وإيراده للمرادفات من الأسماء بهذه اللغة[6]، ولزياراته المتكررة لمناطق الثغور الإسلامية المتاخمة للروم التي يكثر فيها الاحتكاك وتبادل الأسرى بين المسلمين والروم، وأيضاً لوجود أعداد كبيرة بين ظهراني المسلمين ممن يتكلمون بهذه اللغة في كل من مصر والشام بحكم الديانة والخضوع السابق للدولة البيزنطية، ولا ننسى أيضاً الإشارة إلى دراسة المسعودي

---

(١) المروج، ١/١٠٢.
(٢) المصدر السابق، ٢/٣٩٣.
(٣) المروج، ١/٨٥، ٨٩ ـ ٩٠، ٩٣، ٢٤٨.
(٤) التنبيه، ص٩٢.
(٥) المروج، ٢/٣٣، ٣٩، ٤٢، ٤٨؛ والتنبيه، ص٩٢، ١٦٨، ١٧١، ١٧٧ ـ ١٨٠.
(٦) المروج، ١/٧٣، ٣١٥؛ والتنبيه، ١٤٥، ١٦٣.

المسهبة للتاريخ البيزنطي التي كانت دافعاً قوياً له إلى مباحثة علماء النصارى والاطلاع على المزيد من كتبهم للحصول على مادة علمية صحيحة، وهذا من غير شك مما يرجح إلمامه ولو جزئياً بهذه اللغة[1].

* * *

(١) أثبت شارل بلا في طبعته المحققة لكتاب المروج صورة لحروف كلمة بالرومية، وقد علق عليها بقوله: «يظهر من بعض المخطوطات أن المسعودي كان كتب هنا اسم هلاني [والدة الامبراطور البيزنطي قسطنطين الأكبر] بالحروف الاغريقية ثم شوهته النساخ حتى حذفوه تماماً».
المروج، ٢/٤٢؛ والحاشية رقم ٣.

ثامناً:

المسعودي في نظر بعض العلماء المسلمين

قبل اختتام هذا الفصل يحسن أن نستعرض آراء بعض العلماء المسلمين في المسعودي، لنرى من خلال ذلك وجهات النظر التي تدور حول هذا الرجل، ولنلقي المزيد من الضوء على مدى عدالته ونزاهته وصدقه، ومدى التزامه بمنهج علماء الإسلام في معالجة تاريخ السلف الصالح من رجال هذه الأمة، ولكي نتعرف على منزلته ومكانته كأحد المؤرخين المسلمين المبرزين في كتابة التاريخ.

ففي الترجمة الموجزة التي ساقها ابن النديم للمسعودي، والتي هي في الواقع من أقدم التراجم المدونة عنه، لا نجد أي حكم سواء أكان له أم عليه، بل اكتفى المصنف بسرد ما عرفه من مؤلفات المسعودي، سيراً على منهجه في سائر كتابه[1].

ومن الإشارات القديمة الواضحة التي تكشف عن طبيعة المسعودي ومنهجه في معالجة تاريخ صدر الإسلام وبخاصة تاريخ الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، ما ذكره القاضي أبو بكر ابن العربي[2]، في كتابه العواصم

(١) الفهرست، ص٢١٩ ــ ٢٢٠.

(٢) محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري، أبو بكر، ولد في اشبيلية سنة ٤٦٨هـ، قاض من حفاظ الحديث، كانت وفاته قرب فاس سنة ٥٤٣هـ، من أهم مصنفاته: عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، أحكام القرآن، القبس، الانصاف في مسائل الخلاف، المحصول.
انظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/٢٩٦ ــ ٢٩٧؛ وانظر ترجمته في مقدمة الجزء الذي حققه محب الدين الخطيب من كتاب العواصم من القواصم، ص١٠ ــ ٣٠.

من القواصم. . من أن المسعودي مبتدع محتال، وأنه يأتي منه متاخمة الإلحاد فيما روى من خروج مقاصد الصحابة من الدين إلى الدنيا ومن الحق إلى الهوى، وأن بدعته لا شك فيها[1]، وهذا الحكم على المسعودي منبثق كما هو واضح من واقع ما دونه المسعودي في تاريخه عن بعض الصحابة الأجلاء من معلومات لا تليق بمقامهم، كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك فيما مضى من هذا الفصل[2].

وعلى الرغم من الكتابة المفصلة نسبياً التي قدمها ياقوت الحموي عن المسعودي إلا أنه لم يذكر شيئاً ذا بال فيما يتعلق بتقويمه والحكم عليه[3].

أما ابن تيمية فقد ذكر بإيجاز حكماً عاماً على تاريخ المسعودي، حيث صرح بأنه يحتوي على أكاذيب لا يحصيها إلا الله تعالى[4].

واكتفى الذهبي بالإشارة إلى أنه كان إخبارياً صاحب ملح وغرائب وعجائب وفنون، وأنه كان معتزلياً[5].

وحين ترجم ابن شاكر الكتبي للمسعودي في كتابه فوات الوفيات مستدركاً على ابن خلكان[6]، ردد ما قاله عنه الذهبي، بالإضافة إلى ذكر شيء من مصنفاته[7].

أما تاج الدين السبكي فقد قال عنه: أنه كان إخبارياً مفتياً علامة صاحب

(١) العواصم من القواصم، ص١٩٢.
(٢) انظر، ص ٣٩٧ ــ ٣٩٨.
(٣) معجم الأدباء، ١٣/ ٩٠ ــ ٩٤.
(٤) منهاج السنة، ٢/ ١٦٣.
(٥) سير أعلام النبلاء، ١٥/ ٥٦٩.
(٦) الغريب أن ابن خلكان لم يترجم للمسعودي مع أنه كان أحد مصادره التي اعتمد عليها في مواضع من كتابه، انظر وفيات الأعيان، ٢/ ٢٩، ٣٩٠، ٣/ ٢٦، ٢٢٩، ٣٦٨، ٤٧٦، ٤/ ٢٦٧، ٣٢٣ ــ ٣٢٤، ٣٤٩، ٣٥٩، ٥/ ٣٠٩، ٦/ ٣٠، ١٠٩، ١٥٥، ١٩٩، ٢٢٠، ٣٣٧، ٧/ ٥٧.
(٧) فوات الوفيات، ٣/ ١٢ ــ ١٣.

ملح وغرائب، وأشار إلى الرأي القائل بأنه معتزلي العقيدة[1]، وهو بهذا يتابع الذهبي أو ينقل منه.

وجاء بعد هؤلاء العلامة ابن خلدون فنظر إلى المسعودي[2]، ومصنفاته نظرة اختلف فيها عن العلماء الذين سبقوه، والذين كانوا يركزون على بيان مذهبه وتأثير ذلك المذهب على كتاباته في التاريخ الإسلامي بشكل خاص فتجاوز ابن خلدون ذلك إلى الحكم على كتاباته بشكل عام، وتتبع ما دونه من أحداث وأخبار غريبة، لم يحكِّم فيها العقل ولا الواقع ولا طبائع الأشياء ولا خواص العلوم، فأورد نماذج منها وناقشها مناقشة علمية وبين خطلها وزيفها، من ذلك ما نقله المسعودي من أن عدد جيوش بني إسرائيل لما أحصاهم موسى ـ عليه السلام ـ في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوق كانوا ستمائة ألف أو يزيدون[3]، وما ذكره المسعودي أيضاً من أن ذا الأذعار من ملوك التبابعة اليمنيين ـ وكان على عهد سليمان، عليه السلام ـ كان قد غزا المغرب ودوخها وكذلك مثله عن ياسر ابنه من بعده، وأنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل فرجع[4]. ومن الأخبار المستحيلة التي عاب ابن خلدون على المسعودي إيرادها في كتبه وبين زيفها وبطلانها ما نقله «عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها. وتم بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة»[5]. وأخيراً ما نقله المسعودي أيضاً «من حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ٢/٣٠٧.

(٢) انظر الدراسة التي عقدها عن ابن خلدون والمسعودي:
Walter J. Fischel in (MMCV) p. 51 — 59

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون، ص١٠ ـ ١١؛ وراجع المروج، ١/٥٤ ـ ٢/٢٦٩.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص١٢؛ والمروج، ٢/٢٣٦.

(٥) مقدمة ابن خلدون، ص٣٦؛ والمروج، ٢/١٠١ ـ ١٠٢.

موسى بن نصير في غزواته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص»[1].

وإن تلك النظرات النقدية الفاحصة التي سجلها ابن خلدون على المسعودي فيما وقع فيه من أخطاء، وتتبعه الدقيق لكثير من القضايا التي أثارها لتبين مدى الاهتمام والمكانة الرفيعة التي كان يحتلها المسعودي في نظر ابن خلدون، وليس أدل على ذلك من تلقيبه إياه بإمام المؤرخين، ولنسجل هنا ما دوّنه ابن خلدون في هذا الصدد حيث قال: «ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها، وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أسٌّ للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره، وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتابه مروج الذهب، شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه»[2].

وكان إعجاب ابن خلدون بالمسعودي ناشئاً كما يبدو من عموم منهجه ومسلكه[3]، واحتوائه على تاريخ كثير من الأمم والشعوب والممالك غير المسلمة والسابقة لظهور الإسلام، ودراساته القيمة للعديد من الأديان والمعتقدات والمذاهب غير الإسلامية، واهتمامه بالجوانب الحضارية وتركيزه بصفة خاصة على بيان بعض المسائل المتعلقة بعلم الاجتماع الإنساني والعمران البشري الذي كان له صدى قوي لدى ابن خلدون، ولذلك حاول ابن خلدون أن «يقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدى به من يأتي من المؤرخين بعده»[4]

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٣٧؛ والمروج، ١/١٩٥.
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٣٢.
(٣) المصدر السابق، ص ٥.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٣.

ولكنه أدرك سلفاً أنه لن يبلغ مبلغه، لأن المسعودي «إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه»[1].

ويلاحظ فيما دوّنه ابن خلدون عن المسعودي تركيزه على بيان منزلته في علم التاريخ، وتأكيده على بعض الجوانب المتميزة في منهجه، مع بيان وتجلية لبعض الهفوات والهنات التي وقع فيها المسعودي، ونلحظ تأثراً واضحاً به حيث حاول الاقتداء به والسير على خطاه، وخاصة في تاريخه للشعوب غير المسلمة، وفي دراسته للأديان والمذاهب والمعتقدات غير الإسلامية، وفي نظراته التحليلية والنقدية لمسيرات الشعوب والدول وإلى المفهوم الحقيقي لدراسة التاريخ ومعناه[2].

ومن العلماء المسلمين الذين كان لهم رأي في المسعودي الحافظ ابن حجر العسقلاني، حيث ذكر أن كتب المسعودي طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً، وأن خير شاهد على ذلك ما ذكره عن بعض الصحابة من أنهم امتنعوا عن بيعة علي بن أبي طالب ثم بايعوا يزيد بن معاوية، وما ذكره أيضاً من الفضائل والمزايا التي يتقدم بها على سائر الصحابة[3].

وحين ترجم ابن تغري بردي للمسعودي لم يخرج بعيداً عن الإطار الذي سار فيه الذهبي، وتابعه فيه بعض العلماء فيما يختص بمذهب المسعودي ومنزلة تاريخه[4].

أما ابن العماد الحنبلي[5] فقد ذكر رحلته وتطوافه في البلاد، وأشار إلى أنه

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٣٣.

(٢) انظر د. سعد زغلول عبدالحميد، (ابن خلدون مؤرخاً) مجلة عالم الفكر العدد الثاني من المجلد الرابع عشر، الكويت: وزارة الإعلام ١٩٨٣م، ص٢٢، ٢٥.

(٣) لسان الميزان، ٤/٢٢٥.

(٤) النجوم الزاهرة، ٣/٣١٥ ـ ٣١٦.

(٥) عبدالحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح، مؤرخ فقيه، ولد بدمشق وأقام في القاهرة ومات بمكة حاجاً سنة ١٠٨٩هـ، له شذرات الذهب في أخبار من ذهب، =

«حقق من التاريخ ما لم يحققه غيره وصنف في أصول الدين وغيرها من الفنون»[1].

وهكذا نستطيع أن نستخلص بعض النتائج من مجموع الآراء السابقة المدونة عن المسعودي، ومن أبرزها أن ما دونه في مؤلفاته من معلومات عن التاريخ الإسلامي الأول لم يكن محل رضا من العلماء المسلمين المحققين بسبب عدم التزامه فيه بالنهج الإسلامي القويم الذي يحفظ لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانتهم في النفوس، لأنهم خير هذه الأمة بعد نبيها، وحملة هذا الدين والمبلغين له إلى من بعدهم من الأجيال، بينما نلحظ أن العلماء الآخرين الذين أثنوا على المسعودي ورفعوا من شأنه نظروا من زاوية أخرى وهي قدرته الفائقة على تقصي أحوال الممالك والأمم والشعوب المختلفة القاصي منها والداني، وتحقيقه التاريخي الفذ لكثير من المشكلات والمسائل، وإلمامه بمختلف العلوم والمعارف والفنون الموجودة في عصره، واعتماده على مصادر متنوعة في جمع مادته، فلذلك تميز تاريخه بمزايا عديدة من أهمها المعالجة الحية لكثير من الأحداث والقضايا التي تناولها.

* * *

= وشرح متن المنتهى، انظر عنه: المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٢/٣٤٠ ـ ٣٤١.

(١) شذرات الذهب، ٢/٣٧١.

تاسعاً:

أقوال بعض المستشرقين والكتاب الغربيين في المسعودي

وفي نهاية هذا الفصل نشير إلى بعض من أقوال المستشرقين والكتّاب الغربيين في المسعودي، لنرى إلى أي حد يجلونه ويحترمونه وينظرون إلى أعماله من واقع رؤيتهم وتحليلاتهم الخاصة، وإن كان بعضهم في الوقت نفسه ينقده ويذكر عيوبه.

ولا نريد التوسع في هذا المجال كثيراً، بل سنكتفي بلمحات موجزة وعبارات مختارة من أقوالهم تؤدي الغرض المنشود

ويلاحظ بدءاً أن كلاً من هؤلاء المستشرقين الذين كتبوا عن المسعودي قد نظر إليه من زاوية خاصة تهمه وأصدر حكمه من خلالها، وأنه قد اتفق أكثرهم على الإشادة به لأسباب معينة تتضح من عرض نماذج من أقوالهم.

فمما أدلى به برنارد لويس (B. Lewis) قوله: إنه لم يكن هناك فرع من الدراسات الإسلامية لم يكن المسعودي قد أغناه ونوره بعقله الوقاد وأسلوبه السلس[1]، وأشار إلى تسامح المسعودي وذلك بمناقشاته لمعتقدات الفرق الإسلامية الضالة، وبطرقه لتاريخ الدول الكافرة[2]، وقرر عن قناعة أن مؤلفات المسعودي التي بين أيدينا تشكل صرح إنجازات العقل البشري المتوثب[3].

(١) «Masudi and the Muslim Renaissance» (MMCV) p. 135.

(٢) I bid, p. 136.

(٣) I bid, p. 136.

وعبر المستشرق فازلييف (A. Vasiliev) عن إعجاب المؤلفين الغربيين بالمسعودي قائلاً: إن كتب المسعودي مما يقرأه المسلمون والأوروبيون على السواء ويجدونه ممتعاً طلياً، وذلك راجع إلى تنوع الأخبار التي يسوقها المؤلف وإلى قدرته على جعل سرده حياً في كتبه(1).

وأشار والتر فيشيل (W. Fischel) إلى ما بلغه المسعودي من منزلة علمية فقال: إنه قد حقق كفيلسوف ومؤرخ درجة عالية واعتبر بحق واحداً من أعظم المؤلفين متعددي البراعات الذين عاشوا في القرن العاشر(2).

وذكر المستشرق رينو (Reinaud) أنه لا يوجد جانب في الدراسات التاريخية والجغرافية لم يتناوله المسعودي في كتبه، مما جعل هذه الكتب مصادر علمية لا تجف(3).

وأكد موريسون (G. Morrison) أن كتب المسعودي من أعظم مصادر تاريخ إيران وحضارتها للفترات السابقة لظهور الإسلام(4).

وعبر المستشرق سيديو (J. Sedillot) عن مكانة المسعودي وفضله بقوله: ولا نخشى التكذيب إذا قلنا إنه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودي(5).

أما المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (I. Krachkovsky) فقد لخص رأيه في المسعودي كأحد الجغرافيين العرب بقوله: ومهما يكن من شيء فإن المسعودي يقف على قمة المعارف الجغرافية لعصره(6).

---

(1) العرب والروم، ص٢٨٣.

(2) Ibn Khaldun and Al-Masudi (MMCV) p. 54.

(3) عن الأستاذ د. علي الخربوطلي في بحثه (الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي) مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد السابع، ص٢٨.

(4) The Sassanian Gancalogy in Masudi (MMCV) p. 42.

(5) عن د. نورالدين حاطوم وزملائه: المدخل إلى التاريخ، ص٢٩٦.

(6) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١/١٨٣.

وأما الكتاب الروسي الآخر مورزيف (E. Murzaev) فقد أشار إلى ما يتمتع به المسعودي من أصالة بقوله: وكان المسعودي أحد العلماء الذين أبرزوا الكثير من الحقائق المبتكرة، ولم يقصر معلوماته على ما عرفه من أسفاره فقط، وإنما درس عن كثير من الأمم والبلدان التي لم يزرها، كما أبرز أن هناك الكثير من الأخطاء فيما كتب عن المعلومات البطليموسية[1]. وقال: إن كتابات المسعودي ذات أهمية خاصة للقراء السوفييت لاحتوائها على معلومات وأوصاف للأماكن السوفيتية التي زارها[2].

وقد ساق كراتشكوفسكي رأي معاصره كرمرز (Kramers) في المسعودي أنه أكثر الجغرافيين أصالة في القرن العاشر[3].

ونقل غوستاف لوبون (G. Lobon) رأي المسيو كاترمير (Qutremere) في مصنفات المسعودي حيث قال: إذا ما نظر الإنسان إلى كتبه بهت من تنوع المواد التي كتب فيها، ومن كثرة المسائل العويصة التي حلها، والحق أنه كان واسع الفضل في الزمن الذي نبغ فيه لا لأنه قرأ جميع الكتب الخاصة بالعرب وتأمل فيها فقط. بل لإحاطة مباحثه الواسعة بتاريخ اليونان والرومان وجميع أمم الشرق قديمها وحديثها[4].

ونظراً للاهتمام البالغ من قبل المستشرقين الغربيين عامة بالمسعودي فقد شبهوه ببعض مفكري الإغريق والرومان القدامى وعقدوا دراسات للمقارنة بينه وبين بعضهم، من هؤلاء المستشرق فون كريمر (V. Kremer) الذي لقبه باسم هيرودوت العرب، ووجه الشبه بين الاثنين إنما كان في حب المعرفة التاريخية والجغرافية، والاهتمام بتنوع الشعوب والأفكار والرحلة في سبيل ذلك، والاستعداد لتسجيل الخوارق والعجائب، وإن كان المؤرخ اليوناني أكثر فناً

---

(١) The significance of Al-Masudi for the works of Russian and Soviet Geographers (MMCV) p. 14.

(٢) .I bid, p. 15.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١/١٧٧.

(٤) حضارة العرب، ص٤٥٣.

ومنهجية في كتابة التاريخ ـ كما يقال ـ فإن المسعودي كان أوسع أفقاً وأبعد في الرحلة والاطلاع، وكتب تاريخاً عالمياً شاملاً[1].

ومنهم ماكس مايرهوف (M. Meyer hof) الذي شبهه بـ بليني أحد مؤرخي الرومان وجغرافييهم، وقال: إنه ينطبق على المسعودي هذا التشبيه بكل ما فيه من معنى[2].

وقد أجرى المفكر الفرنسي رينان (E. Renen) دراسة مسهبة قارن فيها بين المسعودي وبين بوزانياس اليوناني في القرن الثاني الميلادي، ومع أن رينان كان يتعصب للاغريق إلا أنه لم يستطع أن ينكر أن المسعودي كان أشمل موسوعية وأكثر فضولاً علمياً واطلاعاً[3].

والغريب أن المستشرق مرغوليوث (Margo Liouth) أهمل المسعودي ولم يذكره في كتابه الذي خصصه لدراسة نشوء علم التاريخ عند العرب والمسلمين، وهو كتاب (دراسات عن المؤرخين العرب)[4] مع أنه ذكر مؤرخين آخرين ليس المسعودي بأقل منهم منزلة في علم التاريخ[5]، ويعلل الدكتور جواد علي هذا الإهمال بأنه قد يكون بسبب اهتمام المسعودي بأمور جغرافية وقيامه بأسفار طويلة بعيدة متعددة[6]، مما جعل كثيراً من المستشرقين ينظمونه في سلك الجغرافيين العرب، ويهتمون بالدراسات التي قدمها في هذا الجانب على وجه الخصوص.

---

(١) انظر شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ٥٣/٢.

(٢) انظر: «العلوم والطب عند العرب» فصل من كتاب تراث الإسلام، بإشراف سير توماس آرنولد، عربه وعلق حواشيه جرجيس فتح الله، الطبعة الثالثة (بيروت: دار الطليعة ١٩٧٨م، ص٤٧٧).

(٣) انظر شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ٥٣/٢، حيث يشير إلى تلك المقارنة ويحللها، وانظر حيدر بامات، مجالي الإسلام، ص١٥٤.

(٤) تعريب حسين نصار، بيروت، دار الثقافة.

(٥) دراسات عن المؤرخين العرب، ص١٣٩.

(٦) جواد علي: (موارد تاريخ المسعودي)، مجلة سومر، العدد الأول والثاني من المجلد العشرين، ص٢٧.

وهكذا من واقع هذا العرض الموجز لأقوال بعض المستشرقين في المسعودي نلاحظ أن اهتمامهم به راجع إلى عدة أمور منها، موسوعيته وإلمامه بمختلف العلوم والفنون، فكان محل إعجاب لكثيرين منهم، ومنها شمول دراساته للتاريخ الأوروبي والتاريخ العالمي، واهتمامه بالنقد التاريخي، والتقصي للوقائع والأحداث التي عالجها مما أضفى قدراً كبيراً من الحيوية والجدة على أبحاثه.

* * *

وأخيراً أحب أن أدون في نهاية هذا الفصل ملاحظة تدور في خاطري حول مسألة الحكم على المسعودي وأعماله، فأقول: إن الإنسان بحكم إنسانيته مهما حاول أن يتحرى الدقة والكمال في أعماله فلن يصل إلى ذلك، لأنه مما اختص به الباري جل وعلا، وإذاً فلا بد أن يعتور أعماله شيء من النقص أو الخطأ أو العيب في أي وجه من الوجوه[1]. وعلى هذا فان الملاحظات التي يبديها المتأخر على أعمال من سبقه قد تسدد شيئاً من نقص أو تنبه على خطأ أو تعالج عيباً، ولكن ذلك لا يقلل بحال من قيمة عمل الأول صاحب التأليف والسبق، ومن هذا المنطلق أيضاً فإن أعمال المسعودي ــ على الرغم مما ذكر حولها من ملاحظات كثيرة، ما عدا الملاحظات المتعلقة بتاريخ الصحابة ــ فإنها أعمال علمية ضخمة وعلى قدر كبير من الأهمية، ولا سيما إذا تذكرنا تلك المجموعات والسلاسل المفقودة، وذلك لما تميزت به تلك الأعمال من تنوع في مصادرها، وبما احتوت عليه من علوم ومعارف تناولت شتى مجالات الحياة، وما انفردت به من أصالة في الموضوع، وإذا كنا نطالب المسعودي أو نطمع أن يخرج لنا كل لون منها على حدة في بحث متكامل الأجزاء محكم الأداء لا تجد إليه الخرافة طريقاً ولا الأسطورة باباً فإننا قد نكون غير عادلين في مطلبنا، ولا سيما إذا كنا قد عرفنا أنه كان قد أمضى شطراً كبيراً من عمره في قطع القفار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار وأنه قد أفرغ معلوماته وصنف كتبه وخاصة التاريخية منها في فترة قصيرة إلى حد ما.

---

(١) انظر: المروج، ٥/٣٠٢.

وأكرر مرة أخرى فأقول: إن كل عمل بشري لا بد وأن يعتوره النقص ويتطرق إليه الضعف وإنه نظراً لاختلاف التكوين العقلي والنفسي والبيئي لكل إنسان عن الآخر لا بد وأن يكون لكل نظرته الخاصة وحكمه المتميز على الأعمال التي يراها بين يديه، فقد يعتقد إنسان أنه قد أصاب في حكم ما، بينما يرى إنسان غيره رأياً آخر.

وهكذا فتلك سنة الباري عز وجل في هذه الحياة التي خلقنا فيها متمايزين بعقولنا وأبداننا، وجعل لك منا إرادة وحكماً قد يتفق أو يختلف مع آراء وأحكام الآخرين بحكم ذلك التمايز العجيب[1].



(١) أن مما دعاني إلى تدوين هذه الملاحظات ما ذكره المسعودي في كتاب المروج من تخويف في أول الكتاب وآخره يدعو فيه على من تناول كتبه بتحريف شيء من معانيها أو أزال ركناً من مبانيها أو طمس واضحة من معالمها أو لبس شاهدة من تراجمها أن يصيبه كيت وكيت من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه... إلخ. ٣٠١/٥ ــ ٣٠٢، وأخشى أن أكون بعلمي القاصر قد أسأت فهماً أو التبس علي معنى من المعاني التي أرادها المسعودي، فأسأل الله تعالى لي وله وللمسلمين المغفرة والصفح عن الزلل إنه غفور رحيم.

الخَاتِمَـة

الخـــاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأصلي وأسلم على رسوله وبعد.

ففي الصفحات القادمة أقدم أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة، ولا أدعي أن كل ما أذكره هنا قد توصلت إليه وحدي، فربما أذكر بعض النتائج ويكون قد توصل إليها دارسون سابقون، ولكني أضفت إليها أدلة جديدة أو زدتها تأكيداً، ومن ناحية أخرى قد يفوتني هنا ذكر بعض النتائج التي دونتها في ثنايا البحث فلا أشير إليها، وذلك نظراً لأن البحث في جوهره قد اعتمد على الملاحظة والاستقراء والاستنتاج، فالملاحظات والنتائج فيه عديدة.

وعلى أي حال فسأجمل أهم ما توصلت إليه في النقاط الآتية:

* تأكيد أن المسعودي عراقي الأصل، وذلك بنزوح جده الأعلى عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إلى العراق، واستقرار ذريته فيه، وأن المسعودي بغدادي المولد والمنشأ، خلافاً لبعض الباحثين، ويؤيدني في هذا الاستنتاج ما ذكره المسعودي من نصوص تؤكد ذلك.

* استخلصت من خلال مؤلفات المسعودي ثبتاً بأشهر الشيوخ الذين درس على أيديهم في مرحلة صباه في مدينتي بغداد والبصرة.

* إثبات حقيقة ميول المسعودي الشيعية من واقع ما دونه في كتابيه المطبوعين.

* ملاحظة أن المسعودي كان له فضل السبق في الاستهلال العلمي الصحيح في التأليف، حيث أوضحت أنه صدر كتاب المروج ببابين خاصين تحدث في

الأول عن معاناته في جمع مادة الكتاب ورحلاته العلمية، ثم تناول المصادر التي استفاد منها بالدراسة والتحليل، وفي الباب الثاني تحدث عن أبواب الكتاب وموضوعاته، وقد كان بذلك متميزاً على غيره من المؤرخين السابقين وممهداً الطريق لمن جاء بعده من الباحثين المحدثين الذين ساروا على هذا النهج.

* إثبات السنوات الحقيقية التي ألف فيها المسعودي كتاب مروج الذهب، مع ذكر الأدلة.

* إثبات أن نسخة المروج المؤلفة سنة ٣٤٥هـ والمفقودة الآن كانت موجودة في القرن التاسع الهجري، وكذا الأمر بالنسبة لكتاب أخبار الزمان، فقد نقل عنهما المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥هـ) في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

* إيراد عدد من الأدلة التي تثبت عدم صحة نسبة كتاب أخبار الزمان المطبوع للمسعودي، وكذلك كتاب إثبات الوصية للإمام علي بن أبـي طالب، وأن هذا الكتاب الأخير ينسب إلى عالم شيعي يسمى ابن المطهر.

* إثبات أن عدداً كبيراً من المخطوطات الموجودة في المكتبة الأهلية بباريس والمكتبة الأهلية بفيينا، والتي تنسب إلى المسعودي غير صحيح، وذلك بعد دراستها ومقارنتها بمؤلفاته الثابتة، وأن النسخة ذات الرقم (١٤٧٨) في المكتبة الأهلية بباريس والمسجلة في فهرس المكتبة تحت عنوان (أخبار الزمان) هي في الواقع جزء من المروج وليس أخبار الزمان.

وتحتوي في أولها على مقتطفات من الكتاب الموسوم بأخبار الزمان المطبوع والمنسوب للمسعودي.

* ظهر لنا أن المسعودي اعتمد في معلوماته على مصادر متنوعة منها ما أخذه عن طريق التجربة والمشاهدة الشخصية، ومنها ما أخذه من ذوي الصلة المباشرة بالأحداث وشهود العيان للوقائع، ومنها ما أخذه من الكتب والأسفار.

* إثبات أن النوعين الأولين من مصادر المسعودي وهما:

(أ) الرحلات.

(ب) العلماء وأهل الخبرة والاختصاص - إثبات أنهما مصادر حية أضفت على كتاباته التاريخية قيمة علمية كبيرة، وأن مبدأ المشاهدة والمعاينة المباشرة للأحداث والوقائع والناتج عن الرحلات كان مما تميز به المسعودي واعتمد عليه في تصحيح بعض الأخطاء العلمية التي وقع فيها سابقوه، وكانت معلوماته المستقاة من هذا المصدر تتميز بطابع التقرير والحسم لكل ما كان يؤكده أو ينفيه.

* أن المسعودي كان يعتمد في تدوينه للتاريخ وحساب السنين على ما سطره الفلكيون وأصحاب الزيج أكثر من اعتماده على ما دونه المؤرخون في كتبهم.

* أن الكتب والمؤلفات التي أثبتناها وأشرنا إلى استخدام المسعودي إياها كمصادر هي كتب كثيرة جداً، تدل على سعة أفقه، وعلى حرصه الدائب على ذكر مصادره في مؤلفاته.

ومن خلال دراستنا لمنهج المسعودي التاريخي ظهر لنا أنه لم يكن مؤرخاً عادياً يسير على نهج من سبقه من المؤرخين، ثم يزيد في سرد أحداث التاريخ حتى عصره، لكنه كان صاحب منهج متميز ساهم فيه بتطوير فكرة التاريخ لدى المسلمين، وذلك بطرق موضوعات جديدة وحيوية في دراسة التاريخ، من ذلك ما يأتي:

* كتابته في التاريخ العالمي، وكانت هذه الكتابة من المحاولات الجادة في كسر حاجز الإقليمية الضيقة، وتعبيراً عن الروح العلمية المتفتحة التي لا تقف عند حد معين.

وكذلك كانت نظرته إلى الثقافات العالمية ومحاولته عقد المقارنات والدراسات عنها بأسلوب العالم الواعي، وإصداره سلسلتين من الكتب في التاريخ تناولت هذه الجوانب.

* جمعه بين الدراسات الجغرافية والدراسات التاريخية في مصنف واحد، وأسبقيته في هذا الميدان، وتصحيحه عدداً من المفاهيم الجغرافية الخاطئة السائدة في عصره، وطرحه لمفاهيم جديدة على درجة عالية من الصحة، وأنه كان أصيلاً في دراساته لا مقلداً كما يصوره بعض المستشرقين.

* إدراكه لقضية تفاعل الإنسان وكل ما على سطح الأرض من حيوان أو نبات أو جماد بالظروف المناخية والطبيعية المسيطرة عليه، وإدراكه للتشابه بين دورات الحياة في كل من الإنسان والحيوان والنبات والنظم السياسية وحتى الجمادات.

* احتواء كتبه من بين المؤلفات الإسلامية على أفضل تصوير لجوانب الحياة المختلفة، من دينية واجتماعية وثقافية وإقتصادية وغيرها.

* كان له فضل السبق في طرق أبواب بعض العلوم الاجتماعية، كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وذلك قبل أن تظهر كعلوم معروفة مستقلة في أبوابها ومناهجها، وقدم فيها دراسات كانت على جانب كبير من الأهمية، وكانت نبراساً مضيئاً اقتدى به بعض العلماء المسلمين الذين جاؤوا بعد المسعودي والذين ساهموا في تأصيل هذه العلوم.

* وعن أبرز خصائص منهج المسعودي أوضحنا أنه كان متخففاً من ذكر الأسانيد في كتابي المروج والتنبيه، وأنه لم يستخدمها إلا في حالات معينة، واتخاذه بدائل عوضاً عن الأسانيد، منها تقديم قائمة بمصادره في مقدمة المروج مع دراسة تحليلية لأهمها واستفادته من طريقة المحدثين في قبول الأخبار أو ردها، واستخدام العقل للنظر والحكم على بعض الأمور التي لم يرد فيها نصوص شرعية، وغير ذلك من البدائل.

* استخدام المسعودي في تنظيم مادته العلمية طريقة التاريخ حسب الموضوعات في معظم تاريخه، ولكنه لم يكن مبتكراً لها فقد كانت موجودة قبله، واستفادته أيضاً من طريقة التاريخ حسب السنين، ولكن في إطار الطريقة السابقة، فكان أول من مزج بين هاتين الطريقتين.

* إنه كان متميزاً على غيره من المؤرخين بوضع المستخلصات أو (جوامع التاريخ) التي يركز فيها المعلومات، خاصة تلك التي تقوم على حساب السنين والتي يدور حولها اختلاف كثير، حتى أنه مثلاً وضع مستخلصاً لخلفاء بني أمية ذكر فيه ولاية كل خليفة وكرر ذلك أكثر من مرة، وذلك على حسب الأقوال المذكورة في ضبط خلافة كل منهم[1].

ومن دراستنا لما كتبه المسعودي عن تاريخ ما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة برزت لنا النتائج التالية:

* من خلال معالجة المسعودي لتاريخ الخليقة والأنبياء ـ عليهم السلام ـ تبين أن منهجه يختلف عن منهج المؤرخين المسلمين السابقين كالطبري مثلاً من زاوية هامة، وهي أن الطبري باعتباره مفسراً للقرآن الكريم نجد أنه كتب هذا التاريخ في إطار التفسير القرآني، بينما المسعودي على الرغم من اعترافه بأهمية الإشارات القرآنية في هذا الصدد وقصه لبعض الأحداث على حسب ما وردت في التنزيل إلا أنه يلاحظ بوجه عام أن الترتيب التاريخي البحت هو الذي شكل الإطار الخارجي لروايته، ونجد الروايات القرآنية، قد أتت مندمجة في هذا الإطار.

* ظهر من خلال معالجة المسعودي لتاريخ وجغرافية الهند وأحوالها المختلفة مدى اهتمامه وتركيزه في منهجه على إجلاء الجوانب الحضارية، وأن مشاهداته وملاحظاته الشخصية قد أضفت على كتاباته عنها مسحة وطابعاً مميزاً يتسم بالحيوية والدقة والوضوح.

* وظهر من خلال ما كتبه عن الصين أنه لا يبدو فيه طابع الألفة والمعرفة الشخصية، مثلما هو واضح في كتاباته عن الهند ولذلك جاء أقل تفصيلاً وحيوية، وأكد لنا هذا عدم زيارته لبلاد الصين.

---

(١) المروج ٥/٢٨٠، حاشية رقم ٦.

* لاحظنا ما اتَّسم به منهجه التاريخي من تركيز على الجوانب الإبداعية والحضارية في تاريخ المجموعات البشرية الكلدانية.

* في معالجة المسعودي للتاريخ الفارسي وضح شدة اهتمامه بهذا التاريخ من خلال تفصيلاته القيمة عنه، ولهذا فقد اعتبر مصدراً من المصادر الإسلامية الهامة فيه.

* ظهر أن معلومات المسعودي عن تاريخ الفلسفة اليونانية والفكر الإغريقي بصفة عامة كانت غزيرة جداً أثارت انتباه العلماء والباحثين.

* إن التاريخ البيزنطي حظي من جانب المسعودي باهتمام بالغ وعناية غير مألوفة في تتبع أحداثه حتى سنة ٣٤٥هـ، وأنه المؤرخ المسلم الوحيد الذي انفرد بذكر تفصيلات لبعض الأحداث الهامة في تاريخ العلاقات الحربية الإسلامية البيزنطية، وكانت رواياته عن هذا التاريخ بعد ظهور الإسلام منظمة ومستقلة.

* من خلال ما كتبه المسعودي عن الأمم التي تقطن جبال القوقاز تبين أنه كان مهتماً بتاريخ الأمم الصغيرة فلم يسقطها من حسابه حينما عالج بتوسع تاريخ الأمم الكبيرة، وأنه كان يركز على وصف الأوضاع السياسية المعاصرة، مما دل على متابعته للأحداث، وأنه كان مهتماً بإيضاح الجوانب الحضارية في تاريخ تلك الأمم، وأخيراً تبين لنا أن ما كتبه المسعودي عنها يعتبر أوضح وأكمل ما دون من تلك الأمم من قبل أي من المؤرخين المسلمين.

* تأكد من دراسة معالجة المسعودي لتاريخ مصر والشعوب الأفريقية أنه قدم وصفاً مسهباً لمصر ظهرت في ثناياه معلومات تاريخية وجغرافية، كان قد حصل عليها عن طريق الملاحظة الشخصية والبحث الذاتي، وأن معلوماته عن سائر الشعوب الافريقية تتسم بالأصالة والجدة.

* وفي معالجته لتاريخ العرب قبل الإسلام لاحظنا اهتمامه بإبراز السمات الخاصة المميزة لصفائهم الفطري وسموهم الفكري.

* ومن واقع دراساته الواسعة لتاريخ ما قبل الإسلام والأمم غير المسلمة ظهر بصفة عامة أنه كان يملك رصيداً وافراً من المعلومات عن كل شعب أو أمة تطرق لتاريخها، وذلك من أوثق المصادر وأثبتها، وأن أهمية ما كتبه لا تكمن في مجرد التفاصيل التي أوردها، ولكن أيضاً في إبدائه لوجهة نظره الخاصة وفي منهجه وأسلوب معالجته.

ومن دراستنا لما كتبه المسعودي عن التاريخ الإسلامي تكشفت لنا النتائج الآتية:

* إن كتابته عن السيرة النبوية كانت مختصرة ولكنها دقيقة وشاملة.

* إن نزعة المسعودي الشيعية قد أثرت على كتاباته في تاريخ الخلفاء الراشدين، وتاريخ الأمويين، وتاريخ العباسيين، ولم يستطع أن يكتب تاريخاً مجرداً من الهوى، وخاصة للخلفاء الذين كانت لهم احتكاكات ببعض العلويين.

* إن المسعودي في كتاب التنبيه كان أقرب إلى الاتزان والواقعية منه في أحكامه التي أبداها في كتاب المروج.

* إشارات المسعودي إلى تأثيرات العرب والمسلمين الحضارية في بعض الأمم الافرنجية المجاورة لبلاد الأندلس الإسلامية، حتى في بعض الخصائص التي كانت للعرب دون غيرهم من سائر الأمم كالقيافة والزجر والعيافة ــ هذه الإشارات تعتبر إنجازاً إيجابياً يحسب للمسعودي.

* ومن دراستنا للأقليات في تاريخ المسعودي سواء المسلمة أو غير المسلمة وضح لنا أن اهتمامه بها كان اهتماماً فريداً من نوعه، وأن رحلاته قد أفادته في هذا المجال فائدة كبيرة، حيث وقف على أحوال الأقليات المسلمة، والتقى بأعداد من رجال الأقليات غير المسلمة، فوقف عن كثب على أفكارهم وعقائدهم وسائر أحوالهم، وأن كتابته عنهم كانت موضوعية.

* تبين لنا من واقع دراسة منهج المسعودي أنه كانت تتمثل فيه كثير من الصفات الضرورية للمؤرخ، وأنه يفتقر إلى بعضها.

* ومن تتبع الإشارات الواردة حول اللغات الشائعة في عصر المسعودي رجحنا أنه كان ملماً باللغة الفارسية، وأنه كان يعرف شيئاً من اللغة الرومية.

* تأكد لنا إن نزعة المسعودي الشيعية قد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على كتاباته في التاريخ الإسلامي، وعلى الرغم من محاولاته أن يبدو حيادياً في بعض الأحيان إلا أنه كان ينساق ــ حتى وإن عن غير قصد ــ إلى تدوين ما كان يعتقده ويراه حقاً، أو ترجيح وتقديم الرأي الموافق لنزعته وميوله، وتأكد لنا من جهة ثانية أنه كان موضوعياً ملتزماً بمدأ الحياد والتجرد في بحث أديان وتاريخ الأمم والشعوب غير المسلمة، وخرجنا من ذلك بنتيجة مؤداها أنه يتعين على من أراد أن يقرأ ما دونه المسعودي أو غيره من ذوي الميول والأهواء عن التاريخ الإسلامي وخاصة الفترات الغامضة فيه أو التي حدث فيها اجتهاد واختلاف بين المسلمين أن يكون على حذر وانتباه وأن لا ينساق إلى تصديق ما يقرأه إلا بعد قيام الدلائل وثبوت الروايات من الأوجه الصحيحة المعتبرة.

* تبينت لنا مقدرة المسعودي على التحليل والنقد، ومن خلال الأمثلة برزت نظرته الشمولية بعيدة المدى للتواريخ والأحداث ومقدرته على التفسير والمقارنة والاستقراء والاستنتاج وإبداء الرأي.

* وجود ظاهرة التشعب والاستطراد في كتابات المسعودي، وثبت أن هذه الظاهرة كانت تدل على ضعف في حاسته الفنية، وأنها قد أفسدت عليه وحدة الموضوع، وفتحت عليه باب النقد.

* تجلى من خلال استقراء آراء المسعودي في كثير من الخرافات والأساطير التي دونها في مصنفاته أنه لم يكن مؤمناً بها حقاً، وأنه إذا لم يصدر حكماً أو رأياً في شيء منها فإنه إنما يعزو ذلك إلى راويه فهو المتقلد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه.

* ومن خلال عرض آراء عدد من العلماء المسلمين في المسعودي تبين أنهم لم يكونوا راضين عنه بسبب أن ما دونه عن التاريخ الإسلامي من معلومات لم يلتزم فيه جانب الحياد والموضوعية.

* ومن خلال استعراض بعض آراء المستشرقين في المسعودي ظهر أنهم اهتموا به لعدة أسباب يأتي في مقدمتها موسوعيته في الموضوعات التي طرقها وكتابته في التاريخ العالمي وخاصة تاريخ الأمم النصرانية، واهتمامه بالنقد التاريخي.

* * *

هذا والله تعالى أعلم.. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه ومن سار على هديه ونهجه إلى يوم الدين.

□□□

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر القديمة:

(أ) مصادر عربية مخطوطة.

(ب) مصادر عربية مطبوعة.

ثانياً ـ المراجع الحديثة:

(أ) مراجع عربية.

(ب) مراجع أجنبية مترجمة إلى العربية.

(ج) أبحاث ودراسات بالعربية أو مترجمة إليها.

(د) أبحاث ودراسات بالانجليزية.

أولاً :

المصادر القديمة

(أ) مصادر عربية مخطوطة :

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبـي بكر (ت ٩١١هـ).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٥٢.

القزويني، الشيخ محمد.

(٢) مختصر العجائب والغرائب، مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس برقم ١٤٧٢.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبدالله (ت ٣٤٦هـ).

(٣) أخبار الزمان وعجايب البلدان (المنسوب) مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس برقم ١٤٧١.

(٤) أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجايب البلدان والخراب والعمران (المنسوب)، مخطوط في المكتبة الأهلية بفيينّا برقم ٦٦٦.

(٥) أخبار الزمان وما أباده الحدثان وعجايب البلدان والغامر بالماء والعمران، (المنسوب)، مخطوط في مكتبة برلين برقم ٩٤٢٦.

(٦) كتاب فيه أخبار الملوك، (المنسوب) مخطوط في دار الكتب الوطنية بمصر برقم ٣٤٣ الزكية.

(٧) مختصر عجائب الدنيا، (المنسوب)، مخطوط في المكتبة السليمانية بتركيا برقم ٢٢٤٠.

(٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر، مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس برقم ١٤٧٨.

(ب) مصادر عربية مطبوعة :

ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ).

(١) الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربـي بيروت ١٣٨٧هـ.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ).
(٢) مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨هـ).
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م.

البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ).
(٤) كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٣٩٤هـ.

البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الملقب بالخطيب (ت ٤٦٣هـ).
(٥) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم (ت ١٣٣٩هـ).
(٦) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى في بغداد وبيروت.
(٧) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى في بغداد وبيروت.

البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩هـ).
(٨) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، الطبعة الأولى بيروت ١٣٩٣هـ.

البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ).
(٩) أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق د. محمد حميدالله، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٩هـ.
(١٠) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.

ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ).
(١١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر.

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس (ت ٤٠٣هـ تقريباً).
(١٢) الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
(١٣) المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، القاهرة ١٣٤٧هـ.

ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ت ٧٢٨هـ).
(١٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، الطبعة الثانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالرياض ١٣٩٨هـ.
(١٥) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ).
(١٦) البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٩٥هـ.
(١٧) الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨٥هـ.

ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ).
(١٨) صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، الطبعة الأولى، الناشر دار الوعي بحلب، مطبعة الأصيل ١٣٨٩هـ.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧هـ).
(١٩) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى في بغداد وبيروت.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ).
(٢٠) الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة.

الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ).
(٢١) إرشاد الأريب في معرفة الأديب (معجم الأدباء)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢٢) معجم البلدان، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

الحميدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله (ت ٤٨٨هـ).
(٢٣) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ).
(٢٤) مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول)، تحقيق لجنة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
(٢٥) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (الجزء السابع)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩١هـ.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبـي بكر (ت ٦٨١هـ).
(٢٦) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.

الخوانساري، محمد باقر الموسوي (ت ١٣١٣هـ).
(٢٧) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تحقيق السيد محمد علي الروضاني، الطبعة الثانية، طهران ١٢٦٧هـ.

ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة (ت ٥٧٥هـ).
(٢٨) فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق الشيخ فرنسشكه قدارة زيدين وتلميذه خليان ربارة طرغوة، الطبعة الثانية، منشورات المكتب التجاري في بيروت ومكتبة المثنى في بغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٣٨٢هـ.

ابن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبـي هبيرة خليفة بن خياط الليثي العصفري الملقب بشباب (ت ٢٤٠هـ).
(٢٩) تاريخ خليفة بن خياط، حققه د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى، مطبعة الآداب في النجف ١٣٨٦هـ.
(٣٠) كتاب الطبقات، حققه د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٠٢هـ.

الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ).
(٣١) الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة سنة ١٣٧٩هـ.

الذهبـي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ).
(٣٢) دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٤هـ.
(٣٣) سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ.
(٣٤) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ١٣٨٢هـ.

ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (كان حياً سنة ٢٩٠هـ).
(٣٥) الأعلاق النفيسة، طبع في ليدن بمطابع بريل سنة ١٨٩١م.

الزبيري، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب (٢٣٦هـ).
(٣٦) نسب قريش، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦م.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ).
(٣٧) طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الثانية، دار المعرفة بيروت.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ).
(٣٨) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٩هـ.
(٣٩) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ).
(٤٠) كتاب الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (ت ٥٨١هـ).
(٤١) لروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
(٤٢) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٨٩هـ.

ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٧٣٤هـ).
(٤٣) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر (ت ٤٥٨هـ).
(٤٤) الملل والنحل، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.

الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ).
(٤٥) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.

طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى بن خليل (ت ٩٦٨هـ).
(٤٦) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق كامل كامل البكري وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٨م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).
(٤٧) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠ ــ ١٩٦٩م.

ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد القرطبي (ت ٤٦٣هـ).
(٤٨) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن العربي، محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله أحمد (ت ٥٤٣هـ).
(٤٩) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حققه محب الدين الخطيب، وراجع أحاديثه محمود مهدي استانبولي، بيروت.

العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ).
(٥٠) الإصابة في تمييز الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٥١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جادالحق، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨٥هـ.
(٥٢) لسان الميزان، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند، حيدرآباد الدكن ١٣٣٠هـ.

أبو علي، محمد بن إسماعيل بن عبدالجبار بن سعدالدين المازندراني (ت ١٢١٥هـ).
(٥٣) منتهى المقال في أحوال الرجال، طهران سنة ١٣٠٠هـ.

ابن العماد، أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ).
(٥٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ).
(٥٥) فضائح الباطنية، تحقيق عبدالرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت ١٩٦٤م.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود (ت ٧٣٢هـ).
(٥٦) المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

الفيروز أبادي، مجدالدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ).
(٥٧) القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ).
(٥٨) المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، الطبعة الأولى، المطبعة الإسلامية ١٣٥٣هـ.

القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالواحد (ت ٦٤٦هـ).
(٥٩) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ).
(٦٠) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٦٣.

القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣هـ).
(٦١) زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٩م.

الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ).
(٦٢) فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣م.

ابن كثير، عمادالدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ).
(٦٣) البداية والنهاية، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م.

المسعودي، علي بن الحسين بن علي بن عبدالله (ت ٣٤٦هـ).
(٦٤) التنبيه والإشراف، تصوير مكتبة خياط عن الطبعة الأوروبية، بيروت ١٩٦٥م، ونسخة أخرى بتحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة ١٩٣٨م.
(٦٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الفرنسية حققها وصححها شارل بلا، بيروت ١٩٦٦ ـ ١٩٧٩م، ونسخة أخرى بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٣٨٤هـ، ونسخة ثالثة بتحقيق يوسف أسعد داغر، الطبعة الأولى، دار الأندلس، بيروت ١٣٨٥هـ.
(٦٦) إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، (المنسوب)، الطبعة الثالثة، المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية في النجف ١٩٥٥م.
(٦٧) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، (المنسوب)، الطبعة الثالثة، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٨م، ونسخة أخرى بتحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة ١٣٥٧هـ.

المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ).
(٦٨) كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، المكتب التجاري بيروت، ١٩٧٠م.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد أحمد بن أبي بكر البناء (ت ٣٧٥هـ).
(٦٩) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء دي غويه، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٦م.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ).
(٧٠) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).
(٧١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت.

النجاشي، أحمد بن علي (ت ٤٥٠هـ).
(٧٢) الرجال، بمبي، ١٣١٧هـ.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق (٣٨٠هـ).
(٧٣) كتاب الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٨هـ.

أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).
(٧٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ).
(٧٥) نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة.

ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ).
(٧٦) تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، الطبعة الأولى، دار المعرفة بيروت، ١٣٨٩هـ.

وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ).
(٧٧) أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت.

ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ).
(٧٨) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الجمهورية، القاهرة.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢هـ).
(٧٩) تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٠هـ.

ابن أبي يعلى، القاضي أبو الحسين محمد (ت ٥٢٦هـ).
(٨٠) طبقات الحنابلة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

* * *

ثانياً:

المراجع الحديثة

(أ) مراجع عربية:

إبراهيم أنيس (الدكتور) وآخرون.

(١) المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٣٩٢هـ.

أحمد أمين.

(٢) ظهر الإسلام، الطبعة الرابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦هـ.

بشار عواد معروف (الدكتور).

(٣) المنذري وكتابه التكملة لوفيَّات النَقَلَة، مطبعة الآداب في النجف ١٣٨٨هـ.

جورج غريب.

(٤) أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.

حسن إبراهيم حسن (الدكتور).

(٥) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥م.

حسن عثمان (الدكتور).

(٦) منهج البحث التاريخي، الطبعة الثالثة، دار المعارف، بمصر، القاهرة، ١٩٧٠م.

حسين فوزي.

(٧) حديث السندباد القديم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٧م.

خيرالدين الزركلي.

(٨) الأعلام، الطبعة الثالثة، بيروت.

زكي محمد حسن.

(٩) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٤٥م.

مسيحة القليوبي (الدكتورة).
(١٠) موجز القانون البحري، الطبعة الأولى، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ١٩٦٩م.
السيد حسن الصدر.
(١١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، بغداد، ١٣٧٠هـ.
سيد عبدالعزيز سالم (الدكتور).
(١٢) التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة).
(١٣) مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٦هـ.
شاكر مصطفى (الدكتور).
(١٤) التاريخ العربي والمؤرخون، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٨م.
صلاح الدين المنجد (الدكتور).
(١٥) أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، الطبعة الثانية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٨م.
عبدالرحمن حسين العزاوي.
(١٦) المسعودي مؤرخاً، الطبعة الأولى، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٤٠٢هـ.
عبدالعزيز الدوري (الدكتور).
(١٧) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠م.
عبدالله المامقاني بن الشيخ.
(١٨) تنقيح المقال في أحوال الرجال، المطبعة المرتضوية، النجف، ١٣٤٩ ـ ١٣٥٢هـ.
عبدالله يوسف الغنيم (الدكتور).
(١٩) المخطوطات الجغرافية في المتحف البريطاني، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع كويت تايمز، الكويت، ١٤٠٠هـ.
عفت محمد الشرقاوي (الدكتور).
(٢٠) أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت.
علي أدهم.
(٢١) بعض مؤرخي الإسلام، مكتبة نهضة مصر. مطبعة الرسالة، القاهرة.
علي حسني الخربوطلي (الدكتور).
(٢٢) المسعودي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

عمر رضا كحالة.
(٢٣) التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية بدمشق، ١٣٩٢هـ.
(٢٤) معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، في بيروت.
قسم الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض.
(٢٥) أطلس خرائط إسلامية، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٣هـ.

محسن أمين العاملي.
(٢٦) أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت.
محمد جمال الدين سرور (الدكتور).
(٢٧) تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، الطبعة الرابعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٦هـ.
محمد شفيق غربال (الدكتور) [إشراف].
(٢٨) الموسوعة العربية الميسرة، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة.
محمد عبدالله عنان (الدكتور).
(٢٩) فهارس الخزانة الملكية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ١٤٠٠هـ.
محمد فريد وجدي.
(٣٠) دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١م.
محمود الملاح.
(٣١) مجموع السنة، الجزء الأول، القاهرة.
مصطفى محمد مسعد (الدكتور).
(٣٢) الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
ناصيف نصار (الدكتور).
(٣٣) مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨م.
نقولا زيادة (الدكتور).
(٣٤) الجغرافية والرحلات عند العرب، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٢م.
(٣٥) الرحالة العرب، دار الهلال، بيروت ١٩٥٦م.
نور الدين حاطوم (الدكتور) وآخرون.
(٣٦) المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٣٨٤هـ.

ياسين إبراهيم الجعفري.
(٣٧) اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م.

(ب) مراجع أجنبية مترجمة إلى العربية:

أوليري، دي لاس.
(١) الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني الجديد ١٩٧٢م.

بامات، حيدر.
(٢) مجالي الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٦م.

بروكلمان، كارل.
(٣) تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. عبدالحليم النجار، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٩م.

حتي، فيليب.
(٤) تاريخ العرب، ترجمة محمد مبروك نافع، الطبعة الثالثة، دار العالم العربي، القاهرة، ١٩٥٢م.

خودا بخش، صلاح الدين.
(٥) حضارة الإسلام، ترجمة د. علي حسني الخربوطلي، دار الثقافة، بيروت ١٩٧١م.

دونلدسن، دوايت م.
(٦) عقيدة الشيعة، ترجمة عبدالمطلب الهاشمي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

روزنثال، فرانز.
(٧) علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى بغداد، ١٩٦٣م.

سزكين، فؤاد.
(٨) تاريخ التراث العربي، ترجمة د. محمود فهمي حجازي، ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.

سوفاجيه، جان.
(٩) رائد التراث العربي، اقتبسه د. صلاح الدين المنجد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٧م.

فازلييف، أ. أ.
(١٠) العرب والروم، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة، القاهرة.

كارَّادِفو، البارون.
(١١) مفكرو الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الأولى، الدار المتحدة، بيروت، ١٩٧٩م.
كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليا نوفتش.
(١٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
لوبون، غوستاف.
(١٣) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٦٩م.
متز، آدم.
(١٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ.
مرغوليوث، د. س.
(١٥) دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار، دار الثقافة، بيروت.
هازارد، هاري د.
(١٦) أطلس التاريخ الإسلامي، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
هوروفتس، يوسف.
(١٧) المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، الطبعة الأولى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ١٣٦٩هـ.

(ج) أبحاث ودراسات بالعربية أو مترجمة إليها:

برتلز، إ.
(١) مادة (رشيد الدين) ترجمة أحمد الشنتناوي، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد العاشر.
جواد علي (الدكتور).
(٢) موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد الثاني، بغداد ١٩٥٢م.
(٣) موارد تاريخ المسعودي، مجلة سومر، المجلد العشرون، العدد الأول والثاني، بغداد ١٩٦٤م.

سعد زغلول عبدالحميد (الدكتور).
(٤) ابن خلدون مؤرخاً، مجلة عالم الفكر تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، الكويت ١٩٨٣م.

علي حسني الخربوطلي (الدكتور).
(٥) الاتجاهات العالمية والإنسانية في فكر المسعودي، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض، العدد السابع، الرياض ١٤٠٣هـ.

علي محسن مال الله.
(٦) أدب الرحلات عند العرب في المشرق، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير إلى كلية الآداب في جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٣م.

فيدمان، إ.
(٧) مادة (الخوارزمي) ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد التاسع.

كارادفو، ب.
(٨) مادة (إنجيل) لم يذكر اسم مترجم هذه المادة، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد الثالث.

محمد كرد علي.
(٩) كنوز الأجداد ــ المسعودي، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الثاني والعشرون، الجزء التاسع والعاشر، دمشق ١٣٦٦هـ.

مصطفى محمد مسعد (الدكتور).
(١٠) البُجَة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، المجلد الحادي والعشرين، العدد الثاني ١٩٥٩م.

مايرهوف، م.
(١١) العلوم والطب عند العرب، فصل من كتاب تراث الإسلام، بإشراف سير توماس آرنولد، ترجمة جرجيس فتح الله، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨م.

نبيه عاقل (الدكتور).
(١٢) المسعودي المؤرخ العربي، مجلة العربي، المجلد الثامن، العدد الثامن والأربعون، الكويت ١٣٨٢هـ.

هادي حسين حمود.
(١٣) مؤلفات المسعودي، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الثالث، بغداد ١٣٩٩هـ.

(١٤) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير من جامعة بغداد ١٩٧٥م.

هوروفيتز، ج.
(١٥) مادة (توراة) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد السادس.

(د) أبحاث ودراسات بالانجليزية :

Ahmad S. M.,
1 — Al- Masudi Millenary Commemoration Volum,
Aligarh Muslim University India 1960.

Brockelmmann C.,
2 — Al-Masudi, The Encyclopedia of Islam,
Leiden and London 1936.

Khalidi T.,
3 — Islamic Historiography,
University of New York 1975.

Shboul A.,
4 — Al-Masudi and his world,
London 1979.

□ □ □